ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب

تاريخ العرب الأدبي

في الجاهلية وصدر الإسلام

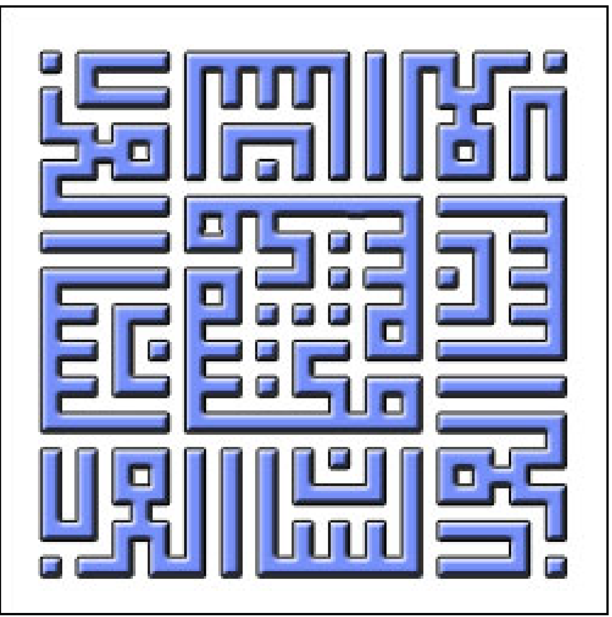
تأليف

البروفيسور رينولد نكلسن

ترجمة

الدكتور صفاء خلوصي

مطبعة المعارف ـ بغداد ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م



ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب

تاريخ العرب الأدبي
في الجاهلية وصدر الإسلام

تأليف
رينولد نكلسن
استاذ ودكتوراه في الآداب ، ودكتوراه في القانون
وزميل الاكاديمية البريطانية
واستاذ العربية لكرسي السر توماس آدامز
وزميل كلية ترنتي بجامعة كمبرج

ترجمة وتحقيق
الدكتور
صفاء خلوصي
الاستاذ بكلية التربية ـ جامعة بغداد

مطبعة المعارف ـ بغداد
١٩٦٩ م ـ ١٣٨٨ هـ

الطبعة الانكليزية الاولى (تي•فشر أَنْو نْ) سنة ١٩٠٧
اعيـدت كمـا هي بدون تغيـير سنة ١٩١٤ و ١٩٢٣
الطبعة الثانية (بمطبعة جامعة كمبرج) سنة ١٩٣٠

[الترجمة العربية عن الطبعة الثانية لسنة ١٩٣٠]

الإهداء

الى البروفيسور أ٠أ٠ بيفان

ذكرى امتنان لمواقف لطفٍ عديدة



الصورة الاستهلالية

خصمان امام القاضي

من مخطوطة عربية فى المتحف البريطاني تحت رقم :

(Or. 1200; No. 1007 in Rieu's Arabic Supplement)

المخطوطات الشرقية ١٢٠٠ رقم ١٠٠٧ فى مجموعة ريو الاضافية للمخطوطات العربية ، ويرجع تاريخها الى سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ م وتضم « مقامات الحريري » المزدانة باحدى وثمانين صورة مصغرة وملونة ؛ وتمثل الصورة أعلاه مشهداً فى المقامة الثامنة : ابا زيد وابنه امام قاضي معرة النعمان ؛ والشخص الواقف الى اليسار هو الحارث بن همّام الذى يقدمه الحريري راوية لمغامرات أبي زيد .

مقدمة المترجم

هـذا هو الجزء الاول مـن كتـاب «تاريخ العـرب الادبي »
" A Literary History of the Arabs "

ويضم الخمسة الفصول الاولى من النص الانكليزى اما الخمسة الفصول الاخيرة من الكتاب فقد سبق ان طبعت سنة ١٩٦٧ تحت عنوان « تاريخ الادب العباسي » وقـد حملنا عـلى التعجيل بطبع الجزء الثاني قبـل الأول ظروف خاصة منها قلة المصادر الجامعية الحديثة في الادب العباسي ومنها ان الجزء الثاني من الكتاب مجهول عن قراء العربية أكثر من الجزء الاول ذلك لأن الدكتور حسن حبشي سبق له أن ترجم الفصول الثـلاثة الاولى أي فترة ما قبل الاسلام ونشرها في مجلة الرسالة للمرحوم الاستاذ احمـد حسن الزيات (في الاعداد ١٧٣–١٩٧ ومن ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٣٦ الى ١٢ أبريل سنة ١٩٣٧) ومهما كانت قيمة ترجمة الدكتور حسن حبشي فقد آثرنا اعادة ترجمة الفصول التي قام بترجمتها لتتوفر لدى القارىء ترجمتان بدل ترجمة واحدة .

ومع اننا لا نتبنى أفكار البروفيسور نكلسن فقد آثرنا عدم التلاعب بالاصل حفاظاً منا على الامانة العلمية وقد غير الرجل في أيامه الاخيرة كثيراً من أفكاره فيما يتعلق بمحمد (ص) والاسلام الا انه لم يجد متسعاً من الوقت لتغيير هذا الفصل الذى كان ينبغي أن يكتب من جديد .

ويلاحظ القارىء ان القسم الخاص « بالادب الاموي » ضئيل ، ذلك لان المؤلف لا يؤمن بوجود « أدب أموي » فالادب العربي في نظره أدبان : جاهلي وعباسي ، اما الاموي فهو امتداد للادب الجاهلي ، وأقل منه شأناً بل انه لا يعتبره في بعض المواقف ادباً بالقياس الى الادب العباسي ، لأن الادب في نظره يشمل الشعر بضروبه والنثر بالوانه المختلفة بما في ذلك الترجمة

والبحوث العلمية ، وليس ثمة شيء من ذلك في الادب الاموي الذي اقتصر على الغزل والفخر والحماسة وشعر النقائض .

واياً كان الامر فقد جاء نكلسن بفكرة جديدة حرية بالدراسة والنقد .

وقد كتب هذا الكتاب في الاصل للاوربيين ومن وجهة نظر اوربية فمن الممتع ان نرى كيف يرى الاوربيون ادبنا في مختلف عصوره وماذا يجب ان نفعل لتغيير وجهة النظر هذه حيثما وجدناها بعيدة عن الصواب .

قد يكون الكتاب مقتضباً في بعض المواضع ولكنه لا يخلو من عمق في كثير منها .

وقد مزج المؤلف بين التاريخ والادب والثقافة وهذا هو مفهوم الاوربيين « لتاريخ الادب » وهو يختلف عن مفهومنا له « فتاريخ الادب » عندنا ليس تاريخاً للفكر بمدلوله الواسع وانما هو سرد تراجم وعرض اشعار ونقد بمعزل عن اطار الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولكل من الطريقتين محامدها ونواقصها ، والافضل عندي الاخذ من كل منهما بجوهره وعدم التقيد الضيق بأطار معين شرقياً كان أو غربياً .

توطئـة

ان « تاريخ العرب الأدبي » الذي نشرته شركة تي• فشر أَنْوِنْ سنة ١٩٠٧ وأعيد طبعه مرتين دون تغيير يظهر الآن تحت رعاية جديدة فأود أن أشكر وكلاء مطبعة جامعة كمبرج لاتاحتهم اياي فرصة جعله من بعض الوجوه اكثر دقة وفائدة مما كان عليه ؛ ولما كانت الطبعة الحالية قد نقلت عن الصفائح الاصلية المحفورة فليس ثمة وسيلة لتنقيح الكتاب برمته واعادة ترتيبه حيثما اقتضت الضرورة ، وبما ان عدد الصفحات التي اعيد كتابتهـا قليل فان ثبت المصادر قد كتب مجدداً ، ولقد صححتُ عدة أخطـاء مـن النص ، ووضعتُ ملحقاً باخطاء اخرى ذلك الملحق الذي يضم قدراً مـن المعلومات الاضافية ، وكما بينت فى مقدمة الطبعة الاولى كنت آمل : « تأليف كتابٍ يكون مدخلاً عاماً للموضوع على ان لا يكون سطحياً بالنسبة للطلاب ولا علمياً عميقاً بالنسبة للقراء الاعتياديين ؛ فقد كان غرضي الرئيس ان أضع الخطوط العريضة لتفكير العرب وابين قدر الامكان العوامل التي كيّفته ••• وقد اقنعتني التجربة بان طلاب العربية الناشئين الذين وضع هذا الكتاب لهم فى الدرجة الاولى يجدون فى الغالب صعوبة فى تفهم ما يقرؤن لانهم ليسوا على تماس مع الأفكار السياسية والثقافية والدينية المقدمة اليهم ، اذ تكاد صفحات كل كتاب عربي تكون مفعمـةً باشـارات الى أسـماء وحوادث وحركاتٍ وافكارٍ لا يحتاج المسلمون الى ايضاحها ولكنها تُحيّر القارىء الغربي الا اذا كانت لديه معلومات عامة عن التاريخ العربي بأوسع معانيـه ولا أعتقد بوجود مثل هذا العرض الواسع فى أي كتاب اوربي على انفراد ، فاذا كان ما عملته يسد هذه الحاجة ، ولو جزئياً ، وبشكل غير كامل ، فسأشعر بان عملي قد كوفيء تمام المكافأة ••• أما فيما يتعلق باختيـار الموضوعات فانا على اتفاق تام مع مؤلف كتاب مختاراتٍ مشهور يقول :

(اختيار الكلام أصعب من تأليفه) ولعل كاتب الملخصات معذور لعدم ايفائه بجميع النواحي على حد سواء ؛ اما انا فالجانب الادبي يستهويني أكثر من الجانب التاريخي وقد تقصيت رغبتي بلا تردد فلكي يُمتع الكاتب غيره عليه ان يُمتع نفسه أولاً ... واذا ما أخذنا أهمية الشعر العربي بنظر الاعتبار مرآةً صادقة للحياة العربية فى المقام الاول فلا أظنني مسرفاً فى القدر الذي خصصته له ولم يكن بالامكان ايلاء مثل هذا الاهتمام فروع الادب الاخرى ، فقد اكتفينا باسطر قليلة فى الحديث عن الكثير من مشاهير الكتاب واهملنا ذكر العديد من الاسماء المشهورة بيد أن هذا الكتاب ، كما أسلفنا ، هو تخطيط لافكار فى محيطها التاريخي أكثر منه سجلاً للمؤلفين والكتب والتواريخ ؛ وضبط الالفاظ العربية بحروف افرنجيّة ، وان كان أمراً غير ذى بال للعلماء والاشخاص الذين يجهلون اللغة تمام الجهل ، فهو لا يكاد يُستغنى عنه بالنسبة لطبقة القراء الذين افكر فيهم بصورة خاصة ؛ والنظام الذي اتبعته فى هذا الصدد هو النظام الذي نصحت بالاخذ به الجمعية الآسيوية الملكية والذى اتبعه الاستاذ بروان فى كتابه : « تاريخ الفرس الادبي » غير انني اعبر بالحرف Z عما يعبر عنه بالحرفين dh ، ومع ان لام التعريف كثيراً ما حذفت فى بداية الاسماء فقد ثبتت فى فهرست الاعلام وقد نكفي القارىء شيئاً من العناء اذا ما ذكرنا له ان رموز الاختصار هي كما يلي : b. تعني « ابن » J.R.A.S. تعني « مجلة الجمعية الآسيوية الملكية » Z.D.M.G. « مجلة جمعية المستشرقين الالمان » S.B.W.A. « محاضر جلسات اكاديمية فينا »(1)، واخيراً يجدر بي أن أعترف اعترافاً كاملاً بما انا مدين به الى علماء الاستشراق الذين درست كتبهم و « عكستها » بحرية فى هذه الصفحات ، ولم يمكن الاشارة اليها فى جميع الاحوال ولكن

---

(1) Sitzungsberichts der Wiener Akademie.

القاريء سيري بنفسه كم قد أخذت من فون كريمر وگولدتزيهر ونولدكه وڤيلهاوزن ؛ وقد ذكرت هذا العدد القليل من العلماء الاعلام على سبيل التمثيل لا الحصر وراجعت باستمرار في الوقت ذاته المظان والمصادر العربية •

بقي علي الآن اعتراف ذو طابع شخصي فقد كتبت قبل اثنين وعشرين عاماً ما يلي : « اقدم أعمق شكري الى صديقي وزميلي الاستاذ أ•أ• بيڤان الذي قرأ المسودات الطباعية كلها وأبدى عدداً من الملاحظات القيمة المبينة في الهوامش » ، ومن حسن الحظ ان المناسبة الحاضرة تسمح لي بتجديد هذه الرابطة بيننا ؛ والكتاب الذي اعان على تقديمه الى العالم يحتفل ببلوغه سن الرشد باقترانه باسمه الكريم(١) •

١ تشرين الثاني/١٩٢٩

رينولد آ • نكلسن

---

(١) ان ثبت المصادر الذى أشار اليه نكلسن فى مستهل كلامه مدرج فى نهاية الجزء الثانى من الكتاب ، وهو الذى وسمناه ب « تاريخ الادب العباسي » ص ٣٠١ ـ ٣١٥ فليُراجع هناك •

« المترجم »

المدخــل

السامیون :

ينتسب العرب الى مجموعة الشعوب العظيمة التي تعرف عادة باسم الشعوب السامية باعتبار انحدارها المظنون من سام بن نوح ويشمل هـذا التعبير البابليين والآشوريين والعبرانيين والفينيقيين والآراميين والاحبـــاش والسبئيين والعرب ، ومع انه قائم على تصنيف غير مضبوط في علم السلالات- فالفينيقيون والسبئيون مثلاً قد اعتبروا في سفر التكوين ، الفصل العاشر ، من الشعوب المنحدرة من حام ـ فقد أحسن آيخهورن (المتوفى سنة ١٨٢٧م) في اختياره هذا لتفهم الشعوب المذكورة المترابطة مع بعضها البعض بشكل وثيق ؛ وسواء أكان الموطن الاصلي للجنس السامي غير المجزأ بعض نواحي آسيا (بلاد العــــرب أو أرمينيا أو منطقــة الفرات السفلى) او ما اذا كان الساميون قد عبروا الى آسيا من افريقيا[١] حسب وجهة نظر لقيت قبولاً مؤخراً،كل ذلك لا يزال غير مؤكد؛ وقد تفرعوا من الشجرة الام قبل ظهورهم على مسرح التاريخ لاول مرة بوقت طويل ، وكونوا قوميات متفرقة ، ولا يمكننا أن نبحث هنــا في علاقة اللغات الساميّة ببعضها البعض ، بل يمكننــا ترتيبها ترتيباً تاريخياً حسب ما بلغنا من آدابها[٢] :ـ

---

(١) راجع هـ ٠ گريم H. Grimme تاريخ العــالم فى صــور الشخصيات : محمد (ميونخ ١٩٠٤) ص ٦ وما بعدها
Weltgeschichte in Karakter Bildern

(٢) راجع نولدكه: اللغات السامية Die Semitischen Sprachen (لايبزگ ١٨٩٩) أو مقــالة نفس المؤلف « اللغــات السامية » فى المعلمة البريطانية ، الطبعة الحادية عشرة ٠ اما كتاب رينان : تاريخ عام للغات السامية Histoire Generale des Langues Semitiques (١٨٥٥) فهو الآن أثرى ، وقد نشر ف٠ هومل F. Hommel مقالة ممتعة عن اهمية

١ ـ البابلية أو الآشورية (٣٠٠٠ـ٥٠٠ ق٠م٠)
٢ ـ العبرية (من ١٥٠٠ ق٠م) ٠
٣ ـ العربية الجنوبية او ما يعرف بالسبئية او الحميرية (كتابات منقوشة من ٨٠٠ ق٠م) ٠
٤ ـ الآرامية (كتابات منقوشة من ٨٠٠ ق٠م٠)
٥ ـ الفينيقية (كتابات منقوشة من ٧٠٠ ق٠م٠)
٦ ـ الايثيوبية « الحبشية » (كتابات منقوشة من ٣٥٠ م) ٠
٧ ـ العربية (من ٥٠٠ م)(٣) ٠

العرب ممثلين للجنس السامي :

بالرغم من ان اللغة العربية بهذه الصورة هي أحدث اللغات السامية في معنى معين فالمعترف به بصورة عامة انها أقرب من غيرها الى اللغة الاولى الاصلية « اللغة السامية الام » Ursemitisch التي اشتقت منها جميعاً على نحو ما نجـد العرب أنفسهم ، بسبب موقعهم الجغرافي والاتساق الرتيب لحياة الصحراء ، فقد بقوا محتفظين من بعض النـواحي بالمظهـر السامي بشكل أكثر نقاءً واظهروه بصورة اوضح من أي شعب من شعوب هـذه الاسرة ٠ ومنذ فترة الفتوحات الاسلامية العظيمة (٨١ هـ/٧٠٠ م) والى يومنا الحاضر اتسع نطاق لغتهم ، ودينهم وثقافتهم على رقعة من الارض فسـيحة تجاوزت سعة الامبراطوريات السامية القديمة مجتمعةً بمدى بعيد ٠ صحيح

السامين فى تاريخ الحضارة مقدمةً لكتابه : (الشعوب السامية ولغاتها) Semitischen Volker und Sprachen الجـزء الاول (لايبزگ ، ١٨٨٣) اما التواريخ المبينة أعلاه فهى بطبيعة الحال تقريبية ٠

(٣) نشك فى هذا التاريخ كثيراً لان الادب الجاهلي كان يومذاك فى عنفوانه ٠ « المترجم »

أن العرب لم يعودوا على ما كانوا عليه فى القرون الوسطى ، الشعب الذي يحكم العالم ولكن فقدانهم لسلطتهم الزمنية شدّ من أزر سلطانهم الروحاني فلا يزال للاسلام القِدْحُ المعلى فى غربيّ آسيا وقد سار قُدُماً فى أفريقيا ، وحتى فى القارة الاوربية وجد فى تركيا عوضاً عن خروجه من اسبانيا وصقليا ؛ وعلى حين ان معظم الشعوب السامية قد تلاشى دون أن يترك أكثر من سجل ضئيل غامض بحيث لا يمكننا ان نؤمل معرفتها بصورة وثيقة فان لدينا فيما يتعلق بالعرب مواد اضافية لدراسة كل مرحلة من مراحل تطورهم تقريباً منذ القرن السادس للميلاد ، ولتدوين تاريخ حياتهم القومية وتفكيرهم برمته ؛ ولا حاجة بنا ان نقول ان هذا الكتاب لا يرمي الى القيام بمثل هذه المحاولة ، حتى ولو كان المجال الذى بوسعنا غير محدد ، فلابد من مضي زمن طويل قبل ان يمكن ارتياد حقول الادب العربي الواسعة ، المتباينة ارتيادا كاملا يجعل النتائج فى متناول المؤرخ بيسر .

عرب الشمال والجنوب :

العرب منقسمون منذ الاجيال السحيقة فى القدم الى عرب شمال وعرب جنوب لا بالربع الخالي الذى يمتد عبر شبه الجزيرة ويكون حاجزا طبيعيا يحول دون الاتصال فحسب بل بتباين جنسين وان كانا من اصل واحد فهما يختلفان اشد الاختلاف فى طبيعتهما واسلوب معيشتهما ، فبينا نجد سكان المنطقة الشمالية (الحجاز والهضبة العظيمة الوسطى نجد) بدواً حفاة يعيشون فى « بيوت من الشعر » ويتنقلون على الدوام من مكان لآخر بحثاً عن مراعٍ لابلهم نجد سكان اليمن او بلاد العرب السعيدة يذكرون لأول مرة فى التاريخ ورثةً لحضارة قديمة واصحاب ثروة خيالية ـ التوابل ، والذهب والاحجار الكريمة ـ تلك التي اسهمت فى بذخ الملك

سليمان.[٤] كانت لغة بدو الشمال العربية ـ اى لغة أشعار الجاهلية والقرآن ـ على حين ان الجنوبيين اصطنعوا لهجة عرفت عند المسلمين بالحميرية وكتابة غريبة اكتشفت منها الامثلة المعروفة عندنا وحُلَّت فى فترة حديثة نسبيا . وسنذكر بعد قليل المزيد عن هؤلاء « السبئيين » اذا ما شئنا ان نصطنع التسمية التي أضفاها عليهم جغرافيو اليونان والرومان . لقد كانت فترة ازدهارهم مشرفة على نهايتها فى القرون المبكرة للتاريخ الميلادى واختفوا من التاريخ قبل سنة ٦٠٠ م عندما بدأ شان اخوانهم الشماليين يعظم لأول مرة .

الاسماعيليون واليقطانيون :

ليس من شك فى ان الشعور بهذا التميز العِرقي هو الذى أشاع بين النسّابة المسلمين فكرة ان العرب ينحدرون من سلالتين مختلفتين تتصل بجد مشترك هو سام بن نوح والمعترف به عموماً هو ان الشماليين يرجعون بنسبهم الى عدنان سليل اسماعيل ، اما الجنوبيون فيرجع اصلهم الى قحطان الذى يتبينه معظم النسابين كيُقطان بن عابر ، وتحت اسم اليقطانيين الذين يؤلفون السلالة الاكثر قدما نجد الى جنب السبئيين والحميريين ، عدة قبائل كبيرة وقوية ـ كطي وكندة وتنوخ ـ استقرت فى شمال بلاد العرب ووسطها قبل الاسلام بزمن طويل ولم يمكن تمييزهم بأي صورة من البدو الذين يرجع اصلهم الى اسماعيل . اما عدنان فنسبه المضبوط موضع نقاش ولكن الجميع متفقون على انه من ذرية اسماعيل بن ابراهيم من زوجته

---

(٤) على رأى الاستاذ فاردس فيشر فى كتابه : « وادى الاحلام » ترجمة الاستاذ فريد لقمان (مطبعة الحرية ، بغداد ، ١٩٦٨) ص ٤٢٦ : « ان المؤلفين اليهود الذين جاءوا فيما بعد لم يبالغوا مبالغة شنيعة في ثروته وحكمته وحسب ، بل بالغوا ايضا فى كل ما له صلة به » .

« المترجم »

هاجر فالقصة التي تحكى هي ان الله سبحانه وتعالى أمر ابراهيم (ع) عند مولد اسماعيل (ع) بالرحيل الى مكة مع هاجر وابنها وتركهما هناك وقد رآهما بعض الجرهميين من ذرية يُقطان الذين اشفقوا عليهما وقرروا السكنى الى جوارهما فنشأ اسماعيل مع ابناء الغرباء وتعلم استعمال القوس والتحدث بلسانهم ، ثم خطب اليهم بعض بناتهم فزوجوه منها(٥) والجدول المبين في ادناه يرينا الفروع الاساسية للاسرة العربية الاكثر حداثة والاكثر اهمية تلك التي ترجع بسلالتها الى اسماعيل عن طريق عدنان وفيه تبين الخطوط المنقوطة حذف حلقة أو أكثر من سلسلة النسب(٦) .

---

(٥) ابن قتيبة : كتاب المعارف ، طبعة وستنفيلد ، ص ١٨ [وص ٣٤ (طبعة دار الكتب ، ١٩٦٠) وقد جاء في النص الاصلي : « وامر الله ابراهيم بالمسير الى مكة باسماعيل وامه واخبره انه قد بوأه البيت الحرام ، وانه يقضي على يديه عمارته وينبط لاسماعيل سقايته ، فسار به وبامه وتركهما هناك ؛ وجاءت رفقة من جرهم فنزلوا شعاب مكة ، وأعطوا اسماعيل سبعة أعنز ، فكانت اصل ماله • فنشأ اسماعيل مع اولادهم وتعلم الرمي ، ونطق بلسانهم ، ثمخطب اليهم فزوجوه امرأة منهم »] •

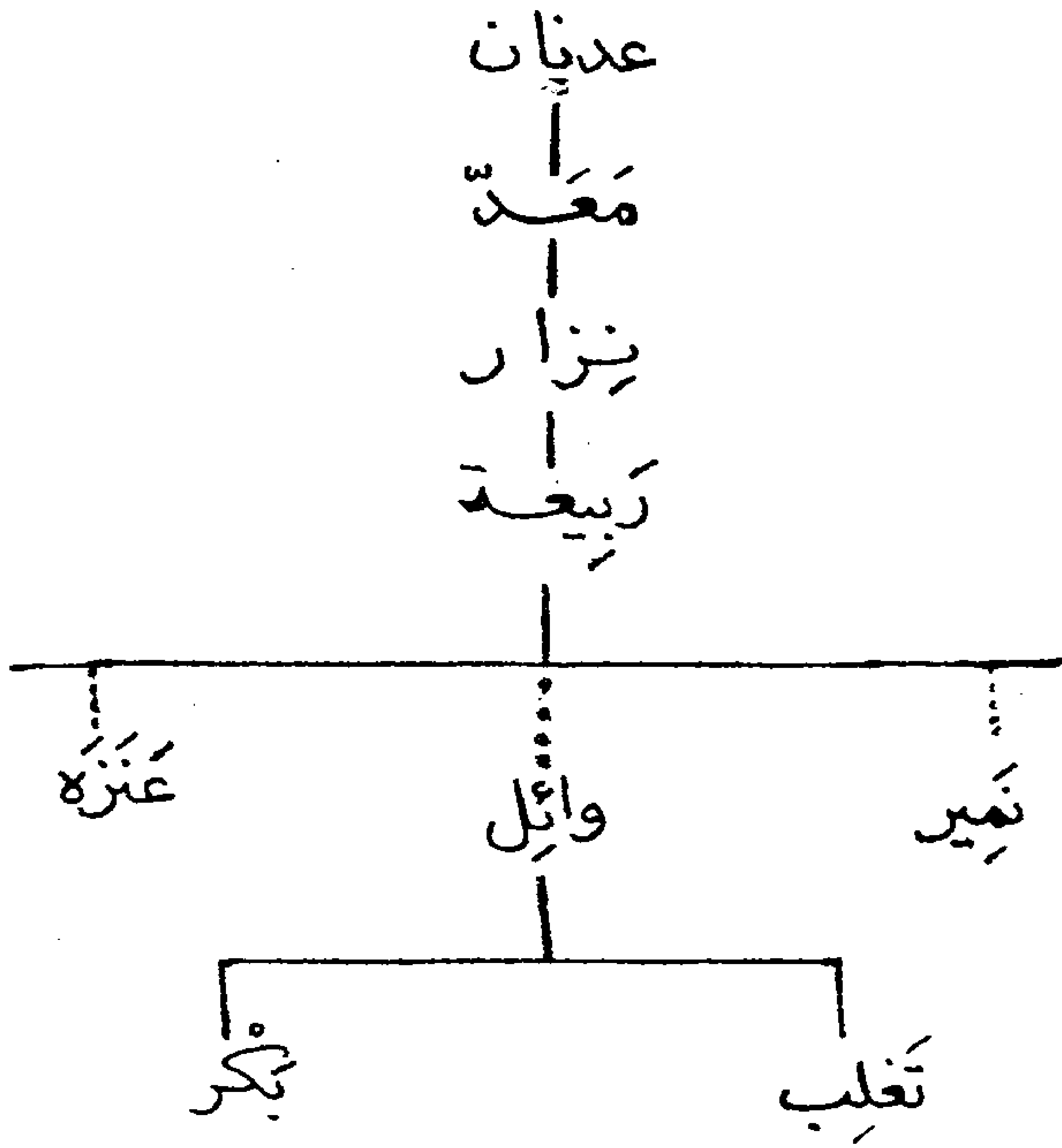
[وجاء في « تاريخ الطبري » طبعة دي غويه ، جـ١ (السلسلة الاولى) ص ٣٤٧ ، مايلي :

« وولد لابراهيم (عم) اسماعيل وهو اكبر ولده وامه هاجر وهي قبطية واسحق وهو ضرير البصر وامه ساره » وفي ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ : « لما أُمر ابراهيم ببناء البيت خرج معه اسماعيل وهاجر ، فلما قدم مكة رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس فكلمه قال يا ابراهيم ابن على ظلي او على قدري ولا تزد ولا تنقص ، فلما بنى خرج وخلف اسماعيل وهاجر فقالت هاجر : يا ابراهيم ، الى من تكلنا ؟ قال : الى الله ؛ قالت : انطلق فانه لا يضيعنا »] • « المترجم »

(٦) يجد الباحث معلومات كاملة فيما يتعلق بانساب العرب في كتاب وستنفيلد الموسوم بـ « جداول انساب القبائل والاسر العربية » Genealogische Tabellen der Arabischen Stamme und Familien مع مدونات ممتازة (غوتنگن ١٨٥٢ ــ ١٨٥٣) •

[١]

المنحدرون من ربيعة



[٢]

المنحدرون من مُضَر

عدنان

مَعَدّ

نِزار

مُضَر

هُذَيل

خُزَيمة

كِنانة

أَسَد

فِهْر (قُرَيش)

تميم

ضَبّة

خِندِف

قَيْس عَيْلان

هَوازِن

سُلَيم

غَطَفان

ذُبيان

عَبْس

تؤلف قبائل ضبة وتميم وخزيمة وهذيل واسد وكنانة وقريش مجموعة تعرف بخندف

طابع علم الانساب الاسلامي :

لا إنكار في أن هذه السلالات هي إلى حد ما أسطورية فلم يكن في الجاهلية علم للانساب ولم يكن لدى الباحثين غير مصادر تقليدية مضطربة وضئيلة يركنون اليها وكانت الى ذلك متحيزة سياسيا ودينيا ولاعتبارات اخرى[٧] ، فدراستهم القرآن وتاريخ « الكتاب المقدس » افضى الى ادخال الاسلاف المقدسين الذين يقفون على رأس قوائمهم • ولا يمكننا ان نتقبل النسب القومي المستهل بعدنان نسبا تاريخيا تماما ولو ان قدراً كبيراً منه كان بالفعل مختزناً في ذاكرة العرب عند قيام الاسلام ومؤكداً بشهادة شعراء الجاهلية[٨] ؛ ومن جهة اخرى فان الانحدار المزعوم لكل قبيلة من جد ذي لقب تاريخي غير منسجم مع حقائق أثبتها الاستقصاء والتتبع المعاصران[٩] ومن المحتمل ان الكثير من الاسماء يمثل مجرد اتحاد محلي او اعتباطي ، والاكثر من نحو معدّ يبدو انه كان في الاصل يدل على مجموعات او احلاف من العشائر ضخمة ؛ ونظرية وجود اختلاف جذري بين عرب الشمال وعرب الجنوب متماثلا مع العداء الضاري الذي فرّق بينهما دوما منذ أيام الاسلام الاولى[١٠] ، قد تكون صحيحة فيما اذا اقتصرنا بلفظة « يماني » (جنوبي) على المتحضرين من السبئيين والحميريين الخ ••• الذين استوطنوا اليمن وتكلموا بلهجتهم الخاصة ، ولكن يصعب اطلاقها على

= وكثيراً ما تُميَّز عن قيس عيلان •

(٧) گولدتزيهر : دراسات اسلامية Muhammadanische Studien الجزء الاول ، ص ١٣٣ وما بعدها و ١٧٧ وما بعدها •

(٨) نولدكه في مجلة جمعية المستشرقين الالمان Z.D.M.G المجلد ٤٠ ، ص ١٧٧ •

(٩) راجع مارغوليوث : « محمد وقيام الاسلام » ، ص ٤ •

(١٠) فيما يتعلق بطبيعة هذه الخصومة وأسبابها يراجع گولدتزيهر، سبق ذكره ، القسم الاول ، ص ٧٨ وما يليها من صفحات •

البدو من اليمانيين الناطقين باللغة العربية المنتشرين فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة • على ان مثل هذا النقد لا يؤثر على قيمة مستندات الانساب التي تعتبر موجهاً للعقلية العامة ، فالاساطير من وجهة النظر هذه هي في الغالب اكثر تفوقا من الحقائق ، فيجب أن يكون هدفنا فى الفصول القادمة ان نعرض ما كان يعتقده العرب لا أن نمحص ما اذا كانوا محقين فى اعتقادهم هـذا •

« للعربية » فى اوسع مدلولاتها لهجتان رئيستان :

١ ـ العربية الجنوبية التي يتكلم بها اليمانيون ويدخل ضمنها السبئية والحميرية والمينائية ولهجتا مهرا وشمر المقاربتان لها •

٢ ـ العربية الاصلية الشائعة فى بلاد العرب عامة باستثناء اليمن •

العربية الجنوبية :

لا نملك من الاولى ، باستثناء المَهريَّة والسوكوترية واللهجات الحية الاخرى اى شيء خارج نطاق مجموعة كتابات جمعها الرحالة الاوربيون ومن الملائم أن نبحثها فى الفصل القادم حيث سنقدم مخططا موجزاً للتاريخ الاسطوري الخاص بالسبئين والحميريين ؛ والعربية الجنوبية تشبه العربية الشمالية بأشكالها اللغوية ، من نحو جموع االتكسير وعلامة التثنية وطريقة بيان صورة النكرة باضافة «م» في نهاية الكلمة (في حين ان العربية قد اصطنعت التنوين) بالاضافة الىالمفردات اللغوية ؛ أما أبجديتها المؤلفة من تسعة وعشرين حرفا ، مع تمييز حرف السين والصاد كما فى العبرية ، فأقرب الى الحبشية • وقد انهارت الامبراطورية الحميرية على يد الاحباش فى القرن السادس للميلاد وفى نحو سنة ٦٠٠م أصبحت العربية الجنوبية لغة ميتة ومنذ ذلك الحين أظهرت لهجة الشمال تفوقاً يكاد يكون عاما وأحرزت لنفسها اسم « اللغة العربية » بلا منازع(١١) •

---

(١١) ويجب أن تفهم لفظة « العربية » بهذا المعنى دائما حيثما اتفق وجودها فى الصفحات القادمة •

أقدم النماذج للكتابة العربية :

أقدم النماذج الخالدة للكتابة العربية حديثة اذا ما قورنت بالمدونات السبئية فبعضها يرجع بنا الى ما قبل ٢٥٠٠ سنة أو نحو ذلك ؛ وبصرف النظر عما وجد من الكتابات فى « حِجْر » فى شمال الحجاز ، وفي « صفا » في ضواحي دمشق (ولو أن عرب الشمال هم الذين دونوها قبل مولد السيد المسيح ولها طابع غريب لا يختلف عن طابع السبئية ولا يمكن تسميتها بالعربية بالمعنى المعتاد) ، فان أقدم الامثلة للكتابة العربية التي اكتشفت حتى الآن تظهر في المدونة الثلاثية (السريانية ـ اليونانية ـ العربية) ، مدونة زَبَد[١٢] ، جنوب شرقي حلب ، المؤرخة فى سنة ٥١٢ أو ٥١٣ للميلاد[١٣] ومدونة حرّان[١٤] الثنائية (اليونانية ـ العربية) المؤرخة في

---

(١٢) وقد نشرها لاول مرة ساخاو فى : المجلة الشهرية لمدونات الاكاديمية البروسية الملكية فى برلين (شباط ١٨٨١) ص ١٦٩ وما بعدها من صفحات

Monats Berichte der Kon. Preuss. Akad. der Wissenschaften zu Berlin.

(١٣) وتبدأ العربية بالظهور فى الكتابات العربية الشمالية فى القرن الثالث للميلاد ولعل أقدم ما اكتشف حتى الآن هو ما يحتمل أن يكون تاريخه ٢٦٨ للميلاد وقام بنشره جاوسن Jaussen وسافينياك Savignac (البعثة الآثارية فى البلاد العربية .

Mission
Archéologique en L'arabie

ج ١ ص ١٧٢) ومع انه كتب بحروف آرامية فان معظم الالفاظ عربي كما يرى ـ مما نقله البروفيسور هوروفيتز بالحروف الافرنجية فى مجلة الثقافة الاسلامية Islamic Culture (حيدر آباد ، ديكان) نيسان ١٩٢٩ المجلد : ٣ العدد : ٢ ص ١٦٩ الهامش : ٢ [من فصل الهوامش الاضافية فى نهاية الكتاب] .

(١٤) راجع دي فوگيه : سوريا الوسطى : كتابات سامية ص ١١٧
De Vogüé:
Syrie Centrale, Inscriptions Sémitiques

٥٦٨م ولا حاجة بنا أن نشغل أنفسنا بهذه المستندات أكثر من هذا ولا سيما ان في تفسيرها صعوبات جمة وقليلون جدا هم الجاهليون الذين كانوا يحسنون القراءة والكتابة[١٥] وكان الذين يحسنونهما مدينين بذلك عموماً الى معلمين من اليهود والنصارى أو الى تأثير الثقافة الاجنبية المشعّة من الحيرة وغسان ؛ ومع ان القرآن وقد جمع لاول مرة عقيب معركة اليمامة (١٢هـ/٦٣٣م) هو أقدم كتاب عربي فان بداية التأليف الادبي في اللغة العربية يمكن أن تستقصى الى فترة أقدم ، ولعل أشعار الجاهلية كافة تلك التي وصلت الينا ترجع الى القرن الذي سبق الاسلام (٥٠٠-٦٢٢م) غير أن تركيبها المحكم وكمالها الفني يحولان دون الفرضية القائلة ان البداية المرحة الاولى للغناء العربي تكمن فيها ، ويمكن القول عن هذه القصائد الفخمة الرائعة ، على نحو ما يقال عن الالياذة والأوديسّي ، إنها « أعمال ذات مستوى فني رفيع ما كان بالامكان انتاجها حتى يكون قد مضى على ممارسة الفن الشعري وقت طويل » وقد حفظت خلال مئات السنين بالرواية الشفهية كما سنين في مكان آخر ، ودون معظمها علماء مسلمون في العصر العباسي الاول (١٣٢هـ/٧٥٠م-٢٨٨هـ/٩٠٠م) ومما يجدر ملاحظته ان لغة هذه القصائد واحدة لا تختلف ، رغم ان ناظميها يمثلون عدة قبائل ومناطق مختلفة من شبه الجزيرة فتباين اللهجات اتفه من أن يقام له وزن ؛ وبوسعنا أن نستنتج ان الشعراء اصطنعوا لهجة ليست كتلك التي كانوا يتحدثون بها بصورة عامة ولكنها تماثل اللهجة القصصية « لايونيا » Ionia

---

اما المصادر الاخرى ففي مجلة المستشرقين الالمان Z.D.M.G. المجلد : ٣٥ ص ٧٤٩ .

(١٥) بوسع القارىء ان يراجع في هذا الموضوع گولدتزيهر: دراسات اسلامية ، القسم الاول ، ص ١١٠ وما بعدها من صفحات .

اللهجة التى استعارها شعراء دوريان وايوليان الغنائيون[16] ؛ على اننا حين نجد ان اللغة موضوعة البحث لم يصطنعها الشعراء المتجولون (المطـربون Troubadours) اولئك الذين كانوا في الغالب على جانب من الثقافة ، والعرب المسيحيون في الحيرة على نهر الفرات فحسب بل اصطنعها كذلك رعاة الماعز وقطاع الطرق والبدو الآسيون من كل صنف فلن يبقى اذ ذاك مجال للشك في اننا نسمع في شعر القرن السادس (القرن الأول قبل الهجرة) اللغة العربية كما كان يُتحدث بها في طول البلاد العربية وعرضها ، ولقد منح نجاح محمد (ص) والفتوحات الاسلامية أيام الخلفاء الراشدين هـــذه اللغة الكلاسيكية[17] خطورة جديدة تماما فقد أصبحت اللغة العربيـــة اللغة المقدسة للعالم الاسلامي بأسره .

القرآن : وكان القرآن سبب ذلك بالتأكيد ولكن من الناحية الثانية فان اعتداد لهجة مكة التى نزل بها القرآن مصدرا ومنبعا للغة العربية وتسمية اللغة العربية « بلهجة قريش » هو عكس" للحقائق الاصلية للقضيـــة تمامـــاً فمحمد (ص) قد اعتد ، كما لاحظ نولدكه ، الشعـــر الجاهلي نموذجـــا يحتذى[18] وقدكان سلطان الشعراء الجاهليين (ولقريش فيهم عدد ضئيل بشكل ملحوظ) فى صدر الاسلام هو الذى قرر الاستعمال الكلاسيكي للغة وعيّن مستوى الكلام الصحيح ؛ والمسلمون الذين تمسكوا بأن القرآن كلام الله الذى لا يمكن محاكاة اسلوبه ، أعلوا بطبيعة الحال من شأن لهجة

---

(١٦) ترجم الدكتور حسن حبشي هذا الجزء من « المدخل » فى مجلة الرسالة العدد ١٧٣ السنة الرابعة (٢٦ اكتوبر ١٩٣٦) ص ١٧٤٣ – ١٧٤٥ولكننا آثرنا اعادة ترجمته باسلوب آخر لتتوفر لدى القارىء ترجمتان بدل ترجمة واحدة .

(١٧) تقول كلاسية بالنسبة لـ Class وكلاسيكية بالنسبة لـ Classicus (وهى الطبقة الممتازة فى المجتمع الرومانى) وكلتا النسبتين صحيحة .

(١٨) هذا كلام تعوزه الدقة العلمية ولا نوافق نولدكه عليه . [المترجم]

قبيلة النبي (ص) على غيرها ، حتى انهم وضعوا القاعدة القائلة إن كل قبيلة تتكلم بفصاحة أقل من قريش بنسبة بعدها عن مكة ، غير ان هذا الرأي لن يرضي الباحث غير المتحيّز ؛ على ان القرآن أثر تأثيراً فريدا في تاريخ اللغة العربية وآدابها وسنرى في فصل تالٍ ان ضرورة الحفاظ على نص الكتاب المقدس سليماً وايضاح غوامضه حمل المسلمين على اختراع علم للقواعد والمعجمات وجمع الشعر الجاهلي القديم وتراثه ولولا ذلك لضاع كله ؛ وعندما استقر العرب كفاتحين في الشام وايران واختلطوا بالاعاجم لم يعد « الحفاظ على نقاء اللغة الفصيحة ، (الكلاسيكية) ممكنا ؛ وعلى حين انه ظهر قليل من الاختلاف في بلاد العرب ذاتها ، لا سيما بين بدو الصحراء، فان الباب بقي مفتوحا لولوج مختلف الانحرافات فى المدن التى تطورت عن مقرات عسكرية اقليمية ، وفي المراكز الصناعية العظيمة كالبصرة والكوفة ، حيث كان السكان يتألفون الى حد بعيد من الاعاجم الذين اعتنقوا الاسلام وشرعوا يستعربون بسرعة .

اللغة العربية فى الامبراطوية الاسلامية :

وشنّ اللغويون حربا لا هوادة فيها على العربية غير الفصيحة وكان عن طريق جهودهم بالدرجة الاولى ان انتصرت اللغة الفصيحة [الكلاسيكية] على الاخطار التي تعرضت لها ؛ ومع ان لغة البدو الجاهليين لم تبق سليمة ـ أو انها بقيت ، على كل حال ، في أفواه المتحذلقين والشعراء فحسب ـ فقد غدت بشكل محوّر الوسيلة العامة الشائعة للتعبير بين الطبقات العليا للمجتمع الاسلامي ، وكانت في أوائل القرون الوسطى لغة الكلام والكتابة لجميع المسلمين المثقفين على اختلاف قومياتهم من الهند الى المحيط الاطلسي ؛ فقد كانت لغة الدين والدولة ، لغة القانون والتجارة ، لغة الدبلوماسية والادب والعلم ؛ وعندما اكتسح الغزو المغولي الخلافة العباسية في القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد ، واكتسح معها آخر أثر للوحدة السياسية

الاسلامية ، لم يعد بالامكان تسمية اللغة العربية الفصيحة بالـ Kolvn أو « اللهجة المشتركة » للعالم الاسلامي فاستعيض عنها في بلاد العرب والشام ومصر والاقطار العربيةالاخرى بلغةعاميةدارجة ؛ على انها لا تزال في هذه الاقطار لغة الاعمال والادب والتعليم ويقال ـ استنادا الى مصدر موثوق ـ انها حتى في الوقت الحاضر : « تجتاز مرحلة نهضة وهناك كل مجالات الاحتمال لان تصبح وسيلة أدبية عظيمة كرة اخرى »(١٩) واذا كانت بالنسبة لاولئك المسلمين الذين ليسوا عربا ، تحتل نفس مكانة اللاتينية والاغريقية في الثقافة الاوربية الحديثة ، فيجب علينا الا ننسى ان القرآن الذى هو أشهر انتاجاتها اطلاقا ، يدرسه كل مسلم عندما يذهب الى المدرسة لاول مرة ، ويكرره في صلواته اليومية ، مؤثرا في سير حياته برمتها ، الى حد لا يدركه المسيحي الاعتيادى •

وأظنني معذورا في كتاب كهذا اذا ما أهملت المعلومات المتعلقة بتاريخ العرب القديم وهو ما يمكن استكناهه من الآثار البابلية والآشورية ، وان أي تخطيط للعرب من ٢٥٠٠ ق•م مثلا الى بداية تاريخنا الميلادي سيشبه خارطة كاثاى Cathay التى حددها السر جون مانديفيل Sir John Mandeville ولكن ذلك يخلق بين شعوب شبه الجزيرة الضئيلة الاهمية عدا سبأ وحمير شيئا أكثر من مجرد انطباع انتقالي •

الانباط :

عاش الانباط في مدن وقاموا بتجارة مزدهرة قبل المسيح بعهد طويل وأسسوا دولة بطرا التى بلغت درجة عالية من الرفاه والثقافة الى

---

(١٩) البروفيسور مارغوليوث في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية لسنة ١٩٠٥ ص ٤١٨ •

أن استولى عليها تراجان سنة ١٠٥م وقد كان هؤلاء الانباط عربا يتكلمون العربية ولو انهم اصطنعوا الآرامية فى الكتابة لافتقار لغتهم إلى الأبجدية[٢٠] ويتصورهم كتاب المسلمين آراميين ، غير ان الدراسة الدقيقة ، لكتاباتهم أظهرت ان هذا الرأى ، وهو ما تمسك به كترمير[٢١] ، مغلوط ؛ ومعروف الآن ان كتاب « الفلاحة النبطية » الذى ألفه الكاتب المسلم ابن الوحشية سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م وادعى انه مترجم عن الكلدانية ، هو من الكتب المزيفة ، وانما ذكرناه هنا مثالا على الطريقة التى يتداول بها المسلمون لفظة « نبطي » ، لان العنوان موضوع البحث لا يشير بطبيعة الحال الى بطرا بل الى بابل •

ثلاثة أدوار للتاريخ العربي :

سيدرك القارىء مما ورد أعلاه ان تاريخ العرب ، على قدر معلوماتنا المستقاة من المصادر العربية ، يمكن تقسيمه إلى الأدوار الآتية : ـ

١ ـ الدور السبئي والحميري : من ٨٠٠ ق•م وهو تاريخ أقدم الكتابات العربية الجنوبية الى ٥٠٠م •

٢ ـ الدور الجاهلي : من ٥٠٠ ـ ٦٢٢م •

٣ ـ الدور الاسلامي : ويبدأ بهجرة النبي (ص) من مكة الى المدينة سنة ٦٢٢م ويمتد الى يومنا هذا •

السبئيون والحميريون :

ليس لدينا عن الفترة الاولى التى تتعلق باليمن أو جنوبي بلاد العرب

---

(٢٠) نولدكه : اللغات (18) Die Semitischen Sprachen السامية ص ٣٦ وما بعدها وص ٥١ •

(٢١) المجلة الآسيوية (آذار ، ١٨٣٥) ص ٢٠٩ وما بعدها •

مصادر عربية معاصرة عدا النقوش الكتابية وتزداد قيمة المعلومات المتوفرة بهذه الصورة على نقصها زيادة ملحوظة بالتراث المحفوظ فى الاشعار الجاهلية والقرآن وعلى الاخص في الادب الاسلامي الذى يعقب ذلك ؛ وصحيح ان معظم هذه المواد أسطوري ومن حق أي متتبع في القضايا التاريخية أن يهملها ، الا انني مع ذلك سأخصص مكانا فسيحا لها ما دام غرضي الاساسى الكشف عن معتقدات العرب وآرائهم بالذات ٠

عرب الجاهلية : ويطلق كتاب المسلمين على الدور الثانى اسم عصر الجاهلية أي عصر الجهل أو البربرية[٢٢] وتنعكس خصائصه بصدق وحيوية فى أغانى الشعراء الوثنيين وقصائدهم التى وصلتنا ؛ ولم يكن ثمة أدب نثر فى ذلك العهد : فقد كان من امتياز الشاعر ان ينشد تاريخ امته ويسجل انسابها ، ويخلد أيامها ومعاركها ويمجد فضائلها ؛ ومع ان قدرا كبيرا من الشعر الجاهلي قد فقد الى الابد ، فاننا لا نزال نمتلك بقايا لا يستهان بها وهي بالاضافة الى الروايات النثرية التى جمعها اللغويون والآثاريون المسلمون تساعدنا على تصور الحياة في تلك الايام الفطرية بأوسع مظاهرها بدقة كافية ٠

العرب المسلمون :

وآخر الادوار الثلاثة وأخطرها الى حد بعيد يضم تاريخ العرب بعد الاسلام وهو يقع بصورة طبيعية فى الفصول الآتية وقد سردت هنا بحيث يمكن للقارىء أن يرى بنظرة خاطفة الخطوط السياسية العريضة للفترة المعقدة الصعبة التى ستجابهه :

---

(٢٢) تتضمن الجاهلية بأدق عبارة الفترة الواقعة بين آدم ومحمد برمتها ويمكن استعمالها بمعنى أضيق ، كما فعلنا هنا ، للدلالة على الفترة التى سبقت الاسلام فى الادب العربى ٠

أ ـ حياة محمد :

حوالي مستهل القرن السابع للميلاد ظهر في مكة رجل اسمه محمد ابن عبدالله من قبيلة قريش حاملا وحياً الهيـاً هو القرآن ؛ وداعياً مواطني مدينته الى نبذ الاصنام وعبادة الله وحده ، وبالرغم مما قوبل به من سخرية واضطهاد استمر يبشر بالدين الاسلامي في مكة لسنوات عديدة ، غير ان نجاحه هناك كان ضئيلا فهاجر سنة ٦٢٢م الى (المدينة) المدينة المجاورة لها ومنذ هذا التاريخ شرعت دعوته بالازدهار الى حد كبير جـدا ، وخـلال العشر السنوات التالية اذعنت بلاد العرب بأسرها لحكمه وادعت على الاقل الايمان بالدين الجديد .

ب ـ الخلفاء الراشدون (١١هـ/٦٣٢ـ٤١هـ/٦٦١م) :

حكم المسلمين بعد وفاة الرسول (ص) أربعة من أبرز صحابته : أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ على التوالي ـ وكانوا يلقبـون بلقب الخليفـة ويعرفون عادة بالخلفاء الراشدين ؛ وبهديهم ترسخ الاسلام ثابتاً في شبه الجزيرة وانتشـر بعيدا خارج حدودهـا واستقـرت جمـوع من البـدو كمستوطنين عسكريين في سهول سوريا وايران الخصبة ، غير انه سرعان ما غرقت الامبراطورية المؤسسة حديثاً في لجة الحرب الأهلية ، فمقتـل عثمان أومأ إلى الصراع الدموي بين المتنافسين على الخلافة . لقد بويع عليّ زوج ابنة الرسول (ص) بالخلافة ، غير ان معاوية بن أبي سفيان عامل الشام القوي رفض بيعته هذه .

ج ـ الدولة الاموية (٤١هـ/٦٦١م ـ ١٣٢هـ/٧٥٠م)

لقد اغتيل عليّ بضربة خنجر وتربع معاوية على دست الخلافة التي بقيت في اسرته تسعين عاما ، وقد كان الامويون ـ باستثناء واحد ـ عربا أولا ومسلمين ثانيا وقد كانت في دينهم رقة غير انهـم انجبـوا امراء كفوئـين

وقديرين ، قادة جديرين بشعب امبراطوري وفي سنة ١١٤هـ/٧٣٢م بلغت الفتوحات الاسلامية الحد الاقصى الذى وصلت اليه اطلاقا فقد بلغ قواد الخليفة في دمشق الى وراء سيحون والبيرنه وسواحل الخزر ووادي النيل وكانت قوة الدولة في الوقت ذاته تستنفدها داخل الوطن الخلافات السياسية والدينية فالشيعة الذين تمسكوا بأن الخلافة حق الٰهي لعليّ وذريته رفعوا راية الثورة مرة بعد اخرى • وانضم اليهم المسلمون الفرس الذين كانوا يكرهون العرب والدولة الاموية الجائرة ، ووضع العباسيون أنفسهم وهم اسرة قريبة من الرسول جدا على رأس الحركة التى انتهت بقلب الأسرة الحاكمة التى ابيدت أو كادت تباد عن آخرها •

د ـ الدولة العباسية (١٣٢هـ/٧٥٠م ـ ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)

لعب العرب حتى الآن دورا رئيسا فى المجتمع الاسلامي وعاملوا المسلمين من غير العرب باحتقار مثير ، ولكن الامور تبدلت فنحن ننتقل الآن من دور القومية العربية الى دور الارتقاء الفارسي والثقافة الاممية وكانت زهرة جنود العباسيين فرساً من خراسان ، فبغداد عاصمة العباسيين الرائعة بنيت على أرض فارسية ، وملأ نبلاء الفرس أسمى مناصب الدولة في البلاط العباسي ؛ واذا لم تكن الدولة الجديدة دينية فقد كانت على الاقل حفيّة بالدين واهتمت بأن تعيش في نطاق عطر القداسة ؛ ولفترة من الزمن نسي العرب والفرس اختلافاتهما وعملا يدا بيد كما ينبغي للمسلمين الصالحين أن يعملوا ، فلم يعد التُقى جائزة بحد ذاته ، وتمتع العلم برعاية كريمة • كان هذا هو العصر الذهبي للاسلام الذى بلغ ذروته فى حكم هارون الرشيد المجيد (١٧٠هـ/٧٨٦م ـ ١٩٣هـ/٨٠٩م) وانفصمت بعد موته عرى السلام من جديد وجعلت الامبراطورية العظيمة تنهار ببطء وفيما كان الاقليم بعد الاقليم يقلل من ارتباطه بالخلافة العباسية ظهرت دول عديدة مستقلة ، في حين ان الخلفاء غدوا رمزا لا حول له ولا طول بيد المرتزقة من الاتراك

وكان سلطانهم لا يزال معترفا به رسميا فى معظم الاقطار الاسلامية غير انه لم يكن لهم منذ منتصف القرن التاسع الا شيء قليل أو لاشيء من السلطان الحقيقي •

هـ ـ من الغزو المغولى الى الوقت الحاضر (٦٥٦هـ/١٢٥٨م ـ)

استولت جموع المغول بقيادة هولاكو على بغداد سنة **٦٥٦هـ/١٢٥٨م** وقضت على الخلافة واستمرت في زحفها الى أن أوقفها المماليك المصريون فعادت ادراجها الى ايران حيث اعتنقت الاسلام بعد ذلك بخمسين عاما •

فترة ما بعد العهد المغولي : وحكم خلفاء هولاكوالايلخانيون فى ايران الى أن نشرت موجة ثانية من البرابرة بقيادة تيمور الخراب والفوضى فى آسيا الغربية (**٧٨٢هـ/١٣٨٠م ـ ٨٠٨هـ/١٤٠٥م**) وكانت وحدة الاسلام الآن قد تحطمت بالمعنى السياسي ، ومن وسط الفوضى نهضت تدريجيا ثلاث امبراطوريات اسلامية ، ففي سنة **٧٦٠هـ/١٣٥٨م** عبر الاتراك العثمانيون بحر مرمرة وفي **٨٥٧هـ/١٤٥٣م** دخلوا القسطنطنية وفي **٩٢٣هـ/١٥١٧م** اضيفت سوريا ومصر وبلاد العرب الى ممتلكاتهم ، وأصبحت ايران مملكة مستقلة تحت حكم الصفويين (**٩٠٨هـ/١٥٠٢م ـ ١١٤٩هـ/١٧٣٦م**) بينما نشأت في الهند امبراطورية المغول العظيمة على يد بابور أحد أحفاد تيمور واستمرت بشكل مجيد فى شخص خليفتيه أكبر واورانگزيب (**٩٣٢هـ/١٥٢٥م ـ ١١١٩هـ/١٧٠٧م**) •

تاريخ العرب الادبى :

سنعالج بعض الأحداث السياسية التي لخصت في أعلاه بتفصيل أوفى في ثنايا هذا الكتاب ، في حين أن البعض الآخر لن يصيبه أكثر من ذكر عابر وان الافكار التى تفصح عن ذاتها في الادب العربى مرتبطة بتاريخ القوم بشكل وثيق وهى غير مفهومة بمعزل عن الظروف الخارجية التى انبثقت

عنها بحيث وجدتني مضطراً إلى الوقوف وقفة طويلة عند مختلف القضايا ذات المتعة التاريخية لاستنباط ما هو متمايز ومهم حقيقة من وجهة نظرنا الخاصة ؛ ولن يبدو في القدر المخصص للفترات الاولى (٥٠٠ ـ ٧٥٠م) شيء من الاسراف اذا ما نظرنا إليها في ضوئها الصحيح مركزاً للتاريخ العربي وقلبه ؛ وتصل الحضارة الاسلامية خلال المائة سنة التالية لها ذروتها الا أن العرب يتراجعون أكثر فأكثر الى ما وراء المسرح فالغزو المغولي قضى على حياتهم القومية فعلا ولو انهم حافظوا على تقاليدهم الثقافية تحت حكم الاتراك في سوريا ومصر ، وفي أسبانيا نجدهم يجاهدون بيأس ضد المسيحية وقبل ذلك بقرون عديدة ، أي في أيام ازدهار الامبراطورية العباسية لم يسهم العرب الأصيلون في الادب الذي يحمل اسمهم الا بقسط ضئيل نسبيا ؛ على انني لم اطبق الاختبار القومي بدقة كبيرة لاستبعد كل الاعاجم أو الهجناء المولّدين الذين كتبوا في اللغة العربية .

كتّاب من أصل أعجمي كلياً أو جزئياً :

وقد يقال ان انتاج الفرس (الذين اعتادوا حتى في أيامنا هذه اصطناع اللغة العربية في الموضوعات الفقهية والفلسفية) لا يمكن أن يوضح تاريخ الفكر العربي ، بل مجرد تأثير الافكار الفارسية على الفكر العربي وعلى ذلك يجب أن يوضع جانبا الا اذا اريد لهذا الغرض المعين ؛ ولكن ما موقفنا ازاء العديد من المؤلفين المشاهير الذين ليسوا عربا خلصا ولا فرسا خلصا ولكنهم يجمعون بين دم الشعبين ؟ أيجب علينا أن نمحص أنسابهم ونحاول أن نكشف أي الدمين هو الاغلب ؟ ان هذه المهمة ستكون متعبة وبغير طائل؛ فالحقيقة انه لا يمكن أن نضع بعد العصر الاموي خطا فاصلا بدقة بين العنصر الاصلي والاجنبي في الادب العربي ، فقد تفاعل الاثنان وكثيرا ما اتحدا بشكل لا يقبل الانفصام ومع انه من الواجب التمييز بينهما قدر الامكان ، فاننا سنتخذ وجهة نظر ضيقة ومتحذلقة تجاه تاريخ الادب اذا ما أصررنا على اعتبارهما منعزلين مستقلين .

الفصل الأول

ســبأ وحمير

الاجناس البدائية :

بوسعنا أن نقول ان تاريخ العرب بمعناه الصحيح يبدأ بالسبئيين ولكن يجب علينا كخطوة أولية أن نبحث فى بعض الاجناس التى تبدو خطيرة نوعاً ما فى عالم الاساطير وقد اعتبرها المؤرخون المسلمون أهل البلاد الأصليين ، وبين هؤلاء قوم عاد وشدّاد الذين يذكرهم القرآن باستمرار مثالين فظيعين للجبروت الذى يسبق الدمار • لقد كان موطن عــاد فى حضرموت ، الاقليم المتاخم لليمن ، على حدود الصحراء المعروفة بـ «احقاف الرمل » ويشك في انهم كانوا ساميين ومن المحتمل انهم من أصل آرامي أخضعهم الغزاة من الشمال وأبادوهم أو كما يعتقد هوميل[١]، Hommel كانوا ممثلين لثقافة عظيمة غير سامية بقيت في تراث « ارم ذات العماد »[٢] الفردوس الارضي الذي بناه شدّاد أحد ملوكهم ، وقد رويت قصة دمارهم كما يأتي :[٣]

(1) Die Namen Der Säugethiere Bei Den Süd-semitischen Völkern, P. 343 Seq.

أسماء الشعوب السامية الجنوبية ، ص ٣٤٣ وما بعدها •

(٢) « ارم ذات العماد » (القرآن ، السورة ، ٨٩ الآية السادسة) ومعنى هذه الالفاظ موضع نقاش طويل • راجع بصورة خاصة شرح الطبري في تفسيره الكبير (و•لوث فى مجلة جمعية المستشرقين الالمان • المجلد ٣٥ ص ٦٢٦ وما بعدها) •

(٣) لقد اختصرت القصة من تاريخ الطبرى : جـ١ ص ٢٣١ وما بعدها جـ ١ ص ١٥٤ من طبعة مصطفى محمد (القاهرة ، ١٣٩٩) •
قارن كذلك السور : ٧ ، ١١ ، ٢٦ ، ٤٦ من القرآن (أي سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والاحقاف) •

لقد كانوا قوماً من ذوى القوى الهائلة والاجسام الضخمة يعبدون الاصنام ويرتكبون الكبائر ، وعندما بعث الله اِليهم هود نبياً لينذرهم فيتوبوا[٤] •

(٥٣) « قالوا يا هودُ ما جئتنا ببيّنةٍ ، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين

(٥٤) « اِنْ نقولُ الا اعتراك بعضُ آلهتنا بسُوءٍ قال اِني أُشْهِدُ الله واشْهدُوا أني بريء مما تُشرِكون • »

ثم اصيبت أرض عاد بجدب مخيف فأرسلوا ببعض زعمائهم الى مكة ليدعوا الله من أجل الغيث وعند وصول الوفد الى مكة قابلهم أمير العمالقة معاوية بن بكر بترحاب واحتفى بهم بتقديم الخمر والعزف ـ فقد كانت عنده مغنيتان شهيرتان عرفتا بالجرادتين فأهملوا ما جاءوا من أجله شهرا كاملا ، على أنهم ، أخيرا شرعوا بالعمل ولم يكد المتحدث باسمهم ينهي صلاته حتى أقبلت سحائب ثلاث بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه منادٍ من السحاب : « اختر لنفسك ولقومك ! » فاختار السوداء معتقدا بأنها أكثر السحاب ماءً فناداه منادٍ منشداً :ـ

« اخترتَ[٥] رماداً رِمْدَدا
لا تُبقي[٦] من عادٍ أحدا
لا والداً تترك ولا ولدا »
اِلا جَعلته هُمَّدا
الا بني اللوذيَّةِ المُهدّى

---

(٤) القرآن : السورة الحادية عشرة (سورة هود) الآيتان : ٥٣ــ٥٤
[أخطأ نكلسن فى رقمي الآيتين اذ ظنهما ٥٦و٥٧ «المترجم»]

(٥) فى رواية اخرى : خذها •

(٦) فى رواية اخرى : لا تدع •

وساق الله السحابة السوداء حتى وقفت على أرض عاد فانبعثت منها ريح مزمجرة قضت على الناس جميعاً الا القليل منهم ، ممن آمن بتحذير النبي وتخلى عن عبادة الأوثان .

ومن هذه القلة الصالحة ظهر بتمادي الزمن شعب جديد عرف « بعاد الآخرة » وكانت مساكنهم في اليمن ، في منطقة سبأ ، وينسب بناء سد مأرب العظيم الى ملكهم لُقمان بن عاد الذي تُروى عنه خرافات عديدة ، وكان يلقب « بذي النسور » ، اذ منح حياة سبعة نسور على التوالي(٧) .

اسطورة ثمود :

في شمال بلاد العرب ، بين الحجاز وسوريا ، عاش قوم ثمود الذين نربطهم بعاد صلة قربى ، وقد وصفوا في القرآن (السورة السابعة ، سورة الاعراف ، الآية الثالثة والسبعين) بأنهم يسكنون بيوتاً ينحتونها من الصخر(٨) .

ويظهر أن محمداً (ص) لم يعرف حقيقة البيوت المنحوتة في الصخر والتي لا تزال قائمة في حِجْر (مدائن صالح) على مرحلة اسبوع شمال المدينة ، وقد أثبتت الكتابات النبطية المنقوشة عليها بأنها أضرحة ومقابر

---

(٧) نهاية الصفحة ٢ من النص الانكليزي .

(٨) الآية : « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تَعْثَوْا فى الارض مفسدين » .

يراجع فى قصة ثمود الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، (القاهرة ، ١٩٣٩) « النسخة المقابلة على النسخة المطبوعة بمدينة ليدن سنة ١٨٧٩م» ج ١ ص‌ص ١٥٨ ــ ١٦٢

«المترجم»

تذكارية(٩) .

لقد أثمت ثمود على نحو ما فعلت عاد فلقيت نفس المصير . سخروا من النبي صالح ورفضوا الايمان به ، ما لم يأتهم بمعجزة ، فاخرج صالح من الصخر ناقة حاملاً وأمرهم بأن لا يمسوها بسوء ، الا أن أحد الاشقياء وهو « قُدار الأحمر » عقرها وذبحها (فأخذتْهُمُ الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين)(١٠) . فأمسى سبب هذه الكارثة مضرب المثل اذ قالت العرب : «أشأم من عاقر الناقة أو من أحمر ثمود» ويجب أن نبين أن قوم ثمود خلاف قوم عاد الذين لا نجد لهم أثراً في الازمنة التاريخية ، قد ذكرهم ديودورس سيكيولس Diodorus Siculus وبطليموس قوماً معاصرين لهما وبقوا حتى القرن الخامس للميلاد اذ كانوا في السَّريَّةِ الثمودية Equites Thamudeni الملحقة بجيش الامبراطرة البيزنطيين .

العماليق :

وفضلا عن عاد وثمود فان مجموعة الأجناس البدائية تضم العماليق (أو العمالقة) وهو اسم أسطورى أدخل فيه الآثاريون المسلمون عدة شعوب بادت وانقرضت منذ عهد عهيد ، كالكنعانيين والفلسطينيين . اننا

---

(٩) راجع دوتي ـ مستندات منحوتة في شمال بلاد العرب ، ص ١٢ وما بعدها من صفحات ،

Doughty's Documents Epigraphiques Recueillis Dans Le Nord de L'Arabie, p. 12 Sqq.

واذا كان محمد لم يعرف حقيقة البيوت المنحوتة في الصخر فان رب محمد قد عرفها ، فمن معانى البيت عند العرب القبر (راجع القاموس المحيط للفيروز ابادى ، مادة « البيت » ج ١ ص ١٤٤) « فكان لزاما على نكلسن وداوتى من قبله أن يتثبتا من معنى « البيت » في الآية الكريمة قبل أن يتسرعا فى استنتاجهما الخاطىء » .

« المترجم »

(١٠) القرآن : السورة السابعة ، الاعراف ، الآية : ٧٧ .

نسمع بمساكن العمالقة في تهامة مكة (أي في أرضها المنخفضة) وفى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة ، وأخيرا يجب أن نذكر[١١] طسم وجديس ، القبيلتين التوأمين اللتين لم يدون عنهما شيء غير حقيقة دمارهما وغير الحوادث التى أدت الى هذا الدمار ، والقصة الاسطورية التى تتضمن ذلك لها متعة آثارية ، اذ تبين وجود عادة اقطاعية في المجتمع العربي القديم ألا وهى « حق السيد المطاع » ــ غير أنه حان الوقت الآن لان نعرج على على الموضوع الرئيس لهذا الفصل •

تاريخ اليُقطانيين :

ان التاريخ الجاهلي لليُقطانيين أو عرب الجنوب ذلك التاريخ الذى نلجه الآن هو في الحقيقة تاريخ قومين : « السبئين » و « الحميريين » اللذين خرجت منهما الرؤوس المتتابعة لامبراطورية الجنوب العربي التى امتدت من البحر الاحمر الى الخليج العربي •

كثيراً ما تستعمل سبا[١٢] (شيبا في العهد القديم) بشكل مغلوط للدلالة على بلاد العرب السعيدة بأسرها ، في حين أنها كانت واحدة من عدة ممالك وان كانت بلا شك الاولى فى القوة والخطورة ، وقد دونت أسماؤها وعواصمها في كتب جغرافيي اليونان والرومان ، ومهما تكن المعلومات المثيرة التى نجدها عن ثروة السبئين وعظمتهم مبالغاً فيها ، فانه

---

(١١) نهاية الصفحة ٣ من النص الانكليزى •

(١٢) الشكل الصحيح سبأ والالف مهموزة وكلا المقطعين قصير • (المؤلف)

[الواقع أن المقطع الاول قصير والثاني طويل من حيث الايقاع العروضي وما يقوله نكلسن ينطبق على التهجئة الانكليزية لا العربية] (المترجم)

لمن المؤكد أن سبأ كانت دولة تجارية مزدهرة قبل ميلاد المسيح بقرون(١٣)، « وقد اقيمت المواصلات البحرية بين موانىء بلاد العرب الشرقية والهند في وقت مبكر جدا ، وكانت المنتوجات الهندية ولا سيما التوابل والحيوانات النادرة (كالقردة والطواويس) ترسل الى ساحل عُمان ، ومن ثَمَّ تُنقل على ما يظهر حتى في القرن العاشر قبل الميلاد براً الى الخليج العربي حيث كانت(١٤) تشحن الى مصر لاستعمال الفراعنة والنبلاء ... وجعلت صعوبة الابحار في البحر الاحمر طريق البر أفضل للمواصلات بين اليمن وسوريا ، فكان طريق القوافل ينحدر من شبوات « شابوتا » في حضرموت الى مأرب « ماريابا » العاصمة السبئية ، ومن ثَمَّ صوب الشمال الى ماكورابا Macoraba (مكة فيما بعد) وعن طريق بُطرا الى غزة الى ساحل البحر الابيض المتوسط »(١٥) واستمر رخاء السبئيين الى أن

---

(١٣) ان أقدم سجل لسبأ يمكن أن يوضع تاريخ ازاءه هو فى الكتابات المسمارية الآشورية ، فنحن نجد فى تاريخ الملك سرجون (٧١٥ ق.م) ما يلى : (وصلتنى جزية فرعون ملك مصر ، وشمسية ملكة بلاد العرب ، وايثمارا السبئى – ذهباً وتوابل وعبيداً وخيلا وجمالا) وايثمارا يضارع « يثعمر » وهو اسم لعدة ملوك من سبأ .

ويمكن الحصول على المزيد من المعلومات القيمة عن السبئيين والنقوش العربية الجنوبية فى مادة سبأ ل « تكاتش J. Tkatsch » فى « دائرة المعارف الاسلامية» وفيها يوضح الكاتب الاهمية الخاصة للاكتشافات الخطية Epigraphic لـكليزر E. Glaser الذى جمع خلال أربع رحلات (١٨٨٢ – ١٨٩٤) ما يربو على الالفي مدونة منقوشة راجع كذلك نلسن D. Nielsen: Handbuch Der Altarabischen Altertumskunde, vol.i (Copenhagen and Paris, 1927).

كتاب عن ثقافة بلاد العرب القديمة ج ١ (كوبنهاغن وباريس ١٩٢٧) [من فصل الهوامش الاضافية فى نهاية الكتاب] .

(١٤) نهاية الصفحة ٤ من النص الانكليزى .

(١٥) – مولر – الاسلام فى الشرق والغرب جـ١ ص ٢٤ وما بعدها .
A. Müller: Islam Im Morgen und Abendland.

شرعت التجارة الهندية تذهب بحراً على طول ساحل حضرموت وتخترق مضيق باب المندب ، بدلا من الطريق البر ى ، ونتيجة لهذا التغيير الذى يبدو أنه قد حصل فى القرن الأول للميلاد ، تدهورت قوتهم تدريجياً فاضطر القسم الأعظم من السكان الى البحث عن ديار جديدة في الشمال ، فأقفرت مدنهم ، وتهدمت ترعهم ، وسنرى في الحال أن الاسطورة العربية قد بلورت نتائج فترة طويلة من التدهور في حقيقة واحدة ـ انهدام سد مأرب !٠٠٠

الحميريون :

لقد ترك اختفاء السبئيين الطريق مفتوحاً أمام فرع أصغر لنفس الأرومة ، أي « الحميريين » أو كما يسميهم المؤلفون الكلاسيكيون Homeritae الذين كانت بلادهم تقع بين سبأ والبحر ، وسرعان ما أصبحوا تحت حكم ملوكهم المعروفين « بالتابعة » القوة السائدة في الجنوب العربي ، فمارسوا نفوذهم على الاقل ظاهرياً ، على القبائل الشمالية حتى نهاية القرن الخامس للميلاد ، عندما ثارت الأخيرة بقيادة كُليب بن ربيعة فنفضت عنها سلطان اليمن في معركة خزازة العظيمة(١٦) ولم يزدهر الحميريون كالسبئيين اذ جعلهم موقعهم البحرى أكثر تعرضا للهجوم ، على حين أن تناقص السكان أضعف قوتهم العسكرية بشكل خطير ؛ وقد حاول الاحباش مرارا ـ وهم في الاصل مستوطنون من اليمن ـ أن يحصلوا على(★) موطىء قدم ، وكثيرا ما استطاعوا أن ينصبوا الحكام الذين كان يطردهم الامراء المحليون ، وأشهر هؤلاء الحكام « أبرهة » الذي ستُروى قصة

---

(١٦) على ان نولدكه يصرح بأن التقاليد التى تمثل كليب قائدا لبطون ربيعة للمعركة ضد قوى اليمن المجتمعة غير تاريخية بالمرة (المعلقات الخمس : ج ١ ص ٤٤) ٠

(★) نهاية الصفحة ٥ من النص الانكليزي ٠

حملته الخائبة على مكة في موضعها المناسب ، وأخيرا أخضعت الامبراطورية الحميرية ، فجُعلت اقليما فارسيا ، وانتهت قوةً سياسيةً قبل ظهور الاسلام بما يقرب من مائة عام .

مصـادر الأخبـار :

ان المصادر العربية الرئيسة عن سبأ وحمير هى : (١) ما يسمى بالنقوش الحميرية (٢) الاخبار التقليدية التى تكاد تكون جميعها ذات طابع أسطوري وهي محفوظة في المدونات الاسلامية .

اللغة العربية الجنوبية أو النقوش السبئية :

مع أنه من الممكن أن تكون اللغة العربية الجنوبية قد حافظت على كيانها في فترات متباعدة في بعض المناطق النائية الى عهد الرسول (ص) أو حتى بعد ذلك ، فان لغة الشمال العربية كما نعرفها قد تغلبت عليها وسيلةً للحديث اليومي قبل ذلك بمدة طويلة وانتشرت منذ ذلك العهد في طول شبه الجزيرة وعرضها بدون منافس ، بيد أن اللغة الميتة لم تمت تماما ، فقد كان البدوي حتى في القرن السادس للميلاد ينيخ ناقته ليقف فيحدق النظر في كتابات بحروف غريبة محفورة على جدران صخرية أو قطع من الحجارة المنحوتة ، ويقارن الاشارات العجيبة نصف الممحية مع بقايا الآثار التى لا تكاد تشخص لمضارب الخيام ، تلك التىأفعمت بالنسبة اليه بذكريات غضة . كثيرا ما يذكر المؤلفون المسلمون هذه الكتابات التى يضمنونها مصطلح « المُسْنَد » ويبدو من فقرة في الكتاب الثامن من « الاكليل » للهمداني أن بعض المسلمين – ويحتمل أن يكونوا قليلين جدا – لم يكونوا ليقرأوا أبجدية العربية الجنوبية فحسب ، بل كانوا على علم بالقواعد الاولية لكتابتها ، ومع أنهم ربما كانوا يميزون أسماء الاعلام ويفهمون بعض الكلمات هنا وهناك ، لم تكن لديهم معلومات حقيقية عن اللغة ،

فكيف اكتشفت الكتابات مجددا بجهود السياح الاوربيين(١٧) فميزت تدريجيا وفسرت حتى أصبحت ناجعة ، كقاعدة للتتبع التاريخي ، والنتائج التي نجمت عن دراستها ؟ هذا ما سنقدمه الآن باقتضاب قدر الامكان •

اعتراضات على تعبير (حميري) :

وقبل أن نفعل ذلك علينا أن نفسر لم اصطنعنا تعبير : « العربية الجنوبية » أو « السبئية » بدلا من « الكتابات الحميرية » و « اللغة الحميرية » ، مع أن الاولين أقل شيوعا ؟ ان تعبير « الحميرية » مبهم بنفس الصورة سواء أأطلق على لغة النقوش أو على النقوش ذاتها ، فاللغة بشكل أو بآخر لم يكن ليتكلم بها الحميريون وحدهم بل السبئيون والمينائيون ومختلف شعوب اليمن كذلك ، وقد أطلق المسلمون لفظة « حميري » على لغة اليمن القديمة لسبب بسيط هو أن الحميريين كانوا أقوى شعب في تلك البلاد خلال القرون الاخيرة التي سبقت ظهور الاسلام فلو كانت جميع الكتابات تتعلق بفترة السيادة الحميرية لنسبت بشيء من العدالة الى الشعب الحاكم ، ولكن الحقيقة هي أن الكثير منها يرجع الى تاريخ أبعد من ذلك بكثير ، فبعضها يرجع الى القرن الثامن قبل الميلاد وربما ما يقارب الالف عام قبل تأسيس الامبراطورية الحميرية ؛ ولفظة « سبئي » أقل تعرضا للاعتراض ، فبوسعنا أن نعتبرها تسمية ً قومية أكثر منها سياسية ً ، على اننا بوجه عام نفضل « العربية الجنوبية » على كلتا التسميتين •

اكتشافات الكتابات العربية الجنوبية وحلها :

كان أول رواد اليمن الذين اهتموا باكتشاف الكتابات هو كارستين نيبور Carsten Niebuhr الذي نقل الى أوربا بكتابه : « كتابات من بلاد العرب » Beschreibung Von Arabien المنشور سنة ١٧٧٢

---

(١٧) نهاية الصفحة ٦ من النص الانكليزي •

تقريره بأن كتابات يظن بأنها حميرية موجودة في خرائب مدينة ظفـــار (Zafàr) التى كانت مشهورة يوماً ما[١٨]، ولو أنـه لم يرهـا، فذات مرة أطلعه هولندي كان قد اعتنق الاسلام نسخة من كتابة مدونة بحروف مجهولة تماماً ولكن في ذلك الوقت ــ كما يقول هو ــ كنت مريضاً جداً بحمى عنيفة بحيث كنت مقتنعاً باعداد نفسي للموت[★] أكثر مني لجمع الكتابات القديمة[١٩] وهكذا ضاعت الفرصة ولكن حب الاستطلاع كان قد استيقظ ففي سنة ١٨١٠ اكتشف اولريخ جاسپر سيتزن Ulrich Jasper Seetzen عدة كتابات في جوار ظفار واستنسخها، ولسوء الحظ أن هذه الكتابات التى كان لزاماً أن تُستنسخ على عجل لم تكن مضبوطة أبداً وقد ابتاع كذلك كتابة حملها معه واستنسخها على مهل، ولكن جهله بالحروف أفضى به الى أن يتصور الحُفَر والانخفاضات في الحَجَر حروفاً؛ فالنتائج التي توصل اليها كانت بطبيعة الحال غير ذات قيمة[٢٠] أما النسخ الاولى المفيدة

---

(١٨) ظفار هى صنعاء نفسها، ولعل هذا كان قديماً، وأما ظفار المشهورة اليوم فليست الا مدينة على ساحل بحر الهند بينها وبين مرباط خمسة فراسخ .. وهي مدينة باليمن فى موضعين أحدهما قرب صنعاء وبها كان مسكن ملوكهم (ياقوت الحموى ــ «معجم البلدان» ج٤ ص ٨٦) ويقول ياقوت كذلك انه وجد على أركان سور ظفار مكتوباً : « لمن ملك ظفار ؟ » للحبشة الاشرار ؛ لمن ملك ظفار ؟ لفارس الأخيار ؛ لمن ملك ظفار ؟ لحمـير ستجار » أى سترجع لليمن [المترجم] .

(★) نهاية الصفحة ٧ من النص الانكليزي .

(١٩) سبق ذكره : ص ٩٤ وما بعدها . لقد قدم روديگر Rödiger « فـى كتـــاب Excurs Ueber Himjaritische Inschriften رحـلات من أجـل الـكتابات الحمـيريـة وهـو ترجمتـه الالمانيـة لكتاب Wellsted: Travels In Arabia « رحـلات فى بلاد العرب » جـ٢ ص ٣٦٨ وما بعدها، معلومات قيمة عن التقدم الذى حصل فى اكتشاف وقراءة الكتابات العربية الجنوبية الى سنة ١٨٤١ .

(٢٠) نشـــرت كتـابـات سـيتـزن فــى « تــراث الشـرق » Fundgruben des Orients المجلد ٢ (فينا : ١٨١١) ص ٢٨٢ وما

للكتابة العربية الجنوبية فقد جاء بها الى أوربا الضباط الانكليز المستخدمون في مسح السواحل العربية الجنوبية والغربية وقد نشر الملازم جي. آر. Wellsted. ويلستيد كتابات حِصن غُراب ونقب الحجر في كتابه « رحلات في بلاد العرب » (١٨٣٨) .

وفي ذات الوقت اتخذ اميل روديكر Emil Rödiger استاذ اللغات الشرقية في هاله Halle بمعونة مخطوطتين من مكتبة برلين الملكية تحتويان على الابجدية « الحميرية » ، الخطوة الاولى نحو حل صحيح يدحض الفكرة القائلة ان الخط العربي الجنوبي يكتب من اليسار الى اليمين ، الفكرة التى نالت قبولاً عاماً بتأثير دي ساسي[٢١] وأبان ، فضلاً عن ذلك ، ان نهاية كل كلمة مؤشرة بخط عمودي[٢٢] وقد حل گيزينيُس Gesenius وروديگر وكانا يعملان على انفراد كتابات ويلستيد (١٨٤١) والكتابات التى اكتشفها هُلتن Hulton وكرتنسون Cruttenden فى صنعاء ، وكانت انكلترا والمانيا حتى الآن تتقاسمان[*] فضل الاكتشاف ، ولكن فرانسا اشتركت معهما بعد سنوات قلائل ، وسرعان ما أصبحت في المقدمة ببراعة خاصة ، ففي سنة ١٨٤٣ نجح توماس آرنو Th. Arnaud الذي شرع

بعدها والكتابة التى ذكرت أعلاه حلها فيما بعد وفسرها موردتمان Mordtmann فى مجلة جمعية المستشرقين الالمان المجلد ٣١ ص ٨٩ وما بعدها .

(٢١) على أن أقدم الكتابات كانت تكتب من اليسار الى اليمين ومن اليمين الى اليسار بالتناوب (Boystrorpdón)

(٢٢) Notiz ueber die Himjaritische Schrift Nebest Doppeltem Alphabet Derselben.

« ملاحظات حول الكتابة الحميرية) فى مجلة الثقافة الشرقية جـ١ (گوتنگن ١٨٣٧) ص ٣٣٢ وما بعدها .

Zeitschrift Für Die Kunde des Morgenlandes.

(*) نهاية الصفحة ٨ من النص الانكليزي .

بعمله من صنعاء في اكتشاف خرائب مأرب ، العاصمة السبئية القديمة ، وباستنساخ ما يتراوح بين خمسين وستين نقشاً ، معرضاً حياته للخطر ، وقد نشر ذلك كله فيما بعد في المجلة الآسيوية Journal Asiatique ووجد مترجماً قديراً في شخص اوسياندر Osiander (٢٣) وأهم من ذلك نتائج الرحلة التي قام بها العالم اليهودي جوزيف هاليڤي Halévy سنة ١٨٧٠ الذي تغلغل الى الجوف أو البلاد الواقعة شرقي صنعاء والتي لم يقطعها أوربي قبله منذ سنة ٢٤ ق•م عندما قاد ايليس گالس Aelius Gallus جيشاً رومانياً عن هذا الطريق ، وعاد « هاليڤي » ومعه نسخ لما يقرب من سبعمائة نقش ، وذلك بعد أن تحمل متاعب عظيمة وجابه مخاطر عديدة(٢٤) وخلال خمس وعشرين سنة جمع إي • گليزر E. Glaser ويوليوس يوتنگ Julius Euting مواداً جديدة وافرة في حين أن دراسة ما كان متوفراً سابقاً من قبل پريتوريس Preatorius وهاليڤي ودي•ايج•مولر D. H. Müller وموردتمان ، وعلماء غيرهم قد وسّع معلوماتنا بشكل محسوس عن لغة الجنوب العربي وتاريخه وديانته في عصر ما قبل الاسلام •

---

(٢٣) انظر ما كتبه آرنو (بالفرنسية) بعنوان : Relation D'un Voyage A Mareb (Saba) Dans L'Arabie Meridional قصة رحلة الى مأرب (سبأ) فى الجنوب العربى ، فى المجلة الآسيوية، السلسلة الرابعة، المجلد : (١٨٤٥) ص٣١١ وما بعدها وص٣٠٩ وما بعدها •

(٢٤) يراجع « تقرير عن بعثة أثرية فى اليمن » (بالفرنسية) فى المجلة الآسيوية ، السلسلة السادسة ، المجلد ١٩ (١٨٧٢) صص ٥ ـ ٩٨ ؛ ١٢٩ ـ ٢٦٦ ؛ ٤٨٩ ـ ٥٤٧
Rapport Sur une Mission Archéologique dans Le Yémen.

القيمة التاريخية للنقوش :

لا يمكن الاعتماد على دقة أسماء الملوك الحميريين ، كما تبدو في القوائم التي دونها المؤرخون المسلمون ولا الترتيب الذي تظهر فيه هذه الاسماء ، فاذا كانوا شخصيات تاريخية اطلاقا فلابد أنها حكمت في عهود حديثة نسبياً ، وربما قبيل الاسلام ، ولعلهم كانوا أمراء بلا خطورة قذفت بهم الأساطير الى الوراء في الحقب القديمة وأضفت عليهم نعوت البطولة ، وما على من يرتاب في ذلك الا أن يقارن القوائم الحديثة مع تلك التي رتبت من المواد المستخلصة من النقوش[٢٥] ، فقد جمع « دى•ايج مولر » ثلاثة وثلاثين اسماً للملوك المينائيين ، وبعض الأسماء كثيراً ما يتكرر ، مما يدل على وجود أسر حاكمة ، ونعوت التحميد والتمجيد ملحقة بها عادة فنجد ذَمَرَ- عَلِيْ ذِرِّيح (المجيد) ويَثْعَمَرْ بيّن (السامي) وكربئيل وتار يُهَنْعِمْ (العظيم ، المتفضل) وسَمَحْ عَلِي يَنُوفْ (المعظم) ؛ والى ذلك فان الملوك يحملون ألقاباً مختلفة تماثل ثلاث فترات متمايزة في تاريخ الجنوب العربي وهي : الملك الكاهن لسبأ (مكرّب سبا)[٢٦] ومَلِكْ سبا ، وملك سبأ وريدان ، وبهذه الوسيلة يمكن تثبيت زمن المباني والنقوش المختلفة بصورة تقريبية وايضاح عدم رجوعها الى عصر المسيح ، كما كان يظن بصورة عامة حتى الآن ، بل انها في بعض الحالات أقدم من زمن المسيح بثمانمائة سنة على الأقل •

---

(٢٥) راجع دى • ايج • مولر

D.H. Müller: Die Burgen und Schlösser Sudarabiens in S.B.W.A., Vol. 97,p. 981 Sqq.

« محاضر جلسات أكاديمية فينا » (ج ٩٧ص ٩٨١ وما بعدها) .

[نهاية الصفحة ٩ من النص الانكليزي] •

(٢٦) يجمع لقب « مكرب » بين معنى الامير والكاهن •

كتابات الادعية والصلوات :

الى أي مدى يختلف قوم سبا وحمير الوادعون المحبون للتجارة في سلوكهم عن العرب المتبدين الذين أرسل محمد (ص) رسولاً اليهم يبدو واضحاً في طبيعتهم المذعنة لآلهتهم وهي ، كما لاحظ كولد زيهر ، مفتاح الأنصاب القائمة فى الجنوب العربي[٢٧] ، فالأمير يقيم نصب تقديم شكره للآلهة التي نصرته على أعدائه ، والكاهن يهب لها أطفاله وممتلكاته جميعاً ، والمحارب الذي بورك لـه في قتـل الناس أو اكتساب الغنيمـة أو نجا من الموت يسجل امتنانه ويتأمل بكل ورع دوام النعمة ، والموتى في نظرهـم أحياء سعداء تحت العناية الالهية فيجلون ، وأحياناً يؤلهون[٢٨] ، والكتابة الآتية[★] التي ترجمها اللفتنت كولونيل دبليو ٠ ايف بريدو W. F. Prideaux مثال نموذجي من نوعه :

« سعداله وبنوه بنو المرثدم قد منحوا المَقَهْ من حِر َان هذه اللوحة لان المقه سيد (عوّام ذو عران ألو) قد استجاب الى الدعاء الموجه اليـه ، وعلى ذلك فقد سمع بنى مرثدم عندما قدموا الثمار الاولى لأراضيهم الخصبة في (أرحِكم) بحضـور المَقَهْ الحِرّاني ، وقـد إستجـاب المَقَـهْ الحِرّانى للدعـاء الموجـه اليه لحفظ السهول والمراعي ، وهـذه القبيلة

(٢٧) كولدزيهر : دراسات اسلامية ، ج ١ ص ٣

(٢٨) راجع ايف بريتوريوس

F. Praetorius : Unsterblichkeitsglaube und Heiligen Verehrung Bei den Himyaren.

« عقيدة الخلود وتمجيد القديسين عند الحميريين » فى « مجلة جمعيـة المستشرقين الالمـان » المجلـد ٢٧ ص ٦٤٥ وقـد قـدم هيوبرت گريـم Hubert Grimme صورة تخطيطية ممتعة عن الافكار والعادات الدينيـة لعرب الجنوب فى كتابه (تاريخ العالم فى صور الشخصيـات : محمد) « ميونخ ، ١٩٠٤ » ص ٢٩ وما بعدها ٠

(★) نهاية الصفحة ١٠ من النص الانكليزي ٠

في مساكنها ، لقاء الهدايا العديدة خلال السنة ، والحق أن ابناءه (أبناء سعد اِله) سيهبطون الى (أرحكم) وانهم سيقدمون الأضاحي في مقامي (عثتور وشمسم) وسيضحون في حرّان ـ ذلك لكي يقدم المَقَهْ رعايته لحقول (بن مرثدم) هذه ويصغي مستجيباً ـ وفي مقام المَقَهْ في (حَرْوْتْ) ، ولكي يصونهم حسب الاشارة التي أُعلِم بها سعد اِله ، الاشارة التي رآها في مقام المَقَهْ في (نَعْمان) أما المَقَهْ في حرّان فقد صان أراضي (أرحكم) الخصبة هذه من البَرَد ومن شتى النكبات (أو من البَرْد ومختلف صنوف الحر اللافح)[٢٩] •

يجب علي ، في ختام هذه النبذة غير الكافية عن الكتابات الجنوبية العربية ، ان استميح قرائي عذرا ، فهم عارفون بمدى صعوبة الكتابة بوضوح ودقة في أي موضوع بدون معلومات مباشرة ، ولا سيما عندما تكون نتائج التتبعات السابقة في تحول مستمر على أيدي متتبعين جُدُد في نفس الحقل •

المصادر الادبية :

من حسن الحظ أننا نمتلك متممات أدبية لا يستهان بها تكمل هذه البقايا الضئيلة القائمة نوعاً ما ، فان معلوماتنا عن جغرافية الجنوب العربي وعادياته وتاريخه الاسطوري مستقاة الى حد ما من كتب رجلين يمانيين امتلآ حماسة لأمجادها القديمة ، وكتاباتهما وان تباينت حقيقةً وخرافةً فهي متفقة على حد سواء من وجهة نظرنا الحاضرة ـ والمؤلفان هما : حسن بن أحمد الهَمْداني[٣٠] ونشوان بن سعيد الحميري •

الهَمْداني (المتوفى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م) :

لقد ترك لنا الهمداني ، فضلاً عن كتاب ممتاز لجغرافية بلاد العرب

---

(٢٩) مداولات جمعية التنقيب الانجيلي جـ ٥ ص ٤٠٩
Transactions of The Society of Biblical Archaeology.

(٣٠) نهاية الصفحة ١١ من النص الانكليزي •

وهو (صفة جزيرة العرب) الذي نشره « دي•ايج•مولر » ، كتاباً عظيماً عن تاريخ اليمن وآثارها بعنوان « الاكليل » (أي التاج) وهو مقسم الى عشرة كتب موسومة بالعناوين التالية[٣١] :

الكتاب الاول : مختصر من المبتدأ وأصول الانساب •

الكتاب الثاني : نسب ولد الهَمَيْسَع بن حمير •

الكتاب الثالث : في فضائل قحطان •

الكتاب الرابع : في السيرة القديمة الى عهد تُبَّع أبي كَرِيب •

الكتاب الخامس : في السيرة الوسطى من أول أيام أسعد تُبَّع الى أيام ذي نواس •

الكتاب السادس : في السيرة الآخرة الى الاسلام •

الكتاب السابع : في التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة •

الكتاب الثامن : في ذكر قصور حمير ومدنها ، ودواوينها وما حفظ من شعر علمقمه[٣٢] والمراثي والمساند •

الكتاب التاسع : في أمثال الحميريين وحكمهم باللغة الحميرية ، وفي أبجدية النقوش •

الكتاب العاشر : في معرفة حاشد وبكيل (قبيلتى هَمْدان الرئيستين)[٣٣]

---

(٣١) لقد أورد هذا الفهرست دي•ايج مولر (دراسات فى العربية الجنوبية) Südarabische Studien ص ١٠٨ هامش ٢ من الصفحة الاولى من مخطوط الكتاب الثامن من (الاكليل) المحفوظ فى المُتحف البريطانى ولا يعرف وجود نسخة كاملة للكتاب ، ولكن أجزاء لا يستهان بها محفوظة فى المتحف البريطانى وفى مكتبة برلين الملكية (واورده كذلك الأب أنستاس ماري الكِرملي « الاكليل » مطبعة السريان الكاثوليكية ، بغداد ١٩٣١ ، ص ٤) •

(٣٢) الشاعر علقمة ذي جَدَنْ الذى كثيرا ما يستشهد بشعره فى شرح « القصيدة الحميريَّة » •

(٣٣) تجد ترجمة ثانية لما ترجمناه فى أعلاه بقلم الدكتور حسن حبشي فى مجلة الرسالة (العدد ١٧٦) ، ١٩٣٦ ، ص ١٨٨٠ ـ ١٨٨٣ •

نشوان بن سعيد الحميري (المتوفى سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م) :

ان نفس الروح الوطنية العنيفة التي حملت الهَمْداني على أن يكرس نفسه للتتبع العلمي ألهم نشوان بن سعيد الذي انحدر ، من جهة أبيه ، من احدى أسر اليمن الملكية ، بأن يتذكر الماضي الأسطوري ويصبح أمير الشعر لامبراطورية تلاشت منذ زمن بعيد وكادت تنسى ، وهو في القصيدة « الحميرية » يتغنى بقوة الملوك الذين حكموا شعبه وعظمتهم ويتحدث بالروح الاسلامية الصحيحة حديثا ذا مغزى عن(٣٤) سرعة زوال الحياة وتفاهة الطموح البشري(٣٥) وقد شُفعت القصيدة التي ليست لها الا قيمة ضئيلة ، اللهم اِلا كسجل غير مزور نسبياً لأسماء الملوك ،(٣٦) بشرح تاريخي مستفيض لنشوان نفسه على أكبر احتمال ، كما يعتقد الفون كريمر ، أو لشخص آخر عاش حوالي نفس الفترة ، غير أن أولئك الذين

---

(٣٤) نهاية الصفحة ١٢ من النص الانكليزي ٠

(٣٥) نص القصيدة الحميرية وترجمتها للفون الفريد فون كريمر (لايبزغ ١٨٦٥)

« أغنية الحميريين لدبليو٠ايف بريدو »
The Lay of the Himyarites; (Sehore, 1879)
(سيهور ١٨٧٩)

(٣٦) كان نشوان عالماً لغوياً مشهوراً الى حد ما ، وقاموسه العظيم (شمس العلوم) مساعد قيم للمشتغلين بدراسة العهود القديمة فى الجنوب العربى ، وقد استعمله (دي٠ايج مولر) للتثبت من التهجئة الصحيحة لاسماء الاعلام الواردة فى القصيدة الحميرية (مجلة جمعية المستشرقين الالمان المجلد ٢٩ ص ٦٢٠ وما بعدها ٠ « دراسات فى العربية الجنوبية » ص ١٤٣ وما بعدها) ٠

وقد طبع الدكتور عظيم الدين أحمد مقتطفات من « شمس العلوم » تتعلق بالجنوب العربى (سلسلة جب التذكارية : ح ٢٤)
E.J.W. Gibb Memorial Series, Vol. XXIV.

يمثل لهم التاريخ مجموعة من حقائق عارية لن يجدوا شيئا يفي بغرضهم في هذا الشرح حيث خيوط الحقائق قد حيكت في مطرزات خيالية وأسطورية بشكل يكاد يصعب اخراجها منها ، وقد أضفى لأول مرة القاصون المتهنون في صدر الاسلام شكلاً أدبياً على مثل هذه الأساطير ؛ ومن هؤلاء عَبيد بن شَرْيَه من الجنوب العربي الذى زار دمشق بأمر من الخليفة معاوية الذي سأله عن الاخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد(٣٧) وأمر بأن تجمع الاجابات وتدون وتنسب الى عَبيد بن شَرْيَه ، وهذا الكتاب الذى لم تصلنا منه نسخة لسوء الحظ عنوانه : (كتاب الملوك وأخبار الماضين) ويتحدث عنه المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م) كتاباً معروفاً يحظى بانتشار واسع(٣٨) وقد أفاد منه شارح القصيدة الحميرية إما مباشرة أو بطريق كتاب (الاكليل) للهَمْداني ، وبوسعنا أن نعده ، كالشرح نفسه ، رواية تاريخية فيها معظم الشخوص وبعض الحوادث حقيقة مزدانة بالحكايات الخرافية والأبيات الأسطورية(٣٩) والمادة المسلية التي يُتوقع من الرجل المثقف والقصاص المتهن بطبيعة الحال أن يقدمها .

حمزة الاصفهاني :

ومن بين بقية المؤلفين المسلمين القلائل الذين منحوا العصر الجاهلي لتاريخ الجنوب العربي اهتماماً خاصاً لن أذكر هنا غير حمزة الاصفهاني

---

(٣٧) الفهرست : ص ٨٩ س ٢٦ (الطبعة الاوربية لفلوجل) ص ١٣٨ (طبعة المكتبة التجارية) .

(٣٨) مروج الذهب طبعة باربيير دى مينار
Barbier De Meynard

(٣٩) نهاية الصفحة ١٣ من النص الانكليزي .

الذي يزودنا الكتاب الثامن من تاريخه (المنجز سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م) بمخطط مفيد ، مع تفاصيل موجزة لتسلسل الحوادث عن التبابعة أو ملوك اليمن الحميريّين •

يعرب :

خَلَفَ قحطان جد العرب الجنوبيين ابنُه يعرب الذي قيل انه أول من اصطنع اللغة العربية وأول من حيته العرب بالتحيتين اللتين اعتادت ان تقابل بهما ملوكها وهما « إنْعِم صباحاً » و « أبيتَ اللعنَ » أما حفيدهُ عبدشمس سبأ فيعرف مؤسساً لمأرب وبانياً للسد المشهور الذي بناه ، على رأي الآخرين ، لقمان بن عاد •

حمير وكهلان :

وكان لسبأ ابنان هما حمير وكهلان وقد فوض السلطة العليا قبيل وفاته لحمير ، ومهمة محافظة الحدود ومحاربة الأعداء لكهلان ، وهكذا أحرز حمير السيادة واتخذ لقب « أبو أيمن » واستقر في عاصمة المملكة ، في حين أن كهلان اضطلع بالدفاع عن التخوم والقيام بالحرب(٤٠) ، ونأتي الآن بعد أن نحذف السلسلة الطويلة لملوك سبأ الخرافيين الذين ليس في هذه الاسطورة ما يُروى عنهم ، الى حادث انطبع في ذاكرة العرب بشكل ليس الى محوه من سبيل ، ويعرف في أخبارهم « بسيل العرم »(٤١) •

---

(٤٠) فون كريمر «أسطورة الجنوب العربي» Die Südarabische Sage من الممكن ، كما يقترح هو ، أن تكون الحكاية تعبيراً رمزياً عن حقيقة أن السبئيين كانوا منقسمين الى قبيلتين عظيمتين : حمير وكهلان وكانت السلطة الرئيسة لأولاهما •

(٤١) نهاية الصفحة ١٤ من النص الانكليزي •

سـد مـأرب :

على بعد بضعة أميال جنوب غربي مأرب تقترب الجبال من بعضها البعض ، تاركةً فجوة يمر منها نهر « أَدَنَه » ، وقاع النهر جاف على الأكثر خلال الصيف ، ولكن المياه تتدفق في موسم الامطار بعنف بحيث يصعب اجتيازه ، ولكيما تحفظ المدينة من الفيضانات واستجابة لأغراض الري كذلك أقام السكان سداً من البناء المتين الذي الهب خيال محمد (ص)[٤٢]، بعد خرابه بمدة طويلة، فعدَّه المسلمون من عجائب الدنيا[٤٣] وليس مدهشاً أن يغلف مؤرخوهم الحقيقة العارية لخرابه بالكثير من أغلفة

---

(٤٢) هذا كلام من يعتقد بأن القرآن غير موحى ولا منزل ، وهو مردود على نكلسن ، لان الصورة ليست من خيال محمد (ص) ، وانما هى حقيقة تاريخية أُوحيتْ اليه من الله سبحانه وتعالى ٠

[المترجم]

(٤٣) راجع القرآن ــ السورة : ٣٤ « سورة سبأ » الآية ١٥ وما بعدها ٠

[١٥ ــ لقد كان لسبأٍ فى مسكنهم آيةٌ ، جنتان عن يمين وشمالٍ ، كُلُوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غفور ٠

١٦ ــ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيلَ العَرِم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ من سدرٍ قليل ٠

١٧ ــ ذلك جَزَيناهم بما كفروا ، وهل نُجازي الا الكفور ٠

١٨ ــ وجعلنا بينهم وبين القُرى التى باركنا فيها قُرى ظاهرةً وقدّرنا فيها السير ، سيروا فيها لياليَ وأياماً آمنين ٠

١٩ ــ فقالوا : ربَّنا باعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كلَّ ممزق ٠ ان فى ذلك لآياتٍ لكل صبّارٍ شكور ٠

٢٠ ــ ولقد صدّق عليهم ابليس ظنّه فاتّبعوهُ الا فريقاً من المؤمنين]

وقد وصف آرنو الخرائب الماثلة اليوم فى المجلة الآسيوية (الفرنسية) ، السلسلة السابعة ، المجلد ٣ (١٨٧٤) ص ٣ وما بعدها ٠

الظروف الأسطورية الا انه من الضروري اختصارها هنا(٤٤) .

أصوات تعلن خرابه :

في نحو ختام القرن الثالث للميلاد أو من المحتمل في فترة أسبق احتل(٤٥) عرش مأرب بصورة مؤقتة عمرو بن عامر ماء السماء الملقب بـ « مزيقيا »(٤٦) وكانت زوجه « ظريفة » بارعة في فن الكهانة وقد حلمت أحلاماً ورأت رؤى أعلنت عن الكارثة المتوقعة فقالت لزوجها الذى شك في تنبؤاتها : « اذهب الى السد فاذا ما شاهدت جرذاً يحفر حفراً في السد بمخالبه ويحرك صخوراً هائلة بقدميه الخلفيتين فاعلم بأن المصيبة قد حلّت بنا » فذهب عمرو الى(٤٧) السد ونظر ملياً فاذا بجرذ يحرك صخرة هائلة

---

(٤٤) اتبعت هنا رواية المسعودى فى « مروج الذهب » (طبعة باربييه دي مينار) جـ٣ ص٣٧٨ وما بعدها والنويرى فيما أورده عنه رايسكه Reiske فى كتابه « أسطر عربية تاريخية نادرة » Primae Linear Historiae Rerum Arabicorum ص ٦٦ وما بعدها .

(٤٥) قد يكون لقصة الهجرة من مأرب كما هي مروية فى أدناه أصل تاريخى ، غير أن السد لم يخرب نهائيا الا بعد عهد طويل ، وترينا الكتابات المحفورة على الخرائب الماثلة أنه كان فى حالة صلاح نوعا ما الى منتصف القرن السادس للميلاد ، وان أول فيضان مدون حدث سنة ٤٤٧ ــ ٤٥٠ ، وفى مناسبة اخرى (سنة ٥٣٩ ــ ٥٤٢) أعاد أبرهة ، نائب الملك الحبشى فى اليمن ، بناء السد جزئياً . راجع ئى.كليزر : «كتابتان عن انهدام سد مأرب »

E. Glaser: Zwei Inschriten Uber Den Dammbruch Von Mârib (Mitteilungen Der Vorderasiatischen Gesellschaft, 1897, 6)

(٤٦) يقال انه أحرز هذا اللقب من عادة تمزيقه كل ليلة الرداء الذى ارتداه أثناء النهار .

(٤٧) نهاية الصفحة ١٥ من النص الانكليزى .

لا يستطيع خمسون رجلاً زحزحتها من موضعها ، وإذ اقتنع بهذه الظاهرة وظواهر مرعبة أخرى بأن السد سرعان ما سينفجر وتغدو الارض خراباً عزم على بيع ممتلكاته والرحيل بأسرته ، ولئلا يثير سلوك غريب كهـذا شكوكاً لجأ الى الحيلة الآتية : دعا وجهاء المدينة الى وليمة ممتازة قوطعت حسب خطة مدبرة بمعركة حامية بينه وبين ولده (أو كما يروى الآخرون بينه وبين يتيم ُربّي في بيته) فتبادل الاثنان اللكمات وصاح عمرو «وافضيحتاه!! أفي يوم مجدي وفخرى يسبني ويلطمني غلام عاق ؟ » فأقسم ليقتُلَنّ ولده غير أن الضيوف توسلوا اليه أن يظهر الرحمة ، الى أن رضي في النهاية ، بيد أنه صاح قائلاً : « ولكنني لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي وسأبيع أرضي ومتاعي سأبيع أراضيّ ومواشيّ » وبعد أن تخلص بنجاح مما كان يثقل كاهله ـ اذ لم يعوزه المشترون المتلهفون لتصديق كلامه ـ أخبر عمرو قومه بالخطر الذى يتهددهم ، وخرج من مأرب على رأس حشدٍ عظيم ، وقد أحدثت المياه فجوة في السد بالتدريج ، واكتسحت البلاد ناشرة الخراب طولاً وعرضاً ، فضرب المثل « ذهبوا (أو تفرقوا) أيدي سبا »(٤٨) .

سقوط الامبراطورية السبئية :

يحـدد هـذا الطوفان فترة فى تاريخ الجنوب العربى ، وينخفض منسوب المياه وتعود الأرض الى الزراعة والرخاء ولكن مأرب تبقى مهجورة ويختفي السبئيون الى الابد ، اللهم الا ليشيروا الى مغزى(٤٩) ، أو يزينـوا

---

(٤٨) فـريتـاغ : « الامثـال العـربيـة » حـ١ ص ٤٩٧ Freytag: Arabum Provebia [راجع قصة خراب سد مأرب فى « الاكليل » ج ٨ ص ٢٦٦ ـ ٢٧٠ « المترجم »]

(٤٩) وفى هذا يقول كثير [من الطويل] :

«ايادي سبا يا عزّ ما كنت بعدكم فلم يحل للعينين بعدك منزل »

[« لسان العرب » ج ١ ص ٨٧ « المترجم »

قصة » . لقد أنشد الاعشى[50] [من بحر المتقارب] :

ب – – | ب – – | ب – – | – [[51]

وفي ذاك للمؤتسي[52] أسـوة ومـأرب عفّى[53] عليها العَرِم
رخـام بنتـه لهـم حِميـر اذا جـاء[54] مؤارُه لم يرِم
فـأروى الـزروع وأعنـابـهـا على سعـةٍ ماؤهم اذ قُسِم
فصـاروا أيادي[55] ما يقدرو نَ منه على شُرب[56] طِفلٍ فُطِم

ان اشارة الشاعر الى حمير ليست دقيقـةً تاريخيـاً ، اذ لم يصبـح الحميريون حكام اليمن ويتخذوا ظفار (صنعاء فيما بعد) عاصمة لهم الا

---

(٥٠) الهمداني – « الاكليل » ، الكتاب الثامن طبعة : دىايج مولر ، (S. B. W. A. قينا ١٨٨١) ج ٩٧ ص ١٠٣٧ وقد وردت الأبيات مع شيء من التحوير في النص في ياقوت : « معجم البلدان » طبعة قستنفيلد Wüstenfeld ج ٤ ص ٣٨٧ ، وابن هشام ص ٩ (الطبعة الاوربية ، جوتنجن ، ١٨٦٢م) = « السيرة النبوية » لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي (القاهرة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م) ج١ ص ١٤ [راجع كذلك « ديوان الاعشى الكبير ميمون بن قيس » شرح وتعليق الدكتـور م. محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميز ، القـاهـرة ، ١٩٥٠ ، ص ٤٣ ، الابيات ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ وقد ورد في البيت الاول « قفّى » بدل « عفّى » والشطر الثالث : « اذا جاءه ماؤهم لم يرم » والبيت الاخير كما يلي :

فطـاروا سـراعا وما يقدرو ن منه لشرب صبي فطـم]

(٥١) نهاية الصفحة ١٦ من النص الانكليزي .

(٥٢) المؤتسي – المقتدى ، والأسوة (بالكسر والضم) : الاقتداء .

(٥٣) ويروى : « نفى » ومعناها : « نحّى » .

(٥٤) مؤّاره (بضم الميم وفتحها) تلاطم مائه وتموجه .

(٥٥) أيادي : متفرقين .

(٥٦) الشرب (بالضم) المصـدر (وبالكسر) الحـظ والنصيب من الماء .

بعد انهدام السد وتفرق السبئيين الذين بنوه(٥٧) .

التبابعـــة :

كان أول تبع عُرف ملوكُ حمير باسمـه عند المؤلفين المسلمين هـو الحارث المعروف بالرائش لانه راشى عُش قومه بالغنائم التى جاء بهـا ظافراً من الهند وأذربيجان(٥٨) ويدين على ما يظهر بعض التبابعة الذين جاؤا بعده بمكانهم فى السلالة الحميرية الى علماء الانساب الذين كان احترامهم للقرآن أعظم من قابليتهم النقدية ، ومثل هذا الرجل الخيالى هو (صَعْب ذو القرنين) .

ذو القرنـين :

ترينا الأبيات الآتية [من الطويل] أنه توأم ذي القرنين العجيب المذكور في القَصص القرآني ويظن معظم المفسرين أنه الأسكندر الكبير(٥٩) بالذات :(٦٠)

---

(٥٧) الكتابة التالية محفورة على احدى الاسطوانات التى وصفها آرنو: « يشعمر بيـّن بن سمح علي ينوف أمير سبأ ثقب الجبل بلق وأقام بوابات الفيضان المسماة رحب لفائدة الريّ » الترجمة الانكليزية عن دى٠ايج مولر، سبق ذكره ، ص ٩٦٥ .

(٥٨) ان لفظتي « حِمْيَر » و « تُبَّع » لم تذكرا اطلاقاً فى النقوش القديمة ، ونادراً جداً حتى فى الحديثة منها .

(٥٩) نهاية الصفحة ١٧ من النص الانكليزى .

(٦٠) راجع القرآن : السورة ١٨ الآية ـ ٩٨ حيث ورد قوله تعالى : « ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ، إنـّا مكـّنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً فاتبع سبباً ، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوماً قلنـا ياذا القرنين إمـا أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً وأما من آمن وعمـل صالحـاً فله جـزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ثم اتبع سبباً حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قومٍ لم نجعل لهم من دونها ستراً كذلك وقد أحطنا بمـا لديه

لنا ملكٌ ذي القرنين هل نال ملكه | من البشر المخلوق خلقٌ مصورٌ ؟
نوى ثمَّ يتلو الشمسَ عند غُروبِها | لينظُرَها في عَيْنِها حين تُدحرُ
ويسمو اليها حين تطلُع غُدوةً | ليلمحها في برجها حين تظهرُ
دليلاً بأسبابِ السماءِ نهارَهُ | وليلاً رقيباً دائماً ليس يفترُ
وأرصد سداً من حديد اذا بدا | ومن عين قطرٍ مترعا ليس يظهرُ
رمى فيه يأجوجا ومأجوجَ عَنوةً | الى يومَ تُدعى للحساب وتُنْشَرُ(٦١)

بِلقيس :

وهكذا نجد بين التبابعة ملكة سبأ التي أورد القرآن مغامراتها مع سليمان في السورة السابعة والعشرين ؛ ومع أن محمداً (ص) نفسه لم يذكر اسمها ولا أصلها فان المفسرين نهضوا بأعباء ما طُلب اليهم وكشفوا عن هُويتها كبلقيس بنت شراحيل (أو شرحبيل)(٦٢) ٠

خبراً ثم اتبع سبباً ، حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولاً ، قالوا : يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ قال : ما مكّنّي فيه ربي خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ، آتوى زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال : انفخوا ، حتى اذا جعله ناراً قال : آتوني افرغ عليه قطراً ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ٠ »

(٦١) النص العربى فى كتاب فون كريمر : «الاشعار العربية القديمة عن المأثورات الشعبية اليمانية » ص ١٥ (رقم ٨ س ٦ وما بعده) ٠ كان حسان بن ثابت قائل هذه الأبيات معاصراً لمحمد (ص) الذى كرس له الشاعر ما كان لديه من موهبة شعرية ؛ ويدعي ، فى الأبيات التى تسبق هذه التى ترجمت الى الانكليزية ، مباشرة ، انه سليل قحطان ٠

(٦٢) فى رأي الكاتب الاميركى ڤارديس فشر Vardis Fisher فى كتابه : (The Valley of Vision) « وأدى الرؤيا » الذى ترجمه الاستاذ فريد لقمان بعنوان « وادي الاحلام » (سبق ذكره ، راجع ص ١٥ هـ ٤ فى أعلاه) أن بلقيس هى الاميرة المصرية خيتْ Khate التى تزوجها النبيّ سليمان ؛ والى ذلك فنحن نرد قول نكلسن : « ان محمد (ص) نفسه لَم يذكر اسمها » ، فنقول : « ان الله عزوجل هو الذى أغفل اسمها ! »
[المترجم]

والبطل القومي لأساطير الجنوب العربي هو التُبّع(٦٣) أسعد كامل أو أبو كريب ، كما يعرف أحيانا ، وقد بقيت ذكراه حيةً حتى فى الوقت الحاضر ، على ما يقول فون كريمر ، ولا يزال شبحه في خرائب بلاطه في (ظفار) « وليس ثم من يقرأ أغنية مغامراته أو كلمات الحض التي وجهها من فراش الموت الى ولده حسّان يمكنه أن يهرب من الاعتقاد بأننا هنا أمام شعر شعبي حقيقي ـ مقتطفاتٍ من دورة أسطورية للجنوب العربي تصل بدايتها ، دون شك ، الى أيام سحيقةٍ في القدم(٦٤) وانني لأقدم هنا أولى القطعتين وهى تلك التى يمكن أن توسم بـ «أغنية السواحر الثلاث»(٦٥) [من المنسرح] :

أغنيـــةُ السواحـر الثـلاث

الدهـر يأتيك بالعجـائب والـ   أيـامُ والدهـرُ فيـــه معتبرُ

---

(٦٣) نهاية الصفحة ١٨ من النص الانكليزى ٠

(٦٤) فون كريمر: «أسطورة الجنوب العربي» Die Südarabiscne Sage ص ٧ من المقدمة ٠

(٦٥) لقد قدم فون كريمر ترجمة نثرية لها ، نفس المصدر ، ص ٧٨ وما بعدها ، والنص العربي الذي نشره فيما بعد فى كتابه : « أشعار عربية قديمة فى المأثورات الشعرية اليمانية » ص ١٨ وما بعدها ، مضطرب فى بعض المواضع ومغلوط فى مواضع أخرى ٠ لقد اتبعت تفسير فون كريمر إلا حيثما بان لي واضحا أنه لا يمكن الأخذ به ، ولن يجد القاريء صعوبة فى الاعتقاد بأن القصد من هذه القصيدة هو أن تنشد على لسان مغنٍ متجول لرهط قد تجمع حوله فى الليل ومن الأرجح أنها من نظم بعض القصاص الذين عاشوا فى القرن الأول بعد الهجرة كعَبيد بن شَريه (انظر الصفحة ١٣ من النص الانكليزى والصفحة ٤٨ من الترجمة العربية) أو يزيد بن ربيعة بن مفرّغ (المتوفى سنة ٦٩هـ/٦٨٨م) الذى قيل انه اخترع قصائد الملوك الحميريين ورواياتهم (الأغاني : ١٧/٥٢) ٠

بينا ترى الشمل فيه مجتمعاً   فرّقَه في صروف القدرُ
لا ينفع المرءَ فيه حيلتُه   فيما سيلقاه لا ولا الحذرُ
اني زعيمٌ بقصةٍ (عجبٍ)   عندي لمن يستزيدها الخبرُ

* * *

يكون في الأسْدِ مرةً رجل   تمَّ له في ملوكه الخطرُ
مولدُه في قرى ظاهر همدان بتلك التي اسمها خَمِرُ (٦٦)
يقهر أصحابه على حدث السن ويحقرهم فيُحتَقَرُ
حتى اذا مكنته صولتُه   وليس يدري ما شأنه البشرُ (٦٧)
أصبح في هِنوام (٦٨) على وجلٍ   وأهله غافلون ما شعروا
رأوا غلاماً بالأمس عندهمُ   أزرى لديهم بجهله الصغرُ
لا يفقدوه لا درَّ درُّهُمُ   لو علموا العلم فيه لافتخروا
حتى اذا أدركته روعتُه   بين ثلاث وثلاثة حجروا
جاءت اليه الكبرى بأُسقيةٍ   شتى وفي بعضها دمٌ كَدِرُ
فقال : «هاتي اليَّ أشربُها ! »   قالت له: «ذر» فقال : «لا أذرُ»
فناولته فما تَوَرّعَ عن   أقصاه حتى أمادَهُ السَّكَرُ
فنهنهتْه الوسطى فنازلها   كأنه الليث هاجه الذعر
قالت له : « هذي مراكبنا ،   فاركب فشر المركبِ الحُمُرُ »
فقال : « حقا صدقتِ » ثم سما   فوق ضُبيعٍ قد زانه الضمر
فدق منه جنباً فغادره   فيه جراح منها به أثر

---

(٦٦) لا تزال باقية الى اليوم ، اذ أقيم فيها مؤتمر المصالحة اليماني (سنة ١٩٦٥) « المترجم » .
(٦٧) نهاية الصفحة ١٩ من النص الانكليزي .
(٦٨) في الأصل « هيّوم » بدلا من « هنوام » وقد قرأها فون كريمر « أهنوم » ولكن راجع : الهمداني ، « صفة جزيرة العرب » ، ص ١٩٣ ، السطر الأخير وما بعده (و « هِنوام » اسم تل) .

ثـم أتته الصغـرى تمرضـه فوق الحَشايا ودمعه(٦٩) درر
فحال عنهـا بمضجع ضجر ولا تسـاوى الوطـاء والزعر
كأنَّ اذ ذاك بعـد صرعتـه من شدة الجهد(٧٠) تحته الابر
قلن لـه لما رأين جرأتـه : «أسعدُ، أنت الذي لك الظفر!»
في كل ما وجهـة يوجههـا وأنت يشفى بحربك البشر(٧١)
وأنت للسيف والسنان وفي الـ أبـدان تبـدو كأنهـا الشمـر
وانَّ أنت المهريقُ كـلَّ دمٍ اذا ترامى (بشخصك) السفرُ
فارشد ولا تستكن في (خَمرٍ) وَرُدْ ظَفاراً فانهـا الظَّفَرُ
فلسـت تلتـذ عيشـةً أبـداً وللأعـادي عـينٌ ولا أثـرُ
نحن من الجن يا « أبا كرب » يا تبَّع الخير هاجنا (الدغَرُ)
فمـا بلوناه فيـك من تلـف عن عمـد عـينٍ وأنت مصطبر
ثـم أتى أهلـه فأخبرهـم بكل ما قـد رأى فمـا اعتبروا
فسـارعتهـم من بعـد تاسعـةٍ الى ظَفارٍ وشأنه (الفِكَرُ)
فحلَّ فيهـا والدهر يرفعـه فى عِظْمِ شأن وهو يشتمرُ(٧٢)

---

(٦٩) ترجمها نكلسن « ودمعها » بدلا من « ودمعه » [المترجم]
(٧٠) قرأت هنا « الجهد » بدلا من « الجهل » [نكلسن]
(٧١) نهاية الصفحة ٢٠ من النص الانكليزى .
(٧٢) أشار نكلسن الى أنه حذف بعد هذا البيت سبعة أبيات تُبيّنُ كيف أن عجوزا من المدينة جاءت الى الملك أسعد متوسلة اليه ليثأر لهـا وكيف أنه جمع جيشاً خميساً لا عدد له ودحر أعداءه وعاد الى ظفار منتصراً؛ واتماماً للفائدة نثبت الأبيات المحذوفة هنا :

حتى أتته من المدينـة تشكـو الظلم شمطاءُ قومُهـا غدروا
(أدت) اليه منهم ظلامتها ترجو بـه ثأرَهـا وتنتصرُ
فأهمل الرأي فى الذي طلبت (فكان) كلٌّ بذاك يأتمِرُ
فعبـأ الجيش ثم سار به مثل الربا فى البـلاد ينتشر
قـد ملأ الخافقين عسكره كأنـه الليـل حـين يعتكـر
تعـم أعـداءَهُ كتائبُـهُ وليس يُبقي فيهـم ولا يذر
حتى مضى منهُمُ لثانيـةٍ وفـاز بالنصر ثم ينتصـرُ !

انا وجدنا هـذا يكون معـــا في علمنـــا والمليـك مقتـدر
فالحمـــد لله والبقـــاء لـــه كل الى ذي الجـلال مفتقـر

وتجعل الأسطورة أسعد بطل حملة على فارس حيث بدحر القائد الذي يرسله الأرساسيديّون ضده ويتغلغل في بحر قزوين وفى طريق عودته يسلك طريق الحجاز واذ يعلم أن ولده الذى خلفه فى المدينة المنورة قد قتل غدراً يعزم على أن ينتقم له انتقاماً فظيعاً من سكان المدينة ٠

أسعد كامل وحِبرا المدينة :

« وبينما كان تبّع منهمكاً فى اعداد الغارة عليهم وفد عليـه حبران يهوديان من قريظـة يتفجر العلم منهما ، فلما علما بعزمه(٧٣) قالا له : « أيها الملك لا تفعل ، فانك ان أبيت الا ما تريد حيل بينك وبينها ، ولـم نأمل عليك عاجل العقوبة » فقال لهما : « ولم ذلك ؟ » فقالا : هي مهاجر نبيّ يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان تكون داره » فتناهى عن ذلك ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينـة واتبعهما على دينهما »(٧٤) ٠

أسعد كامل فى مكة :

« وكان تبّع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها ، فتوجه الى مكة وهي فى طريقه الى اليمن ، ثم أتاه نفر من هذيل قالوا له : « أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال واثرٍ أغفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟ » قال : « بلى » فقالوا : « أرسل الى الحبرين ! » فأرسل اليهما وخبرهما بما حدثه به الهُذَليّون ، فقالا له : « ما أراد القوم الا

---

(٧٣) نهاية الصفحة ٢١ من النص الانكليزى ٠

(٧٤) ابن هشام : ص ١٣ س ١٤ وما يليه ٠

هلاكك وهلاك جندك . ما نعلم بيتاً لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ولئن فعلت ما دعوك اليه لتهلكن وليهلكنَّ من معك » فسألهما ما يصنع اذا قدم عليه فأشارا عليه بأن يصنع ما يصنع أهله « تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذلل له » فقال : « فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟... « أما والله انه لبيتُ ابراهيمَ ، وانه لكما أخبرناك ولكن أهله خالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله وبالدماء التي يهرقون عنده وهم نجس أهل شرك » فامتثل أمرهما وقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ، ثم مضى حتى قدم مكة ، فطاف بالبيت ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ، ينحر بها للناس(٧٥) فيطعم أهلها ويسقيهم العسل(٧٦)...

يحاول ترسيخ اليهودية فى اليمن :

... « ثم لما دنا تبع من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا : « لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا » فدعاهم الى دينه وقال « انه خير من دينكم « فقالوا : « فحاكمنا الى النار » قال « نعم » .

وكان باليمن فيما يزعم أهل نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم ، فخرج قوم بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلديها حتى قعدا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه ، فخرجت النار اليهم ، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فذمرهم من حضرهم من الناس ، وأمروهم بالصبر لها ، فصبروا حتى غشيتهم ، فأكلت الاوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق

---

(٧٥) نهاية الصفحة ٢٢ من النص الانكليزى .
(٧٦) ابن هشام : ص ١٥ س ١ وما بعده .

جباههما لم تضرهما فأصبحت عند ذلك حمير على دينه ، فمن هنالك كان أصل اليهوديّة باليمن . »[٧٧] أهـ .

وداع أسعد لولده :

والقصيدة الموجهة الى ولده وخليفته حسان والتي وضعتها الأخبار على لسانه ، نوع من العهد والوصية الأخيرة ، وقد احتل القسم الأعظم منها تفاصيل فتوحاته وتمجيد اسرته ونفسه[٧٨] وكل ما نجده كحكم ومواعظ ملائمة للمناسبة الرزينة متضمنة فى الابيات الآتية [من الكامل] :

حضرت وفـاة أبيكَ يا حسانُ	فانظـر لنفسك فالزمان زمـانُ
فلربمـا ذلَّ العزيزُ وربمـا	عزَّ الذليل وهكذا الانسانُ[٧٩]
قولوا لِحِـمْيَـرَ يقبروني واقفاً	وتكنْ معي الخيلان والرقّان[٨٠]

(٧٧) تجد ترجمة ثانية لما أوردناه فى أعلاه بقلم الدكتور حسن حبشي فى مجلة الرسالة (العدد ١٧٨ ـ ٣٠ نوفمبر ، سنة ١٩٣٦ ـ السنة الرابعة ، ص ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦) مع ذلك فقد أعدنا ترجمته من النص الانكليزى ، وان كان معظمه فى الواقع نصُوصاً شعرية ونثرية من مظان عربية ليس غير !..

(٧٨) النص العربي فى كتاب فون كريمر : الشعر العربى القديم فى المأثورات الشعبية اليمانية» Altarabische Gedichte Ueber Die Volkssage Von Jemen. ص ٢٠ وما بعدها ، والترجمة النثرية الى الالمانية لنفس المؤلف فى كتاب Die Südarabische Sage « حكماء الجنوب العربى » ص ٨٤ وما بعدها .

(٧٩) نهاية الصفحة ٢٣ من النص الانكليزى .

(٨٠) الشطر الثانى من هذا البيت مضطرب ، فالفون كريمر يترجمه فى ملاحظاته للنص العربى ص ٢٦ بما يأتى : « وادفنوا معي الجِمـال والرقيق » بيد أنه فضلاً عن أن لفظة « رقّان » (جمع رقيق) لم يذكرها اللغويون ، يبدو من غير المحتمل أبداً أن يأمر الملك بمثل هذا العمل البربرى لذلك افسر لفظة خيلان (جمع خال) بمعنى منسوجات يمانية ناعمة ، واقرأ اللفظة الثانية « زقان » (جمع زِقّ) .

وانظر لكاهنتي فان كلامها علم وان بصوتها غيمان[٨١]

قلاع اليمن :

بوسعنا أن نضيف بضع كلمات عن غَيْمان[٨٢] فيما يتعلق بقلاع اليمن التي لا تزال هياكلها المحطمة الناهضة من مرتفعات فريدة تبدو وكأنها لا تزال عابسة بتحدٍ في وجه المسافر العابر ، وقد كانت قبل ألفي سنة وربما أكثر من ذلك بكثير يسكنها أقيال أقوياء مستقلون نوعاً ما، وكانوا في الأزمنة المتأخرة عندما جعلت الامبراطورية الحميرية تتدهور ينتخبون سيدهم الملك دوماً ويخلعونه أحياناً ؛ وقد قدم لنا العالم الجغرافي الهَمْداني معلومات مفصلة عن هذه القصور في الكتاب الثامن من مؤلفه العظيم في تاريخ اليمن وآثارها بعنوان « الاكليل »[٨٣] وأقدم هذه القصور وأشهرها هو قصر غمدان ، قلعة صنعاء ، وقد وصف بأنه بناء ضخم مكون من عشرين طابقاً وكل طابق بارتفاع عشرة أذرع وكانت الواجهات الأربع مبنية بأحجار ذات ألوان مختلفة أبيض وأسود وأخضر وأحمر وكان في الطابق العلوي صالة ذات شبابيك رخاميّة مؤطرة بالأبنوس وخشب الدُلب ، وكان سقفها صفيحة من الرخام الشفاف بحيث انه عندما كان سيد غمدان يضطجع على فراشه يرى الطيور ترفرف فوق رأسه ويستطيع أن يميز بين الغراب والحدأة وكان في كل زاوية أسد نحاسي ، وعندما كانت الريح تهب[٨٤]

---

(٨١) غيمان أو مقلاب حصن بالقرب من صنعاء حيث كان يدفن ملوك الحميريين ٠

(٨٢) ياقوت : « معجم البلدان » ٠

(٨٣) لقد نشر دي٠ايج مولر نص هذا القسم من «الاكليل» مع ترجمته S.B.W.A. ج ٩٤ و ٩٧ (فينا ١٨٧٩ ـ ١٨٨٠) ٠

(٨٤) نهاية الصفحة ٢٤ من النص الانكليزي ٠

كانت تدخل في أجواف التماثيل وتخرج صوتاً يشبه زئير الأسود •

زرقـاء اليمامـة :

ولابد أن تكون مغامرة أسعد كامل مع « السواحر الثلاث » قد أعادت الى ذاكرة كل قاريء بعض المشاهد في ماكبث(٨٥) ومن الغريب انـه في تاريخ ولده حسان حادثة تروى فتقدم شبيها يضارع مسيرة غابة برنام(٨٦) ولقد سبق ذكر « طسم » و «جديس» ؛ وعند حدوث مجزرة القبيلة الأولى على يد الثانية هرب طسميٌ واحد اسمـه « رحاب بن مرة » والتجـأ الى تُبَّع حسّان فأقنعه بأن يقود حملة على القتلة ، وكانت أخت « رحاب » قد تزوجت رجلاً من جديس ، وكان اسمها « زرقـاء اليمامـة » عرفت بحدة البصر بحيث كان حسان قد أمر الخيالة أن يمسكوا أمامهم بأغصان

---

(٨٥) راجع فخري أبو السعود : « الخرافـة فى الأدبـين العـربى والانجليزى » الرسالة (العدد ١٧٤ ، «١٩٣٦» ص ١٧٩٠) واليك ما أورده الكاتب فى هذا الصدد : «وقصة مقتل أحد أقيال اليمن على يد أخيه الطامع فى عرشه التي وردت فى كتب الأدب العربي ورُوي فيها شعر لشاعـر يدعى « ذا رُعين » ، منه قوله [من الوافر] :

فأما حميرٌ غدرت وخانت　　فمعذرةُ الاله لذي رُعـينِ

واستشارة الخائن للعرّافين قبل اقتراف جريمته ، والخدعة الحربية التى لجأ اليها جيش ابن الملك القتيل من استتار كل مقاتل بشجرة اقتلعها فى طريقه وحملها أمامه ، حتى بدا الجيش كأنه غابـة تسـير ، كل ذلك مشابه للحوادث التى اتخذها « شكسبير » موضوعاً لروايته « مكبث » التى تدور حول مصرع بعض ملوك اسكتلندا ، وهى بـلاد تشبه بوعورتهـا واستقلالها وبأسها وتأثيرها فى عقول أهل انكلترة حالة اليمن فى جزيرة العرب ، وقد عبثت الخرافة بكلتا القصتين ونمقتهما بمظاهر السحر والتنبؤ بالغيب • »

(٨٦) الاشارة هنا الى المنظر الخامس من الفصل الخامس عندمـا يدخل حارس الغابة على « مكبث » ليخبره بأنه قد رأى غابة برنام تتحرك •
[المترجم]

مورقة انتزعوها من الأشجار فتقدموا وهم مختبئون على هذه الشاكلة ، وفي نحو المساء عندما أصبحوا على مسيرة يوم قالت الزرقاء لقومها : « أرى أشجاراً تزحف » فلم يصدقها أحد الا في وقت جدّ متأخر ، وفي صبيحة اليوم التالي انقض عليهم حسان وأعمل السيف في القبيلة بأسرها •

مقتل حسان على يد أخيه :

شعر شيوخ حمير بأن الحملات الحربية التي خصص لها حسان كلّ قواه عبءٌ لا يطاق فتآمروا على قتله ووَضعِ أخيه عمرو على العرش • كان عمرو لاول وهلة غير راغب في الانصياع الى خططهم ولكن محاذيره في النهاية غُلِبتْ على أمرها فطعن تبعاً بيده هو، وقد عوقب القاتل عقاباً فظيعاً اذ جفاه النوم وشرع بتأنيب من ضميره يقتل المتآمرين واحداً تلو الآخر •

ذو رعين :

على انه كان هناك شيخ واحد اسمه ذو رعين بقي مخلصاً له ، وعمل جهده لينقذ عمراً من اثم سفك الدم الأخويّ ؛ ولما أخفقت جهوده رجا من عمرو أن يتقبل ورقة مختومة(٨٧) جلبها معه ليحتفظ بها في مكان مؤتمن حتى يطلبها منه ، فوافق عمرو على ذلك ولم يعد يفكر في الأمر ، بيد انه خيل اليه فيما بعد أن ذا رعين كان مشتركاً في المؤامرة فأمر باعدامه فصاح ذو رُعين : « وكيف ؟ ألم أذكر لك ما كانت تتضمنه الجريمة ؟ » وطلب اليه أن يبرز الورقة المختومة فاذا بها تتضمن هذين البيتين [من الوافر] :

ألا من يشتري سهراً بنومِ ... سعيدٌ من يبيت قريرَ عينِ

---

(٨٧) نهاية الصفحة ٢٥ من النص الانكليزي •

فأمّا حميرٌ غدرت وخانت   فمعذرةُ الاله لذي رُعين[٨٨]

واذ قرأ عمرو ذلك أيقن أن ذا رعين قد نطق بالصدق فخلى سبيله •

ذو نواس :

تنتهي سلالة تُبَع « بعمرو » فالملوك الذين أعقبوه كان ينتخبهم ثمانية من أقوى الأقيال الذين كانوا في الحقيقة أمراء مستقلين كل يحكم من قلعته الحصينة على حاشية وأتباع قدر ما يستطيع أن يخضع منهم لحكمه ، وفي هذه الفترة فتح الأحباش جزءاً من البلاد على الأقل ، وبعث النجاشيّ نواباً عنه من النصارى ليحكموا باسمه ، وأخيراً سحق ذو نواس ، وهو من سلالة تبّع أسعد كامل ، الأقيال المتمردين وجعل نفسه ملك اليمن بلا منازع ، ولما كان متعصباً لليهودية فقد عزم على استئصال شأفة المسيحية من نجران وقد أدخلها اليها ـ على ما قيل ـ من الشام حبر اسمه فَيْمِيُون وقد انضوى الحميريون تحت لوائه ، ولم يكن ذلك عن دوافع دينية قدر ما كان عن كره الأحباش •

مذبحة نصارى نجران (٥٢٣م) :

ووجد ذو نواس سببا وجيهاً في مقتل طفلين يهوديين ، على ما زُعِم ، فزحف على نجران بقوة هائلة ، ودخل المدينة وأمر سكانها الاختيار بين اليهودية والموت فهلك الكثير قتلاً بالسيف وقُذف بالآخرين في خندق أمر الملك بحفره وملئه[٨٩] بالنار المتأججة ، وقد تسلى محمد (ص) وشجع أصحابه بعد ما يقرب من مائة عام عندما اشتد عليه الاضطهاد ،

---

(٨٨) الاغاني ج٢٠ ص٨ س١٤ وما بعده (انظر كذلك ابن هشام ج١ ص٢٩) •

(٨٩) نهاية الصفحة ٢٦ من النص الانكليزي •

بأمثولة نصارى نجران الذين أُوذوا « وما نقموا منهم الا أنْ يؤمنوا بالله العزيز الحميد »[٩٠] وقد دفع ذو نواس ثمن انتصاره غالياً ، اذ ذهب أحد الذين نجوا من المجزرة وهو « دوس ذو ثعلبان » الى امبراطور الروم وتوسل اليه كرأس للمسيحية أن يساعدهم فى الأخذ بالثأر فكتب « جستينس » الى النجاشي يرغب اليه فى أن يقوم بالعمل وقبل أن يمضي كثير وقت نزل الى بر اليمن جيش حبشي قوامه ٧٠٫٠٠٠ رجل بقيادة أرياط[٩١] .

موت ذى نواس :

لم يستطع ذو نواس أن يعتمد على اخلاص نبلاء الحميريين فتقلص عدد جنوده « فلما رأى ذو نواس ما رأى مما نزل به وبقومه وجه فرسه الى البحر ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى به الى غمره فأقحمه فيه فكان آخر العهد به »[٩٢] .

هكذا مات آخر من يمثل الخط الطويل من ملوك الحميريين ، أو هكذا على كل حال ، كان يجب أن يموت ؛ ومنذ ذلك الحين فصاعداً تبدو

---

(٩٠) القرآن ـ السورة ٨٥ (سورة البروج) الآية : ٤ وما بعدها واتماما للفائدة نورد الآيات التى تسبق هذه الآية وفيها اشارة صريحة للمجزرة الرهيبة : (٤) قتل أصحاب الاخدود (٥) النار ذات الوقود (٦) اذ هم عليها قعود (٧) وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود .

(٩١) يراجع فى المعلومات المعاصرة والتفاصيل المسيحية عن استشهاد نصارى نجران «كتاب الحميريين» المؤلف من نُتَف من المعلومات (النص السريانى مع الترجمة الانكليزية) «طبعة أي٠موبيرگ سنة ١٩٢٤» وقارن كذلك تور أندرية « أصل الاسلام والمسيحية » (ابسالا ١٩٢٦) ص ١٠ ـ ١٣ .

(٩٢) الطبرى : جـ١ ص ٩٢٧ س ١٩ وما بعده (الطبعة الاوربية) = جـ١ ص ٥٤٦ س ١٦ وما بعده (طبعة مصر ، ١٩٣٩) .

اليمن في تاريخ ما قبل الاسلام معتمدة على الاحباش أو محمية فارسية حسب ، وتؤلف الأحداث التي سنروى الآن توطئة لمسرحية جديدة يلعب فيها عرب الجنوب دوراً غير ذي خطورة تقريباً بعد أن أصبحوا بعيدين عن مركز الاهتمام(٩٣) .

اليمن تحت حكم الحبشة :

وبعد موت ذى نواس استأنف القائد ارياط زحفه على اليمن «ووطىء أرياط اليمن بالحبشة فقتل ثلث رجالها وأخرب ثلث بلادها وبعث الى النجاشي بثلث سباياها ثم أقام بها وقد ضبطها وأذلها(٩٤) .. فأقام ارياط باليمن سنين في سلطانه ذلك(٩٥) .

ابرهة وارياط :

ثم نازعه فى أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشي وكان فى جنده حتى تفرقت الحبشة عليهما فانحاز الى كل واحد منهما طائفة منهم ثم سار أحدهما الى الآخر ، فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة الى أرياط انك لن تصنع بأن تُلقيَ الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً فابرز لي وابرز لك فأينا ما أصاب صاحبه انصرف اليه جنده فأرسل اليه ارياط ان قد أنصفتني فاخرجْ فخرج اليه أبرهة وكان رجلا قصيراً لحيماً حادراً وكان ذا دينٍ في النصرانية ، وخرج اليه ارياط وكان رجلاً عظيماً طويلاً

---

(٩٣) تجد ترجمة ثانية لما ترجمناه فى أعلاه ، للدكتور حسن حبشى فى مجلة « الرسالة » [العدد ١٧٩ لسنة ١٩٣٦] ص ٢٠١٢ ـ ٢٠١٣ .

(٩٤) اختصرت الاخبار التالية من الطبرى (الطبعة الاوربية) ٩٢٨/١ س ٢ وما يليه ، (الطبعة المصرية) ١٩٣٩ ، ج ١ ص ٥٤٦ = نولدكه : « تاريخ الفرس والعرب زمن الساسانيين » ص ١٩٢ وما بعدها .

(٩٥) نهاية الصفحة ٢٧ من النص الانكليزى .

وسيماً ، وفي يده حربة وخلف ابرهة ربوة تمنع ظهره وفيها غلام له يقال له : « عَتْوَده » فلما دنا أحدهما من صاحبه رفع أرياط الحربة فضرب بها رأس ابرهة يريد يافوخه فوقعت الحربة على جبهة ابرهـــة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته فبذلك سمى « أبرهة الأشرم » وحمل غـــلام ابرهة عتوده على أرياط من خلف ابرهة فقتله وانصرف جند أرياط الى ابرهة فاجتمعت عليه الحبشة باليمن(٩٦) ... وكان كل ما صنع ابرهة بغير علم النجاشي ملك الحبشة فلما بلغه ذلك غضب غضباً شديداً وقال عدا على أميري فقتله بغير أمري ثم حلف لا يدع أبرهـة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته ، فلما بلغ ذلك أبرهة حلق رأســه ثم ملأ جراباً من تراب اليمن ثم بعث به الى النجاشي وكتب اليه أيها الملك انما كان أرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا في أمرك وكلٌ طاعته لك الا انى كنت أقوى منه على أمر الحبشة وأضبط لها وأسْوَسَ لها ، وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك وبعثت اليه بجراب من تراب أرض اليمن ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه(٩٧) .

أبرهة نائبا للملك على اليمن :

فلما انتهى ذلك الى النجاشي رضي عنه وكتب اليه أن اثبت على عملك بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى .. ثم ان أبرهة بنى « القَلِيسَ » بصنعاء فبنى كنيسة لم يُرَ مثلُها في زمانها بشيء من الأرض ثم كتب الى النجاشي ملك الحبشة : اني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف اليها حاجَّ العرب ، فلما تحدثت العرب

---

(٩٦) الطبري (طبعة مصر) ١/٤٤٩ .

(٩٧) الطبرى (الطبعة المصرية) ١/٥٥٠ .

بكتاب ابرهة ذلك الى النجاشي غضب رجل من النساك ، أحد بني فقيم ثم أحد بنى مالك ، فخرج حتى أتى القَليس فقعد فيها ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك ابرهة فقال : « من صنع هذا ؟ » فقيل : « صنعه رجل من أهل هذا البيت الذى تحج العرب اليه بمكة لما سمع من قولك أصرف اليه حاجّ العرب فغضب فجاء فقعد فيها أى أنها ليست لذلك بأهل» فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ الى البيت فيهدمه[٩٨] .

ولم يحرر الاخفاق المدمر لهذه الحملة التى حدثت عام الفيل (٥٧٠م) اليمن من النير الحبشي فى الحال ، فان ابني ابرهة « يكسوم » و « مسروق » أبهضا كاهل العرب .

سيف بن ذى يزن :

ولما لم يجد[٩٩] أحد نبلاء الحميريين وهو سيف بن ذى يزن معونة من أبناء قومه ، صمم على البحث عن مساعدة أجنبية ، ووقع اختياره بين امبراطوريتى الروم والفرس ورحل أول الأمر الى القسطنطنية ، فلما خاب أمله هناك حث ملك الحيرة العربي الذى كان تحت سلطان الفرس على أن يقدمه الى بلاط المدائن (طيسفون) .

الفرس فى اليمن (حوالى ٥٧٢م) :

كيف استطاع أن يحصل على مقابلة العاهل الساساني أنو شروان الملقب « بالعادل » وأغراه بخدعة بارعة لجمع قوة مؤلفة من ثمانمائة سجين محكوم عليه أطلق سراحهم وأبحروا الى اليمن تحت قيادة قائد مسن وكيف أنهم أحرقوا سفنهم كلها تقريباً وأخذوا من اليأس قوة فدحروا

---

(٩٨) الطبرى (الطبعة المصرية) ١/ ٥٥٠ ـ ٥٥١ .
(٩٩) نهاية الصفحة ٢٨ من النص الانكليزى .

الجموع الحبشية وجعلوا اليمن اقليماً فارسياً[١٠٠] • كل ذلك يكاد يكون قصة روائية حذفناها لانها (فضلا عن ضيق المجال) تتعلق « بتاريخ الفرس الادبي » أكثر منها « بتاريخ العرب الأدبى » ولعلها تستند ، كما يقترح نولدكه ، على أخبار نقلها الفاتحون الفرس الذين استقروا فى اليمن الى ذريتهم الاريستوقراطيين الذين سماهم العرب بـ (الأبناء) أو (بني الاحرار) •

والآن بعد أن نترك مملكة اليمن التى كانت يوماً ما عظيمة ، وقد هبطت من عليائها الى الابد على هذه الصورة المؤسفة ، نتجه صوب الشمال الى المجرى الرئيس لتاريخ العرب[١٠١] •

---

(١٠٠) يجد القارىء تفاصيل كاملة وممتازة فى كتاب البروفسور براون : « تاريخ الفرس الادبي » جـ١ صص ١٧٨ ـ ١٨١ •

(١٠١) نهاية الصفحة ٢٩ من النص الانكليزى •

الفصل الثاني

تاريخ العرب الجاهليين وأساطيرهم

عصر الجاهلية :

يدخل المسلمون ضمن مصطلح « الجاهلية » فترة التاريخ العربي من أقدم العصور الى قيام الاسلام ، وقد ذكرت اللفظة فى أربع فقرات من القرآن ، وتفسر عادة بـ « حالة الجهل » أو مجـــرد « الجهل » على أن گولدتزيهر قد اوضح بشكل حاسم أنّ معنى الجهل (الذى اشتقت منــه الجاهلية) عند شعراء ما قبل الاسلام ليس « الجهل » قدر ما هو « التوحش » و « البربرية » وان عكسه على وجه الضبط ليس « العِلم » بل « الحِلم » الذى يدل على الاعتدال الخلقي للرجل المتمدن ؛ « فعندما يقول المسلمون انّ الاسلام قد وضع حداً لسلوك الجاهلية وعاداتها » فهم يقصدون « الاعمال البربرية » و « الطبع الوحشي » الذى تتميز به الوثنية العربية عن الاسلام ، وبابطالها أراد محمد (ص) ايجاد اصلاح خلقي بين مواطنيه ونعني بذلك الحمية الجاهلية والعصبية القبلية والمنازعات القبلية التي لا نهاية لها ومبــدأ الاخذ بالثار وعدم المصالحة وكل الخصائص الوثنية الاخرى التي قـــدر للاسلام أن يتغلب عليها[١] .

مصادر الاخبار عن الجاهلية :

وبوسعنا أن نصنف مصادر معلوماتنا عن هذه الفترة كما يأتي :

١ ـ القصائد والنتف الشعرية التي ، وان لم تدون[٢] فى حينهــا ،

---

(١) گولدتزيهر : « دراسات اسلامية » ، حـ١ ص ٢٢٥ .

(٢) نهاية الصفحة ٣٠ من النص الانكليزي

احتفظ بها بطريق الرواية الشفهية وقد دون معظمها بعد ذلك بمائتي أو ثلثمائة سنة ، ويعترف بأهميتها (وهي بالفعل السجل المعاصر الوحيد لتاريخ ما قبل الاسلام) فى القول المعروف : « الشعر ديوان العرب » وبه تحفظ الانساب فى الأذهان ، والاعمال الشهيرة تجعل مألوفة ، وسنقدم معلومات عن المجاميع الرئيسة للشعر العربي القديم فى الفصل القادم .

٢ ـ الأمثال :

وهي أقل أهمية لأنها قلما تفصح عن ذاتها ، فى حين أن شروحها من صنع علماء عكفوا على تفسيرها بأى ثمن[٣] ، ولو ان معناها الحقيقي فى كثير من الاحوال لا يمكن الا ان يخمن ، وظروف مصدرها قد نُسيت تماما ، وبالرغم من هذه الحماسة المفرطة المعذورة ، لا يسعنا أن نفقد المجموعتين المشهورتين للمفضل بن سلمة (المتوفى سنة ٢٩١هـ/٩٠٩م) والميداني (المتوفى سنة ٥١٨هـ/١١٢٤)[٤] اللتين تضمان الكثير من المعلومات الغريبة التي تلقي ضوءاً على كل مظهر من مظاهر الحياة قبل الاسلام[٥] .

---

(٣) يقول فخري أبو السعود فى موضوع « الخرافة فى الادبين العربى والانجليزى » مجلة الرسالة ، سبق ذكرها ، ص ١٧٩١ ما يلي : (ان بعض الادباء ، كابن دريد ، اطلق لخياله شيئا قليلا من الحرية ومضى يخترع الروايات والنوادر يفسر بها بعض الامثال السائرة المنحدرة من عهود الجاهلية كقولهم (عند جهينة الخبر اليقين) ، (بالصيف ضيّعت اللبن) و (جزاء سنمار) وقد أخرج من صنعوا ذلك أحاديثهم مخرج الحق وأسندوا بعضها كي يضمنوا لها الرواج بين المتأدبين .

(٤) لقد نشر فريتاغ مجموعة الميداني مع ترجمة لاتينية فى ثلاثة مجلدات (١٨٣٨ ـ ١٨٤٣) تحت عنوان « الامثال العربية » .

(٥) ان مجموعة الأمثال العربية الموسومة ب (كتاب الفاخر) للمفضل بن سلمة الكوفى متوفرة الآن فى طبعة المستر سى٠أي ستورى C.A. Storey الممتازة (لايدن ١٩٣٥) [المؤلف] وقد طبع الفاخر طبعة عربية جديدة مؤخرا فى سلسلة « تراثنا » تحقيق عبدالعليم الطحاوى (القاهرة ١٩٦٠) [المترجم] .

٣ ـ الأخبار والأساطير :

كان من المستحيل ان ينشأ النثر كشكل ادبي عند العرب ما دام العرب الجاهليون بصورة عامة لم يفهموا فن الكتابة ولا مارسوه ، مع ذلك يمكن تقصي بذرة النثر العربي في العهد الجاهلي ، فاننا لنجد فضلاً عن (المثل) و (الخطبة) عناصر من التاريخ والقصة في الروايات النثرية التي اصطنعها الشعراء الدوّارون Rhapsodists لتقديم مادة اغانيهم وايضاحها ببساطة ، وفي الأساطير التي تسرد الاعمال المجيدة للقبائل والافراد ، ولا يزال عدد كبير من هذه الحكايات ـ وبعضها صحيح لا يرقى اليه شك والآخر متسم بطابع الخرافـة ـ في مختلف الكتب الادبيـة والتاريخية والجغرافية التي وضعت ايام العباسيين •

كتاب الاغاني :

ولا سيما في كتاب الاغاني لابي الفـــرج الاصفهاني (المتوفى سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧م) وهو تصنيف لا يثمن ، يستند على تتبعات كبار الانسانيين كمـا سماهم « السر چارلس لايل » وأحسن في تسميتهم ، من القـرنين الثاني والثالث للهجرة[٦] وقد اندثرت الكتابات الاصلية لهؤلاء النقـــاد والعلماء الاوائل ، وبدون استثناء تقريبا ، ولا يكاد يوجد لدينا اى نموذج من مؤلفاتهم خارج نطاق المقتبسات المستفيضة في « كتاب الاغاني » • يقول ابن خلدون[٧] : « انه ديوان العرب وجامع اشتات المحاسن التي سلفت

---

(٦) لقد نشر كتاب الاغاني ببولاق (١٢٨٤/١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٧/١٨٦٨م) بعشرين مجلدا أضاف اليها آر٠ئي٠بروناو R.E. Brunnow (لايدن ١٨٨٨) مجلدا من التراجم ليست في طبعة بولاق ، ونشرته كذلك (دار الكتب المصرية) في القاهرة سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٦٣ وسبقتهمـا مطبعة التقدم ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م [المترجم] •

(٧) « مقدمة ابن خلدون » (بيروت ١٩٠٠) و [طبعـة مطبعـة الكشاف في بيروت] ص ٥٥٤ س ٨ ـ ١٠ و [طبعة المطبعة الازهرية بمصر

لهم فى كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يُعدل به كتاب" فى ذلك فيما نعلمـه وهو الغـاية التي يسمو اليها الاديب ويقف عندها » .

نطاق هذا الفصل :

لن نحاول فى الصفحات التالية أن نضع المجموعة المشوشة من الشعر والاساطير التي يكمن مستتراً فى اعماقها كل ما نعرفه عن بلاد العرب قبل الاسلام لأن مثل هذه المهمة قد انجزها كوسان دى بيرسيفال Caussin De Perceval ببراعة تثير الاعجاب فى كتاب : « بحث فى تاريخ العرب قبل الاسلام » (٨) :

(Essai Sur L'Histoire des Arabes Avant L'Islamime)

ولن يؤدي فرضنا على القارىء خلاصة جافة لذلك الكتاب الشهير الى خدمة غرض نافع ، بل أعتقد أن الطريق الأفضل هـــو أن ننتخب بضـعة مظاهر نموذجية بارزة من العصر نعرضها حيثما أمكن على نحو ما استقاها العرب أنفسهم من الخيال الى حد بعيد ، فاذا كانت الأخبار العربية تنقصها الدقة التاريخية فهي مع ذلك صادقة فى روحيتها حين تؤخذ كمجموع فى تصوير العصر المظلم الذى تبتعثه من مرقده وتنشره أمام أعيننا بكل تقديس واكبار (٩) .

أسرتا الحيرة وغسّان العربيتان الحاكمتان :

حوالي منتصف القرن الثالث للميلاد كانت تحيط ببلاد العرب من الشمال والشمال الشرقي امبراطوريتا الروم والفرس فكانت صحراء الشام

١٩٣٠] ص ٤٨٩ وص ٥٥٤ الطبعة الاوربية (كاترمير) ١٨٥٨ = الترجمة الفرنسية ــ باريس (١٨٦٣ــ١٨٦٨) جـ٣ ص ٣٣١ .

(٨) نشر فى باريس سنة ١٨٤٧ ــ ١٨٤٨ بثلاثة مجلدات .

(٩) نهاية الصفحة ٣٢ من النص الانكليزى .

الممتدة عبر شبه الجزيرة تُكوّن نهاية طبيعية لهما ولكيما تحميا نفسيهما من غارات البدو الذين كانوا يتدفقون الى اقاليم التخوم ويضعون ايديهم على كل ما يمكنهم الوصول اليه من غنائم ويختفون بالسرعة التي جاؤا بها ، وجدت كلتا الدولتين من الضروري اقامة خط من الحاميات على حدود الصحراء ، وهكذا حُدَّ من نشاط رجال القبائل جزئياً ، ولما رُئي أن القوة وحدها علاج باهظ وقليل الجدوى تقرر جعل عدد من القبائل المغيرة في الجيش الامبراطوري ، تمشياً مع قاعدة الحكم الناجحة (فرق تسد) Divide et Impera وكان المرتب الذي يدفع بانتظام وتوقع النهب الذي لا حدّ له ـ لأن روما وفارس كانتا في هذه الايام في حرب مستمرة تقريباً ـ كل ذلك كان محفزاً لم يستطع البدوي الحقيقي مقاومته • بيد أنهم حاربوا كحلفاء أحرار تحت امرة رؤسائهم ومحالفيهم ، وعلى هذه الصورة ظهرت أسرتان عربيتان حاكمتان ـ الغساسنة فى الشام واللخميون في الحيرة غربي الفرات ـ كدولتين عسكريتين يُحتمى وراءهما ، وهما مستعدتان دوماً للتصادم حتى عندما لم تحثهما القوتان المتنفذتان وراءهما ، وسرعان ما أظهر العرب ما يمكن أن يكونوا عليه عندما ينُظّمون ويتدَربون على السلاح •

اذينة وزنوبيا :

عندما دحر كسرى سابور الأول « ڤاليريان » زحف شيخ عربي فى تدمر اسمه اذينة (Odenathus) على رأس قوة كبيرة ضد المنتصر وأخرجه من الشام وتعقبه الى أسوار المدائن عاصمة الفرس (٢٦٥م) فكافأه الامبراطور گليانس Gallienus على انجازاته البارعة بشكل مناسب وذلك بأن أسبغ عليه لقب العظيم Augustus وكان فى الحقيقة السيد المعترف به للفرق الرومانية في الشرق عندما قتل غدراً بعد عام ، وقد وجد من يخلفه بلباقة وجدارة فى شخص زوجته «زنوبيا» النبيلة الطموحة التي

اضطلعت بمهمة بناء امبراطورية شرقية عظيمة ، بيد أنها لم تحز[10] على أفضل مما حازت عليه كليوباطرا في مهمة مماثلة ، وللحظة كانت النتيجة موضع شك ولكن اورليان Aurelian انتصر وساق « ملكة الشرق » الفخور أسيرة أمام عربته الحربية في شوارع روما (٢٧٤م) .

لم ينس العرب هذه الحوادث ، فقد نفخ في أوداج كبريائهم القومية أن يتذكروا أن جيوشاً رومانية قد سارت ذات مرة على كل حال تحت لواء أميرة عربية ، غير أن الأسطورة كما ترويها أخبارهم لا ترتبط بالواقع الا قليلاً ، فليست الأسماء والأماكن قد تغيرت بحرية ـ فزنوبيا نفسها قد التبست بقائدها السوري زبدائي ـ ولكن الوضع التاريخي وان كان لا يرى الا وسط عتمة في المؤخرة كاد يشوه خارج نطاق التعرف عليه ، وما تبقى منه مخاطرة من المخاطرات الرومانسية التي أدخلت البهجة الى قلوب عرب الجاهلية الذين كانوا على غرار أحفادهم المحدثين الذين لا يملون الاصغاء الى قصة « عنترة » أو « ألف ليلة وليلة » .

مالك الازدى :

يقال ان أول ملك من ملوك العرب المستوطنين في العراق (أرض بابل)[11] هو مالك الأزدى الذي قتله ابنه سُلَيْمَة بسهمٍ خطأً ، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أنشد بيتاً [من الوافر] ذهب مثلاً :

أعلّمه الرماية كل يوم   فلما اشتد[12] ساعده رماني

جَذِيمةُ الأبرش :

وقد تراصت أركان مملكة مالك ، اذا صح التعبير عنها بهذه التسمية ،

---

(١٠) نهاية الصفحة ٣٣ من النص الانكليزى .

(١١) هؤلاء هم نفس البدو التنوخيين الذين كونوا فيما بعد جزءا من سكان الحيرة راجع ص ٣٨ « من النص الانكليزى » ، وص ٨١ من « الترجمة العربية » فى أدناه .

(١٢) فى رواية اخرى : « استد » بالسين المهملة .

ونُظّمت على يد ابنه جَذيمة الملقب « بالأبرش » ـ وهى كناية مؤدبة عن « الأبرص » وقد حكم تابعاً لأردشير بابكان مؤسس الدولة الساسانية فى فارس (٢٢٦م) التى استمرت مسيطرة على العرب في العراق فيما بعد خلال فترة ما قبل الاسلام برمتها(١٣) ، وجَذيمة بطل عدة أساطير وأمثال ، وقيل ان كبرياءه كانت لا تطاق ، بحيث انه لم ينادم أحداً غير نجمين يعرفان « بالفرقدين » وقد اعتاد كلما احتسى الخمرة أن يملأ كأساً لكل منهما ، وكان له خادم اسمه « عدي بن نصر » ، شغفت به أخته حباً ، وفي لحظة نشوة وافق على زواجهما ، وفي اليوم التالي غضب للخدعة التى انطلت عليه فأمر بالعريس المنكود فضربت عنقه ، وانهال على أخته بالتحقير والاهانة لزواجها من عبد ، ولكن عندما ولد لها غلام تبناه جَذيمة وحباه فى نشأته بغاية الحب والكَلَف ، وذات يوم اختفى عمرو الشاب فجأة ، ولم يعثر له على أثر لمدة طويلة ، وأخيراً اكتشف عُريان هائماً على وجهه ، من لدن أخوين هما مالك وعَقيل ، فعنيا به وألبساه ثياباً وقدماه الى الملك ، فلما وقعت عينا جَذيمة عليه ابتهج ايما ابتهاج ، ووعد بأن يمنحهما كل ما يطلبانه فاختارا الشرف الذى لم يحظ به مخلوق قبلهما وهو أن يصبحا نديميه فاشتهرا باسم « نَدماني جَذيمة »(١٤) .

قصة الزباء :

لقد كان جَذيمة أميرا حكيماً محارباً ، ففي بعض حملاته دحر عمرو بن ظَرِب بن حسّان بن أُذينه ، وقتله ، وكان شيخاً عربياً جعل

---

(١٣) نهاية الصفحة ٣٤ من النص الانكليزي .

(١٤) وقد ذهبا مثلا ، فقال « متمم بن نويره » فى رثاء أخيه « مالك ابن نويره » مشيراً اليهما [من الطويل] :

وكنا كَنَدماني جَذيمةَ حِقبة   من الدهر حتّى قيل لن يتصدعا

الأغاني : ١٥/٣٠٨ [المترجم]

قسما من شرقي الشام والعراق تحت حكمه ولعله كان أُذينه زوج الزباء كما يدل الاسم وقد تأكد هذا الرأى بما أوضحه « ابن قتيبة » بقوله(١٥) :

« وخطب جَذيمة الزبّاءَ وكانت بنت ملك الجزيرة وملكت بعد زوجها » وعلى الرأي الشائع بين المؤلفين المسلمين كانت الزبّاء(١٦) ابنة عمرو بن ظَرِب ، وقد(١٧) اختيرتْ لِتَخْلِفَهُ عندما صرع في المعركة ؛ وأيّاً كان الأمر فقد برهنت على أنها امرأة ذات شجاعة وعزم خارقين ؛ وكوقاية ضد الهجمات بَنَتْ حصنين متينين على جانبي الفرات ربطت بينهما بنفق تحت الماء وجعلت أحد الحصنين سكناً لها والآخر لأختها « زينب » .

« فلما اجتمع لها أمرها واستحكم ملكها أجمعت على غزو جَذيمة ثائرةً لأبيها ، فكتبت تقول له انها قد رغبت في صلة بلدها ببلده وانها في ضَعف من سلطانها وقلة ضبط لمملكتها وانها لم تجد كفوءاً غيره ، وتسأله الاقبال عليها وجمع ملكها الى ملكه فلما وصل ذلك اليه استخفه الطرب ، ولم ينتصح برأي مشيره ، فقال له « قَصيرٌ » مرشدُهُ في طريقه : انصرف ودمك في وجهك . حتى اذا شارف مدينتها قال لقصير : « ما الرأي » ؟ قال : « ببقّةَ تركتَ الرأي » فراحت مثلاً ، ثم استقبله رسلها بالهدايا والألطاف فقال : « يا قَصيرُ كيف ترى ؟ » قال : « خطرٌ يسير في خطبٍ كبير ، وستلقاك الخيول ، فان سارت أمامك فالمرأة صادقة وان أخذت في جنبيك وأحاطت بك فالقوم غادرون، اركب«العصا»(أي فرسه) فانها لا تُدرك

(١٥) ابن قتيبة في مختارات بروناو
Brunnow's Chrestomathy
ص ٢٩ .

(١٦) على الوجه الصحيح : « الزّبّاء » وهو نعت يعني « الكثيرة الشَعَر » ، وعلى رأي « الطبري » (٧٥٧/١) كان اسمها « نائلة » ؛ ومن الغريب أنّ «زنوبيا» (زينب) ، في النص العربي ، اسم لاخت بطلة القصة.

(١٧) نهاية الصفحة ٣٥ من النصّ الانكليزى .

ولا تسبق ، قبل أن يحولوا بينك وبين جنودك » فلم يفعل ، ولما أحيط بجَذيمة التفت فرأى قصيراً على فرسه العصا وقد بعدت ثلاثين ميلاً ، وأُدخل جذيمة على « الزباء » ، ثم أمرت جواريها أن يقطعن رواهشه في طست من ذهب وقالت : « يا جَذيمة لا يضيعنّ من دمك شيء ، فانما أُريده للخَبَل » ثم سقطت نقطة من دمه على أسطوانة رخام ومات .

ومضى قَصير الى عمرو بن عدي وطلب اليه أن يثأر لخاله فقال عمرو : « كيف وهي أمنع من عُقاب الجو ؟ » فجدع قَصير أنفه وأذنه ودخل على « الزباء » وأخبرها أن عمراً لاحق به لقتله جزاء خيانته فصدقته وأعطته مالاً للتجارة فأتى بيت مال الحيرة فأخذ منه بأمر عدي ما ظن أنه يرضيها وانصرف به اليها ففرحت به ثم قال لها يوماً : « انه ليس من ملك ولا ملكة الا وقد ينبغي له أن يتخذ نفقاً يهرب اليه عند حدوث حادثة يخافها » فقالت له : قد اتخذت نفقا تحت سريري هذا يخرج الى نفق تحت سرير أختي » وأرته اياه ، فأظهر لها سروره بذلك ، وخرج في تجارة ، وعرف عمرو بن عدي ما فعله ، فركب عمرو في ألفي دارع على ألف بعير في الجوالق حتى اذا صاروا اليها تقدم قَصير يسبق الابل وقال لها : « اصعدي في حائط مدينتك فانظري الى مالِك ، وتقدمي الى بوابِك » فلما دخل آخر الجمال نخس البواب عكما من الاعكام فأصاب خاصرة رجل فصاح فقال البواب : « شر والله عكمتم به في الجواليق » فثاروا بأهل المدينة وانصرفت الزباء راجعة ، فلقيت عمرو بن عَدِي ، فمصت خاتمها وقالت : « بيدي لا بيد عمرو »(١٨) .

(١٨) لخصنا هذه القصة مما ورد في الاغاني ج١٤ ص٧٣ س٢٠ ، ويراجع الطبري ج١ ص ٧٥٧ ــ ٧٦٦ والمسعودى : مروج الذهب « طبعة باربييه دى مينار ج٣ ص ١٨٩ــ١٩٩ .

وفي دولتي الحيرة وغسان وصلت ثقافة ما قبل الاسلام ذروة تطورها وانتشرت من هذين المركزين ، واحس بتأثيرها في طول البلاد العربية وعرضها ، فتقديم بعض المعلومات عن تاريخهما وعن الظروف التي مكنتهما من اتخاذ دور العامل الممدّن لن يكون نافلةً وخروجاً عن الموضوع[(١٩)] .

تأسيس الحيرة :

حوالي مستهل القرن الثالث للميلاد ، قام عدد من القبائل البدوية من أصل يماني كلياً أو جزئياً ، تلك التي كونت تحالفا وتسمت بمجموعها باسم «تنوخ» ، باستغلال الفوضى المستفحلة اذ ذاك في الامبراطورية الارساسيدية لغزو العراق (أرض بابل) ووضع مساكنهم في الجزء الخصب غربي

---

(١٩) [نهاية الصفحة ٣٧ من النص الانكليزي] وبوسع القارىء ان يراجع فيما يتعلق بالحيرة وتاريخها رسالة ممتازة للدكتور جي٠ روثشتاين G. Rothstein: Die Dynastie Der Lahmiden in Al-Hira. « دولة اللخميين في الحيرة » (برلين ١٨٩٩) حيث مصادر البحث مبيّنة (ص ٥ وما بعدها) والاشارات الاعتباطية الى الحوادث المعاصرة عند الكتاب السريانيين والبيزنطيين الذين كثيرا ما يصفون ما رأوه عِيانا قيّمة للغاية لتثبيت تسلسل الحوادث الذى لا يستطيع المؤرخون العرب القيام به الا عن طريق التخمين لعدم وجود تحديد زمنى لفترة ما قبل الاسلام ؛ وتضم التواريخ الاسلامية العامة عادة مقاطع أسطورية الى حد ما بطبيعتها عن « ملوك الحيرة وغسان » ، ويمكن لفت الانتباه بصورة خاصة الى المعلومات المستقاة من هشام بن محمد الكلبى المحفوظة فى الطبري والتي ترجمها نولدكه بشرح ممتاز فى « تاريخ الفرس والعرب فى زمن الساسانيين » Geschichte Der Perser und Araber Zeit Der Sasaniden وكان هشام قد توصل الى الوثائق (الارشيفات) المحفوظة فى كنائس الحيرة ، ويدعى أنه استخلص منها عدة تفاصيل تتعلق بالأنساب والتواريخ الخاصة باللخميين (الطبري : جـ١ ص ٧٧٠ س ٧) .

الفرات ، في حين أن فريقاً من المتسللين استمروا على حياة البداوة وانشغل آخرون بالزراعة ، وبتمادى الزمن نمت قرى ومدن وكانت أهم هذه جميعاً الحيرة (أى المعسكر) وقد احتلت موقعاً ملائماً وصحياً على بعد بضعة أميال جنوبي الكوفة بالقرب من بابل القديمة[٢٠] وعلى رأي هشام بن محمد الكلبي (المتوفى سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م) أو (٢٠٦هـ/٨٢١م) ، وهو مرجع ممتاز لتاريخ ما قبل الاسلام ، كان سكان الحيرة خلال حكم أردشير بابكان، أول ملك ساساني لفارس ، (٢٢٦م - ٢٤١م) ، يتألفون من ثلاثة أصناف :

١ - قبيلة تنوخ التي عاشت غربي الفرات بين الحيرة والأنبار في بيوت الشعر .

٢ - العباد وكانوا يعيشون في بيوت في الحيرة .

٣ - الأحلاف الذين لم ينتموا لأي من الصنفين المذكورين أعلاه ولكنهم التحقوا بأهل الحيرة وعاشوا بينهم - مشردين متهمين بالقتل[٢١] يتعقبهم ثأر ذوى قرباهم أو مهاجرين محتاجين يحاولون اصلاح جدهم العاثر .

العبـــاد :

بطبيعة الحال كان أهلُ المدينة الأصليون يؤلفون الى حد بعيد أكثر العناصر تأثيراً فى المدينة وهشام ، كما رأينا ، يسميهم « العباد » على أنَّ اصطناعه لهذه التسمية ليس دقيقاً بشكل مضبوط « فالعباد » بنوع خاص هم العرب النصارى فى الحيرة وسموا كذلك لمسيحيتهم ؛ أما العرب الوثنيون الذين كانوا يؤلفون عند تأسيس الحيرة ولمدة طويلة بعد ذلك أغلبية المواطنين فلم يدخلوا فى تسمية تعبر عن نقيض الوثنية ، فمعنى « العباد »

---

(٢٠) ان لفظة «الحيرة» هى «حيرتا» السريانية (أى الارض المسيحية المقدسة ، والصومعة) ، وهو الاسم الذى كان يطلق على « المعسكر المتنقل » فى الأصل للعرب التابعين للفرس ؛ واحتفظ بها وصفاً لمدينة الحامية .

هو « الخَدَم » أي أولئك الذين يخدمون الله أو المسيح ؛ وليس بامكاننا أن نقرر في أي فترة استُعمِلت التسمية لتمييز المجتمع الديني المؤلف من أفراد من مختلف القبائل ، ذلك المجتمع الذي كان سائداً في الحيرة في القرن السادس للميلاد ، والتواريخ ذات أهمية ضئيلة نسبياً ، والمهم حقيقة وجود مجتمع عربي في الجاهلية لا يستند الى رابطة دم أو الانحدار من جدّ أعلى مشترك، بل على مبدأ روحيّ هو الايمان بدينٍ واحد ، وكان دين « العباد » وثقافتهم يُنقلان بمختلف الطرق الى أبعد زوايا شبه الجزيرة ، كما سيُرى بتفصيل أوفى في فصلٍ تالٍ . لقد كانوا معلمي العرب الوثنيين الذين لم يكونوا ليُحسنوا القراءة والكتابة الا نادراً والذين يجب أن نعترف بأنهم كانوا بعيدين جداً عن تلقي التعليم بحيث كانوا يفضلون الفخرَ بجهلِهم على الانجازاتِ التي اعتبروها وضيعة ، مع ذلك فان خير الأدمغة بين البدو اجتُذِب الى الحيرة بلا مقاومة ، ووجد الشعراء في هذه الأيام ترحاباً من الأمراء ، فقد زار عدد كبير من الشعراء الجاهليين البلاط اللخميّ ، على حين أن فريقاً منهم « كالنابغة » و « عبِيَد بن الأبرص » جعله سكنه الدائم .

اللخميوّن :

ليس من الضروري الدخول في المعضلة العويصة المتعلقة بأصل الأسرة اللخمية في الحيرة وظهورها ، فعلى رأي[٢٢] « هشام بن محمد الكلبي » ، الذي يذكر قائمة بعشرين ملكاً حكموا فترة **٥٢٢** سنة وثمانية أشهر ، أن أول عاهل لخميّ هو عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن لخم الذي تَبنّاه جذيمة والذي أخذ بثأره بعد مقتله ، من الملكة الزباء .

---

(٢١) نهاية الصفحة ٣٨ من النص الانكليزى .
(٢٢) نهاية الصفحة ٣٩ من النص الانكليزى .

النعمان الأول (حوالَيْ ٤٠٠ للميلاد) :

ولا نكاد نعرف شيئاً عن خلفائه حتى نأتي الى النعمان الأول الملقب « بالأعور » الذي حكم في الربع الأول من القرن الخامس .

قصر الخورنق :

ويُعرف النعمان في الأساطير بانياً « للخورنق » وهو قصر مشهور على مقرُبة من « الحِيرة » ، وقد بُني بطلبٍ من الملك الساساني « يزدجرد الأول » الذي أراد لولده الأمير « بهرام جور » سكناً صحياً ؛ وأمر النعمان عند الفراغ منه بالمهندس المعماري وهو رومي(٢٣) (أي من رعايا الدولة البيزنطية) اسمه « سِنِمَّار » أن يقذف من أعلى الأسوار على أم رأسه ، اما لمباهاته بأنه كان في وسعه أن يشيد بناءً أدعى الى العجب « يدور مع الشمس» أو خشية أن يدل على موضع حَجَرةٍ معينة كانت اذا ما زحزحت انهار البناء بأكمله .

النعمان ناسكا :

وفي يومٍ من أيام الربيع (هكذا تمضي القصة) جلس النعمان [مع وزيره] في مجلسه من الخورنق ، فأشرف منه على النجف وما يليه من البساتين والنخل والجنان والأنهار ، مما يلي المغرب ، وعلى الفرات مما يلي المشرق ، فأعجبه ما رأى .. فقال (لوزيره وصاحبه) : «هل رأيت مثل هذا المنظر قط ؟ » فأجاب [الوزير] : « لا ، لو كان يدوم ! » قال : « فما الذى يدوم ؟ » قال : « ما عند الله في الآخرة » قال : «فبم ينال ذاك ؟» قال: « بترك الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده » فترك ملكه من ليلته ولبس المُسوح ، وخرج مستخفياً هارباً لا يُعلم به [وأصبح تقياً سائحاً] ويبدو أن هذه

---

(٢٣) فى النص الانكليزي : « رومانيّ » [المترجم]

الأسطورة قد تفرعت من الأبيات الآتية لعدي بن زيد العبادى[٢٤] [من الخفيف] :

وتفكَّرْ ربُّ الخورنقِ إذْ أشْرَفَ يوماً ، وللهُدَى تَبصيرُ
سرَّه حالُه وكَثْرَةُ ما يَمْلِكُ والبحرُ مُعرِضٌ والسَّدير[٢٥]
فارعوى قلبُه فقال : وما غِبطةُ حيٍّ الى المماتِ يصيرُ ؟
ثُمَّ بعد الفلاحِ والمُلكِ والأمَّةِ وارتْهُم هناكَ القُبورُ
ثُم أضحَوْا كأنَّهم وَرَقٌ جفَّ فألوتْ بهِ الصَّبا والدَّبُور[٢٦]

ومن المحتمل أن رأي معظم المؤلفين العرب عن اعتناق النعمان المسيحية لا أساس له من الصحة ، ولكن هناك ما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان يعطف عليها وأن رعاياه المسيحيين ـ وقد ورد ذكر مطران من الحيرة في وقت مبكر هو سنة ٤١٠م ـ كانوا يتمتعون بحرية دينيّة كاملة .

المُنذر الأول :

لقد خلف النعمان ولدُهُ المنذر ، وهو أمير كفء ونشيط ، ويمكننا أن نتبين قوة اللخميين في هذا الوقت من تدخل « المنذر » بالقوة بعد موت « يزدجرد الأول » فى النزاع حول موضوع ارتقاء العرش الفارسي ، وقد ضمن انتخاب « بهرام جور » الذى رفض الكهنة مدعياته سابقاً[٢٧] وبرهن المنذر فى الحرب التي اندلعت بُعيد ذلك بين فارس

---

(٢٤) نهاية الصفحة ٤٠ من النص الانكليزي .
(٢٥) السدير قصر على مقربة من الحيرة .
(٢٦) الطبري جـ١ ص ٨٥٣ س ٢٠ وما يليه (الطبعة الأوربية) جـ١ ص ٤٩٩ ـ ٥٠١ (طبعة القاهرة ١٩٣٩) [لقد نقل نكلسن القصة من الطبري مع شيء من التحوير فحاولنا أن نوفق بين الروايتين فى ترجمتنا جهد الامكان] « المترجم »
(٢٧) « لقد رُبّي « بهرام » فى الحيرة تحت رعاية النعمان والمنذر » .

وروما على انه تابع مخلص ، ولكنه اندحر أمام الرومان مع خسارة عظيمة (٤٢١م) •

المنذر الثالث ابن ماء السماء :

بعد أن نمر على عدة ملوك نصل الى بداية القرن السادس عندما ارتقى العرش منذر آخر هو الثالث والأشهر بين المناذرة ، وهو الذى أطلق عليه العرب اسم « المنذر بن ماء السماء »(٢٨) وكان حكمه طويلاً ولامعاً على انه تلبد لوقت قصير(٢٩) بسبب حادث لا يمكن أن يفهم بغير اشارة الى التاريخ العام للفترة •

ظهور كنده :

إذ حدث حوالي سنة ٤٨٠م أن قامت قبيلة كندة القوية التي كان لحكامها تحت امرة التابعة فى اليمن نفس ما كان للخميين تحت امرة ملوك الفرس ، بمدّ سلطانها على أكبر قسم من بلاد العرب الوسطى والشمالية ؛ وكانت الروح المحركة لهذا الفتح هو «حُجر» الملقب « بآكل المرار » أحد أجداد الشاعر امريء القيس ، وقد انحل عرى التحالف الكِنْدِيّ بعد موته ، ولكن أعاد تأسيسه حوالي سنة ٥٠٠م حفيده « الحارث بن عمرو » لفترة قصيرة وأصبح منافساً هائلاً لمملكتي غسان والحيرة •

مَزْدَك :

وفى ذات الوقت انتشرت في فارس مبادىء مزدك الشيوعية على نطاق

فاحتج نبلاء الفرس عليه بأن « أدبه أدب العرب وخلقه كخلقهم لنشئه بين أظهرهم » (الطبري : جـ١ ص ٨٥٨ س ٧ « الطبعة الاوربية » = جـ١ ص ٥٠٣ س ١٨ ـ ١٩ « الطبعة المصرية » ١٩٣٩) •

(٢٨) يقال ان « ماء السماء » هو لقب « أم المنذر » التى كان اسمها الحقيقى « مارية » أو « ماويّة » [ويقول ابن رشيق فى « العمدة » جـ ١ ص ٥٧ طبعة محمد محيالدين عبدالحميد (القاهرة ، ١٩٥٥) ان « ماء السماء أمه »] •

راجع كذلك « شرح ديوان لبيد » تحقيق الدكتور احسان عباس ، ص ٥٤ [المترجم] •

(٢٩) نهاية الصفحة ٤١ من النص الانكليزى •

واسع بين الطبقات الدنيا وقد طبقها أخيراً الملك « قباذ »[٣٠] نفسه[٣١] .

طرد الحارث الكندى للمنذر من الحيرة :

من المؤكد أن « الحارث بن عمرو الكندي » غزا العراق بين سنة **٥٠٥** و **٥٢٩** ، وطرد المنذر من مملكته ويبدو من غير المستحيل ، على ما يؤكد الكثير من المؤرخين ، أن سبب سقوط الأخير هو آراؤه المعادية للمَزْدَكيّة التي أثارت بالطبع استياء عاهله؛ على كل حال مهما كانت الأسباب فقد استعيض « بالحارث » عن « المنذر » بصورة موقتة ، ومع انه اعيد الى منصبه بعد فترة قصيرة ، قبل بدء حكم انوشروان الذي قام كولي للعهد بمجزرة جماعية لاتباع مَزْدَك **(٥٢٨م)** ؛ فالذلة التى تحملها والثأر القاسي الذى أعقب ذلك لم يُنسيا بسرعة[٣٢] وتَشْهَدُ حياة امرىء القيس وأشعاره(*) على العداء الوراثى المستحكم بين لخم وكنده ، وقد وجهت حركات المنذر ضد الرومان بحيوية خارقة ،اذ دمر سوريا الى حد انطاكية ، فأضطر جستنيان الى أن يعهد بالدفاع عن هذه الاقاليم الى « الحارث بن جبلة الغساني » (الحارث الاعرج) الذى وجد فيه المنذر أخيرا أكثر من قريع ، ومنذ هذا الوقت فصاعداً جعل ملوك الحيرة وغسان يغزون وينهبون اقليم بعضهم البعض باستمرار .

---

(٣٠) يسميه نكلسن « كَوَاذ » Kawadh

(٣١) بوسع القارىء أن يراجع ترجمة « نولدكه » للطبري الصفحات ١٤٠ ـ ١٤٤ ؛ ١٥٤ ؛ ٤٥٥ ـ ٤٦٧ ؛ والبروفيسور براون : « تاريخ الفرس الأدبى » جـ١ ص ١٦٨ ـ ١٧٢ فيما يتعلق « بمزدك » ومبادئه .

(٣٢) لقد قتل المنذر عامداً حوالي الأربعين أو الخمسين شخصاً ممن ظفر به من أعضاء اسرة كندة المالكة والحارث نفسه دحر وقتل على يد المنذر سنة ٥٢٩م فهبطت قوة كندة بعد ذلك وأرغمت بالتدريج على التراجع الى مساكنها الأصلية فى حضرموت .

(*) نهاية الصفحة «٤٢» من النص الانكليزى .

موت المنذر الثالث :

وأسر المنذر في احدى حملاته ابناً للحارث فقدمه في الحال قرباناً « لافروديت » أي للالهة العربية « العزى »(٣٣) ولكنه عندما دخل الحرب ثانية سنة ٥٥٤م بوغت وقتل بخديعة في معركة يضرب بها المثل وتعرف (بيوم حَلِيمة)(٣٤) .

يوم البؤس والنعيم عند المنذر :

لقد كان اللخميون بصورة عامة قوماً وثنيين غير متمدنين ، وهاتان الصفتان تليقان بالمنذر الثالث بحق وحقيق(٣٥) اذ يروى في الاغاني « انه كان له نديمان (من بني أسد) هما خالد بن المضلّل وعمرو بن مسعود ، فأغضباه في بعض المنطق ، فأمر بحفر حفرتين وأن يجعلا في تابوتين ويدفنا فيهما ،ففعلوا ذلك بهما ، حتّى اذا أصبح سأل عنهما فأُخبر بهلاكهما ، فندم على ذلك واغتم ، ثم ركب المنذر حتى نظر اليهما فأمر ببناء الغريَّين عليهما فبُنِيا ، وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عندهما يُسمّي أحدهما « يوم نعيم » يُعطى فيه أول طالع عليه مائة من الابل سوداً ، والآخر « يوم بؤس » يعطى فيه أول طالع عليه رأس ظربان أسود ، ثم يأمر به فيذبح ، ويطلى بدمه الغريّان(٣٦) ويقال ان [الشاعر]

---

(٣٣) وقد قدم في مناسبة اخرى أربعمائة راهبة مسيحية قربانا للالهة ذاتها .

(٣٤) راجع الصفحة ٥٠ من النص الانكليزى .

(٣٥) لو لم تكن للمنذر سوى جريمة قتله الشاعر عَبيد بن الأبرص لسبب تافه على نحو ما سيأتي ذكره لاستحق غضب التاريخ . (راجع قصة مصرعه في الاغاني ج١٩ ص ٨٦ ــ ٨٧) [المترجم]

(٣٦) الأغاني ج١٩ ص ٨٦ وما يليه [وهنا نهاية الصفحة ٤٣ من النص الانكليزى] .

عبيد بن الأبرص كان أول من أشرف عليه يوم بؤسه فقتله .

حنظلة وشريك :

وظلّ على هذا الحال حتى مر به رجل من طيّ يقال له « حنظلة » فلما رأى نفسه مقتولاً قال له : « أجّلني سنةً ارجع فيها الى أهلي ، ثم أصير اليك فأنفذْ فيّ حكمك » فقال : « من يكفلك حتى تعود ؟ » فنظر في وجوه جُلسائه فعرف فيهم « شريك[٣٧] بن عمرو » الذي قام وقال للملك : « أبيتَ اللّعن ! يدي بيده ودمي بدمه ان لم يعد الى أجله » ؛ فلما كان العام القابل جلس في مجلسه ينتظر حنظلة أن يأتيه فأبطأ عليه ، فأمر الملك بشريك ليقتله ، فلم يشعر الا براكب قد طلع عليه فتأملوه فاذا هو حنظلة متكفناً متحنطاً معه نادبته تندبه ، فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وأبطل تلك السُنّة .[٣٨]

عمرو بن هند (٥٥٤ ـ ٥٦٩م) :

وقد خلفه على العرش ابنه عمرو الذي عرفه الشعراء المعاصرون له والمؤرخون الذين جاءوا بعده بعمرو بن هند[٣٩] وأصبحت الحيرة على عهده وسطاً أدبياً مهماً ، فزار بلاطه معظم الشعراء المشاهير آنذاك ، وسنرى في الفصل القادم العلاقات التي كانت بينه وبين طرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلّزه . لقد كان رجلاً شرساً عاطفياً طاغية ، وكانت العرب تخشاه ولكنها مع ذلك كانت تعبر عن مقتها له ، كما في قول الذهاب العِجْلِيّ [من الطويل] :

---

(٣٧) وقد أورد له صاحب الاغانى (ج ١٩ ص ٨٧ س ١٨) شعرا مطلعه [من مجزوء الرمل] :

يا شريكاً يا ابن عمرو ... ما من الموت محاله

(٣٨) الأغانى : ج ١٩ ص ٨٧ س ١٨ وما يليه .

(٣٩) كانت هند أميرة كندية (بنت الحارث بن عمرو المذكور فى أعلاه)ولعل المنذر أسرها فى احدى غزواته . كانت مسيحية وأسست ديراً فى الحيرة . راجع ترجمة نولدكه للطبرى ، ص ١٧٢ هامش : ١

أبى القلب أن يهوى السديرَ وأهلَهُ   وانْ قيل عيشٌ بالسَّديرِ غريرُ
فما أنذروا الحيَّ الذي نزلوا به   واني لمن لم يأتِه لنذيرُ
به البقُ والحُمَّى وأُسْدٌ خفيَّةٌ   وعمرو بنُ هندٍ يعتدي ويجور (٤٠)

وقد قتل على يد شيخ تغلب ، عمرو بن كلثوم ، انتقاما لكرامة أمّه (ليلى) لاهانة لحقتها •

النعمان أبو قابوس :

نكتفي هنا بذكر اسمي « قابوس » و (٤١) « المنذر الرابع » وكلاهما ابنا « هند » اعتليا العرش لفترتين قصيرتين ، ونأتي الآن الى آخر ملك لخميّ في الحيرة وأشهرهم في الأخبار الى حدٍ بعيدٍ ، وهو النعمان الثالث ابن المنذر الرابع ، وكنيته «أبوقابوس» الذي حكم من **٥٨٠** الى **٦٠٢** (أو من **٥٨٥** الى **٦٠٧**) وقد ربته وثقفته أسرة مسيحية نبيلة في الحيرة ، كان ربّها زيد بن حماد أبا الشاعر « عَدِيّ بن زيد » •

عَدِي بن زيد :

وعدي شخصية ممتعة كان مصيرها مرتبطا بشكل وثيق محزن بمصير النعمان بحيث ان بعض التفاصيل عن حياة عدي وخُلُقه ستحظى بالرضى والقبول • لقد كان كل من أبيه وجده من ذوي الثقافة غير المعتادة ، وقد أشغلا مناصب رفيعة في الادارة المدنية تحت حكم «المنذر الثالث» وخلفائه ، والى ذلك فقد حصل زيد بجهودِ دهقان (أحد أصحاب الأملاك الفرس) ويدعى « فَرّوخ ماهان » على منصِب مهم وحساس من كسرى أنوشروان،

---

(٤٠) الأغاني : ج ٢١ ص ١٩٤ س ٢٢ •
(٤١) نهاية الصفحة ٤٤ من النص الانكليزى •

ذلك هو منصب « صاحب البريد » وهو منصب يُحتفظ به عادة لأبناء المرازبه[٤٢] وعندما شب عَدِيّ عن الطوق بعث به والده ليتعلم مع ابن الدهقان ، فأتقن الكتابة والكلام بالفارسية بمنتهى السهولة والعربية بغاية الاناقة ، ونظم الشعر وتضمنت منجزاته التي تحلى بها الرماية والفروسية ولعبة الكرة والصولجان .[٤٣]

وفي البلاط الفارسي اجتذب جماله الشخصي وظرفه وسرعة بديهته أنو شروان بحيث انه ألحقه بخدمته واتخذه كاتباً له وترجماناً — ولم تكن العربية قبل هذا تكتب فى الديوان الامبراطوري — وأضفى عليه كل امتيازات المقربين اليه ، وقد عهد اليه بمهمة الى الآستانة حيث قوبل بتقدير وترحاب ، ولدى مغادرته أمر القيصر[٤٤] ، جرياً على عادة ممتازة ، موظفيه المسؤولين عن طرق البريد بأن يزودوه بالخيل وبكل[٤٥] التسهيلات بحيث ان السفير يرى بنفسه سعة الامبراطورية البيزنطية وموارده[٤٦] ، فأمضى عَدِي بعض الوقت فى الشام ، ولا سيما فى دمشق ، حيث ظهرت له أول قصيدة ، على ما يقال ؛ وبعد موت أبيه الذي حدث فى هذا الوقت تخلى عن منصبه الممتاز فى الحيرة ، الذي كان بوسعه

---

(٤٢) كان زيد فى الواقع « نائب الملك » فى الحيرة بعد موت قابوس ، وقد مهد الطريق للمنذر الرابع الذي أثار عنفه امتعاض الناس منه وسخطهم عليه ، (ترجمة نولدكه للطبري ص ٣٤٦ هامش ١) .

(٤٣) لعبة الكرة والصولجان هى لعبة « البولو » Polo

[المترجم]

(٤٤) كان العرب يطلقون على امبراطور الروم (اي البيزنطيين) اسم « قيصر » وعلى امبراطور الفرس اسم « كسرى » .

(٤٥) نهاية الصفحة ٤٥ من النص الانكليزى .

(٤٦) تجد لهذا القسم الذى ترجمناه ترجمة أخرى بقلم الدكتور حسن حبشى فى مجلة « الرسالة » للمرحوم احمد حسن الزيات (العدد ١٨٤ لسنة ١٩٣٧) ص ٦٧ — ٦٨ .

أن يستبقيه بمجرد الطلب ، وأطلق لنفسه العنان فى الصيد ومختلف صنوف التسلية واللذة ، ولم يقم بزيارة المدائن (طيسفون) الا في فترات لكيما يؤدى مهمته سكرتيراً ، وعُلّقَ أثناء مكوثه في الحيرة هنداً ابنة النُعمان وهي يومئذ جارية في الحادية عشرة ؛ والقصة كما تروى في « كتاب الاغاني » غريبة جداً بحيث لا يمكن اغفالها بالمرة ، ولو أن ضيق المجال يحول بيننا وبين تقديمها كاملة(٤٧) ٠

عَدِيّ يقابل الأميرة هند فى البيعة :

كان سبب عشقه اياها أن هنداً كانت من أجمل نساء أهلها وزمانها

---

(٤٧) كتب الي صديقي وزميلي الاستاذ أ ٠ أ ٠ بيفان يقول : « ان حكاية زواج عدي من ابنة الملك مستندة من ناحية على بيت يتحدث فيه الشاعر عن نفسه مصاهراً للاسرة المالكة (الاغاني : ج ٢ ص ٢٦ س ٥ «طبعة بولاق» = ج٢ ص١١٤ «طبعة دار الكتب») ومن ناحية اخرى على بيت آخر يذكر فيه منزل هند (نفس المصدر : ج ٢ ص ٣٢ س ١ « طبعة بولاق » = ج ٢ ص ١٢٨ « طبعة دار الكتب ») غير أن هند هذه كانت على ما يظهر امرأة بدوية وليست ابنة الملك ٠

أما البيت الأول فهو [من الرمل] :

أجْلَ نعمى ربّها أوّلــكم ودنُوي كان منها واصْطهاري

و (أجلَ) بفتح الهمزة وكسرها : كلمة تستعمل للتعليل ، وفى حديث المناجاة : « أجلَ أن يحزنَه » أى من أجله ولأجله ، وفى حديث آخر : « أن تقتل ولدَك من أجل أن يأكل معك » ؛ و (ربّها) :رباها ونماها وتعهدها ؛ وقد تكرر البيت بنفس النص فى الصفحة ١٣٣ من نفس الجزء عقب رواية الاغانى ان عدي بن زيد كان زوج هند أخت النعمان أوبنته ، وان عدياً مدح صهره هذا فى قصائده ، ولكننا لم نجد فى كتب اللغة التى بأيدينا « لاصطهر » معنى سوى ما جاء فى قولهم : « اصطهره أي أذابه وأكله » ؛ ولو قال : « وصهارى » لصح المعنى واتزن البيت أيضا ٠ (نقلا عن هوامش الاغانى ٥ ، ٦ ، ٧ ج٢ ص ١١٤) ٠

والبيت الثانى الذى ورد فيه ذكر « هند » هو [من الخفيف] :

عرّجا بي على ديــارٍ لهند ليس إنْ عجتما المطي كثيراً

[وأمها ماريّة الكِنْدِيّة] فخرجت في خميس الفصح ، وهو بعد السعانين بثلاثة أيام ، تتقرب في البيعة ، ولها حينئذ احدى عشرة سنة [وذلك في ملك المنذر وقد قدم عَدِيّ حينئذٍ بهدية من كسرى الى المنذر ، والنعمان يومئذ فتى شاب] ، فاتفق دخولها البيعة وقد دخلها عَدِيّ ليتقرب ، وكانت مديدة القامة عبلة(٤٨) الجسم ، فرآها عَدِيّ ، وهي غافلة فلم تنتبه له ، حتى تأملها ، وقد كان جواريها رَأَيْنَ عَدِيّاً وهو مقبل فلم يقلن لها ذلك ، كي يراها عَدِيّ ، وانما فعلن هذا من أجل أمَةٍ لهند ، يقال لها ماريّة ، وقد كانت أحبت عَدِيّاً فلم تدر كيف تأتي له ، فلما رأت هند عَدِيّاً ينظر اليها شق ذلك عليها ، وسبت جواريها ونالت بعضهن بضرب ، فوقعت هند في نفس عَدِيّ ، فَلَبِثَ حولا لا يخبر بذلك أحداً ؛ فلما كان بعد حول وظنت مارية أن هنداً قد أضربت عما جرى وصفت لها بيْعةَ دُومة ـ وقال خالد بن كلثوم : « بِيْعةَ توما » ، وهو الصحيح ـ ووصفت لها مَن فيها من الرواهب ، ومن يأتيها من جواري الحيرة ، وحسنَ بنائها وسُرُوجها ؛ وقالت لها : سلي أُمَّكِ الاذنَ لك في اتيانها ، فسألتها ذلك فأذنت لها ، وبادرت ماريّةُ الى عَدِيّ فأخبرته الخبر فبادر فلبس يلمقا(٤٩) كان « فرخانشاهمرد » قد كساه اياه ، وكان مذهباً لم يُرَ مثلُهُ حسناً(٥٠) ، وكان عَدِيّ حسن الوجه، مديد القامة ، حلو العينين ، حَسنَ المبسم ، نقي الثغر ، وأخذ معه جماعة من فتيان الحيرة ، فدخل البيعة ؛ فلما رأته ماريّة قالت لهند : « أنظري الى هذا الفتى فهو والله أحسن من كل ما ترينَ من السُرُوجِ وغيرها ! » قالت : « ومن هو ؟ » قالت : « عَدِي بن زيد »

---

(٤٨) عبلة : ضخمة وتامة الخلقة .

(٤٩) يلمقاً : قباءً (وهو فارسي معرب) .

(٥٠) نهاية الصفحة ٤٦ من النص الانكليزى .

قالت : « أتخافين أن يعرفني ان دنوتُ منه لأراه من قريب ؟ » قالت : « ومن أين يعرفكِ وما رآك قط من حيث يعرِفُكِ ؟ » فدنت منه وهو يمازح الفتيان الذين معه ، وقد برَع عليهم بجماله وحسن كلامه وفصاحته وما عليه من الثياب ، فذَهِلَتْ لما رأتْه وبُهتت تنظر اليه ، وعرفتْ ماريّة ما بها وتبينته في وجهها ، فقالت لها : « كلّميه » فكلمته وانصرفت ، وقد تبعته نفسها ، وهويته ، وانصرف بمثل حالها ، فلما كان الغدُ تعرضت له ماريّة ، فلما رآها هش لها ، وكان قبل ذلك لا يكلمها ، وقال لها : « ما عذابك ؟ » قالت : « حاجة اليك » قال : « أذكريها ، فو الله لا تسأليني شيئاً الا أعطيتُك اياه » فعرفته أنها تهواه ، وأن حاجتها الخلوة به على أن تحتال له في هند ، وعاهدته على ذلك ... فبادرت الأَمَةُ الى النُّعمان فأخبرته خبرها وصدقته ، وذكرت أنها قد قد شُغفت به ، ... وأنه ان لم يزوجها به افتضحت في أمره أو ماتت ، فقال لها : « ويلك ! وكيف أبدؤه بذلك ؟ » فقالت : « هو أرغب في ذلك من أن تبدأه أنت ، وأنا أحتال في ذلك من حيث لا يعلم انك عرفت أمره » وأتت عدياً فأخبرته الخبر ، وقالت : « أُدعُهُ فاذا أخذ الشراب منه فاخطب اليه فانه غير رادك » قال: «أخشى أن يُغضبه ذلك فيكون سبب العداوة بيننا» قالت : «ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه » فصنع عَدِيّ طعاماً واحتفل فيه ، ثم أتى النعمان بعد الفصح بثلاثة أيام وذلك في يوم الاثنين ، فسأله أن يتغدى عنده هو وأصحابه ففعل ، فلما أخذ منه الشراب خطبها الى النعمان فأجابه ، وزوجه وضمها اليه بعد ثلاثة أيام(٥١) .

---

(٥١) الاغانى جـ٢ ص ٢٢ س ٣ وما يليه (طبعة بولاق) جـ٢ ص ١٢٩ ــ ١٣١ (طبعة دار الكتب المصرية) .

عَدِيّ ينجح فى اختيار النعمان ملكاً للحيرة :

بعد وفاة « المنذر الرابع » ساند عَدِيّ بحرارة مطالب النعمان الذى كان من قبل تلميذه وقد أصبح الآن حماه ، في ارتقاء عرش الحيرة ، والخدعة التى اصطنعها فى هذه المناسبة كانت ناجحة تماماً ولكنها كلفته حياته[٥٢] فصمم أنصار الأسود بن المنذر ، أحد المرشحين الخائبين ، على الانتقام ؛ وأيقظت دسائسهم[٥٣] شكوك النُعمان ضد « مُتوِّجِ الملك » .

سجن عَدِيّ وقتله على يد النّعمان :

فألقي به في السجن حيث بقى يرسف في القيد مدة طويلة وأخيراً قتله النعمان عندما تدخل كسرى (پرويز بن هرمز) ليُنقِذه[٥٤] .

انتقام زيد بن عَدِيّ :

ترك عَدي ابناً اسمه زيد الذي عينه كسرى برويز بتوصية من النعمان ليخلف أباه كاتباً للشؤون العربية في بلاط طيسفون ، وبدا انه قد اصطلح مع النعمان ، ولكنه مع ذلك كان مصمماً على الأخذ بالثأر ، ولم يكن ينتظر غير الفرصة المواتية . لقد كان لملوك العجم براعة في معرفة الجمال الأنثوي وعندما كانوا يرغبون في ملء شواغر الحرم كانوا يبعثون

---

(٥٢) عندما استدعى هرمز أبناء المنذر الى طيسفون ليختار من بينهم ملكا أخبر عدي كلاً على انفراد : اذا سألك كسرى : « أتكفيني العرب ؟ » قل : «نعم ، الا النعمان»، على أنه قال للنعمان : اذا سألك كسرى : «هل تكفيني العرب؟» فقل : «نعم» فاذا قال لك: «فمن لي بأخوتك؟» فقل له : «ان عجزت عنهم فانى عن غيرهم لأعجز ! » فارتاح هرمز لهذه الاجابة وتوّج النعمان (راجع الطبرى ج ١ ص ٦٠١ « الطبعة المصرية » ١٩٣٩) [المترجم]

(٥٣) نهاية الصفحة «٤٧» من النص الانكليزى .

(٥٤) هناك فى الطبرى (ج١ ص ١٠١٦ ــ ١٠٢٤ = ترجمة نولدكه ص ٣١٤ ــ ٣٢٤) تفاصيل كاملة .

باعلانات تعمم في كل مكان مبينة بمنتهى الدقة الأوصاف الخلقية والخُلُقية التي كانوا يتطلبونها(٥٥) غير أنهم كانوا حتى الآن قد أهملوا بلاد العرب التي كانوا يظنونها غير قادرة على تزويد أي امرأة بمثل هذه الصفات الكاملة ، فتقدم زيد من كسرى وقال له : « اعلم أن في آل النعمان عدداً من النسوة على هذه الصفة فدعني أذهب اليه وابعثْ معي رجلاً من ثقاتك يفهم العربية » فاستجاب كسرى لطلبه ، فخرج زيد قاصداً الحيرة ، فلما علم النعمان القصد من مجيئه صاح بغضب : « أما في مها السواد وعينِ فارس ما يبلغ به كسرى حاجته ؟ » وتشبيه المرأة الجميلة بالمها والعين أمر معتاد في الشعر العربي، ولكن الرسول المرافق لزيد كان قليل الاطلاع على العربية ، فسأل عن معنى كلمتي (العين والمها) اللتين استعملهما النعمان فقال له زيد بالفارسية ، « (كاوان) أي البقر » ولما سمع پرويز من رسوله أن النعمان قد قال : «أما كان في بقر فارس ما يكفيه؟» عُرِف الغضب في وجهه وسرعان ما بعث في طلب النعمان(٥٦) وبعث به الى السجن ثم ألقاه تحت أرجل الفيلة فوطئته حتى تمزق إِرْباً إِرْباً(٥٧) .

أخلاق النعمان الثالث :

يبدو النعمان الثالث في الأخبار أميراً طاغية عاكفاً على الخمر والنساء والغناء وكان يرعى في كنفه العديد من مشاهير الشعراء ولا سيما « النابغة الذبياني » الذي طرد من الحيرة نتيجة تُهَمَةٍ كاذبة ، فهذه القصة ،

---

(٥٥) تجد وصفاً مماثلا في كتاب فريتاغ « الأمثال العربية » جـ٢ ص ٥٨٩ وما يليها .

(٥٦) نهاية الصفحة ٤٨ من النص الانكليزي .

(٥٧) الطبري جـ١ ص ١٠٢٤ ـ ١٠٢٩ = ترجمة نولدكه ص ٣٢٤ ـ ٣٣١ ابن قتيبة في منتخبات برونـاو ، ص ٣٢ ـ ٣٣ (الأغاني « طبعة بولاق » جـ٢ ص ١٢٢ ـ ١٢٧)

فضلاً عن قصة أخرى تتعلق بالشاعر المنخل ، تمنحنا ايماضة عن حياة النعمان الخاصة ، فقد تزوج زوجة أبيه « المُتَجَرِّدة » وكانت عظيمة الجمال في زمانها ، ولكنه رغم حبه العارم لها أغدقت عواطفها على غيره ، وقد اشتبه « بالنابغة » بسبب قصيدة وصف فيها مفاتن الملكة بمنتهى الدقة ، ولكن المذنب الحقيقي هو « المُنَخَّل » ، فقد باغت النعمان الحبيبين ولم ير « المنخل » ثانية منذ ذلك اليوم أبداً ومضى فيه المثل : « حتّى يؤبَ المنخل ! »(*) أو كما يقول الانكليز : « حتى يعود الكوكسيكروز ! »

تحول النّعمان الى النصرانية :

مع أن العديد من ملوك الحيرة قيل عنهم انهم كانوا نصارى فمن المشكوك فيه جداً ما اذا كان أي منهم استحق حتى الاسم باستثناء « النعمان الثالث » فاللخميّون على نقيض الأغلبية من رعاياهم كانوا وثنيين تماماً ، وتربية النعمان بطبيعة الحال تجعله يميل الى النصرانية وربما تم تحوله الى النصرانية كما تؤكد الأسطورة على يد رائده عدى بن زيد •

الغساسنة أو آل جفنه :

على رأى علماء الأنساب المسلمين ينحدر الغساسنة المستقرون فى المدينة ، والغساسنة الذين منحوا الاسم عن طريق الاستعمال العام — غساسنة الشام — من عمر بن عامر المزيقيا الذى كما مر بنا فى الفصل السابق باع ممتلكاته فى اليمن وغادر البلاد مصطحباً معه حشداً عظيماً من أهليها قبيل خراب(٥٨) « سد مأرِب » ، ويعتبر ابنه جفنة بصورة عامة مؤسس الأسرة الحاكمة ، وليس لدينا من مستهل تاريخهم غير حقائق قليلة يوثق بها ، فلأول وهلة كانوا ، على ما يقال ، يدفعون الجزية

(*) [راجع « اللسان » : ١٤/١٧٦ ؛ مادة « نَخَلَ »] (المترجم)

(٥٨) نهاية الصفحة ٤٩ من النص الانكليزي •

« للضجاعمة » وهي أسرة من سلالة صالح ، حكَمَت الأراضي المتاخمة ، تحت الحماية الرومانية ، فنجم عن ذلك صراع خرج منه الغساسنة ظافرين، ومنذ ذلك الحين نجدهم مستقرين في هذه المناطق ، ممثلين للسلطة الرومانية ، مع لقبي Patricius « شريف » و Phylarch « قائد » الرسميين اللذين ترجموهما هم والعرب الذين كانوا حواليهم ، حسب الاسلوب الشرقي البسيط ، بلفظة (ملك) .

ما أورده ابن قتيبة عن الغساسنة :

وأول من ملك الشام (على ما يقول ابن قتيبة) من آل جفنة الحارث ابن عمرو بن محرّق وسمي محرقاً لأنه أول من حرّق العرب في ديارهم ويُكْنَى أبا شمر ، ثم ملك بعده الحارث بن أبى شمر ، وهو الحارث الأعرج ، وأمه مارية ذات القُرطين ، وكان خير ملوكهم وأيمنهم طائراً وأبعدهم مغاراً ، وأشدهم مكيدةً وكان قد غزا خيبر[٥٩] فسبى من أهلها ثم أعتقهم ، وكان قد سار اليه « المنذر بن ماء السماء » في مائة ألف ، فوجه اليهم مائة رجل فيهم لبيد الشاعر وهو غلام ، وأظهر أنه انما بعث لمصالحته فأحاطوا برواقه فقتلوه ، وقتلوا من معه في الرواق ، وركبوا خيلهم فنجا بعضهم وقتل بعض ، وحَمَلَتْ خيل الغسانيين على عسكر المنذر فهزموهم، وكانت له بنت يقال لها « حليمة » كانت تطيّب اولئك الفتيان يومئذ وتلبسهم الأكفان والدروع ، وفيها جرى المثل « ما يوم حليمة بسر »[٦٠].

(٥٩) مدينة في بلاد العرب شمالي « المدينة المنورة » .

(٦٠) فريتاغ ـ « امثال العربية » جـ٢ ص ٦١١ (الميداني : جـ٢ ص ٤٠٨) .

[يجد القاريء ترجمة أخرى للجزء الذي أوردناه في أعلاه ، بقلم الدكتور حسن حبشي ، في مجلة « الرسالة » للمرحوم أحمد حسن الزيات، العدد ١٨٥ (١٩٣٧) ص ١٠٥ـ١٠٦] .

ثم ملك بعده الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر، ومن ولد الحارث الأعرج أيضاً عمرو بن الحارث الذي كان النابغة سار اليه حين فارق النعمان بن المنذر ، وكان يقال لعمرو أبو شمر الأصغر ، ومن ولده المنذر بن الحارث والأيهم بن الحارث ، والأيهم هذا أبو جبلة ابن الأيهم ، وجبلة آخر ملوك غسان(*) ، وكان طولـه اثنى عشر شبراً وكان اذا ركب مسحت قدمه الأرض ، وأدرك الاسلام ، فأسلم في خلافة عمر بن الخطاب ، ثم تنصر بعد ذلك ولحق بالروم ، وكان سبب تنصره أنه مرَّ في سوق دمشق فأوطأ رجلاً فرشه ، فوثب الرجل فلطمه ، فأخذه الغسانيون فأدخلوه على أبي عبيدة بن الجراح(٦١) فقالوا : « هذا لطـم سيدنا » فقال أبو عبيدة : « البينة بأن هذا لطمك ؟ » قال : « ومـا تصنـع بالبينة ؟ » قال : « ان كان لطمك لطمته بلطمتك » قال : « ولا يقتل ؟ » قال : « لا » قال : « تقطع يده ؟ » قال : « لا ، انما أمر الله بالقصاص فهي لطمة بلطمة » ، فخرج جبلة ولحق بأرض الروم وتنصر ، ولم يزل هناك الى أن هلك »(٦٢) .

الحـارث الأعـرج :

ان الأخبار العربيـة فيمـا يتعلق بدولة الغساسنة مضطربة اضطراباً لا يبعث على الأمل ولا تزودنا بأي مادة حتّى لمخطط تاريخيّ تقريبيّ يمكن جمعه من الملاحظات المشتته عند مؤلفي الروم(٦٣) ويلوح أن أول أمير

(*) نهاية الصفحة «٥٠» من النص الانكليزى .

(٦١) صحابيّ قاد الجيش الاسلامي فى فتح الشـام ومـات سنة ١٨هـ/٦٣٩م .

(٦٢) ابن قتيبة : « مختارات بروناو » : ص ٢٦ ـ ٢٨ .

(٦٣) التفاصيل التالية مستخلصـة من بحث نولدكـه الموجـز : « الغساسنة من آل جفنة » (برلين ، ١٨٨٧)

Die Ghassanischen Fürsten Aus Dem Hause Gafna's in Abhand. d. Kön. Preuss. Akad. d. Wissenschaften.

غساني ً، بلا مناقشة، هوالحارث بن جَبَلَة (Arethas Tou Jabala) الذي يظهر في التواريخ العربية « كحارث الأعرج » والذي عينه جستنيان (حوالي ٥٢٩م) ليوازن من الجانب الروماني « المنذر بن ماء السماء » ملك الحيرة النشيط الفعّال ، وكان خلال القسم الأعظم من حكمه الطويل (٥٢٩ ـ ٥٦٩) منشغلاً بالحرب مع منافسه الخطر هذا الذي أشرنا مسبقاً الى هزيمته ومقتله في « يوم حليمة » الفاصل . لقد كان « الحارث » كسائر أفراد أسرته نصرانياً تابعاً « للكنيسة المونوفيزية » التي دافع عنها بحماسة ونجاح متعادلين في وقت كان فيه وجودها بالذات(٦٤) معرّضاً للخطر ، والحكاية التالية توضح شخصيته الهائلة : فقد قام قبيل ختام حياته بزيارة للقسطنطنية ليتداول مع الحكومة الامبراطورية في أمر انتخاب أحد أبنائه ولياًللعهد، فترك انطباعاًعميقاًفي الأهلين، ولاسيماعند «جُسْتِينَسْ»، Justinus ابن أخي الامبراطور ، ويوم أدرك الخرف « جستينس » بعد سنوات عديدة كان الحجاب يخيفونه أثناء غضبه وعربدته بقولهم : « صه ! سيأتي الحارث Arethas ويأخذك »(٦٥) .

المنذر بن الحارث :

خلف الحارث ابنه المنذر الذي دحر ملك الحيرة الجديد «قابوس بن هند » في عيد الصعود سنة ٥٧٠م في معركة لعلها متماثلة مع تلك التي

---

(٦٤) نهاية الصفحة ٥١ من النص الانكليزى .

(٦٥) نولدكه : سبق ذكره ، ص ٢٠ ، يشير الى جون الأفيسيسي John of Ephesus جـ٣ ص ٢ راجع القسم الثالث من التاريخ الكنسي لجون مطران ايفسس ، ترجمة آر . پين سمث R. Payne Smith ص ١٦٨ [أورد القصة حتّي في « تاريخ العرب » المطول : ترجمة الدكتور فيليب حتّي وأدور جورجي وجبرائيل جبور « دار الكشاف » ١٩٤٩ جـ١ ص ١٠٤] .

اشتهرت عند العرب كمعركة « عين أُباغ » وربما حال رفض الامبراطور « جستينس » تزويده بالمال دون تعقب ما فيه نفعه ، فكان فاتحة عداء سافر بينهما انتهى بعد احدى عشرة سنة بنقله الى القسطنطنية واكراهه على الاقامة في صقليّا .

ومنذ هذا الحين الى فتح الفرس لفلسطين (٨ق٠هـ٠/٦١٤م) استفحلت الفوضى في أرجاء مملكة الغساسنة ، فاختارت القبائل المختلفة أمراءها الذين كانوا في بعض الأحيان بلا شك من آل جفنة غير أن الأسرة المالكة كان قد تمزق شملها بالفعل ، ومن الممكن أن « هِرْقل » كان قد أعادها عندما طرد الفرس من الشام (٨هـ/٦٢٩م) اذ أننا نجد الغساسنة يحاربون المسلمين مراراً وتكراراً الى جنب روما ؛ وبموجب الشهادة الاجماعية لكتّاب العرب ، كان « جبلة بن الأيهم الجفني » الذي لعب دوراً فعالاً في الصراع ، آخرَ ملوك الغساسنة ، ويمكن تثبيت تأريخ تويجه بحوالي (سنة ١٤هـ/٦٣٥م) وقد قدّم لنا « حسّان بن ثابت » الشاعر الذي كان بوسعه أن يدّعي ، كأحد مواطني المدينة الاصليين ، قرابةً مع الغساسنة ، والذي زار بلاطهم في شبابه ، وصفاً متوهجاً عن بذخه وفخامته(★) .

تصوير حسّان بن ثابت لبلاط الغساسنة(٦٦) :

« لقد رأيت عشر قيان : خمساً روميات يغنين بالرومية وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة أهداهن اليه اياس بن قبيصة(٦٧) ، وكان يفد اليه من

(★) نهاية الصفحة (٥٢) من النص الانكليزي .

(٦٦) الاغاني : جـ١٦ ص ١٥ ، س ٢٢ ـ ٣٠

(٦٧) تولى إِياس بن قبيصة ملك الحيرة (سنة ٦٠٢ـ٦١١م) عقب « النعمان الثالث » وينمى الى قبيلة طي . راجع ما كتبه روثشتاين Rothstein في كتابٍ عنوانه « اللخميّون » Lahmiden ص ١١٩ .

يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان اذا جلس للشرب فُرِش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحافٍ من الفضة ، وأوقد له العود المندى ان كان شاتياً ، وان كان صائفاً بطن بالثلج ، وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل بها هو وأصحابه في الصيف ، وفي الشتاء الفراء والفنك وما أشبهه ، ولا والله ما جلست معه يوماً قطّ الا خلع عليّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم ، وعلى غيري من جلسائه؛ هذا مع حلم عمّن جهل ، وضحك وبذلٍ من غير مسألة ، مع حسن وجه وحسن حديث ؛ ما رأيت منه خنا قط ولا عربدة »(٦٨) .

ولم يكن للغساسنة ، على نقيض الدولة المنافسة لهم على الفرات ، مقر ثابت ، فقد حكموا البلاد ، اكناف دمشق وتدمر ، ولكن هذين الموضعين لم يكونا بحوزتهم أبداً ، وكانت عاصمة مملكتهم البدوية المخيم الموقت (الذى يُعرف ب « حيرتا » في الآرامية) الذى كان يتبعهم جيئة وذهاباً ، ولكنه كان على العموم موجوداً في «الجولان» (غولونيتز) Gaulonitis(٦٩) جنوبي دمشق .

حضارة الغساسنة :

وهكذا أوجد « الغساسنة » تحت التأثير المنشّط للثقافة اليونانية مدنيةً أسمى بكثير من مدنية « اللخميين » الذين كانوا ، بسبب سلوكهم

---

(٦٨) رغم استبعادكون هذه القطعة من قول حسان فهي مشكوك فيها ، ولكن هذا لا يؤثر جديا فى قيمتها ، اذا اعتبرنا أنها مأخوذة من ديوان الشاعر نفسه الذي تكلم فيه مراراً عن الغساسنة ؛ والاشارة الخاصة الى جَبَلَة بن الأيهم خطأ ، فان معرفة حسان بالغساسنة ترجع الى ايام وثنيته ، والمعروف أنه اعتنق الاسلام قبل حكم جبلة بعدة سنوات .

(٦٩) نهاية الصفحة «٥٣» من النص الانكليزى .

شبه البربري(٧٠) ،أوثق صلةً بوثنيي العرب ، فأثروا فيهم تأثيراً أعمق، وقد أوضحت بعض مظاهر هذه المدنية في وصف بلاط جَبَلَة بن الأيهم ، المنسوب الى الشاعر حسان •

مديح النابغة :

وقد هرب شاعر قبله ، هو النابغة ، بعد ما ساءت علاقته « بالنعمان الثالث » ، ملك الحيرة ، قاصداً الشام حيث نظم مديحاً رائعاً « للغساسنة » على شرف حاميه الملك « عمرو بن الحارث الأعرج » ، وبعد أن فرغ من الثناء على بأسهم الحربي الذي خلده في هذا البيت الذى كثيراً ما يُستشهد به [من الطويل] :

ولا عيبَ فيهِم غيرَ أنَّ سيُوفَهُمْ
بِهِنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكَتائبِ(٧١)

أنهى قصيدته بنغمة أهدأ :

لهم شيمةٌ لم يُعطها اللهُ غيرَهم
من النّاسِ ، والاحلامُ غيرُ عوازِبِ
محلتُهم ذاتُ الالهِ ودينُهُم
قويمٌ فما يَرجون غيرَ العواقِبِ
رقاقُ النِعالِ طيبٌ حُجُزاتُهم
يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحانِ يومَ السباسِبِ

---

(٧٠) نحن لا نوافق نكلسن على هذا الرأي ، وقد أبقيناه حرصاً منا على الامانة العلمية فى النقل ، وليكون موضع نقاش الباحثين العرب •
[المترجم]

(٧١) [الأغاني : (طبعة دار الكتب) جـ١١ ص ١٨ « والفلول » : الثلوم « والقراع » : المجالدة ؛ والبيت فى « البديع » شاهد على تأكيد المدح بما يشبه الذم] « المترجم »

تحييهُـــمُ بيضُ الــولائـدِ بينَهـم
وأكسيةُ الاضريحِ فوق المشاجبِ
يصونون أجسـاداً قديمـاً نعيمُهــــا
بخالصـةِ الأردانِ خُضرِ المناكـبِ
ولا يحسَـبونَ الخيرَ لا شرَّ بعدَهُ
ولا يحسبون الشـرَّ ضربةَ لازبِ (٧٢)

خصائص التّاريخ البدوي :

ان تاريخ البدو الجاهلي هو في صلبه سجل لحروبٍ ، أو بالاحرى لغزوات ، حيث كان يتم الشيء الكثير من الغزو والنهب ، وبصورة عامة من غير اراقة دماء كثيرة ، ولم ينقصها الهتــاف وتبادل جلبة المبــاهــاة (٧٣) والأهاجي ، وكانوا يذهبون بالجِمال والنساء ، وكانت تقع مبارزات عديدة ومعارك قليلة اذ كانت ضرباً من « الحروب الهوميرية » التى كانت تستدعي الجهد الشخصي بأسْمَى درجاته وقد وفرت فرصة كافية لأعمال البطولة الفردية «فكتابة تاريخ صحيح عن مثل هذه المنازعات تكاد تكون مستحيلة، وكمصادر موثوق بها نسبياً ليس لدينا غير قصائد ونتف من أبيات احتُفِظ بهــا ؛ وعــلى رأى السيوطي ان المُحْدَثينَ العرب كانوا يطلبون من أي بدوي يقص عليهم حادثة تاريخية الاستشهاد ببعض الابيات لتأييدها ، وفي

---

(٧٢) النابغة ، طبعة ديرنبرغ Derenbourg ص ٧٨ ؛ « مختارات نولدكــه » Delectus ص ٩٦ ؛ وقــد ترجم الســر « شــارلس لايل » القصيدة برُمتها الى الانكليزية فى كتابه : « الشــعــر العربى القــديــم » Ancient Arabian Poetry ص ٩٥ وما يليها [راجع كذلك « تاريخ الادب العربى » لاحمد حسن الزيات (الطبعة السابعة ١٩٣٩) ص ٥١ ؛ « وديوان النابغة الذبيانى » طبعة الشيخ عبدالرحمن سلام (المكتبة الاهلية فى بيروت ، ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م) ص ١٢] « المترجم »

(٧٣) نهاية الصفحة «٥٤» من النص الانكليزي ٠

الواقع أن أمثال هذا القصص الذي وصل الينا قد بُلْوِرَ حول القصائد ، ولسوء الحظ أن هذه « البلُورات » قلما تكون نقية ، وكثيراً ما تبدو الحكايات مخترعة بكثير من الخيال ، وببراعةٍ نوعاً ما ، لتلائم محتويات الأبيات»(٧٤) ؛ ومع أنَ ما يروى في الأخبار عن أيام العرب أسطوريٌ الى مدى بعيد ، فهو يصف بشيء غير قليل من الصدق كيف كانت العداوات القبلية تبدأ ، بصورة عامة ، وكيف كانت توجه ، وستوضح المعلومات التالية عن « حرب البسوس » ـ أشهر حرب شبت نيرانها قبل الاسلام ـ هذه المرحلة المهمة من الحياة البدوية(٧٥) .

حرب البسوس :

في نحو ختام القرن الخامس للميلاد كان كليب بن ربيعة شيخ « بني تغلب » ، احدى القبائل القوية التى اقتسمت مع « بني بكر » المنتمية اليها بصلة قربى ، مساحة شاسعة في شمال شرقي بلاد العرب ، ممتدةً من الهضبة الوسطى الى صحراء الشام ، وقد جعله انتصاره على رأس أحلاف مؤلفة من هاتين القبيلتين وغيرهما على عرب اليمن الرجل الأول في شبه الجزيرة ، وسرعان ما أصبحت كبرياؤه لا تقل في مضرب المثل عن قوته(٧٦) (وقد تزوج من جليلة(٧٧) بنت مرة من « بني بكر » ،

---

(٧٤) ثوربيكه ـ « عنترة : شاعر جاهلي » ص ١٤
Thorbecke: ‘Antarah, Ein Vorislamischer Dichter.
[راجع ترجمة الدكتور حسن حبشي في ختام العدد ١٨٦ من مجلة الرسالة] .

(٧٥) القصة التالية موجز لتاريخ حرب البسوس كما يرويها التبريزي في « شرح الحماسة » (طبعة فريتاغ) ص ٤٢٠ـ٤٢٣ و٢٥١ـ٢٥٥ ؛ قارن نولدكه : « مختارات » ص ٣٩ وما يليها (المؤلف) [يُراجع كذلك ، محمد أحمد جاد المولى : « أيام العرب في الجاهلية » ، (القاهرة ، ١٣٤١هـ/١٩٤٢م) ص ١٤٢ـ١٦٨] « المترجم » .

(٧٦) راجع ص ٥ من النص الانكليزى وص ٣٧ س ١٤ من الترجمة العربية فى أعلاه .

(٧٧) يبدو ان نكلسن أخطأ فى نقل الاسم فالصواب « جليلة » وليس «حليلة» (وهنا نهاية الصفحة «٥٥» من النص الانكليزى) [المترجم] .

وعاش في حمىً ، حيث كان يدعي حق الرعي لنفسه ولابناء مرة فقط ، وكان لحميّه (أخي زوجته) « جسّاس » خالة اسمها « البسوس » ، وما دامت في رعاية ابن اختها فقد التحق بها مولى من موالي قومها اسمه « سعد » ، وقد اصطحب معه ناقة اسمها (سراب)(*) .

كليب بن ربيعة وجساس بن مرة :

وحدث أن كليبا لاحظ وهو يسير في حِماه عُشّ قبَّرة ، فلما رأته صرصرت وخفقت بجناحيها على بيضها يائسةً فقال : من روعكِ ؟ أنتِ في ذمّتي ! » ولكنه لاحظ بعد ذلك بقليل موطىء خف جمل غريب في ذلك المكان ، ووجد البيض مهشماً ، وفي صبيحة اليوم التالي ، عندما زار هو وجساس المرعى ، رأى كليب ناقةَ « سعد » بين قطيع نسيبه فخمَّن أنها هي التي حطمت البيض ، فصاح مخاطباً جساس : « انتبه ! انتبه ! لقد فكرت في شيء ، ولو كنت متأكداً لفعلته ! ليت هذه الناقة لا تأتي مع القطيع الى هنا » . فهتف جساس : « والله لتأتِينَّ » ولما هدد كليب برمي ضرعها بالسهم أجاب جسّاس « قسماً بأنصاب وائل !(٧٨) اغرز سهمك في ضرعها وسأغرز رمحي في ظهرك ! » ثم أخرج إبله من الحِمى ، وعاد كليب الى بيته مهتاجاً ، وقال لزوجته التي حاولت أن تستشف ما كان يزعجه : « أتعرفين انساناً يجرؤ على أن يدافع عن مولاه تجاهي ؟ » فأجابت : « لا أحد سوى أخي جسّاس اذا ما قطع على نفسه عهداً » وعمِلت جهدها لتحول دون اتساع شقة الخلاف ، ولمدة لم يحدث بينهما ما هو أسوأ من التعيير .

(*) قرأها نكلسن : « سرابي »

(٧٨) وائل هو الجد المشترك لبكر وتغلب. راجع في اصطناع الأنصاب لعبادة العرب الوثنيين فيلها وزن : Reste Arabischen Heidentums « بقايا الوثنية العربية » (الطبعة الثانية) ص ١٠١ وما يليها و «روبرتسن سمث » (محاضرات في ديانة الساميين) لندن ، ١٨٩٤ ص ٢٠٠ وما يليها .

جرح ناقة سعد :

حتى ذهب كليب ذات يوم يتفقد إبله التي كانت تورد وقد تبعتها ابل جساس ، وفيما كانت الأخيرة تنتظر دورها في الشرب ، انطلقت ناقة « سعد » وركضت نحو الماء ، فخيل لكليب أنّ جساسا تقصد ذلك فاستنكر الاهانة المتخيلة ، فأمسك بقوسه ورمى ضرعها ، فسقطت الناقة تئن بصوت مرتفع أمام خيمة « البسوس » التي تملكها الغضب على ما نال صديقها « سعداً » من اساءة فمزقت حجابها ولطمت خدها ، وصاحت : «واذلاه !» ثم خاطبت سعداً رافعة صوتها بحيث يسمعها(*) جسّاس .

أبيات البسوس :

وأنشدت هذه الابيات التي تعرف « بالموثّبات » [من الطويل] :

أيا سعدُ لا تغرر بنفسك وارتحلْ
فانّيَ في قومٍ عن الجار أمواتِ
ودونَك أذوادي اليكَ فانني
محاذرةٌ أن يغدروا ببُنَيّاتي
لعمرك لو أصبحتُ في دار منقذٍ
لما ضيم سعدٌ وهو جارٌ لأبياتي
ولكنني أصبحتُ في دارِ معشرٍ
متى يعدُ فيها الذئبُ يعدُ على شاتي(٧٩)

فصعق « جسّاس » للتُهَمَة التي لا يستطيع عربيّ أن يتحملها ، تُهَمَةِ الحاقِ الأذى والاهانة بصديقه الضيف ، بدون جزاء أو عقاب .

مصرع كليب على يد جسّاس :

وبعد أيام تعقب كليباً ، بعد أن تأكد من أنه خرج بلا سلاح ،

(*) نهاية الصفحة (٥٦) من النص الانكليزى .

(٧٩) « الحماسة » : ٤٢٢ س ١٤ وما يليه ؛ نولدكه : « منتخبات » ص ٣٩ البيت الاخير وما يليه .

وقتله ؛ ثم ولى هارباً الى قومه على عجل ، وعندما بلغ النبأ «مُرّة» قال لابنه: « نسلمك بجريرتك . نضعك فى الاصفاد لتريق عشيرته دمك . قسماً بأنصاب وائل ، لن تجتمع بكر وتغلب في رخاء ، بعد موت كليب . لبئس ما فعلت بقبيلتك يا « جساس » ! قتلتَ ربَّها ، وفصمت عراها ، وقذفت بالحرب بين بنيها » فقيد جساساً بالأصفاد وحبسه في خيمة ودعا بشيوخ الأسر وسألهم « ماذا تقولون في أمر جسّاس ؟ فهوذا سجيناً ، حتى يطلبه المطالبون بالثأر ، فندفع به اليهم » فصاح سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس : « لا والله لن نسلمه ، بل نقاتل من دونه الى آخر رجل ! » وبهذه الكلمات دعا بجمل فنحر ، ولما قطعت أوداجه تعاهدوا لبعضهم البعض على دمه .

أبيات مرة والد جساس :

فقال مرة لجساس منشداً [من الوافر] :

فان تكُ قد جنيتَ عليَّ حرباً
تغُصُّ الشيخَ بالماءِ القراحِ

جمعت بها يديكَ على كليبٍ
فلا وَكِلٌ[٨٠] ولا رث السلاحِ

ولكني الى العلاتِ[٨١] أجري
الى الموت المحيطِ مع الصباحِ

وإني حين تشتجر[٨٢] العوالي
أُعيد الرمح فى إِثر الجراحِ

(٨٠) « وَكِلٌ » : عاجز .
(٨١) « بنو العلات » : بنو رجل واحد من امهات شتى .
(٨٢) « تشتجر » : تتداخل « والعوالي » : الرماح .

شديد البأس ليس بذى عياء
ولكني أبوء الى الفلاح[83]
سألبس ثوبها وأذبُّ عنها
بأطراف العوالي والصِّفاحِ[84]
فما يبقى لعزته ذليلٌ
فيمنعه من القدر المُتاحِ
فاني قد طربتُ وهاج شوقي
طراد الخيلِ عارضة الرماح
وأجمل من حياة الذل موتٌ
وبعض العار لا يمحوه ماحِ[85]

اندلاع الحرب بين تغلب وبكر :

وهكذا بدأت « حرب البسوس » بين تغلب من جهة وفخذ شيبان التي ينتمي اليها مرة من جهة أخرى ، فقد بقيت أول الأمر سائر أقسام بكر محايدة إزاء الصراع ، معتبرةً شيبان على ضلال ، وضاق بها الأمر أشد الضيق عندما حدث ما حمل البكريين على أن ينهضوا نهضة رجل واحد من أجل أفراد عشيرتهم ، وقد رفض « الحارث بن عُباد » ، أحد مشاهير فرسان بكر ، أن يخوض غمار الحرب ، قائلاً كلمته التي ذهبت مثلاً : « لا ناقتي فيها ولا جملي » أي أن الامر لا يعنيني ، وذات يوم قابل ابن أخيه « بُجير » ، « المهلهلَ » ، أخا كليب ، وقد آلت اليه رئاسة القبيلة بعد

---

(٨٣) نهاية الصفحة «٥٧» من النص الانكليزى .
(٨٤) السيوف العراض .
(٨٥) « الحماسة » ص ٤٢٣ س ١١ وما بعده ؛ نولدكه : «منتخبات» ص ٤١ س ٣ وما بعده .

مقتل شيخها ، فأعجب « المهلهل » بجمال الشاب فسأله أن ينتسب فقال : « بُجَير بن عمرو بن عُباد »[٨٦] فقال : « ومن خالك ؟ » أجاب : « أميّ سبيّة » (لأن العربيّ لا يذكر خالاً لا يناله منه شرف) فقتله المهلهل صارخاً : « بوء بشسع نعل كُليب ! » وعندما بلغ ذلك « الحارث » أرسل الى المهلهل يقول : « انْ كنتَ قتلتَ بُجيراً بكُليب ، وانقطعت الحرب بينكم وبين اخوانكم ، فقد طابت نفسي بذلك » فأرسل اليه مهلهل : « انما قتلته بشسع نعل كليب ! » فغضب الحارث وصاح [من الخفيف] :

لم أكن من جُناتها علِم اللّـ **** ـه و اِني بحرّها اليومَ صال

قتلوه بشِسع نعل كليبٍ   انَّ قتل الكريم بالشسع غالِ[٨٧] .

وهنا قال الفِنْد[٨٨] وهو من بني بكر [من الهزج] :

صفحنا عن بني ذُهلٍ[٨٩]   وقلنا : القومُ اخوانُ

عسى الأيّام أن يرجعْـ   ـنَ قوماً كالذي كانوا[٩٠] .

فلما صرّح[٩١] الشرُّ   فأمسى وهو عُريان

ولم يبق سوى العدوا   نِ دنّاهُم كما دَانُوا

---

(٨٦) هكذا أورده نكلسن ، وقد أورده مؤلفو « أيام العرب في الجاهلية » ، بفتح العين وتشديد الباء .

(٨٧) الحماسة : ٢٥٢ س ٨ وما يليه ؛ نولدكه : « منتخبات » ، ص ٤٤ س ٣ وما يليه .

(٨٨) هوشهل بن شيبان الزّماني ويلقب « بالفِند » والفِند في اللغة : القطعة العظيمة من الجبل ، ولقب به لعظم شخصه وقيل بل لَقب به لانه قال لاصحابه في يوم حرب : « استندوا الي فانى لكم فند » شرح ديوان الحماسة للمرزوقي : ١/٣٢ [المترجم] .

(٨٩) ويروى : « عن بني هندٍ » ؛ نولدكه : « منتخبات » ص ٤٥ س ١٠ وما بعده .

(٩٠) نهاية الصفحة «٥٨» من النص الانكليزى .

(٩١) انكشف .

مَشَيْنَا مِشيةَ اللَّيثِ غَدَا ، واللَّيثُ غضبانُ
بضربٍ فيه توهينٌ وتخضيعٌ واقرانُ
وطعْنٍ كَفَمِ الزِّقِ غَذا[٩٢] والزقُّ ملآن
وبعض الحِلمِ عندَ الجهلِ للذِّلَةِ اذعانُ
وفي الشَّرِ نجاة حينَ لا يُنجيكَ احسانُ[٩٣]

يوم تحلاق اللمم :

واستعد بنو بكر الآن لمعركة حاسمة ، ولما كان عدوهم متفوقاً عليهم بالعدد ، فقد لجأوا الى وسيلة استنبطها لهم الحارث اذ قال : « قاتلوهم بنسائكم ، قلدوا كل امرأة إداوة(★) من ماء ، واعطوها هراوة ، واجعلوا جمعهن من ورائكم ، فان ذلكم يزيدكم اجتهاداً ، وعلّموا قومكم بعلامات يعرفنها ، فاذا مرّت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء ونَعَشَتْهُ ، واذا مرّت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلتهوأتت عليه » فأطاعوه ؛ وحلقت بنو بكر يومئذ رؤوسها استبسالاً للموت ، وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم ، وعُرف هذا اليوم « بيوم تحلاق اللّمم » • وكان « جحدر بن ضُبيعة » سيء الحظ قصيراً حسن اللمة فقال لقومه : لا تحلقوا رأسي ، فاني رجل قصير ، لا تشينوني ، ولكن أشتريه منكم بأول فارس يطلع من الثنية غداً من القوم (يعني انني سأكفيكم اياه اذا ما تركتم لمتي) •

---

(٩٢) سال •

(٩٣) الحماسة ص ٩ س ١٧ وما يليه ؛ نولدكه : « منتخبات » ، ص ٤٥ س ١٠ وما بعده ، [المؤلف] • المرزوقي : « شرح ديوان الحماسة » (بتحقيق أحمد أمين وعبدالسلام محمد هارون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) ج١ صص ٣٢-٣٨ [المترجم] •

(★) إناء صغير من جلد يتخذ للماء

عهد جحدر[٩٤] بن ضُبيعة :

قد يَتَمَتْ بنتي وآمت[٩٥] كنّتي
وشَعِثَتْ بعد ادّهان[٩٦] جُمّتي[٩٧]
رُدُّوا عليّ الخيلَ انْ أَلمَّتِ[٩٨]
ان لم أناجزها[٩٩] فجُزّوا[١٠٠] لِمَّتي[١٠١]
قد علمتْ والدةٌ ماضمت
مالفّفَتْ في خِرَقٍ وشمّتِ[١٠٢]
اذا الكماةُ بالكماة التفّتِ
أَمُخْدَجٌ في الحربِ[١٠٣] أم أتمّتِ

---

(٩٤) واسمه « ربيعة » وانما سمّي جحدراً لقصره ؛ معدود في شعراء الجاهلية وفرسانها ، وهذه الأبيات قالها يوم التحاليق كما مر بنا [يراجع « شرح ديوان الحماسة » : ٢/٥٠٧]

(٩٥) « آمت » : بقيت بلا زوج •

(٩٦) وفي رواية التبريزي : « الرهان » أي الجلاد ؛ وقيل انها محرّفة •

(٩٧) « الجُمّة » مجتمع شعر الرأس •

(٩٨) « ألمّت » : نزلت •

(٩٩) « المناجزة » : المعاجلة بالقتال •

(١٠٠) « الجز » : القطع •

(١٠١) « اللمة » : الشعر المجاوز شحمة الأذن ، والمعنى : لستُ بفارس ان لم أعاجلهم بالقتال ، فردوا علي الخيل بعد حصولها عندكم [وهنا نهاية الصفحة «٥٩» من النص الانكليزى] •

(١٠٢) معناه : لم يَضِعْ على والدتي ما تفرستْه فيّ من النجدة ، حين كانت تضمني وتلفني في الخرق وأنا في المهد ، بل نشأت على خصال الشجاعة من يوم ولدتني أمي •

(١٠٣) « المُخْدَج » الناقص الخلق ، والمعنى : عندما يحمى الوطيس تعلم والدتي انها ولدتني إتاماً • « الحماسة » جـ١ ص ١٩٥ـ١٩٦ (الطبعة المصرية) ؛ ص ٢٥٢ س١٤ وما يليه (الطبعة الاوربية) نولدكه : « منتخبات » ص ٤٦ س ١٦ وما يليه •

لقد حافظ على ما قطعه على نفسه من عهد ، ولكنه صرع في القتال وأصيب بجراح شديدة ، وعندما أقبلت النساء اليه لاحظت لمته فتخيلته عدواً وقتلته بهراواتها .

النساء محاربات (١٠٤) :

ووجود النساء فى الميدان والدور الفعلي الذي لعبنه في النزاع أثار بطبيعة الحال أشد المشاعر مرارة ، فان لم يكن منشغلات في انجاز العمل الدموي للرجال ، فانّ السنتهن كانت منشغلة بتحريضهم على القتال ، اذ روي أن ابنة للفِنْد تعرّت بتهور وأنشدت(١٠٥) :

وغى وغى وغى وغى حر الحرار والتظى
وملئت منه الربا ياحبذا المحلقون بالضحى

واصطحبت الامهات أطفالهن الذين لم تحمهم طراوة عودهم دائماً من عدو مهتاج فقد روي أن فارساً من بني تغلب طعن صبياً ورفعه على رأس رمحه وقيل ان الذي حمله على هذا العمل البربري هو « البزباز » الذي كان رديفاً له على فرسه ، غير ان انتصارهما كان قصير الامد فقد لحظهما « الفِند » وبطعنة رمح ألصقهما ببعضهما البعض ــ وقد سجل عمله هذا في أبيات له.

وفي هذا اليوم أحرز بنو بكر نصراً عظيماً وحطموا سلطان تغلب ،

---

(١٠٤) فى الاصل : « النساء كمحاربات » ، ولكننا حاولنا جاهدين أن نتحاشى « كاف التشبيه » التى طالما اولع بها الغربيون وتأثر بها المترجمون العرب .

(١٠٥) « الحماسة » : ص ٢٥٤ س ٦ وما يليه ، نولدكه : « منتخبات » ص ٤٧ س ٢ وما يليه = «الحماسة» (شرح التبريزى) طبعة مصر ، (١٢٩٦هـ) ٢/٣٥ .

وهذه آخر معركة مهمة في « حرب الأربعين عـاما » التي استمرت بالغزو والنهب الى أن انهاهـا نفـــاد قوى القبيلتين وتأثير « المنذر الثالث » ملك الحيرة •

حرب داحس والغبراء :

ولم تمض سنوات طويلة عـلى عقد الصلح بين بكر(١٠٦) وتغلب حتى شبت حرب أخرى فى أواسط بلاد العرب لا تقل شهرة في الاخبار عن « حرب البسوس » ، وكان الجانبان المتحاربان قبيلتي عبس وذبيان ، وهما بطنان رئيسان لبني غطفان ، ويروى سبب نزاعهما على الوجه التالي:

كان لقيس بن زهير ، شيخ عبس ، حصان يسمى (داحس) اشتهر بسرعة عدوه فسابقه مع (الغبراء) ، فرسٍ لحذيفة بن بدر ، شيخ ذبيان، واتفقا على أن يكون الرهان مائة غلوة وللفائز مائة جمل ، فلما بدأ السباق جاءت الغبراء سابقة بيد أنهما عندما تركا الجدد ودخلا الأرض الرملية حيث الجهد شاق تساوى داحس بالتدريج مع منافسته وسبقها وكان عـلى وشك بلوغ الغاية عندما قفز نفر من بني ذبيان ، كانوا في كمين أعـــد مقدماً لهذا الغرض ، وابعدوه عن الحلبة فهيأوا للغبراء سبيل الفوز على داحس ، وعندما بلغ قيساً أمر هذا الغش فى السباق ادعى بطبيعة الحال كسب الرهان ، غير ان بني ذبيان رفضت أن تدفع له حتى جملاً واحداً ، فامتعض من خيانتهم بمرارة وترصد لبعض اخوة حذيفـة وقتله ، فطلب حذيفة الثأر ، فكان قتل مالك أخي قيس على يد بعض فرسـان حذيفـة ايذاناً باندلاع نار الحرب ، وفى القتـال الذى نشب استطاعت ذبيـان أن تحصل على أكثر من المحافظة على مركزها ، غـير أنه لم يستطع أى من

---

(١٠٦) نهاية الصفحة «٦٠» من النص الانكليزى •

الفريقين أن يحرز نصراً حاسماً على خصمه ، وقد قتل قيس الأخوين « حذيفة » و « حمل » وأنشد [من الوافر] :

شفيت النفس من حمل بن بدر   وسيفي من حذيفةَ قد شفاني
شفيت بقتلهم لغليل صدري   ولكني قطعت بهم بناني(١٠٧)

وبعد فترة طويلة ـ أربعين سنة حسب التقدير التقليدي ـ اصطلحت عبس وذبيان بجهود شيخين من القبيلة الثانية ، وهما حارث بن عوف ، وهرم بن سنان(١٠٨) ، الذي خلد وساطته الشهمة الكريمة الشاعر زهير وقد خرج قيس هائماً على وجهه وهو يقول : « لن أنظر الى وجه أي امرأة من ذبيان قتلتُ أباها أو أخاها أو زوجها أو ابنها » واذا كان لنا أن نصدق الرواية فقد انقلب راهباً مسيحياً وقضى بقية حياته في عُمان •

الحجـــاز :

عندما ينحدر المسافر غرباً من هَضْبة نجد يقترب بالتدريج من البحر الاحمر المنفصل من الجبال التي تمر موازية له بشريط ضيق من أرض ساحلية تعرف بـ « تهامة » (الأرض المنخفضة) فالهضبة الوعرة بين نجد والساحل تكون الحجاز ، ومنها كانت تمر في الأزمنة القديمة قوافل السبئيين في طريقها الى موانيء البحر الأبيض وهي مثقلة بالبضائع الثمينة ، وقد ظهرت مجموعتان سكنيتان تجاريتان لهما خطورتهما قبل بداية التاريخ الميلادى بعهد طويل وهما : ماكورابا Macoraba (مكة) والى شمالها

---

(١٠٧) الحماسة ص ٩٦ ؛ ابن نُباته فى مقتبس لراسموسن Rasmussen فى كتابه عن « تاريخ العرب قبل الاسلام » ص ٣٤ Additamenta ad Historiam ante Islamismum
يلاحظ أنه لم يرث أحد عدوا قتله قبل قيس (فهو أول من رثى مقتوله)•

(١٠٨) نهاية الصفحة «٦١» من النص الانكليزى

بمسافة Yathrippa (وهو اسم « المدينة » قبل الاسلام) ولا نعرف شيئاً عن سكانهما وتاريخهما المبكر ، اللهم الا ما يرويه الكُتّاب المسلمون الذين ترجع معلوماتهم الى أيام آدم وابراهيم (عليهما السلام) • كانت مكة مهد الاسلام والاسلام برأي محمد (ص) دين ابراهيم الذي أفسدته الأجيال المتعاقبة حتى بعث هو لتطهيره والتبشير به من جديد ، وعلى ذلك فان التاريخ الجاهلي لمكة قد جُعل كله اسلامياً ، اذا جاز التعبير ، وجعلت مدينة الاسلام المقدسة تظهر بنفس هذا الضوء قبل زمن النبي (ص) بآلاف السنين ، فهنا اتحد العرب ، على ما يقال ، في عبادة الله ؛ ثم تفرقوا ووقعوا تحت طائلة عبادة الأصنام ، والى هنا يعودون سنوياً حاجين الى المعبد الذي سمي في الأصل باسم الكائن الأوحد الأعظم ولكنه أمسى فيما بعد مقراً للآلهة القبلية ، وتكمن هذه النظرية في جذور الأسطورة الاسلامية التي سنوردها الآن موجزةً قدر الامكان ، ولن نمس غير النقاط البارزة الممتعة •

بناء الكعبة :

يقوم وسط وادي مكة ـ الموطن البدائي لذلك الجزء(١٠٩) من الجنس العربي الذي يدّعي الانحدار من صلب اسماعيل بن ابراهيم من زوجه هاجر ـ بناء غير منتظم مكعب الشكل ذو أبعاد صغيرة ـ هو الكعبة ، وتنسب الأخبار بناءها الى آدم (عليه السلام) الذى بناها بأمر رباني ، على نموذج سماوي ، وقد رفعها في الطوفان الى السماء ، ولكن ابراهيم واسماعيل أعادا بناءها في موضعها السابق ، وبينا هما عاكفان على هذا العمل اذ جاءهما جبرائيل بالحجر الأسود المشهور الذي وضع في الزاوية الجنوبية الشرقية من البناء ، وعلمهما كذلك طقوس الحج ، وعندما فُرغ من ذلك

---

(١٠٩) نهاية الصفحة «٦٢» من النص الانكليزي •

كله وقف ابراهيم على صخرة عرفت عند الأجيال التي تلته باسم « مقام ابراهيم » والتفت الى أركان السماء الأربعة وأعلن : « يا أيها الناس: كتب عليكم الحج الى البيت العتيق فاستمعوا الى ربكم » فجاءه الرد من كل جزء من العالم : « لبيك(١١٠) ، اللهم لبيك . »

ادخال عبادة الاصنام الى مكة :

تكاثرت ذرية اسماعيل تكاثراً عظيماً بحيث ان الوادي الجدب القاحل لم يعد بوسعه أن يعيلهم ، فرحل عدد كبير منهم الى بلاد أخرى ، فخلفتهم في حكم البقعة المقدسة قبيلة جرهم فتجبرت وعتت حتى حاق بها انتقام رباني . لقد ورد ذكر انهدام سد مأرب كثيراً مما حمل بطوناً يمانية على الزحف على نطاق واسع الى الشمال ، فتوقف الغزاة في الحجاز وبعد أن أبادوا جُرْهُماً أو كادوا استأنفوا رحيلهم ، على أن رهطاً منهم ـ وهم بنو خزاعة بزعامة شيخهم لُحَيّ ـ استقروا بجوار مكة ؛ وكان عمرو بن لحي مشهوراً عند العرب بثرائه وكرمه ، ويقول ابن هشام : « ان عمرو ابن لحي خرج من مكة الى الشام في بعض أموره فلما قدم « مآب » من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ـ وهم ولد عملاق ـ ويقال عِمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ـ رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : « ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ »(*) قالوا له : « هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا » فقال لهم : « أفلا تُعطونني منها صنماً ، فأسير به الى أرض العرب ، فيعبدوه ؟ » فأعطوه صنماً يقال له (هُبَل) فقدم به مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه . »(١١١)

---

(١١٠) أي أطعنا .

(*) نهاية الصفحة «٦٣» من النص الانكليزى .

(١١١) ابن هشام : ص ٥١ س ٧ وما يليه (= جـ١ ص ٧٩ من طبعة مصر ١٩٣٦) .

واتباعا لأمثولته جاء العرب بأصنامهم وأقاموها حول المعبد المقدس ، فكان انتصار الوثنية تاماً ، ويقال ان محمداً (ص) حطم مئات الأصنام عندما دخل مكة على رأس جيش من المسلمين سنة ٨هـ = ٦٢٩م •

قـريش :

نعود الآن الى ذرية اسماعيل من عدنان ، وكان أحفادهم الأصليون الذين بقوا في الحجاز هم « هُذيل » و « كنانة » و « قريش » ، ولابد لهذه الأخيرة من أن تشغل انتباهنا بنوع خاص تقريباً ، ففي خلال القرن الذى سبق محمداً (ص) نجدهم مستحوذين على مكة بلا منازع واعتُرف بهم سدنةً للكعبة ـ تلك المهمة التي اضطلعوا بها بتقدير ثاقب لخطورتها التجارية ، وقد روي اعتلاؤهم السلطة على الوجه التالي :

حكاية قصي :

كان لكلاب بن مرة القرشي ولدان : « زُهْرَة » و « زيد » وكان الأخير لا يزال طفلاً عندما توفي والده ، وسرعان ما تركت والدته فاطمة التي تزوجت للمرة الثانية مكة مصطحبة معها زيداً لتعيش في بلد زوجها الجديد على مقربة من حدود الشام ، وقد شب زيد بعيداً عن وطنه فسمي لهذا السبب بـ « قصيّ » أي « الباعد قليلاً » وعندما بلغ مبلغ الرجولة واكتشف أصله الحقيقي قفل راجعاً الى مكة حيث كان النفوذ بأكمله بأيدي « خزاعة » تحت إمرة شيخها « حُلَيْل بن حُبْشِيَّة » مع التصميم على الحصول على سدانة الكعبة لقومه قريش الذين كان لهم أفضل حق لنيل هذا الشرف كسلالة نقية الدم انحدرت من اسماعيل ، وبزواجه من « حُبَّه بنت حُلَيل » كان يأمل أن يرث امتيازات حميه غير ان «حُليل» أعطى ، وهو على فراش الموت ، مفاتيح الكعبة(*) الى قريب له يسمى « أبا غُبشان » •

(*) نهاية الصفحة «٦٤» من النص الانكليزى •

قصيّ سيد الكعبة :

ولكيلا يغلب على أمره سَقى قُصيّ ، سادن الكعبة ، خمراً وأقنعه على أن يبيع المفاتيح بزقِ خمر - ومن هنا شاع المثلان : « أحمق من أبي غبشان » و « صفقة أبي غبشان » للدلالة على خديعة مؤسفة ، وبطبيعة الحال لم تذعن خزاعة لنتائج هذه الصفقة فلجأت الى السلاح ، ولكن قصي كان متهيئاً للقتال فأحرز نصراً حاسماً ، وكان الآن سيد المعبد والمدينة معاً ، وأصبح بمقدوره أن يتجه صوب أعمال التنظيم ، وكانت خطوته الأولى أن يجمع قريش التي كانت قد تشتّتت في مساحة شاسعة ، ، وادي مكة ـ فأكسبه ذلك لقب « المُجَمِّع » ـ بحيث تكون لكل اسرة محلتها المخصصة لها ، وبنى داراً « للندوة » حيث يناقش شيوخ القبيلة أموراً تؤثر في المصلحة العامة وأوجد كذلك عدداً من الامتيازات فيما يتعلق بالسيطرة على الكعبة وادارة الحج ، بالاضافة الى أخرى ذات طبيعة سياسية وعسكرية ، وهكذا كان نفوذه بعد موته لا أقل منه أثناء حياته ؛ بحيث ان جميع التنظيمات التي أوجدها اعتبرتها قريش مقدسة لا تخرق .

مكة في القرن السادس للميلاد :

يمكن تثبيت موت قصيّ في النصف الثاني من القرن الخامس للميلاد وقد ولد حفيده النبي محمد (ص) بعده بما يقرب من المائة عام وذلك سنة ٥٧٠ أو ٥٧١م وتاريخ مكة خلال الفترة المحددة على هذه الصورة سجل لأحزاب صغيرة لا يتخللها أي حدث خطير ، اللهم باستثناء بارز واحد سيذكر توا ؛ ويملأ أسلاف النبي (ص) المسرح ويتخذون مقام الامرة التي لم يمتلكوها على أكبر احتمال[١١٢] ، وتلوح المنافسة التاريخية بين الأسرة

(١١٢) لم يذكر نكلسن مصدرا واحدا يثبت قوله هذا ، فهو مردود عليه ، لان الامرة كانت في أسلاف النبي (ص) قبل النبوة بعهد طويل ، وكتب التاريخ كالطبري واليعقوبي والمسعودي تذكر ذلك [المترجم]

الاموية والعباسية في شخصي مؤسسيهما « أمية » و « هاشم » ــ وهكذا ، وفي الوقت ذاته كان تأثير قريش آخذاً في الترسّخ والتوسع باستمرار ، وغدت الكعبة نقطة التقاء قوميّ عظيم ، وجموع الحجيج الذين اجتذبتهم من كل بطن عربي على وجه التقريب لم تزد في رصيد قريش حسب ، بل أسهمت في رخائهم التجاري مادياً أيضاً ، وقد سبق أن روينا كيف أن أبرهة ، نائب ملك الحبشة في اليمن ، صمم على الزحف على[113] مكة وقد أقسم على أن يثأر من الكعبة لدنس ألحقه أحد القرشيين بكنيسة في صنعاء[114] ، وربما كان شيء من هذا القبيل عذراً له ، ولكن غرضه الحقيقي كان بلا شك فتح مكة والسيطرة على تجارتها •

عـــام الفيــل :

يقول مؤرخو المسلمين ان هذه الحملة الشهيرة[115] حدثت عام مولد محمد (ص) « حوالي ٥٧٠م » ويعرف بعام الفيل ــ مما يدل على أن العرب قد تأثروا تأثراً عميقاً بالمشهد الخارق لهذه الحيوانات الضخمة ، فقد صحب جيش الحبشة فيل أو فيلان وملأ خبر استعدادات أبرهة رجال القبائل بالرعب ، وقد حاولوا باديء ذي بدء أن يقاوموا زحفه معتبرين الدفاع عن الكعبة واجباً مقدساً ، ولكن سرعان ما فترت عزيمتهم ، فضرب أبرهة خيامه بالقرب من مكة بعد أن دحر « ذا نَفَار » أحد شيوخ حمير ، بدون أي مقاومة أخرى •

---

(١١٣) نهاية الصفحة «٦٥» من النص الانكليزى •
(١١٤) راجع : ص ٦٩ فى أعلاه [المترجم] •
(١١٥) لقد اتبعت فى التفاصيل المبينة فى أدناه عن غزو أبرهه « الطبري » : جـ١ ص ٩٣٦ س ٩ ــ ص ٩٤٥ س ١٩ (الطبعة الاوربية) = جـ١ ص ٥٥١ وما بعدها (الطبعة المصرية ، ١٩٣٩) = ترجمة نولدكه : ص ٢٠٦ ــ ٢٢٠ •

الأحباش في مكة :

وبعث بالرسالة التالية الى عبدالمطلب ، جد الرسول (ص) ، الذي كان يومذاك أكثر الشخصيات نفوذاً في مكة : « اني لم آت لحربكم انما جئت لهدم البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم » فأجاب عبدالمطلب : « والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم فان يمنعه فهو بيته وحرمه ، وان يخل بينه وبينه فو الله ما عندنا من دفع عنه . »

مقابلة عبدالمطلب لأبرهة :

ثم انطلق عبدالمطلب مع رسول أبرهة حتى أتى العسكر فسأل عن « ذي نفار » وكان له صديقاً ، حتى دل عليه وهو في محبسه فقال له : «يا ذا نفار هل عندك غناء فيما نزل بنا ؟ » فقال له ذو نفار : « وما غناء رجل أسير بيدي[116] ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً الا أن (أُنَيْساً) سائس الفيل لي صديق فسأرسل اليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك ، فتكلمه بما تريد ويشفع لك عنده بخير ، ان قدر على ذلك » قال : « حسبي » فبعث ذو نفار الى أُنيس ، فجاءه فقال : « يا أنيس ، ان عبدالمطلب سيد قريش وصاحب عير مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده ، بما استطعت » قال : « أفعل » فكلم أنيس أبرهة ... فأذن له ... وكان عبدالمطلب رجلاً عظيماً وسيماً جسيماً ، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه أن يجلس تحته وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه

---

(١١٦) نهاية الصفحة «٦٦» من النص الانكليزى .

وأجلسه معه عليه الى جنبه ، ثم قال لترجمانه : « قل له حاجتك الى الملك » فقال له ذلك الترجمان ، فقال عبدالمطلب : « حاجتي الى الملك أن يرد عليّ مائتي بعير أصابها لي » فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : « قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في مائتي بعير قد أصبتها لك وترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تكلمني فيه ؟ » قال له عبدالمطلب : « اني أنا رب الابل وان للبيت رباً سيمنعه » قال : « ما كان ليمنع مني » قال : « أنت وذاك • أردد الي إبلي ».

وكان فيما زعم بعض أهل العلم (ان القبائل المستقرة حول مكة قد بعثت برسل كان عبدالمطلب أحدهم) فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تِهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم .. وكان أبرهة قد رد على عبدالمطلب الابل التي أصاب له فلما انصرفوا عنه انصرف عبدالمطلب الى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فيشعف الجبال والشعاب (تخوفاً عليهم من معرة الجيش) ثم قام عبدالمطلب فأخذ بحلقة الباب ، باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبدالمطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة (من مرفل الكامل) :

لا هُمَّ ان العبـد يمـ ـنع رحله فامنع حلالكْ
لا يغلبـنَّ صليبُهـم و محالهم(١١٧) عدوا محالكْ
فلئـن فعلـت فربمـا أولى فأمرٌ ما بدالك(١١٨)

(١١٧) خططهم الماكرة .

(١١٨) الطبري : ١/ ٩٤٠ س ١٣ [وهنا نهاية الصفحة «٦٧» من النص الانكليزى] .

فلما أصبح ابرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله ... فبرك الفيل ... وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، وضربوا في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن لهم في مراقّه فبزغوه ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً الى اليمن فقام يهرول ..... وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف ، مع كل طير منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر في منقاره وحجران في رجليه ، مثل الحمص والعدس لا تصيب منهم أحداً الا هلك » .(١١٩)

وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاؤا ... فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل وأصيب ابرهة فى جسده وخرجوا به معهم تسقط أنامله أنملة أنملة(١٢٠) .

ان هذه التفاصيل مستندة على السورة ١٠٥ من القرآن الكريم « سورة الفيل » وقد جاء فيها :

« ألمْ ترَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول » .

والدور الذى لعبه عبدالمطلب فى الحكاية هو بطبيعة الحال أسطورة ورعة مصممة لتمجيد المدينة المقدسة وادعاء النفوذ لأسرة النبي (ص) قبل

---

(١١٩) وتقول رواية اخرى : « لا تصيب رجلا الا ظهرت فيه البثور والدمامل فى ذلك الموضع من الجسم فكان ذلك أول ما كان الجدرى » (الطبرى ١/٩٤٥س٢ وما يليه) هنا حقيقة تاريخية وهى انتشار وباء فى الجيش الحبشى أفضى الى ظهور الاسطورة المبينة فى أعلاه .

(١٢٠) هنالك دليل يوثق به على أن أبرهة استمر يحكم اليمن مدة من الزمن بعد هزيمته .

الاسلام بخمسين سنة ، النفوذ الذى لم يحصلوا عليه الا بعد ذلك بردح طويل[121] ، ولكن الأسطورة طبعاً تعكس بنفس الدرجة العقيدة الاسلامية ويمكن أن تكون دراستها ذات نفع كنموذج فريد من نوعه •

« فلما رد الله الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصابهم به من النقمة ، أعظمت العرب قريشاً[122] ، وقالوا : هم أهل الله ، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم ، فقالوا في ذلك أشعاراً[123] والأبيات التالية [من الخفيف] ، على رأي ابن اسحق ، لأبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي ؛ وينسبها آخرون، وهم على حق ، الى ابنه أمية ، وهو شاعر مشهور وحنيفي معاصر لمحمد (ص) :

إن آيات ربنا ثاقبات لا يماري فيهن الا الكفور
خلق الليل والنهار فكل مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار ربّ رحيم بمهاة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور
لازماً حلقة الجران كما قط •••• ـر من صخر كبكب محدور
حوله من ملوك كندة أبطا لٌ ملاويث في الحروب صقور
خلفوه ثم ابذعرّوا جميعاً كلهم عظم ساقه مكسور
كل دين يوم القيامة عند الل •••• ـه إلا دين الحنيفة بور[124]

---

(١٢١) هذا بطبيعة الحال ، رأي استشراقي مردود ، لا نوافق نكلسن عليه ، فما ذكره ليس بأسطورة وانما قصة تاريخية أيدها خصوم النبي (ص) من المشركين كما أيدها الهاشميون أنفسهم ، ومن يراجع امهات المصادر التاريخية العربية والاجنبية يتبين له وجه الحق • [المترجم]

(١٢٢) نهاية الصفحة «٦٨» من النص الانكليزى •

(١٢٣) ابن هشام : ص ٣٨ س ١٤ وما يليه = جـ١ ص ٥٩ (طبعة القاهرة ١٩٣٦) •

(١٢٤) نفس المصدر ص ٤٠ س١٢ وما يليه (ص ٦٢ ، طبعة القاهرة ، ١٩٣٦) •

ان المشاعر الوطنية التي أثارها الغزو الحبشي في عرب الحجاز ـ المشاعر التي لابد أن شاطرهم فيها إلى حد ما البدو عموماً ـ تلقت حافزاً جديداً بطريق حوادث وقعت بعد هذا بأربعين عاماً في الجهة الثانية من شبه الجزيرة ، فاننا نتذكر أن الأسرة اللخمية فى الحيرة انتهت « بالنعمان الثالث » الذي قتله «خسرو برويز» بكل قسوة (سنة ٦٠٢ أو٦٠٧م)[١٢٥] وكان قد اودع دروعه وسائر أمواله قبل موته عند « هانيء » ، أحد صغار شيوخ بني بكر ، فطلبها « خسرو » ، ولما رفض « هانيء » ذلك أرسل جيشاً فارسياً الى « ذي قار »[١٢٦] ، وهو مكان بالقرب من الكوفة غزير المياه ، وعلى ذلك فهو ملاذ يهرع اليه بنو بكر في موسم الجفاف .

معركة ذي قار(*) (حوالي سنة ٦١٠م) :

فحصل تصادم يائس أفضى الى هزيمة الفرس هزيمة نكراء[١٢٧] ، ومع ان القوات التي اشتركت فى المعركة كانت صغيرة نسبياً[١٢٨] ، فان العرب اعتبروا هذا الانتصار بحق بداية ترتيب جديد للامور ، فقد روي مثلا ان النبي (ص) قال عندما بلغه الخبر : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم » .

---

(١٢٥) راجع أعلاه ص ٤٨ ـ ٤٩ (من النص الانكليزى) = ص ٩٥ (من الترجمة العربية) .

(١٢٦) نهاية الصفحة «٦٩» من النص الانكليزى .

(*) ذكرها الميداني فى « مجمع الامثال » (طبعة مصر ، ١٣٥٢هـ) ج ٢ ص ٣٩٨ .

(١٢٧) التفاصيل الكاملة فى « الطبري » ج١ ص ١٠١٦ ـ ١٠٣٧ = ترجمة نولدكه : ص ٣١١ ـ ٣٤٥ .

(١٢٨) يذكر أحد الشعراء ان عدد العرب كان ثلاثة آلاف وعدد الفرس الفين (الطبري : ١٠٣٦/١ س ٥ ـ ٦) .

ان قبائل الصحراء التي كانت قد حجبتها الامبراطورية الساسانية حتى الآن ، واوقفتها دولة الحيرة القوية عند حدها ، كانت الآن واثقة من نفسها واعتدائية متحرشة ، اذ شرعت تكره وتحتقر التمثال الهائل الذي لم تعد تخشاه والذى عفرته بالتراب قبل مضي سنوات عديدة(١٢٩) .

---

(١٢٩) نهاية الصفحة «٧٠» من النص الانكليزى ، وفى الرسالة (العدد : ١٨٩ ، ١٥ فبراير ، ١٩٣٧ ، «السنة الخامسة» ص ٢٦٣–٢٦٦) ترجمة ثانية للدكتور حسن حبشي ، وهنا نهاية الفصل الثاني للكتاب ، وقد اعتمد فيه نكلسن فى الدرجة الاولى على : (١) ابن خلدون : المقدمة و (٢) ابن قتيبة : منتخبات و (٣) ديوان النابغة (طبعة ديرنبرغ) و (٤) نولدكه : منتخبات ؛ كما انه اعتمد فى المدخل والفصل الاول على : (١) القرآن الكريم و (٢) ابن قتيبة : كتاب المعارف (طبعة وستنفيلد) و (٣) الطبرى : جـ١ و (٤) المعلقات و (٥) الهمداني « الاكليل » (الكتاب الثامن و (٦) القصيدة الحميرية و (٧) نشوان : شمس العلوم و (٨) ابن النديم : الفهرست و (٩) المسعودى : مروج الذهب و (١٠) الميدانى : الامثال العربية ، طبعة فريتاغ و (١١) الاغانى و (١٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب و (١٣) ابن هشام : السيرة النبوية .

الفصل الثالث

شعر الجاهليين وعاداتهم وأديانهم

يقول ابن رشيق القيرواني : « وكانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الاطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الاعراس ، وتتباشر الرجال والولدان لانه حماية لأعراضهم ، وذبٌ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم ، واشادة لذكرهم ، وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد أو شاعر ينبُغ أو فرس تنتج »(١) •

لا يكاد عهد الجاهلية ، أو عصر ما قبل الاسلام،يشمل فيما يتعلق بالادب المتوفر بين أيدينا ــ والذى لم يكن فى هذه الفترة غير الادب الشفهي الذى حفظ بالرواية ، ودوّن لاول مرة بعد ذلك بعهد طويل ــ أكثر من قرن ، أي من حوالي ٥٠٠م ، عندما نظمت أقدم القصائد التى دوّن عنها أي أثر الى سنة هجرة محمد (ص) الى المدينة (٦٢٢م) ، التى هي نقطة بدء لعهد جديد فى التاريخ العربي ، وقد كان تأثير هذه المائة والعشرين سنة عظيما وخالدا(٢) ، فقد رأت ظهور وبداية تدهور شعر اعتبره معظم المسلمين الناطقين بالضاد فى كل وقت نموذجا من البراعة لا يُحاكى ،

(١) ابن رشيق فى « المزهر » للسيوطي (طبعة بولاق ، ١٢٨٢هـ) ج ٢ ص ٢٣٦ س ٢٢ وما يليه ، وقد ترجم هذه الفقرة السرشارلس لايل فى مقدمة كتابه : «الشعر العربي القديم» Ancient Arabian Poetry وهو كتاب جد رائع يجب أن يوضع بين يدي كل من يشرع بدراسة هذا الموضوع الصعب [راجع كذلك ابن رشيق القيرواني : « العمدة » (تحقيق محمد محي‌الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) جـ١ ص ٤٩] « المترجم »

(٢) نهاية الصفحة «٧١» من النص الانكليزي •

شعر امتدت جذوره فى حياة الناس وطور ، على غير شعور منهم ، أذهانهم وثبّتَ سلوكهم ، وجعلهم من الناحيتين الخلقية والروحية شعبا ، قبل أن يصهر محمد (ص) مختلف الجماعات المتنازعة ، فيجعلها عضواً واحداً بعهد طويل[٣] ، محركا اياهم لبعض الوقت على الاقل بغرض مشترك ، ولم يكن الشعر حينذاك ترفا للقلة المثقفة ، بل الوسيلة الوحيدة للتعبير الادبي ، وكان لكل قبيلة شعراؤها الذين نطقوا بحرية عن مشاعرهم وأفكارهم ، فألفاظهم غير المدونة « طارت عبر الصحراء بأسرع من السهام » وكرت راجعة الى قلوب وصدور كل من سمعها ؛ وهكذا كان ثمة مبدأ موحّد يعمل عمله وسط صراع وانحلال ظاهريين • لقد منح الشعر حياة وتداولا لفضيلة عربية مثلى هى (المُروُءَة) ، ومع انها كانت تستند على وحدة الدم القبليّة ، وتؤكد ان روابط الدم وحدها هي المقدسة ، فقد أصبحت رغم ذلك رابطة غير مرئية بين الافخاذ المختلفة ؛ وكوّنت ، عن وعي أو غير وعي ، أساس عاطفة قومية مشتركة •

أصل الشعر العربي :

سنحاول فى هذه الصفحات تقصي اصول الشعر العربي ، ووصف هيئته ومحتوياته ومظاهره العامة ، والتحدث بالمام عن أشهر شعراء الجاهلية ، ومجاميع شعر ما قبل الاسلام وأخيرا بيان الوسيلة التى حفظ بها حتى انتهى الينا •

كان قدامى العرب يقصدون بلفظة « شاعر » (والجمع « شعراء ») ــ كما يدل الاسم ــ « شخصا » أُنعم عليه بمعلومات خارقة ، أو « ساحرا » على صلة (بالجن) أو (الشياطين) ، معتمداً عليها في القوى

---

(٣) ولكن شتان ما بين « الوحدة الشعرية » التى خلقها العصر الجاهلي ، « والوحدة الدينية » التى خلقها العصر الاسلامي • [المترجم] •

السحرية التي يظهرها ، وتتجلى بشكل غريب ، هذه النظرة لشخصيته والمكانة المتنفذة التي كان يحتلها ، في قصة شاب رفض ذوو حبيبته تزويجها منه لانه لم يكن شاعراً(٤) ولا كاهناً ولا عرّافاً(٥) ، وقد تطورت فكرة الشعر فناً فيما بعد ، فقد كان الشاعر الوثني كاهن قبيلته وهاديها الى السلم، وبطلها في الحرب ، فاليه يرجعون في المشورة عندما كانوا يبحثون عن مراعٍ جديدة وبكلمة منه يضربون طُنُبهم أو يقتلعونها ، وعندما كان المتجولون المتعبون العطشى يجدون بئراً يشربون منها ويغتسلون بمائها ، كان هو الذى يقودهم ، ليرفعوا عقيرتهم معا ويغنوا كما فعل اسرائيل :

« تدفقي أيتها البئر ؛ وأنتم غنوا لها ! »(٦)

الهجـــاء

ولابد أن أنواعاً اخرى من الشعر ، فضـــلا عن « أغاني الينابيع » ،

---

(٤) نهاية الصفحة «٧٢» من النص الانكليزى .
(٥) فريتاغ : الامثال العربية ، حـ٢ ص ٤٩٤ .
(٦) [الكتاب المقدس ، طبعة المرسلين اليسوعيين ، بيروت ، ١٨٩٧ ص ٦٨] (سفر العدد ، الفصل الحادى والعشرون ، الآيـة ١٧) حيث ورد فيها : « حينئذ ترنم اسرائيل بهذا النشيد : اصعدى يا بئر ، تجاوبوا لها » وزيادة فى الايضاح نورد الآية التى قبلها وهي : ورحلوا من ثم الى البئر وهى البئر التى قال الرب فيها لموسى : اجمـع الشـعب حتى أعطيهم ماءً [المترجم] .
ولا يزال أمثال أغاني الينابيع هذه تغنى فى الصحـراء السوريـة (راجع اينوليتمان : أشعار العرب الشعبية الجديدة
Enno Littmann, Neuarabische Volkspoesie
فى
Abhand. der Kön. Gesellschaft der Wissenschaften, Phil. -Hist. Klasse, Göttingen, 1901) p. 92
وفى نموذج ورد فى الصفحة ٨١ نجد الكلمات الآتية :
« واطلع يا دلونا ! » مكررة عدة مرات .

و « أناشيد الحرب » و « تراتيل الأصنام » ، وجدت في الأزمنة القديمة ـ كالنسيب والرثاء ؛ على أن قوى الشاعر كانت تتجلى بصورة رئيسة في الهجاء الذي كان في أقدم ضروبه المعروفة « يفتتح النزاع القبلي ويصاحبه ، وهو عنصر من عناصر الحرب خطير" كالقتال الفعلي ذاته»[٧] ، وكان المعتقد أن التهديدات التي يقذف بها العدو قتّالة" لا مناص منها ، وقوافيه التي كثيراً ما كانت تُقارن بالسهام كان لها تأثير اللغة المقدسة يتفوه بها نبي أو كاهن ملهم من السماء[٨] ، وتكون تفوهاتهم محفوفة بمراسيم غريبة ذات طابع رمزي : كدَهن الشعر في جهة من الرأس، وترك العباءة معلقة بارتخاء ، واحتذاء خف واحد فقط[٩] . لقد استبقى الهجاء شيئاً من هذه الملابسات المنذرة بالسوء الى فترة متأخرة جدا عندما أمسى النطق المسحور للشاعر متخليا عن مكانه منذ عهد طويل ، للاقذاع[١٠] الذى يقابل به الشاعر أعداءه ويلصق بهم العار .

السجع :

إن البداية الغامضة للشعر العربي التى سيطر عليها الساحر بأرواحه وأطيافه المألوفة لم تترك وراءها أثرا أدبيا ، بيد أن مهمة اعادة تركيب

---

(٧) گولدتزيهر
Ueber Die Vorgeschichte der Higâ' Poesie
« فى نشأة شعر الهجاء » .
In his Abhand. Zur Arab. Philologie
ص ٢٦ : « بحوث فى فقه اللغة العربية » القسم الاول (لايدن ١٨٩٦)

(٨) راجع قصة « بلك » و « بلعم » مع ملاحظات گولدتزيهر عنهما ، نفس المصدر السابق ، ص ٤٢ وما يليها .

(٩) المصدر السابق ، ص ٤٦ وما بعدها .

(١٠) نهاية الصفحة «٧٣» من النص الانكليزى .

الاشياء هيّنة نسبياً حيثما يكون التعامل مع قوم محافظين ومتمسكين بالقديم كالعرب ، وهكذا يمكننا أن نتأكد من أن أقدم شكل للكلام الشعرى في بلاد العرب هو القافية بلا وزن (السجع) ، أو كما ينبغي أن نقول : « النثر المقفى » ، ولو أن حقيقة كون خصوم محمد (ص) قد سموه شاعراً لان السجع قد ورد في القرآن ترينا النظرة التى كان يُنظر بها اليه حتى بعد اختراع الوزن وإحكامه ، وقد أصبح السجع فيما بعد ـ كما سنرى ـ مجرد حلية بلاغية ، هي السمة المميزة لكل الوان الفصاحة منطوقة أو مكتوبة الا انه كان له في الاصل أهمية أعمق تكاد تكون دينية اذ كان نوعا أدبيا خاصا اصطنعه الشعراء والعرافون واضرابهما في صنوف وحيهم الخارق وفي تلقين العامة كل ضرب من ضروب العلم الباطني العجيب •

الرجز :

ومن السجع تطور أقدم البحور العربية المعروف بـ « الرجز »(١١) وهذا بحر آيمبي غير منتظم يتألف عادة من أربع الى ست تفاعيل ـ ويعتبرها العربي تفعيلتين أو ثلاثاً ـ في البيت الواحد(١٢) ، ومن خصائص الرجز

---

(١١) يعني الرجز فى الاصل رعشة (وهى علامة مرض) فى القائمتين الخلفيتين للجمل وقد أوحى هذا التعريف « للدكتور جى جاكوب » نظريته الممتعة القائلة بأن البحور العربية برزت من حداء الحادى بتجاوب مع الخطوات المتباينة للجمل الذى يمتطيه (« دراسات فى الاشعار العربية » ، الفصل الثالث ص ١٧٩ وما يليها (Studien In Arabischen Dichtern, Heft III. [وفى رأي شاعرنا « معروف الرصافى » ان حركة اخفاف الجمل أقرب الى بحر الكامل منها الى الرجز ، راجع كتابه : « دروس فى آداب اللغة العربية »] « المترجم » •

(١٢) لان التفاعيل العربية أطول من التفاعيل الافرنجية ذلك لان التفعيلة العربية مكونة من مجموعة أسباب وأوتاد فى حين ان التفعيلة

التى توضح قرابته من السجع ان الاشطر كلها مقفاة بينما في البحور الاكثر فنية لا تجد التقفية الا في المطلع(١٣) ومن خصائصه أيضاً انه ينشد إرتجالا ، بضعة أبيات فى وقت واحد - وهى فى العادة أبيات تعبر عن مشاعر أو عواطف أو تجارب شخصية كما في قول المحارب المسن دريد بن زيد بن نهد عندما احتضر : -

اليوم يُبنى لدُريدٍ بيتُه(١٤) لَوْ كان للدهر بِلىً أبليتُه
أَوْ كانَ قِرني واحداً كَفَيْتُهُ يا رُبَّ نهبٍ صالحٍ حويتُه !
وَرُبَّ عَبْلٍ خَشِنٍ لَوَيْتُهُ !(١٥)

البحور الاخرى :

كان يحسن بنا أن نقدم هنا تفاصيل عن البحور العربية الاخرى - الكامل والوافر والطويل والبسيط والخفيف وغيرها - ولكن لكيما نقتصد في مجال بحث قيّم يجب أن نقنع باحالة القارىء الى دراسة السر شارلس

الافرنجية لا تتجاوز فى أكثر الاحوال الوتد المجموع أو المفروق أو الفاصلة الصغرى . [المترجم]

(١٣) يضم البيت فى العربية شطرين أو مصراعين ومن الملائم عموما استمال لفظة (Line) سطر أو بيت فى ترجمة « مصراع » ولكن على القارىء أن يفهم ان الشطر ليس وحدة مستقلة كما فى القريض الانكليزى ، والرجز هو الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة ، فليس فيه تقسيم الى اشطر ، بل ان كل بيت يؤلف وحدة غير مجزأة تتبع نفس قافية البيت الذى يسبقه [وهنا نهاية الصفحة «٧٤» من النص الانكليزى] .

(١٤) فى العربية « البيت » يعنى « الخيمة » ، وقد اصطنعت اللفظة هنا مجازا للدلالة على القبر (المؤلف) [البيت اسم من أسماء القبر ، فقد جاء فى «اللسان» ٢/٣١٩ : والبيت القبر على التشبيه ؛ راجع كذلك «القاموس المحيط » للفيروزآبادى : ١/١٤٤] « المترجم »

(١٥) ابن قتيبة : « الشعر والشعراء » ، ص ٣٦ س٣ وما يليه .

لايل الواضحة للموضوع فى مقدمة كتابه الشعر العربي القديم (ص ٤٥ـ ٥٢) والبحور كلها قائمة على « الكم » كما فى اليونانية واللاتينية ولم تكن اسماؤها وقواعدها معروفة عند شعراء الجاهلية وقد استنبط الخليل بن أحمد النحوى (المتوفى سنة ١٨٠هـ/٧٩١م) قواعد العروض من الشعر القديم ورتبها لاول مرة وقيل ان الفكرة عرضت له وهو يراقب التوقيت الزمني لضربات مطرقة نحّاس على سندان .

أقدم ما وصل الينا من قصائد :

علينا الآن أن ننظر الى شكل أقدم ما لدينا من قصائد عربية ومادتها ، فبين هذه الاشعار البالغة حد الاتقان والكمال وبين الشعر الركيك غير المصقول الممثل في السجع أو الرجز فترة يستحيل تقدير أمدها حتى تخمينا وتقديرا ، فالشعراء الاوائل هم أساتذة ماهرون في فنهم مقدماً ، « فعدد المقاييس التى يصطنعونها وتعقيدها ، والقواعد « الكمية المقررة » والقافية ، والطريقة المتسقة[١٦] التي يستهلّون بها موضوع قصيدتهم[١٧] بالرغم من المدة التى غالباً ما تفرق بين شاعر وآخر ، كل ذلك يشير الى دراسة طويلة مسبقة وانماء لفن التعبير ولقابليات لغتهم ، وهى دراسة لم يبق منها اليوم أثر »[١٨] .

---

(١٦) نهاية الصفحة «٧٥» من النص الانكليزي .

(١٧) فالشاعر عنترة يتشكى فيالقرنالسادسللميلاد من أن أسلافه الشعـراء لم يتركوا له شيئا جديدا يقوله (المعلقـة ، البيت الخامس) [من الكامل] .

هـل غـادر الشعراء من متردَّمِ   أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّم ؟

(١٨) الشعر العربي القديم ص ١٦ من المقدمة .

ملاحظة : لقد سبق للدكتور حسن حبشي ان قدم ترجمة ثانية لهذا الجزء فى مجلة الرسالة العدد ١٩٠ (٢٢ فبراير ١٩٣٧) السنة الخامسة ، ص ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥ ، مع ذلك آثرنا اعادة ترجمته ليحصل القارىء على ترجمتين للنص الواحد .

تاريخها :

ليس من المستبعد ان فجر العصر الذهبي للشعر العربي يتفق مع السنوات العشر الاولى للقرن السادس بعد الميلاد فحوالي ذلك كانت حرب البسوس التى حفظ لنا تاريخها قدراً من الشعر المعاصر لا يستهان به ، في أوج أوارها ، وقد نظم المهلهل بن ربيعة التغلبي أول قصيدة على ما ترويه الاخبار ، في رثاء أخيه الشيخ كليب الذى كان موته سبب قيام الحرب بين بكر وتغلب ؛ على كل حال ، نجد خلال المائة سنة التالية فى كل ناحية من شبه الجزيرة على وجه التقريب ، سلسلة من الشعراء الغنائيين بالتتابع ، وكلهم يصطنع نفس اللهجة الشعرية ويتمسك على وجه الدقة والضبط بنفس قواعد النظم ، والطريقة التى جروا عليها بقيت بالفعل بلا تغيير الى نهاية العصر الاموى (١٣٢هـ/٧٥٠م) ومع أن بعض الشخصيات الادبية الجريئة قد تحدتها في العصر العباسى فانها قد أعادت تأكيد تفوقها بسرعة ، وهو تفوق يكاد يكون مطلقاً في الوقت الحاضر ، كما كان فى أي زمن مضى .

القصيدة :

وتتركز هذه الطريقة في القصيدة[١٩] وهو الشكل الوحيد أو

---

(١٩) يفسر اللغويون العرب القصيدة بأنها شعر ذو قصد فني ولكنهم يختلفون فى فهم معنى « القصد الفنّي » بالضبط والنقاد المحدثون كذلك هم فى نفس الوضع من الاختلاف ويشتق جاكوب (دراسات فى الشعر العربى ، القسم الثالث ، ص ٢٠٣) اللفظة من الدافع الاساسي لهذه الاشعار وهو احراز جائزة سخية مقابل المديح والتملق ويربطها اهلورت في كتابه : « تعليقات على القصائد العربية القديمة » (Bemerkungen über die Aechtheit der alten Arab. Gedichte) p. 24 seq. بالفعل « قصد » أى « كسر » لانها تتألف من أبيات ينقسم كل منها الى شطرين ينتهي ثانيهما بقافية مشتركة ؛ وهكذا فكأن القصيدة كلها مشطورة شطرين فى حين انه ليس فى أبيات الرجز على ما رأينا (ص ٧٤ « من النص الانكليزي » و ص ١٣٠ ــ ١٣١ « من الترجمة العربية » فى أعلاه) من انشطار على هذه الصورة .

بالاحرى النمـوذج الكامل الوحيد للشعـر ، ذلك الذى وجـد[٢٠] في ما يمكن أن يسمى ـ لعدم توفر تسمية أفضل ـ « بالعصـر الكلاسيكي » للادب العربي •

وتختلف الابيات (ومفردها « بيت ») التى تبنى منها القصيدة من حيث العدد ولكنها قلّما تكون أقل من خمسة وعشرين بيتاً ، أو أكثر من مائة ، وترتيب القوافي هو أن يكون الشطران الاولان مقفيين وتتكرر نفس القافية مرة في البيت الثاني والثالث وكل بيت يلي ذلك الى نهاية القصيدة ؛ والشعر المرسل مخالف لمزاج العرب الذين لا يعتبرون القافيه حلية ممتعة أو مجـرد « قيد مرهق » بل الجزء الحيوي من القصيدة ، والقوافي عـادة مؤنثة[٢١] من نحو : سخينا ، تُلينا ، مُهينَا ؛ مخلدِي ، يدي ، عوّدي ؛ رجامها سلامها ، حَرامُها ؛ ويتطلب التغلب على صعوبات القافية الموحدة براعة فنية ، عظيمةً حتى فى لغة يجعل تشكيلها الخاص تزويد القوافي متوفراً بشكل خارق ؛ وحتى أطول المعلقات المعروفة « بالمطوّلات » أقصر بكثير من مرثية «غراي»(*) ؛ أما فيما يتعلق بالبحر فبوسع الشاعر أن يختار أي بحر يشاء ، عدا الرجز الذى يعد دون مقام القصيدة ، غير أن حريته لا تتسع لاختيار الموضوعات أو طريقة معالجتها : بل على العكس من ذلك فان مجرى أفكاره يتقرر بتقاليد صارمة لا يمكن تخطيها •

ما ذكره ابن قتيبة عن محتوى القصيدة وتقسيماتها :

يقول ابن قتيبة : « وسمعت بعض أهل العلم يقول ان مُقَصِّـد القصيد انما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فشكا وبكى وخاطب

---

(٢٠) نهاية الصفحة «٧٦» من النص الانكليزى •

(٢١) يقسم الانكليز القوافي الى نوعين (١) مذكرة وهى المنتهيـة بمقطع قوي مشدد و(٢) مؤنثة المنتهية بمقطع ضعيف غير مشدد• [المترجم]

(*) راجع ترجمتهـا فى كتابنا : « دراسـات فى الأدب المقـارن والمذاهب الأدبية » (بغداد ، ١٩٥٨) ص ١٢٦ـ١٣١ [المترجم]

الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها اذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتجاعهم الكلأ ، وانتقالهم من ماء الى ماء ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليُميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه ، ويستدعي به اصغاء الاسماع اليه ، لان النسيب قريب من النفوس ولائط بالقلوب لما جعله لله في تركيب العباد من محبة للغزل والفِ للنساء فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم ، حلال أو حرام ، فاذا علم انه استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له ،[٢٢] عقب بايجاب الحقوق ، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسُرى الليل وانضاء الراحلة والبعير ، فاذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وزمام التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في السير ، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزه على السماح وفضَّلَهُ على الأشباه »[٢٣] .

وتستجيب على وجه الضبط مئات القصائد لهذا الوصف الذي يجب الا يعتبر على كل حال النموذج الذى لا محيد عنه ، فكثيراً ما يُحذف الاستهلال النسيبيّ ولا سيما في المراثي ؛ اذا لم يفضِ الى الموضوع الرئيسى مباشرة ، فقد يعقبه تحديد صادق ودقيق لفرس الشاعر أو جمله الذى يحمله عبر الصحراء بسرعة الرئم أو الحمار الوحشي أو الظليم . فالشعر البدوي يعج بدراسات دقيقة لحياة الحيوان[٢٤] ويترك اختيار الدافع مفتوحا ، والمديح ، بلا شك ، كان يعود بنفع أكبر من غيره ، فلذلك

---

(٢٢) نهاية الصفحة «٧٧» من النص الانكليزى .

(٢٣) كتاب الشعر والشعراء ، ص ١٤ س ١٠ وما يليه .

(٢٤) يبدي نولدكه (فى «المعلقات الخمس» ، جـ١ ص٣ وما بعدها) ملاحظة غريبة توضح السمة المصطنعة لهذا الشعر، وهو أن بعض الحيوانات المعروفة عند العرب جِدّ المعرفة (كالنمر الارقط واليربوع والارنب البري) نادرا ما تذكر وقلما توصف ؛ لا لسبب ، على ما يظهر الا لانها لم تدرج فى القائمة التقليدية .

كان محبوباً عندهم ، ولكن كان بوسع الشاعر الجاهلي بصورة عامة أن يعمل ما يشاء ، فالقصيدة ليست تركيبا متماسكا : بل ان وحدتها تشبه سلسلة من الصور رسمت بريشة واحدة ، أو اذا شئنا أن نصطنع استعارة شرقية ، قلنا انها لآليء تختلف حجما ونوعا انتظمت في عقد .

ويمكن تحديد الشعر القديم بأنه نقد تصويري(*) لحياة العصر الجاهلي وتفكيره فهنا قد صور العربي نفسه بقامته الكاملة بلا تزويق وتلطيف .

وليس من قبيل مجرد المصادفة ان يُعرف ديوان أبى تمام الشهير « بالحماسة » اعتمادا على عنوان الباب الاول الذى يحتل قرابة نصف الكتاب ؛ « فالحماسة » تشير الى الفضائل التى يعتز بها العرب أكثر من غيرها وهى ـ الشجاعة في الحرب والصبر في الملمات ، والدأب فى طلب الثأر ، وحماية الضعيف وتحدي القوي ، والارادة ، كما يقول تينيسن :

« للمكافحة ، والبحث ، والكسب وعدم الخضوع ! »

البطل العربي المثالي :

بوسعنا أن نأخذ كنموذجين للبطل العربي المثالي « الشنفرى » الازدي ورفيقه في الغزو والنهب « تأبط شراً » . كان كلاهما قاطع طريق ، وطريد عدالة وعداءً وشاعراً مجيداً .

الشنفرى :

وقد روي عن الاول « ان بني سلامان اختطفوه طفلا من قبيلته فربي بين ظهرانيهم ، ولم يعرف أصله حتى شب فأقسم أن ينتقم من خاطفيه وعاد الى قبيلته وكان قسمه أن يقتل مائة رجل من بني سلامان ، فقتل ثمانية وتسعين ووقع في كمين لاعدائه فأُخذ أسيرا ؛ وفي صراعه معهم بترت

(*) نهاية الصفحة «٧٨» من النص الانكليزي .

احدى ذراعيه بضربة سيف فتناولها بالاخرى وقذفها في وجه رجل من سلامان وقتله ، فجعل قتلاه تسعة وتسعين ، ثم تغلبوا عليه وقتلوه ، ولا يزال العدد ينقصه واحد ليكمل المائة ، وفيما كان لون جمجمته ينصل في الارض ، مر بها رجل من أعدائه فركلها فدخلت قدمه شظية منها ، فتقيح الجرح ، فمات وبهذا أكمل العدد »(٢٥) .

والقطعة التالية هي من قصيدته المحجَّلة المعروفة « بلامية العرب »(★) التي يصف فيها شخصيته البطولية ومصاعب حياة السلب والنهب [من الطويل](٢٦) .

وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القِلى متحوَّلُ
لعمرُكَ ما بالارض ضيقٌ على امرِىءٍ
سرى راغباً أو راهباً وهو يعقِلُ

---

(٢٥) الشعر العربي القديم ، ص ٨٣ .

(★) نهاية الصفحة «٧٩» من النص الانكليزي .

(٢٦) الابيات ٣ ـ ١٣ ؛ لقد حاولت أن احاكي بحر الطويل فى ترجمتي للقصيدة الى الانكليزية والبحر هو :

ب – – | ب – – – | ب – – | ب – ب –

وقد نشر النص العربي لـلامية مع ترجمة نثرية وشرح فى المنتخبات العربية لدى ساسي De Sacy's Chrestomathie Arabe (الطبعة الثانية) جـ٢ ، ص ١٣٤ وما يليها ، وعنوانه بالعربية : « كتاب الانس المفيد للطالب المستفيد » وهي كذلك فى كتابه : « جامع الشذور من منظوم ومنثور » جـ٢ ص ٣٣٧ وما يليها ، وقد ترجمها الى الانكليزية شعرا جي٠ هيوز G. Hughes (لندن ، ١٨٩٦) ويذكر نولدكه ترجمات اخرى فى كتابه : « نُبَذٌ عن معرفة الشعر العربي القديم »
Beiträge Zur Kenntniss d. poesie d. Alten Araber p. 200

ولي دونكم أهلُونَ سِيدٌ عملّسٌ(٢٧)
وأرقط زُهلولٌ وعرفاءُ جيأَلُ(٢٨)
هُمُ الاهلُ لا مستودع السرِّ ذائعٌ
لديهم ولا الجاني بما جَرَّ يُخْذَلُ
وكُلٌّ أبيٌ باسِلٌ غير انني
اذا عرَضَتْ أُوْلى الطرائدِ أبسلُ
وإنْ مُدَّت الأيدي الى الزاد لم أكن
بأعجلِهِم ، إذ أجشع القوم أعجلُ
وما ذاك إلا بسطة عن تفضل
عليهم ، وكان الافضلَ المتفضِّلُ
وإني كفاني فقدُ من لستُ جازياً
بِحُسنى ، ولا في قربِهِ متعلَّلُ
ثلاثةُ أصحابٍ : فؤادٌ مشيَّعٌ
وأبيض إصليتٌ ، وصفراءُ عيطلُ
هتوف من الملس المتون يزينها
رصائع قد نيطت اليها ومحملُ
إذا زال عنها السهم حنّت كأنها
مرزّأَةٌ ثكلى ترنٌ وتُعوِلُ(*)

وبعد ان غادر قبيلته التي طردته ، عندما هددتها الأعداء من كل

---

(٢٧) الذئب غير المتعب .

(٢٨) يظهر ان الشاعر يعني ان أصدقاءه الثلاثة يشبهون الحيوانات المذكورة فى أعلاه على ان الاستاذ بيڤان يشك فى هذا التفسير لان العربي قلما يشبه صديقه بالضبع .

(*) نهاية الصحة «٨٠» من النص الانكليزى .

جانب تطلب الثأر للدماء التى سفكها ، قال الشنفرى [من الطويل] :

فـلا تقبروني[٢٩] إنَّ قبري مُحرَّمٌ
عليكم ، ولـكن أَبشـري أُمَّ عـامِرِ
اذا احتملـوا رأسي ففي الرأس اكثري
وغـودر عنـد الملتقى ثَمَّ سـايـري
هنـالك لا أرجـو حيـاة تسـرنـي
سـجيس الليـالي مُبْسـِلاً بالجرائر[٣٠]

تأبط شراً :

قيل إن ثابت بن جابر بن سفيان الفهمي لقب بـ « تأبط شراً » لان امه رأته ذات يوم يخرج من خيمته وتحت إبطه سيف فلما سئلت : « أيـن ثابت ؟ » أجابت : « لا أعلم ، لقد تأبط شراً وخرج » وفي رواية أخرى لهذه الحكاية أن « الشر » كان غولا انتصر عليه وذبحه وحمله الى بيته على هذه الشاكلة ؛ وهذه الأبيات التى خاطب بها خاله ، شمس بن مالك يمكن أن تصف الشاعر نفسه بكل عدالة وانصاف [من الطويل] :

قليـلُ التشـكي للمهـم يُصيبُـهُ
كثيرُ الهوى شتُّ النـوى والمسالكِ
يظـل بمـومـاةٍ ويُمسـي بغـيرهـا
جَحِيشاً ويعروري ظهور المهالِكِ

---

(٢٩) فى الطبعة المصرية للحماسة جـ١ ص ١٨٨ : « لا تقبروني » على اعتبار ان التفعيلة مخرومة ، والخرم جائز فى مطلع الطويل ·
[المترجم]

(٣٠) الحماسة : ٢٤٢ و « سجيس الليالي » بمعنى « أبداً »

ويسبق وقد الريح من حيث ينتحي

بمنخرقٍ من شده المتداركِ

إذ خاط عينيه كرى النوم لم يزلْ

له كالئ من قلب شيحانَ فاتكِ

ويجعل عينيه ربيئةَ قلبه

الى سلةٍ من حدّ أخلقَ باتكِ (*)

إذا هزه في وجه(٣١) قرنٍ تهللت

نواجذُ أفواه المنايا الضواحك !

يرى الوحشة الأُنسَ الأنيسَ ويهتدي

بحيث اهتدتْ أمُّ النجومِ الشوائكِ (٣٢)

مظاهر الشرف العربي القديم :

ان هذه الابيات تصف الفضائل العربية الاولية وصفا رائعا ، وتلك هي : الشجاعة والجلادة والقوة ، وعلينا الآن أن نستعرض على نطاق أوسع المفاهيم الخلقيّة التي بني عليها المجتمع الوثني والذى يعلن عنه الشعر الجاهلي ويسجله في وقت واحد ، ولم يكن هناك قانون مدوّن ولا اتفاق شرعي أو ديني ـ لا شيء في الواقع ، غير القوة الملزمة للعاطفة والرأي التقليدي ، أي الشرف ، فما هي إذن نقاط الشرف البارزه التي

(*) نهاية الصفحة «٨١» من النص الانكليزى .

(٣١) فى رواية اخرى : «عظم» وهي الرواية التي عوّل عليها نكلسن فى ترجمته .

(٣٢) الحماسة ، ٤١ ـ ٤٣ لقد ترجم السر شارلس لايل هذه القصيدة الى الانكليزية شعرا فى كتابه « الشعر العربي القديم » ص ١٦ وترجمها الدكتور المرحوم أى . بي . دڤيدسون فى كتابه مقالات انجيلية وأدبية Rr. A.B. Davidson, Biblical and Literary Essays. ص ٢٦٣ .

تضمنها (المروءة) ، كما كان يفهمها العرب الوثنيون ؟

الشــجاعــة :

لقد سبق أن ذكرنا الشجاعة ، وشجاعــة العرب كشجاعــة قدامى الاغريق ، «معتمدة على الاثارة ومتلاشية بسرعة أمام القنوط والابطاء»[٣٣] فالبطل العربي مُتَحَدٍّ فخور ، كما يظهر مثلاً في معلقة عمرو بن كلثوم ؛ وعندما لا يجد كبير ضير في الهــرب يمتطي راحلته ويغادر بلا خجل ، ولكنه يقاتل حتى الموت في الذياد عن النســاء من أهله ، اللائي كن في الغالب يصحبن القبيلة في المعــارك الجديّة ، وكــن يقفن خلف خطــوط القتال[٣٤] [من مرفل الكامل] :

لمـــا رأيــتُ نســاءَنــا يفحصــن بالمغــراءِ شــدّا[٣٥]
وبــدتْ لميسُ كــأنهــا بدرُ الســماءِ إذا تبدّى
وبــدتْ محــاسنُهــا التي تَخفى وكان الأمرُ جَــدّا
نازلتُ كبشَــهُــمو[٣٦]، ولم أرَ من نِــزالِ الكبشِ بُدّا[٣٧]

وكــان الدســتــور القبلي يتضمن ديمقــراطيــة يتزعمهــا شــيوخهــا الذين استمدوا سلطتهم من الدم النبيل والخلق النبيل والثراء والحكمــة

(٣٣) مهافي : « الحياة الاجتماعية فى اليونان » ، ص ٢١
Mahaffy, Social Life in Greece.

(٣٤) راجع ص ٥٩ ــ ٦٠ فى أعلاه ٠

(٣٥) أى يحدثن فى الارض الصلبة تجاويف لشدّة جريهن أثنــاء الهرب ٠

(٣٦) أى شيخهم ورئيسهم ٠

(٣٧) الحماسة ، ٨٢ ــ ٨٣ الابيات للشاعر عمرو بن معد يكرب ، وهو فارس وثني مشهور اعتنق الاســلام وبرز بعــد ذلك فى فتح بــلاد ايران ٠ [وهنا نهاية الصفحة «٨٢» من النص الانكليزى] ٠

والخبرة ، على نحو ما قال شاعر بدوي بلغة مألوفة [من البسيط] :

لا يصلُحُ الناس فوْضى لا سَراة لهمْ
ولا سَراةَ اذا جُهّالهم سادوا
والبيت لا يبتنى إلا لَهُ عُمُدٌ ،
ولا عمادَ إذا لم تُرسَ أوتادُ
وإنْ تجمَّع أوتادٌ وأعمدةٌ
يوماً ، فقد بلغوا الأمر الذي كادوا[38]

الولاء :

على أن الشيوخ لم يجرؤُا على فرض أوامر أو عقوبات على أفراد قبائلهم ، فكل فرد حاكم نفسه ، وهو حرّ في أن يؤاخذ على الوقاحة في الآخرين [من المتقارب] :

فان كنتَ سيدنا سُدتنا
وإن كنتَ للخالِ فاذهبْ فَخَلْ[39]

ولم يعنِ الولاء في فم العربي الوثني الولاء لرؤسائه ، بل الاخلاص القلبي لانداده ، وكان على ارتباط وثيق بفكرة القربى ؛ وكان الدفاع عن الاسرة والقبيلة ، فردياً وجماعياً ، واجباً مقدساً ؛ وتضم القبيلة الأغراب الذين يعيشون في القبيلة بموجب عهد للحماية ، وكان الشرف يقتضي وقوف الرجل الى جنب قومه في السراء والضراء [من الطويل] :

---

(٣٨) الأفوه الأَوْدي في « منتخبات نولدكه » ، ص ٤ ، الأبيات ٨ ـ ١٠ ، والأوتاد والأعمدة تمثل السادة والرعية ·
(٣٩) الحماسة ، ١٢٢ ·

وهل أنا إلاّ من غزيّة إنْ غوتْ

غَوِيتُ وإنْ ترشُدْ غزيّةُ أرشُدِ (٤٠)

كما قال دريد بن الصمّه الذي اتبع قبيلته على الرغم من تفكيره الأرجح في غزوةٍ كلفته حياة أخيه عبدالله ؛ وإذا ما طلب الأقرباء المعونة فيجب أن تقدم لهم على عجل ، بقطع النظر عن أهمية القضية ، وإذا ما أخطأوا(*) فينبغي تحمل الخطأ جهد الامكان قبل اللجوء الى العنف(٤١) ؛ وكثيراً ما تؤكّد وجهة النظر النفعية في الصداقة كما في هذه الأبيات [من الطويل] :ـ

فآخِ لحال السّلم من شئت واعلمنْ

بأنّ سوى مولاكَ في الحرب اجنبُ

ومولاكَ مولاك الذي إن دعوته

أجابك طوعاً والدماءُ تصَبّبُ

فلا تخذُلِ المولى وإن كان ظالماً

فانّ به تُثْأَى الأُمورُ وتُرأبُ(٤٢)

وبالرغم من ادراكهم البارع ، ليس هناك في الوقت ذاته ما هو أكثر دلالة على العرب ـ وثنيين ومسلمين على حد سواء ـ من الاخلاص الفروسيّ والتضحية بالذات بلا مقابل وهو ما يسعهم القيام به من أجل

---

(٤٠) الحماسة ، ٣٧٨ (و جـ١ ص ٣٣٧ « شرح التبريزي » طبعة مصر ، ١٩٢٧) [المترجم] ٠

(*) نهاية الصفحة «٨٣» من النص الانكليزي ٠

(٤١) قارن أبيات الفِنْد ، ص ٥٨ (النص الانكليزي) =ص ١٠٩ (الترجمة العربية) فى أعلاه ٠

(٤٢) الحماسة : ٣٢٧ ؛ (الثَّأَى) الخرم والفتق [اللسان : ١٨/١١٥] « المترجم » ٠

أصدقائهم ؛ ويقدم الشعر القديم ، بصورة خاصة ، برهانا على انهم كانوا يعتبرون أي نكث للعهد بين السيد ومولاه ، أو المضيف وضيفه أمرا فظيعاً ؛ وبوسعنا أن نوضح هذه القضية بعدة أمثلة بارزة ، ولكن مثالا واحدا يكفي •

قصة السموأل بن عادياء :

يقول العرب : « أوفى من السموأل » أو « وفاءٌ كوفاء السموأل » •

هذان المثلان يشيران الى السموأل بن عاديا ، العربي المنحدر من أصل يهودي واليهودي بدينه ؛ ويقال انه كان صاحب الحصن المعروف « بالأبلق »(٤٣) في تيماء على مسافة قصيرة شمالي المدينة ؛ وقد احتفر فيه بئراً عذبةً ؛ وكانت العربُ تنزل به فيضيفها وتمتار من حصنه ، وتقيم سوقاً ، ويقال ان امرأ القيس لما سار الى الشام يريد قيصر ، هارباً من أعدائه الذين كانوا يتعقبونه بشدة نزل على السموأل ، وقبل أن يغادره أودع لديه خمس أدرع ورثها من امراء اسرته ، ورحل الى الشام ، ثم وصل الى القسطنطينية في حينه ، حيث التمس العون من امبراطور الروم (البيزنطيّين)* ليسترد ملكه المضاع ؛ ولم تَخبْ استغاثته ، ولكنه مات في طريق عودته الى بلاده ؛ وفي الوقت ذاته ، وجّه ملكُ الحيرة ، عدوُّه اللّدود ، الى السموأل جيشاً بقيادة الحارث بن ظالم ، مطالباً بتسليم الدروع ؛ فرفض السموأل خيانة ما اؤتمن عليه ، ودافع عن نفسه في حصنه ، على ان المحاصرين أسروا ابنه الذي كان قد خرج للصيد ؛ فسأل الحارثُ السموألَ « أتعرف هذا ؟ » قال : « نعم ، هذا ابني » قال :

---

(٤٣) يترجمها نكلسن بلفظة Piebald ومعناها الأبقع أوالمختلط •
(*) نهاية الصفحة «٨٤» من النص الانكليزيّ •

أفتسلم ما قِبَلَكَ أم أقتله ؟ » قال : « شأنَكَ ، فلست أخفر ذمتي ، ولا أسلم مالجاري » ، فضرب الحارث وسْط الغلام ، فقطعه قطعتين ، وانصرف رافعاً الحصار عنه ؛ فقال السموأل [من الوافر] :

وفيت بأدرع الكندي[٤٤] إني   إذا ما ذُمَّ أقوام وفيتُ
وأوصى « عاديا » يوماً بألا   تهدِّمَ يا سموألُ ما بنيتُ
بنى لي « عاديا » حصناً حصيناً   وماءً كلّما شئتُ استقيتُ[٤٥]

حاتم الطائي :

ويتجسم المثل البدوي الاعلى في الكرم وحسن الضيافة في حاتم الطائي الذى تروى عنه حكايات عديدة ويمكننا أن نعلم من الحكاية التالية كم هي أفكار العربي مسرفةً في هذا الموضوع ٠

عندما كانت أم حاتم حبلى رأت في المنام من يقول لها : أغلام سمح يقال له حاتم أحب اليك أم عشرة أغلمة كالناس ، ليوث ساعة البأس ، ليسوا بأوغال ولا أنكاس ؟ فقالت : «حاتم !» فولدتْ حاتماً ، فلما ترعرع جعل يخرج طعامه فان وجد من يأكل منه أكله ، وان لم يجد طرحه ، فلما رأىأبوه أنه(★) يهلك طعامه ، قال له : «الحق بالابل» ووهب له جارية وفرساً وفلوها ، فلما أتى الابل طفق يبغي الناس فلا يجدهم ؛ ويأتي الطريق فلا يجد عليه أحداً ، فبينا هو كذلك اذ بصر بركب على الطريق فأتاهم فقالوا : « يا فتى هل من قِرى ؟ » فقال : « تسألونني عن القرى وقد

---

(٤٤) كان امرؤ القيس أحد امراء كنده وهي احدى القبائل ذات البأس فى أواسط بلاد العرب ٠

(٤٥) الأغاني : ج ١٩ ص ٩٩ البيتان الاخيران غير موجودين فى القصيدة كما هى مقتبسة هناك ، ولكنهما فى كتاب مختارات الاغانى المطبوع فى بيروت سنة ١٨٨٨ ، جـ ٢ ص ١٨ ٠

(★) نهاية الصفحة «٨٥» من النص الانكليزى ٠

ترون الابل ؟ » وكان الذين بهم عَبيد بن الابرص وبشر بن خازم والنابغة الذبياني ، وكانوا يريدون النعمان(٤٦) فنحر لهم ثلاثة من الابل ، فقال عبيد : « إنما أردنا بالقرى اللبن ، وكانت تكفينا بكْره إذا كنت لابد متكلفاً لنا شيئاً » فقال حاتم : « قد عرفت ولكنني رأيت وجوها مختلفة وألوانا متفرقة ، فظننت أن البلدان غير واحدة ، فأردت أن يذكر كل واحد منكم ما رأى اذا أتى قومه » فقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضله فقال حاتم : « أردت أن احسن اليكم فكان لكم عليّ الفضل ، وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب الابل عن آخرها أو تقسموها » ففعلوا ، فأصاب الرجل تسعة وتسعين بعيراً ومضوا على سفرهم الى النعمان ، وان أبا حاتم سمع بما فعل فأتاه فقال له : « يا أبت طوقتك بها طوق الحمامة مجد الدهر »(٤٧) .

ابنة حاتم أمام الرسول (ص) :

ونحن نعلم ان ابنة حاتم اقتيدت أسيرة أمام الرسول (ص) فخاطبته قائلة : « يا محمد هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فان رأيت أن تخلي عني فلا تُشمت بي أحياء العرب فاني بنت سيد قومي . كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ويقري(★) الضيف ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويُفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ؟ أنا بنت حاتم طي » فأجابها الرسول (ص) : « يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عنه . خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم

---

(٤٦) انظر أعلاه ص ٤٥ وما بعدها .

(٤٧) الاغاني : ج ١٦ ص ٩٨ س ٥ ـ ٢٢ = ج ١٦ ص ٩٤ طبعة ساسي .

(★) نهاية الصفحة «٨٦» من النص الانكليزى .

الأخلاق »(٤٨) .

كان حاتم شاعراً معروفاً(٤٩) وهو في هذه الأبيات يخاطب زوجه ماوية [من الطويل] :

أيا ابنـة عبدالله وابنـة مالكِ
ويا ابنة ذى البُـردينِ والفرس الوردِ
إذا مـا صنعـتِ الـزاد فـالتمسي لـه
أكيـلاً فـاني لسـت آكلُهُ وحـدي
أخـاً طارقـاً أو جـار بيتٍ فـانني
أخاف مَذمّـاتِ الاحـاديث من بعدي
وانـي لعبـد الضيـف مـادام نـازلاً
ومـا فيّ إلا تلك من شـيمـةِ العبـدِ(٥٠)

---

(٤٨) الاغاني : ج ١٦ ص ٩٧ س ٥ وما يليه .

(٤٩) طبع ديوانه ايف . شولتيس F. Schoulthess (لايبزغ ، ١٨٩٧) مع ترجمة وهوامش .

(٥٠) الحماسة ، البطل المذكور في البيت الاول هـو ذو البردين عامر بن أحيمر البهدلي ، وحديث البردين ان الوفود اجتمعت عند المنذر ابن ماء السماء فأخرج المنذر بردين يبلو الوفود وقال : « ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما ، فقام عامر بن أحيمر فأخذهما واتزر بأحدهما وارتدى بالأخر فقال له المنذر : « أأنت أعز العرب قبيلة ؟ » قال : « العزّ والعدد فى معدّ ثم فى نزار ثم فى مضر ثم فى خِنْدِف ثم فى تميم ثم فى سعد ثم فى كعب ثم فى عوف ثم فى بهدله ، فمن أنكر هـذا فلينافرني » فسكت الناس ، فقال المنذر : « هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى أهل بيتك ؟ وفى نفسك ؟ » قال : « أنا أبو عشرة وأخو عشرة وخال عشرة وعم عشرة ، أما فى نفسى فشاهد العز شاهدى » ثم وضع قدمه فقال : « من أزالها عن مكانها فله مائة من الابل » فلم يقم اليه أحد من الحاضرين ففاز بالبردين فسمي بذي البردين » (الحماسة) .

ملاحظة : نقل نكلسن القصة بايجاز فآثرنا نقلهـا كاملة اتمـامـا للفائدة . [المترجم]

مكانة المرأة :

من الملائم هنا أن نحيد عن الموضوع الاصلي قليلا ، ليظفر القارىء بنظرات خاطفة على الاقل اذا ما فاتته الصورة الكاملة عن مكانة المرأة وتأثيرها في المجتمع الجاهلي • كانت مكانتها على العموم سامية وتأثيرها عظيماً • كانت حرة في اختيار زوجها وكان بمستطاعها أن تعود الى ذويها اذا ما اسيئت معاملتها أو اغضبت • وحتى انها في بعض الحالات(★) كانت تخطب الرجل الذى ترغب فيه وكان لها حق الطلاق ، ولم تكن لتعتبر ماشية أو رقيقة بل ندا ورفيقة فقد كانت توحي للشاعر بأن ينظم وللمحارب بأن يقاتل ولعل فروسية القرون الوسطى مرجعها النهائي بلاد العرب الوثنية « وكانت الفروسية المتجولة وركوب الخيل بحثاً عن المغامرات وانقاذ الفتيات الاسيرات وتقديم المعونة للنساء في محنتهن في كل مكان — كل هذه كانت في جوهرها أفكارا عربية ،كما كانت نفس لفظة Chivalry « الفروسية » وهي الربط بين السلوك الشريف والفارس ذي الدم النبيل المعروف بالـ "Cavalier" (٥١) •

البطلات العربيات :

غير ان نبل النساء لا ينعكس في بطولة الرجال واخلاصهم حسب ، فهي مسجلة في الاغاني والاساطير والتاريخ •

فاطمة بنت خرشب :

فقد كانت خُرْشُبْ واحدة من ثلاث من ربات الحجال النبيلات اللائي كن يلقبن بالمنجبات « أي أمهات الابطال »

(★) نهاية الصفحة «٨٧» من النص الانكليزي •

(٥١) الليدى ان والمستر ويلفرد بلنت Blunt «القصائد السبع لبلاد العرب الوثنية » The Seven Golden Odes of Pagan Arabia المقدمة ، ص ١٤ •

فقد كان لها سبعة بنون ثلاثة منهم ، وهم ربيع وعُمارة وأنس ، كانوا يعرفون (بالكَمَلَه) وذات يوم غزا حمل بن بدر الفزاري قبيلة بني عبس التي كانت فاطمة تنتمي اليها وأخذها أسيرة(٥٢) .

فُكَيْهَه :

وبين الاسماء التي غدت مضرب المثل في الاخلاص نجد(*) اسم امرأتين هما فُكيهه وأم جميل ، وقد رُوي عن فكيهة أن رجال قبيلتها عزموا ، على مهاجمة الصعلوك السُلَيْك بن سُلَكه بعد أن بادأهم بالهجوم ، ولما كان من مشاهير العدّائين فقد انتظروا ، بمشورة شيوخهم ، حتى ينزل الى البئر ليروي ظمأه فقد علموا أنه لن يستطيع اذ ذاك الركض، على أن سليك وقد أبصرَ أنه مأخوذ لا محالة هرب الى أقرب خباء والتجأ الى فُكيهة فألقت بقميصها عليه ووقفت بينه وبين مطارديه والسيف بيدها مشهور ، ولما ضويقت انتزعت غطاء رأسها وصرخت تطلب العون فأقبل اخوتها يدافعون عن السُليك وأنقذوا حياته(٥٣) ، ولو سمح المجال لكان من الممتع استخلاص أمثلة اخرى من سلسلة أخبار النساء النبيلات . لقد أوضحنا شعورهن القوى بالشرف والولاء ولكن كان بوسعنا أن ننتخب أمثلة من الوقار اللطيف وسرعة البديهة والحب العارم وكان للكثيرات منهن موهبة شعرية أغدقوها بصورة خاصة على الموتى وانه لبرهان نهائي على سمو خلق النساء ومكانتهن في جاهلية بلاد العرب أن أم البطل وأخواته كن يعتبرن أجدر الناس برثاء البطل واطرائه ؟ واطراء العشاق للاحياء من

---

(٥٢) الاغاني : ج ١٦ ص ٢٢ س ١٠ ــ ١٦ .

(*) نهاية الصفحة «٨٨» من النص الانكليزي .

(٥٣) الاغاني : ١٨ ص ١٣٧ س ٥ ــ ١٠ فريتاغ : الامثال العربية، جـ ٢ ص ٨٣٤ .

النساء يتخذ بالضرورة لهجة اخرى ، فمفاتن جسم البطل توصف كاملة ولكن قلما نجد أى تقدير للجمال الخُلقي والنفسي (٥٤) بيد أن هناك استثناءً بارزاً لهذه القاعدة في مستهل قصيدة للشنفرى الا أن القطعة تتحدى الترجمة . إنها كما يقول السر جارلس لايل الذى ينبغي لكل دارس للادب العربي أن يطّلع على ترجمته الأمينة المخلصة للشعر القديم: «أجمل صورة للمرأة خلفتها لنا بلاد العرب الوثنية رسمت بنفس اليد التى أعطتنا في السّلامية التي لا تُبارى ، مثلها الأعلى للصلابة البطولية والقوة الحيوية »(*) [من الطويل] :

أميمـــة

ترتيب لايل		ترتيب نكلسن
١	لقد أعجبتني لا سَقوطاً قناعها اذا ما مَشت ولا بذات تلفّت	١
٤	كأنّ لها في الأرض نسياً تقصُّه على أمها وإن تكلّمك تبلَت	٢
٢	تبيت بُعيد النوم تُهدى غَبوقَها لجارتها إذا الهدية قلّت	٣

(٥٤) هذا رأي مردود على نكلسن فقد قدر العرب جمال الخُلُق والنفسية وحلاوة الحديث بل إن ما نظموه فى هذا المجال يفوق كل ما نظموه فى تقديرهم لسائر ألوان الجمال . [المترجم]

(*) الشعر العربى القديم ، ص ٨١ [الابيات التالية من الطويل وقد دخل القبض تفعيلة مفاعيلن فى الحشو وهو زحاف قبيح كما فى عجز البيت الاول والثانى والثالث والسادس وقد حصل تقديم وتأخير فى الابيات فى ترجمة نكلسن اذ جاء الترتيب فى النص العربى (طبعة كارلوس لايل) كما يأتي : ١ ، ٤ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ [وهنا نهاية الصفحة ٨٩ من النص الانكليزى] .

٣ تحل بمنجاةٍ من اللـوم بيتهـا
إذا مـا بيـوتٌ بالمذمّةِ حَلّتِ ٤

٥ أميمـة لا يخزى نثاهـا حليلهـا
إذا ذكر النسوان عفّت وجلّتِ ٥

٦ إذا هـو أمسـى آبَ قرةُ عينـه
مآبَ السعيد لم يسَلْ أَينَ ظلّتِ ٦

٧ فدقّتْ وجلّتْ واسبكرّتْ وأكملت
فلو جنَّ إنسانٌ من الحسن جُنّتِ (٥٥) ٧

في حرية الصحراء وحدها يمكن للخُلُق المتحدد بهذا الشكل من الأناقة أن يزدهر وينضج ؛ وفي هذه الأبيات ، مقتبسةً بذاتها ، جواب كافٍ لأي انسان يدعي بأن الاسلام زاد من التأثير الاجتماعي للنساء العربيات ولو أنـه من المحتمل قـد رفعهـن من بعض الوجـوه الى مستوى أعـلى في المدنية (٥٦) .

وأد البنـات :

هناك جانب آخر لكل هذا بطبيعة الحال ، ففي بلد حيث القوة عموماً هي الحق وحيث :

---

(٥٥) المفضليات ، طبعة ثوربيكه Thorbecke ص ٢٣ ، طبعـة كارلوس لايل ، بيروت ، ١٩٢٠ ص ٢٠٠ .

(٥٦) راجع كولدتزيهير : « دراسات اسلاميـة » ، القسـم الثانى ، ص ٢٩٥ وما بعدها [لا نوافق كولدتزيهر ولا نكلسن الذى نقل عنه هذا الرأى اذ لا يمكن الحكم على وضع أو حالة اجتماعية بمجرد أبيات ربمـا قالها الشاعر فى حالة نفسية خاصة بعيدة عن الواقع والحكم على المجموع من حالة فردية خطأ فاحش . « المترجم »]

مبدأُ القَومِ : ألاَ خُذْ واحتَفِظْ
بالّذِي أحرزتَ ما دُمتَ عَزيزا ![57]

يطبق ولو بشكل غير عام يكون من الغريب إذا ما كان الجنس الضعيف قد قنط في أغلب الأحيان ، فعادة وأد البنات التى كانت شائعة في الجاهلية ، على ما يبدو لنا من بشاعتها وفظاعتها ، كان مرجعها من ناحية الى المجاعات المتتابعة التى كانت العرب تُمنى بها بسبب قلة المطر ، ومن ناحية اخرى الى شعور بالشرف شاذ وكان الآباء(★) يخشون أن يُطعموا أفواهاً لا جدوى فيها ، أو يلحق بهم العار من جراء اسر فتياتهن في الحرب ، فلذلك كان يعد مولد البنت كارثة ً على نحو ما نجد في القرآن : « ويجعلونَ لله البناتِ ، سبحانه ولهم ما يشتهون ؛ واذا بُشّرَ أحدهم بالانثى ظل وجهُه مسوَداً وهو كظيم ؛ يتوارى من القوم من سوء ما بُشّرَ به أَيُمسكُهُ على هُونٍ أم يَدُسُّهُ في الترابِ ، ألا ساءَ ما يحكمونَ »[58] . وقد قيل في الأمثال :

« قتل البنات رحمه » و « دفن البنات من المكرمات »[59]

ولقد وضع الاسلام حدا لهذه البربرية التى منعت فيالقرآن بصراحة: « ولا تقتُلوا أولادكم خشيةَ إملاقٍ ، نحن نرزقُهُم واياكم ؛ إن قتلهم

---

(57) هذا بيت من الادب الانكليزى استشهد به نكلسن فآثرنا ترجمته الى العربية شعرا . [المترجم]

(★) نهاية الصفحة «90» من النص الانكليزي .

(58) السورة 16 (سورة : النحل) الآية 56 ـ 58 [ذكر نكلسن الآيات 59 ـ 61 فوجدناها فى المصحف الشريف 56 ـ 58] [المترجم]

(59) فريتاغ ، الامثال العربية ، ج 1 ص 229 . لم نجد هذين المثلين فى « مجمع الامثال » للميداني (ط . محمد محيالدين عبدالحميد ، القاهرة ، 1959) ، وانما وجدنا بدلهما المثل (2248) «أضلّ من موؤودة» 1/424 .

كان خطأً كبيراً »(٦٠) .

ولعل أكثر الابيات هزاً للعواطف في الشعر العربي هي تلك التي يرغب فيها أبٌ يصارع الفقر أن تموت ابنته قبله فتنجو من رحمة أقاربها الثقيلة :

ابنة الفقير

[من البسيط]

لولا أُميمةُ لم أجزع من العَدَم(٦١)
ولم أُقاسِ الدجى في حندسِ(٦٢) الظُّلَم
وزادني رغبةً في العيش معرفتي
ذُلَّ اليتيمةِ يجفوها ذوو الرَحِمِ(٦٣)
أحاذر الفقرَ يوماً أن يلُمَّ بها
فيهتِكَ السِّتْرَ عن لحمٍ على وضمٍ(٦٤)
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً
والموتُ أكرمُ نزّالٍ على الحُرَمِ(٦٥)

---

(٦٠) القرآن ، السورة ١٧ (سورة بني اسرائيل) الآية : ٣٠ قارن السورة : ٨١ سورة التكوير ، الآية ٨ ـ ٩ (وصف يوم القيامة) : « واذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت » .

(٦١) العدم : الفقر .

(٦٢) الحندس : شدة الظلمة ـ يقول لولا ابنتي أميمة لم اخف من الفقر ولم أرحل في طلب المال .

(٦٣) الجفاء نقيض الصلة وذوو الرحم : الاقارب أي زادني معرفتي بذل اليتيمة اذا جفاها ذووها رغبة في العيش .

(٦٤) الحذر والحذار الاحتراز ، والالمام النزول وهَتَكَ الستر وغَيْرَهُ جَذَبَهُ فقطعه من موضعه أو شق منه جزءاً فبدا ما وراءه وهو هنا مجاز عن الظهور والكشف وكنى بقوله لحم على وضم عن النساء اللاتي لا دفاع بهن ومن كلام العرب النساء لحم على وضم الا ما ذب عنه ـ والمعنى احاذر المام الفقر بها فيكشف الستر عمن لا دفاع به [وهنا نهاية الصفحة «٩١» من النص الانكليزي] .

(٦٥) الشفق : الخوف والحرم جمع حريم ما تحميه وتدافع عنه ـ

أخشـى فظـاظـةَ عـمٍ أو جفـاء أخٍ
وكنتُ أبقي عليهـا من أذى الـكَلِـمِ (٦٦)

ويقول آخر [وهو حِطّان بن المعلّى « شاعر اسلامي » من بحر السريع] :

لـولا بُنيّـات" كزُغـبِ القطـا
رُدِدْنَ مـن بعضٍ الى بعـضِ (٦٧)

ـ يقول هي راغبة فى أن أعيش لها وانا أود موتها خوفا من أن أراها فى الحالة التى تقاسى منهـا الذل والفقر ، والموت للنساء خـير لهن من تلك الحال ٠

(٦٦) أخشى فظاظةَ عم الى آخره ، هذا البيت تفسير لقوله اهوى موتها شفقا فى البيت قبله و «الفظاظة» الغلظة وسوء الخلق ـ يقول اشفق من مغالظة عم لها أو جفوة أخ تلحقها وما كنتُ أُسمِعُها كلمة تؤذيهـا فضلا عن الغلظة والجفاء (الحماسة ، شرح التبريزى طبعة مصر ١٩٢٧ جـ١ ص ١٠٠ ـ ١٠١ والابيات لاسحق بن خلف وهو شاعر اسلامي وقد نقلها نكلسن عن طبعة اخرى للحماسة ص ١٤٠) ومع ان هذه الابيـات ليست جاهلية فانها فى الحقيقة من فترة اسلامية متأخرة نسبياً فهى جاهلية فى مشاعرها بدرجة كافية ليستشهد بها هنا وقد عاش الشاعر اسحق بن خلف فى حكم المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣م) وقد عاش بعد ابنته المتبناة ـ لان اميمة كانت ابنة اخته ـ ورثاها واحتفظ الكامل للمبرد بمرثيته هذه (ص ٧١٥ س ٧ وما يليه) ٠

وترجمها السر شارلس لايل مع الأبيات موضوعة البحث الىالانكليزية فى كتابه : « الشعر العربى القديم » ص ٢٦ ٠

(٦٧) بنيات : تصغير بنات « والزغب » الشعر اللين الصغير وكنى بهذا عن الضعف والصغر ، ومعنى قوله رددن الخ أى تتابعن وكثرن كل واحدة الى جنب الاخرى ـ والمعنى لولا بنيات لي صغيرات كفراخ القطا التى عليها الزغب لصغرهن اجتمعن لي فى مدة يسيرة فمن ثانية بعد أولى وواحدة الى جنب اخرى لكان لي كذا وكذا ٠

لـكـان لي مُضْطَرَبٌ واسـعٌ
في الأرض ذات الطـول والعرضِ (٦٨)
وانمـــا أولادُنـــا بيننــــا
أكبـادنـا تمشـي عـلى الأرضِ (٦٩)
لـو هبَّتِ الـريحُ عـلى بعضِهم
لامتنعـت عينـي مـن الغمـض (٧٠)

معاملة الاعداء :

لفظتا « عدو » و « صديق » اللتان يستعملهما الشاعر قد تنفعنا فى تفهم الفلسفة الاخلاقية للبدوى ، فاذا كان العربي الجاهلي ، كما رأينا ، صديقا طيبا تجاه أصدقائه فقد كان يشعر بنفس الدرجة شعور كراهية شديدة قاتلة تجاه أعدائه ، فلقد كان يعد جباناً ذلك الذى لا يقابل الضربة بما يماثلها ، وليس بوسع رجل شريف أن يتسامح ازاء اساءة لحقته أو ان يُغضي عن الأخذ بالثأر ، ولقد قال عربي تألم لخسارة إبله التى اغتصبها بعض الغزاة عن عشيرته التي أبت أن تنجده [من البسيط](٧١) :

(٦٨) المضطرب : الاضطراب والحركة ـ يقول لولا خوفى من ضياعهن لكان لي مجال واسع فى الارض وانما لزمت مكانى بسببهن ٠

(٦٩) تمشي على الارض فى موضع الحال للاولاد وبيننا ظرف لتمشي والتقدير أولادنا وهى ماشية على الارض أكبادنا ٠

(٧٠) لو هبت الريح الى آخره ـ معناه انه لا يطئن الا اذا كانوا سالمين بأجمعهم والابيات من ديوان الحماسة ، ١٤٢ راجع شارلس لايل ، سبق ذكره ، ص ٢٨ (الحماسة ، طبعة القاهرة ، ١٩٢٧ ، ج ١ ص ١٠٢) ٠

(٧١) الحماسة ، ٧ ، [(مصر طبعة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧ ،) ص ٥ ، البيتان لقُريط بن أُنيف احد بني العنبر وهو شاعر اسلامي والسبب الذى من أجله قال هذا الشعر ما حدث به أبو عبيدة قال اغار ناس من بني

لكنَّ قومي وإنْ كانوا ذوي عددٍ

ليسوا من الشرّ في شيءٍ وإن هانا(٧٢)

يَجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً

ومن اساءة أهل السوء إحسانا(٧٣)

فالبيت الثاني الذى قد عبّر لأولئك الذين سمعوه عن تقريع مخجل هو في الحقيقة مديح رائع في فم(★) الواعظ المسلم أو المسيحي ، والوسيلة المتفق عليها فى معاملة عدو مبينة بوضوح في هذه الأبيات(٧٤) [من الطويل] :

إذا المرء أولاكَ الهوانَ فأولهِ

هواناً وان كانت قريباً أواصِرُهْ(٧٥)

شيبان على رجل من بني العنبر يقال له قريط بن انيف فأخذوا له ثلاثين بعيرا فاستنجد قومه فلم ينجدوه فأتى مازن تميم فركب معه نفر فأطردوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها اليه فقال هذه الابيات التى قصد بها الشاعر أن يحمل قومه على الانتقام له من أعدائه ولم يقصد الى ذمهم وكيف يذمهم **وعار الذم راجع اليه] ٠**

(٧٢) يصف قومه بأنهم يهابون الحرب لعدم حماستهم وان كانوا ذوى عدد كثير ٠

(٧٣) يقول ان قومه لم يكن فيهم حماسة حيث بلغ بهم الجبن الى انهم يسامحون من ظلمهم ويحسنون الى من أساء اليهم ٠ [الحماسة ، ١٩٢٧ ، ص ٤ ـ ٥] ٠

(★) نهاية الصفحة «٩٢» من النص الانكليزي ٠

(٧٤) الحماسة ، ٣٢١ [= ٢٦٦ طبعة القاهرة ، ١٩٢٧ ، والابيات لاوس بن حَبناء وهو شاعر اسلامي تميمي وحبناء امه]

(٧٥) اولاك يريد سامك الذل والصغار وقوله وان كانت قريبا أواصره ، « الاواصر » العواطف وهو اسم « كان » مؤخر « وقريباً » خبرها مقدم ولم يقل قريبة لانه أراد النسبة فلم يبنه على الفعل ، ومثله قوله

فانْ أنتَ لم تقدِرْ على أَنْ تُهينَهُ
فذرهُ الى اليومِ الذي أَنْتَ قادرُهُ(٧٦)
وقارِبْ اذا ما لم تكن لك حيلةٌ
وصَمِّمْ إِذا أيقنتَ أنكَ عاقِرُهُ(٧٧)

الأخـذ بالثـأر :

وفوق ذلك فان الدم يستدعي الدم ، وقد كان هذا الالتزام ثقيلا على ضمير العرب الوثنيين ، فالأخذ بالثأر كاد يكون بالنسبة لهم « ضرورة طبيعية فاذا لم يستجب لها حرمت صاحبها النوم والطعام والصحة » إذ كان ظمأ معذِّباً لا يرويه غيرالدم ، فهومرض فيالشرف قد يوصف بالجنون ولو انه نادراً ما يمنع المصاب من المضي الى العمل ببرود واعتدال بصير ؛ وقد كان الثأر يؤخذ من القاتل ، إن أمكن ، وإلا فمن بعض أفراد قبيلته ، وكان ذلك في العادة ينهي القضية إلا أنه كان في بعض الأحوال بداية نزاع انتقامي مستمر يشمل أقرباء كلا الفريقين برمتهم ، كما حدث في مقتل كليب الذي أدى الى حرب أربعين عاماًبين بكر وتغلب(٧٨) ، وبوسع

تعالى : (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ــ والمعنى اذا سامك انسان الذل والهوان فلا تخشع له ولا تضعف بل اوله من الصغار والذل ما تشفي به نفسك وترد به كيد الاعداء عنك وان كان الذى سامك الخسف قريباً منك ، أى اذا كنت قادرا على ذلك فافعل ٠

(٧٦) فان أنت الخ ــ معناه ان لم تستطع إهانته فدعه على حاله الى اليوم الذى تقدر فيه على اهانته فالايام مداولة وقوله قادره أراد قادر فيه ٠

(٧٧) إنك عاقره أى انك قاتله ــ والمعنى ان لم تجد لك حيلة فى نصرك عليه فقارب أى كن قريبا منه بالتدريج الى أن تصل اليه فاذا تحققت انك قد وصلت الى ما فيه هلاكه فافعل ولا تضع هذه الفرصة (الحماسة ، طبعة ١٩٢٧ ، ص ٢٦٦) ٠

(٧٨) راجع ص ٥٥ وما بعدها من النص الانكليزي [= ص ١٠٤ من الترجمة العربية أعلاه] ٠

أقرباء القتيل أن يتقبلوا (ديـَّة) تدفع في العادة إبلاً ـ وهي عملة البلد ـ تكفيراً عن ذلك ؛ على أنهم اذا ما فعلوا ذلك كان من عادتهم أن يقولوا إنهم يفضلون اللبن (أي النوق) على الدم(٧٩) فالشعور العربي الحقيقي يعبر عنه في بيت من نحو(٨٠) :

سأغسلُ عنّي العارَ بالسيفِ جالباً
علي قضاءُ اللهِ ما كان جالبا

وكان المعتقد أن روح القتيل تظهر فوق قبره بصورة (هامة أو صدى) يصرخ « اسقوني » إلى أن يؤخذ بثأره ، غير أن أفكار الثأر الوثنية كانت متصلة بالماضي أكثر من اتصالها بالمستقبل ، ولم يُكتَرث إلا قليلاً أو دون القليل بالمعاد الى جنب الذكريات العميقة الغور للحب الابوي وحقوق البنوّة والاخوة في السلاح .

ومع ان العدالة الفظّة العاجلة « الڤانديتا » Vandetta كان لها تأثير نافع في تقييد اولئك الذين كانوا ربما ينغمسون فى حمأة غرائزهم الخارجة على القانون من دون خشية عقاب ، فان أهمية ذلك في نظرنا ليست كونها

---

(٧٩) راجع حماسة روكرت Rückert ، ج ١ ص ٦١ وما بعدها [= ص ٧٠ من الطبعة المصرية] الاشارة هنا الى بيت الشاعر [من الطويل] :

ولكن أبى قوم أصيب أخوهمُ
رضا العار فاختاروا على اللبن الدّما

[المترجم]

(٨٠) الحماسة ، ٣٠ [= ص ١٥ طبعة المكتبة الازهرية ، القاهرة ، ١٩٢٧]والبيت من مقطوعة عدتها تسعة أبيات لسعد بن ناشب وهو شاعر اسلامي فى الدولة المروانية من بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم وسبب هذه الابيات انه كان أصاب دما فهدم بلال بن أبي بردة داره بالبصرة وحرقها وقيل ان الحجاج هو الذى هدم داره [وبانتهاء البيت الذي استشهد به نصل الى نهاية الصفحة «٩٣» من النص الانكليزي] .

نظاما بدائيا قدر ما هي عنصر متغلغل فى الحياة العربية القديمة وآدابها ، ولكن إيضاح هذا الموضوع ايضاحاً كاملا أو حتى كافياً سيخرجنا عن نطاق خطتنا ، لذلك اخترنا من المادة الغزيرة المحفوظة في « كتاب الاغاني » قصة ذات طابع عام تروى لنا كيف أن قيس بن الخطيم انتقم من قتلة أبيه وجده .(٨١)

روى أبو عبيدة فقال : « كان من حديث قيس بن الخطيم أن جده عدي بن عمرو قتل رجلاً من بني عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يقال له مالك ، وقتل أباه الخطيمَ بنَ عديّ رجل من عبدالقيس ممن يسكن « هَجَر » ، وكان قيس يوم قُتل أبوه صبياً صغيراً ، وقتل الخطيم قبل أن يثأر بأبيه عديّ ، فخشيت أم قيس على ابنها أن يخرج فيطلب بثأر أبيه وجده فيَهْلِكْ ، فعمدت الى كُومةٍ من تراب عند باب دارهم ، فوضعت عليها أحجاراً وجعلت تقول لقيس : « هذا قبر أبيك وجدّك ، فكان قيس لا يشك أن ذلك على ذلك ؛ ونشأ أيِّداً شديد الساعدين ، فنازع يوماً فتى من فتيان بني ظَفَر ، فقال له ذلك الفتى : واللهِ لو جعلتَ شدة ساعديك على قاتل أبيك وجدك لكان خيراً لك من أن تخرجها عليّ ، فقال : ومن قاتلُ أبي وجدّي ؟ قال : سلْ امَّك تخبرك(★) ، فأخذ السيف ووضع قائمه على الأرض وذُبابه(٨٢) بين ثدييه وقال لأمه : « أخبريني من قتل أبي وجدي ؟ » قالت : « ماتا كما يموت الناس وهذان قبراهما بالفِناء » ؟ فقال : « واللهِ لتُخبِرينني من قتلهما

(٨١) الاغاني : ٢/١٦٠ س ١١ ـ ١٦٢ س ١ = ص ١٣ وما بعدها من منتخبات بيروت = ج ٣ ص ٣ ـ ٦ من طبعة دار الكتب المصرية .

(★) نهاية الصفحة «٩٤» من النص الانكليزي .

(٨٢) ذباب السيف طرفه الذى يُضرب به .

أو لأتحاملن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري » ؛ فقالت : « أمّا جدّك فقتله رجل من بني عمرو بن عامر بن ربيعة يقال له مالك ، وأما أبوك فقتله رجل من عبدالقيس ممن يسكن هَجَر ؛ فقال : واللهِ لا أنتهي حتى أقتل قاتل أبي وجدي » ؛ فقالت : « يا بني إن مالكاً قاتل جدك من قوم خداش بن زهير ، ولابيك عند خداش نعمة هو لها شاكر ، فأته فاستشره في أمرك واستعنه يُعِنْكَ » فخرج قيسٌ من ساعته حتى أتى ناضِحَه(٨٣) وهو يسقى نخله ، فضرب الجرير(٨٤) بالسيف فقطعهُ ، فسقطت الدلو في البئر ، وأخذ برأس الجمل فحمل عليه غِرارتين من تمر ، وقال : « من يكفيني أمر هذه العجوز ؟ (يعني امه) فان مِتُّ انفق عليها من هذا الحائط(٨٥) حتى تموت ثم هو له وان عِشتُ فما لي عائد الي وله منه ما شاء أن يأكل من تمره » ؛ فقال رجل من قومه : « أنا له » ، فأعطاه الحائط ثم خرج يسأل عن خداش بن زهير حتى دُلَّ عليه بمَرِّ الظَهرانِ(٨٦) ، فصار الى خبائه فلم يجده ، فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافه ، ثم نادى امرأة خداش : « هل من طعام ؟ » فأَطلَعَتْ اليه فأعجبها جماله ، وكان من أحسن الناس وجهاً ؛ فقالت : « والله ما عندنا من نُزْلٍ(٨٧) نرضاه لك الا تمراً » ؛ فقال : « لا أبالي ، فأَخرجي ما عندكِ » ؛ فأرسلت اليه بقُباعٍ(٨٨) فيه تمر ، فأخذ منه تمرة فأكل

---

(٨٣) أي بعيره الذى يستقي عليه الماء ٠

(٨٤) الحبل ٠

(٨٥) البستان ٠

(٨٦) وادٍ قرب مكة عنده يقال لها « مرّ » تضاف اليه فيقال لها مَرُّ الظهران ٠

(٨٧) النُزْل : ما يهيأ للضيف من قرى ٠

(٨٨) مكيال ضخم ٠

شقّها وردّ شقها الباقي في القُباع ، ثم أمر بالقُباع فأدخل على امرأة خداش بن زهير ، ثم ذهب لبعض حاجاته ؛ ورجع خداش فأخبرته امرأته خبر قيس ، فقال : هذا رجل متحرّم(٨٩) ؛ وأقبل قيس راجعاً وهو مع امرأته يأكل رطباً ؛ فلما رأى خداش رجله وهو على بعيره قال لامرأته : «هذا ضيفك ؟» قالت : «نعم» قال : « كأن قدمه قدم(★) الخطيم صديقي اليثربي » ؛ فلما دنا منه قرع طُنُبَ البيت بسنان رمحه واستأذن ، فأذن له خداش ، فدخل اليه ، فنسبه (٩٠) فانتسب وأخبره بالذى جاء له، وسأله أن يُعينه وأن يشير عليه في أمره ، فرحّب به خداش وذكر نعمة أبيه عنده ، وقال : « إن هذا الأمر ما زلت أتوقعه منك منذ حين ؛ فأما قاتل جدك فهو ابن عم لي وأنا اعينك عليه ، فاذا اجتمعنا في نادينا جلست الى جنبه وتحدثت معه ، فاذا ضربت فخِذَه فثب اليه فاقتله » ، فقال قيس: فأقبلت معه نحوه حتى قمت على رأسه لما جالسه خداش ، فحين ضرب فخذه ضربت رأسه بسيف يقال له : ذو الخُرصين ، فثار اليّ القوم ليقتلوني ، فحال خداش بينهم وبيني وقال : دعوه ، فانه والله ما قتل الا قاتلَ جده ؛ ثم دعا خداش بجمل من إبله فركبه وانطلق مع قيس الى العبدي الذي قتل أباه ، حتى اذا كانا قريباً من هَجَر أشار عليه خداش أن ينطلق حتى يسأل عن قاتل أبيه ، فاذا دُلّ عليه قال له : ان لِصاً من لصوص قومك عارضني فأخذ متاعاً لي ، فسألتُ من سيد قومه فدُللتُ

(٨٩) له عندنا حرمة وذمة ؛ يعتقد البدوي أن أي شخص أكل من طعامه أو لمس طنب خيمته له حق الحماية ويعرف مثل هذا الشخص بالدخيل . انظر بركهارت Burckhardt ملاحظات عن البدو والوهابيين Notes on the Bedouins and Wahabys (لندن ، ١٨٣١) جـ١ ص ١٦٠ وما يليها و ٣٢٩ وما يليها .

(★) نهاية الصفحة «٩٥» من النص الانكليزي .

(٩٠) طلب اليه أن ينتسب .

عليك ، فانطلق معي حتى تأخذ متاعي منه ؛ فان اتبعك وحده فستنال ما تريد منه ، وان أخرج[٩١] معه غيره فاضحك ، فان سألك مم ضحكت؟ فقل : ان الشريف عندنا لا يصنع كما صنعت اذا دعي الى اللص من قومه، انما يخرج وحده بسوطه دون سيفه ، فاذا رآه اللص أعطى كل شيء أخذ[٩٢] هيبةً له ، فان أمر أصحابه بالرجوع فسبيل ذلك ، وان أبى الا أن يمضوا معه فأتني به ، فاني أرجو أن تقتله وتقتل أصحابه ؛ ونزل خداش تحت ظل شجرة ، وخرج قيس حتى أتى العبديّ فقال له ما أمره خداش فاحفَظَه ، فأمر أصحابه فرجعوا ومضى مع قيس ، فلما طلع على خداش ، قال له : اختر يا قيس اما أن أُعينك وأما أن أكفيكَ ؛ قال : لا أريد واحدة منهما ، ولكن ان قتلني ، فلا يفلتنَّكَ ؛ ثم ثار[٩٣] اليه فطعنه قيس بالحربة في خاصرته فأنفذها من الجانب الآخر فمات مكانه ، فلما فرغ منه ، قال له خداش : انا ان فررنا الآن طلبَنا قومه[★] ، ولكن ادخل بنا مكانا قريبا من مقتله ، فان قومه لايظنون انك قتلته وأقمت قريباً منه[٩٤] ، ولكنهم اذا افتقدوه اقتفوا أثره ، فاذا وجدوه قتيلاً خرجوا في طلبنا في كل وجه ، فاذا يئسوا رجعوا . قال : فدخلا في دارات من رمال هناك ، وفقد العبديَّ قومُه فاقتفوا أثره فوجدوه قتيلاً ، فخرجوا يطلبونهما في كل وجه ثم رجعوا ، فكان من أمرهم ما قال خداش ، وأقاما

---

(٩١) فى نسخة اخرى : « معك » وهو ما اتبعه نكلسن فى ترجمته . [المترجم]

(٩٢) فى نسخة اخرى : « أعطاه ... أخذه » ، وهو ما اتبعه نكلسن فى ترجمته . [المترجم]

(٩٣) فى نسخة أخرى : « نازله » ، وهى الاصح من سياق القصة فى نظرنا . [المترجم]

(★) نهاية الصفحة «٩٦» من النص الانكليزي .

(٩٤) فى نسخة اخرى : « منهم » .

مكانهما أياماً ثم خرجا ، فلم يتكلما ، حتى أتيا منزل خداش ، ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع الى أهله » •

نشيد الانتقام لتأبط شرا :

وترينا قصائد الثأر والانتقام خير ما في العربي الوثني وكثيراً مما هو دون مرتبة الاعجاب ـ فمن ناحية ترينا شجاعته وعزيمته واحتقاره للموت وخوفه من العار واخلاصه الفريد للميت كاخلاصه للحي وتقديره العميق ومودته الرقيقة لرجال من لحمه ودمه ، ومن ناحية ثانية حدته التي لا ترحم وقسوته اللعينة وضراوته الهوجاء في الظفر بالقتلة وابتهاجه الوحشي الذي يقرب من الفرحة غير الانسانية بالقتيل ؟ والنشيد أو اغنية الثأر المشهورة التي سنحاول الآن ترجمتها الى الانكليزية تنسب عادة الى تأبط شراً(٩٥) ، رغم ان بعضهم يعتقد بأنه من انتحال خلف الاحمر الذى اشتهر بنظم رائعة الشنفرى وهو بلا شك مقلد حاذق للشعراء القدامى بصورة مدهشة ، ليكن ذلك ما يكون ، فان القصيدة وثنية فى لهجتها ومشاعرها تماماً ، وقد اكتشف مزاياها الخارقة الشاعر غوته الذى نشر لها ترجمة المانية بعد ان قرأ ترجمتها باللاتينية مع نقد جميل للشعر فى ديوانه الموسوم بـ West - Oestlicher Divan الديوان الغربي ـ الشرقي(٩٦) وقد حاولت أن احاكي جهد امكاني الوزن والايقاع كما

---

(٩٥) راجع النص الانكليزى ص ٨١ = ١٣٩ ـ ١٤٠ من الترجمة العربية أعلاه •

(٩٦) شتوتكارت ، ١٨١٩ ، ص ٢٥٣ وما بعدها والترجمات الاخرى التى اطلعت عليها هى ترجمة روكيرت Rückert (الحماسة ، ج ١ ص ٢٩٩) وترجمة السر شارلس لايل (الشعر العربى القديم ، ص ٤٨) وقد اتبعت ترتيب السر شارلس لايل لابيات القصيدة وتقصيت عن كثب تفسيره البارع الذى استعرت منه بعض التعابير التى لا يمكن تغييرها دون الاساءة الى التركيب الجميل • [المؤلف]

في الاصل(*) اذ ان هذين باعتقادي هما مرجع تأثير القصيدة الغريب الى حد بعيد والبحر هنا هو المعروف بالمديد ، وهو :

ب | ب
ـ ب ـ ـ | ـ ب ـ | ـ ب ـ ـ

ومطلع القصيدة في النص العربي :ـ

إن بالشعب الذي عند(٩٧) سَلْعٍ
ـ ب ـ ـ | ـ ب ـ | ـ ب ـ ـ
فاعلاتن فاعلن فاعلاتن

لقتيلا دمُهُ ما يُطَلُّ
ب ب ـ ـ | ب ب ـ | ـ ب ـ ـ
فعلاتن فعلن فاعلاتن

ويختلف العروض العربي بطبيعة الحال اختلافا جذريا عن العروض الانكليزي ، ولكن اذا ما أخذنا الامر بصورة تقريبية فان العديد من الابيات المزدوجة في الترجمة الانكليزية (من نحو الثالث والثامن والتاسع) سيرى مماثلا تمام التماثل مع النموذج الاصلي ، على ان غرضنا ، كما قلنا ، هو مجرد أيضاح الوزن المبتور والضربات الثقيلة المشددة وعلى ذلك فقد منحت الابيات تنويعا مع الاحتفاظ ، في ذات الوقت ، بتلك الحرية الفنية التي لا يأمل مترجم الشعر بدونها أن يُرضي نفسه أو أي انسان سواه .

ويروي الشاعر لنا كيف أنه دُعي ليثأر لعمه الذي قتلته هذيل : فهو يصف لنا الخُلُق البطولي الذي تحلى به القتيل ، والمعركة الحامية التي سقط فيها وانتصاراته السالفة على نفس الاعداء وأخيرا الثأر المطيع الذي مُنِيَ به أعداؤه(٩٨) :

(*) نهاية الصفحة «٩٧» من النص الانكليزي .
(٩٧) في رواية اخرى : « دون » .
(٩٨) النص العربي في الحماسة ، ص ٣٨٢ وما يليها = جـ١ ص ٣٤٢ (باب المراثي) طبعة القاهرة ، ١٩٢٧ .

ان بالشعب الذي دون سَلْعٍ لقتيلاً دمُهُ ما يُطَلُّ (٩٩)
خَلَّفَ العبءَ عليَّ وولّى أنا بالعبءِ له مستقلُّ (١٠٠)
ووراءَ الثأرِ منّي ابنُ أُختٍ مَصِعٌ عُقْدَتُهُ ماتُحَلُّ (١٠١)
مُطْرِقٌ يرشَحُ سَمّاً كما أطْـ
ـرَقَ أفْعَى ينفثُ السَمَّ صِلُّ (١٠٢)
خبرٌ ما نابنا مصمئِلٌّ جلَّ حتى دقَّ فيه الاجلُّ (١٠٣)
بَزَّنِي الدهرُ وكانَ غَشُوماً بأَبِيٍّ جارُهُ ما يُذَلُّ (١٠٤)

---

(٩٩) الشِعبْ : الطريق فى الجبل و (سَلْع) موضع وقوله (دمه ما يطل) يقال طَل دمه بالفتح وطُلَّ بالضم وهو أكثر طلاً ذهب هدراً لا يُثأر به ـ والمعنى ان القتيل الذى بالشعب دون سلع لا يذهب دمه هدراً .

(١٠٠) العبء : الثقل ومستقل أى محتمل يقال استقل كذا حمله ورفعه ـ والمعنى انه ترك ثقل الثأر عليَّ وذهب وانا قادر على حمل ثقله غير عاجز عن طلبه .

(١٠١) المصع : الشديد المقاتلة ، الثابت ـ والمعنى ان هـذا الثأر الذى أتركه ان لم آخذه منكم فخلفى ابن اخت ثابت الجنان قوى العزيمة لا تنتقص عزيمته [وتجعل ترجمة نكلسن الشاعر هو « ابن الاخت » المقصود ، وهو ما نرجحه « المترجم »]

(١٠٢) «نهاية الصفحة ٩٨ من النص الانكليزى » اطرق : أرخى عينيه ينظر الى الارض والرشح كالعرق والنفث كالقذف والصل الخبيث من الافاعي ـ والمعنى ان ابن اختي اذا رأيته يطيل النظر الى الارض فلا تظن اطراقه اطراقا بل هو شجاع فى الحروب مقدام فى النزال يطرق اطراقة الحية الخبيثة التى تنفث السم .

(١٠٣) المصمئل الشديد وجلّ عظم ودقَّ صغُر والاجل الجليل ـ والمعنى ان الذى نزل بنا وأصابنا بخبر موته آمر كبير يصغر عنده ما هو عظيم جليل من الحوادث .

(١٠٤) بزه الشيء سلبه اياه والمراد فجعني به الدهر والغشوم الظلوم والابيّ الذى لا يحتمل الضيم ـ والمعنى ان الدهر بتجبره وظلمه فجعني وسلبني رجلا عزيزا ذا انفة لا يحتمل الذل يحمى جاره فيعز ولا يضام .

شَـامِس" في القُـرّ حتّى اذا مـا

ذكَت الشّـعرى فَبَرد" وظِـل(١٠٥).

يابسُ الجنبـين مـن غـير بُؤس

ونَدِيالكفَّيْنِ شَـهْم" مُدِل(١٠٦).

ظـاعِـن" بـالحـزم حتّى اذا مـا

حَلّ حَلّ الحـزم حيث يحل(١٠٧).

غَيْثُ مُزْنٍ غـامر" حيث يجدي

واذا يَسـطُـو فليـث" أَبَـل(١٠٨).

مُسبِل" في الحيِّ أحوى رِفَل"

واذا يغـزو فسِـمْـع" أَزَل(١٠٩).

---

(١٠٥) الشامس ذو الشمس والقر البرد وذكت اشتعلت ــ والمعنى ان هذا الرجل ذو كرم وسخاء فمن لجأ اليه في الشتاء وجد عنده ما يدفئه من الطعام واللباس كالشمس تدفيء المقرور ومن وفد عليه في الصيف حين يطلع نجم الشعرى وجد عنده ظلا ظليلا وماء باردا يطفيء به حرارة جوفه .

(١٠٦) يابس الجنبين يريد انه هزيل ومن عادتهم التمدح بالهزال والبؤس والفقر ، والشهم الذكي الحديد القلب والمدل الواثق بنفسه وبآلاته وعدته ــ والمعنى انه قليل الاكل لاطعام غيره وليس ذلك لفقر بل هو سخي يؤثر أضيافه بالزاد على نفسه ذكي القلب يقظـان واثق بنفسه وما أعـده لحوادث الدهر .

(١٠٧) الظعن ضد الاقامة ــ والمعنى انه متصف بالحزم في جميع شؤونه وأحواله حلاً وترحالا .

(١٠٨) المزن جمع مزنة وهي في الاصل السحابة البيضـاء والمراد السحابة فيها الماء لان السحاب الابيض لا ماء فيه وغمره الماء علاه ويجدي يعطى الجدوى وهي العطية ويسطو يقهر ويصول والليث الاسد والأبَل المصمم الماضي على وجهه لا يبالي ما لقى ــ والمعنى انه جواد كريم شجاع اذا أعطى أجزل العطاء كالسحاب الذى يغمر الناس بكثرة أمطاره واذا صال فكالأسد الهصور لا يبالي بالعدو .

(١٠٩) مسبل في الحي مفعوله محذوف أي مسبل ازاره في الحي وهم

ولـه طعمان أَرْيٌ وشَرْيٌ   وكلا الطعمين قد ذاقَ كُلُّ(١١٠)

يركب الهول وحيداً ولا يصـ   ـحَبُهُ إلاَّ اليماني الأفَلُّ(١١١)

وفُتُـوٍّ هَجَّرُوا ثُمَّ أَسْرَوْا

لَيْلَهُم حتى اذا انجاب حَلُّوا(١١٢)

كل ماضٍ قد تردّى بماضٍ   كسنا البرق اذا ما يُسَلُّ(١١٣)

فادّركنا الثأر منهم ولمّا

ينجُ مِلْحَيَّيْنِ الا الأَقَلُّ(١١٤)

يمدحون ذا النعمة بذلك حال الدعة وعدم الحرب فأما فى الشدائد فانهم يمدحون الرجل بالتشمير وعدم اللين ، والاحوى من فى شفتيه سواد وهو محمود فيهما والرفل الكثير اللحم والسِمْع ولد الذئب والإزل السريع المشى الممسوح العجز ـ والمعنى انه يتنعم فى حالة السلم ويُسبل رداءه ويأكل ما يشتهي واذا نزل فى الحرب كان كالسبع الضاري يشمر عن جده ويقدم اقدامه ·

(١١٠) الأري العسل والشري الحنظل وكلامفعول ذاق ـ والمعنى انه رجل سهل الجانب حلو المذاق لمحبه مر الطعم خشن لعدوه وكل من المحب والعدو قد ذاق كلا الطعمين ·

(١١١) **انتصب وحيدا على الحال واليمانى السيف والافل المنثلم** ـ والمعنى انه شجاع لا يخاف الاهوال لكثرة ممارسته لها يقتحمها ولا يستصحب معيناً الا السيف اليماني المنثلم من كثرة الضرب به ·

(١١٢) **فتو جمع فتى وهجّر سار وقت الهاجرة وهى اشتداد الحر** فى نصف النهار والسرى السير فى الليل خاصة وانجاب انكشف ـ والمعنى ورب فتيان واصلوا سيرهم من وقت الهاجرة الى آخر الليل فاذا انكشف الضوء وطلع الفجر أقاموا ، وقوله حلّوا جواب لرب واذا ·

(١١٣) تقول العرب ارتدى بسيفه وتردّى ويسمى السيف الرداء والعطاف وسنا البرق لمعانه ـ والمعنى ان كل ماض منهم تقلد بالسيف الماضي الذى يحكى سنا البرق عند اخراجه من الغمد ·

(١١٤) **ادّركنا أخذنا وملحيين مختصر من الحيين لغة لبعض العرب** ـ والمعنى أخذنا ثأرنا منهم ولم ينج منهم الا اليسير ·

لقد غير نكلسن فى ترجمته الانكليزية موضع البيتين الرابع

فـاحتسـوا أنفـاس نـوم فلمـا
هَوَّموا رُعتَهُم فاشمعلُّوا(١١٥)

فلئِن فَلَّت هُذَيل شَباهُ لبما كان هُذَيلاً يَفُل(١١٦)

وبمـا ابركهـا في مُنَاخٍ جعجعٍ ينقبُ فيه الاظل(١١٧)

وبمـا صَبَّحها في ذَراهـا منهُ بعدالقتل نَهبٌ وَشَل(١١٨)

صليت منى هذيـل بِخِرقٍ لا يَمَلُّ الشَرَّ حتى يَمَلُّوا(١١٩)

عشر والخامس عشر فوضع أحدهما مكان الآخر ، وأبدى الملاحظة التالية :

مع ان خال الشاعر قتل فى هذه المعركة فان الجماعة التى بوغتت تكبدت خسائر فادحة وكلا الفخذين من قبيلة هذيل العظيمة التى ذكرت فى البيت ما قبل الاخير من القصيدة ٠

(١١٥) احتسى الشراب تناوله شيئاً فشيأ والانفاس الجرع وهوّم الرجل اذا هزّ رأسه من النعاس واشمعلّوا أسرعوا فى السير ورعتهم أفزعتهم وهو جواب لمّا ـ والمعنى كانوا فى النعاس فلما أفزعتهم جدوا فى السير [وفى رواية المرزوقي ٢/٨٣٤ : « ثمِلوا » بدل « هوَّموا »] ٠

(١١٦) الفل كسر فى حد السيف والشبا الحد وقوله لبما كان الخ ـ معناه فكثيرا ما كان كذا ٠ [أو قهر بالذي كان يقهر به هذيلاً ، أى بالبأس والقوة ٠ « المترجم »] ٠

(١١٧) وبما ابركها معطوف على لبما كان فى البيت قبله وابرك الناقة أناخها والجعجع الارض الغليظة ونقبت الناقة حفى خفها والاظل باطن خف الناقة وضرب ذلك مثلا لشدته وقوة بأسه وانه كان ينال منهم ويحملهم على مراكب صعبة ـ ومعنى البيتين لئن نااله ضعف من هذيل فلا فخار لهم بذلك فطالما نالهم منه الضعف والانهزام من قبل وطالما حملهم المشاق وأركبهم المراكب الصعبة [وفى رواية المرزوقي ٢/٣٨٥ : «وبما أبركهم»] ٠

(١١٨) ذَرا البيت ساحته وما يكتنفه والشل الطرد ـ والمعنى انه كثيرا ما أغار عليهم صباحا فى أكناف بيوتهم فبعد أن يقتل أبطالهم ينهبهم ويستاق أموالهم ٠

(١١٩) صلى بالامر قاسى شدته والخرق الشجاع الكريم ـ والمعنى ان هذيلاً قاست الشدائد من شجاع ذى صبر وثبات على القتال فلا يسأمه حتى يجد السآمة من أعدائه فيرأف بهم ٠ [وهذا يؤكد معنى : « ووراء الثأر منّي ابن اخت »] ٠

يُنهِلُ الصعدةَ حتى اذا ما نَهِلَتْ كان لها منهُ عَلَل(١٢٠)
حَلَّتِ الخمرُ وكانت حراماً
وبِلأيٍ ما أَلَمَّتْ تَحِل(١٢١)(★)
فاسقنيها يا سوادَ بنَ عمروٍ
إن جسمي بعد خالي لَخَل(١٢٢)
تضحَكُ الضبعُ لقتلى هُذَيْلٍ وترى الذئبَ لها يستهِل(١٢٣)
وعتاقُ الطَّيرِ تغدو بطاناً تتخطاهم فما تَسْتَقِل(١٢٤)

---

(١٢٠) انهله الشراب سقاه اياه أول مرة وعله سقاه الثانية والصعدة القناة تنبت مستوية ـ والمعنى انه لا يكتفي بطعن أعدائه بقناته مرة بل يكرره مرة بعد اخرى كالشارب الذى لا يكفيه النهل فيشتاق الى العلل ٠

(١٢١) الالمام الزيارة الخفيفة ولكنها هنا كناية عن حصول الخمر عنده بالفعل واللأي البطء ـ والمعنى انه فاز بأخذ الثأر بعد بطء وقضى مدة فصارتالخمر حلالا له بعد أن حرمها على نفسه جرياً على عادتهم من تحريم الخمر وغسل الرأس والجماع قبل أخذ الثأر ٠

(★) نهاية الصفحة «٩٩» من النص الانكليزي ٠

(١٢٢) سواد مرخم سوادة والخل المهزول ـ والمعنى اسقني الخمر الآن فان جسمي قد هزل بعد خالي ٠

(١٢٣) استعار الضحك للضبع والاستهلال للذئب ـ والمعنىانالضبع والذئب فى سرور بقتلى هذيل لحصولهما على كثرة الغذاء من لحومها ٠

(١٢٤) (عتاق الطير) جوارحها وتستقل تطير ـ والمعنى ان جوارح الطير تنزل على القتلى من هذيل فتملأ بطونها حتى لا تكاد تطيق الطيران لكثرة ما تأكل ٠ ويعلق التبريزي على هذه القصيدة بقوله : ان هذا الشعر مولد قاله خلف الاحمر ٠ قال النمري ومما يدل على أنه مولد قوله « جل حتى دق فيه الاجل » فان الاعرابي لا يكاد يتغلغل الى مثل هذا وقال أبو الندى : مما يدل على أن هذا الشعر مولد انه ذكر فيه «سَلْعاً» وهو بالمدينة واين تأبط شراً من سلع وهو انما قتل فى بلاد هذيل ورمي به فى غار يقال له « رخمان » هذا وكلام ابي الندى بناه على أن قائل الشعر هو ابن اخت تأبط شراً يرثي به خاله أو تأبط شراً نفسه يرثي نفسه قبل موته لما أيقن بالقتل (الحماسة ، القاهرة ١٩٢٧ ، ج ١ ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ الهامش ٦ ؛ راجع كذلك شرح التبريزي : ٢/١٦٠ ـ ١٦١) ٠

الشرف الذى يضفيه نبل الاسلاف :

كانت جميع الفضائل التى تدخل فى مفهوم العربيّ عن الشرف، لا تعد صفات شخصية أصيلة في النفس أو مكتسبة بل معطيات موروثة يستمدها الرجل من أسلافه ويحتفظ بها مؤتمناً عليها لكيما يسلمها من غيرشائبة الى ذريته ، وقدكانت رغبة العربي فيرفع ومجاراة أجداده لا الامل فى كسب الخلود لنفسه هى التى تحمله على « أن يقول قول النبلاء ويعمل عملهم » ؛ وهو بعيد عن مشاركته عاطفة الفلاح الاسكتلندي ـ « الرجل رجل لما هو عليه » ـ اذ ينظر مستغرباً الى المزية والشهرة اللتين لا تدعمهما التقاليد :

وما تستوي أحسابُ قومٍ تُوُرِّثَتْ
قديماً وأحسابٌ نبتْنَ مع البَقْل(١٢٥)

ويُشبَّهُ الحسب أحياناً بقلعة حصينة بناها الآباء للابناء أو بجبل منيف يتحدى الهجوم ؛ (١٢٦) والشعراء قد أُفعموا « بالمفاخر » و « المثالب » يعلنون فيها بأعلى عقائرهم نبل أسلافهم ، ويحاولون تشويه سمعة أسلاف أعدائهم من دون أى اكتراث بالذوق •

وقد كان هدفنا أن نضيف هنا بعض الملاحظات العامة عن الشعر العربي بالمقارنة مع العبري(١٢٧) والفارسي والانكليزى ، ولكن ما دامت الامثلة خيراً من الشرح فسنتجه الآن مباشرةً الى القصائد المشهورة التي

---

(١٢٥) الحماسة : ٦٧٩ [= ج ٤ ص ٥٣ (شرح التبريزي) والبيت للهذيل العبدي] •

(١٢٦) قابل أبياتا من معلقة الحارث أوردناها فى صفحة تالية •

(١٢٧) نهاية الصفحة ١٠٠ من النص الانكليزى •

عرفت « بالمعلقات » عند كل من يهتم حتى أقل اهتمام بالادب العربي[(١٢٨)] .

المعلقـــات :

أكبر الظن ان « المُعلَّقة » (وجمعها معلَّقات) مشتقة من لفظة « علْق » وهى تعني الشيء الثمين أو الشيء الذى ينال تقديراء فاما لان الانسان يتعلق بها بشدة أو لانها تُعلَّق في موضع التقدير أو مكان بارز في خزانة أو مخزن »[(١٢٩)] وبتمادي الزمن تنوسي المعنى الحقيقي للمعلقة فكان من الضرورى البحث عن تفسير مستحسن ، فظهرت أسطورة أصبحت من كثرة التكرار مألوفة وهي تقول ان المعلقات سميت كذلك لأنها علقت على جدران الكعبة لامتيازها الذى أحرزته من المحكمين في سوق عكاظ ،

---

(١٢٨)) خير طبعـة للمعلقـات هى طبعـة السر شارلس لايل (شرح المعلقات العشر ، كلكتا ، ١٨٩٤) التي تضم بالاضافة الى المعلقات السبع ثلاث قصائد للاعشى والنابغة وعبيد بن الابرص ، وقد ترجم نولدكه خمساً منها (بعد أن حذف معلقتي امرىء القيس وطرفة) مع شرح بالمانية Sitzungsberichte der kais. Akad. Der Wissenschaften in Wien, Phil.— Histor. Klasse, Vols. 140 - 144 (1889 - 1901) . محاضر جلسات الاكاديمية القيصرية للعلوم فيفينا : قسم الفلسفة والتاريخ ، المجلدات ١٤٠ ــ ١٤٤ (١٨٩٩ــ١٩٠١) .

وهذه هى الى حد بعيد أفضل ترجمة للطلاب ، ولم تظهر نسخـة مَرْضِيَّـة بالنشر الانـكليزي حتى الآن ، الا انـه يمكننى أن انبـه الى ترجمة انكليزية شعرية ممتازة ، وان كانت بتصرف نوعا ما ، بقلم «الليدي آن بلنت » و « ولفريد سكاون بلنت » (السبع المذهبات لبـلاد العـرب الوثنية ، لندن ، ١٩٠٣) .

(١٢٩) الشعـر العربى القديم ، المقدمـة ، ص ٤٤ وقـد اقترحت تفاسير عديدة اخرى من نحو أن القصائد دونت من املاء شفهي (فون كريمر) أو انها غنية بالجواهر (هلورت) أو « كما لو كانت المعلقات لآلىء منظومـة فى عقد » (أ . مولر) .

بالقرب من مكة حيث يجتمع الشعراء متبارين ينشدون خير ما ينتجونه ، وان القصائد الناجحة كانت تكتب بماء الذهب على القباطي قبل تعليقها على باب الكعبة(١٣٠) ؛ ولو كانت هذه الاقوال(★) صحيحة لتوقعنا ان نجد تأكيداً لها في وقت مبكر من تاريخ الادب ، بيد انه في الواقع لم يذكر شيء من هذا القبيل في القرآن أو في الاخبار الدينية أو في تواريخ مكة القديمة أو في كتب من مثل كتاب « الاغاني » الذي يستقي معلوماته من مصادر قديمة وموثوق بها(١٣١) ويكاد يكون المصدر الاول الذي يشير الى الاسطورة هو أحمد النّحاس النحوي (المتوفى سنة **٣٣٨هـ/٩٤٩م**) وهو الذى يصفها بأنها بلا سند ، والى ذلك فانها غير قابلة التصديق رغم ان علماء من أمثال « رايسكه » **Reiske** « والسر دبليو جونز » وحتى «دي ساسي» قد وافقوا عليها ؛ ولقد سأل هينگستنبرغ **Hengstenberg** في مقدمة طبعته لمعلقة امريء القيس (بون ، **١٨٢٣**) بعض الاسئلة المعقولة على هذا النحو : « من كان المحكمون وكيف كانوا يعينون ؟ لِمَ تميزت هذه القصائد السبع وحدها على هذه الشاكلة ؟ » بيد ان اعتراضه الآخر وهو ان فن الكتابة كان امتيازا نادرا في ذلك الوقت لا يحمل في طياته

(١٣٠) يبدو ان الاعتقاد بأن المعلقات كتبت بماء الذهب قد جاء من سوء فهم للفظة « مُذْهَبات » أو « مُذَهَّبات » (أى القصائد المذهبة) التى تنعت بها أحيانا لتعبر عن جودتها كما فعل الاغريق اذ وصفوا قصيدة نُحِلَتْ فيثاغورس بأنها Xrúsea ëpe ؛ أي « القصيدة المذهبة » ؛ وحقيقة ان بعض المعلقات انشد فى عكاظ أمر محتمل وقد تأكد على وجه اليقين فيما يتعلق بمعلقة عمرو بن كلثوم (الاغاني ، ٩/١٨٢) .

(★) نهاية الصفحة «١٠١» من النص الانكليزى .

(١٣١) تظهر الاسطورة لاول مرة فى العقد الفريد (طبعة القاهرة ، ١٢٩٣هـ ، جـ٣ ص ١١٦ وما يليها) لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م .

الخطورة التى يعلقها عليه ، الا أن القصة مرفوضة بصورة كافية مما نعلمه عن طبيعة العرب وعاداتهم فى القرن السادس وما بعده • أَمِنَ المعقول أَنَّ أبناء الصحراء المتكبرين كانوا يستطيعون أن يقدموا أمرا يكاد يمس شرفهم القبلي ويغارون عليه أكثر من أي شيء آخر الى التحكيم الخارجي أو ان يستسلموا بلطف لقرار متحيز يصدره مجلس تحكيم منعقد بجوار مكة لا يبدي بكل تأكيد الا اهتماماً ضئيلا لمتبارين من بطون وأفخاذ بعيدة ؟(١٣٢)

أصل المجموعة :

ومهما يكن تفسير لفظة « المعلقة » فان التسمية ليست معاصرة للقصائد ذاتها وأكبر الاحتمال أن الشخص الذي جمعها لاول مرة(★) من بين العديد من القصائد ووضعها فى مجموعة مستقلة هو الذى وسمها بهذا الاسم ؛ والمعترف به عموماً أن هذا الشخص هو « حماد الراوية » ، وهو راوية مشهور عاش في أواخر أيام الدولة الاموية ومات حوالي سنة ١٥٦هـ/٧٧٢م في خلافة الخليفة العباسي المهدي ولسنا ندري أي مبدأ قاد خطا حماد فى مختاراته ، ويخمن نولدكه أنه كان متأثرا بحقيقة أن جميع المعلقات قصائد طويلة ـ وتسمى أحيانا (السبع الطوال) ـ اذ لم يكن فى عهد حماد الا القليل من الشعر العربي القديم حتى فى حال كمال نسبيّ •

---

(١٣٢) انظر مقدمة نولدكه لكتابه Beiträge Zur Kenntniss Der Poesie der alten Araber «بحث فى معلومات عن الشعر العربى القديم» (هانوفر ١٨٦٤) ص ١٧ وما يليها وبحثه عن « المعلقات » فى المعلمة البريطانية •

(★) نهاية الصفحة «١٠٢» من النص الانكليزى •

صعوبة ترجمة المعلقات :

يجب أن نعترف بأنه ليست ثمة ترجمة للمعلقات بوسعها أن تزود القراء الاوربيين بفكرة منصفة عن الاصل ، وأقلها جميعا الترجمة الحرفية، فالمعلقات تضم الشيء الكثير مما لا يقربه من الاذهان الا الشرح الكامل ، الشيء الكثير مما يعد في الذوق العصري غير متفق مطلقا مع الاسلوب الشعري ، فأجمل صورها عن الحياة البدوية وعاداتها كثيراً ما تبدو غير مهذبة أو مضحكة ، اذ يستحيل علينا بغير معرفة وثيقة بالبلد وسكانه أن نرى ما كان الشاعر يرمي الى التعبير عنه أو ان نقدر صدق تعبير القصيدة وجمالها ، في حين أن الاطار المصطنع ، وضيق مدى الموضوع ، فضلا عن المعالجة للقصيدة برمتها ، تثير انتباهنا في الحال ؛ وسنقدم في الصفحات التالية بعض المعلومات عن المعلقات وناظميها ونحاول أن نبرز المميزات الخاصة بكل قصيدة بانتخاب مقاطع ملائمة للترجمة(١٣٣) .

امرؤ القيس :

واقدم المعلقات وأشهرها هي معلقة امريء القيس المنحدر من ملوك اليمن القدماء ؛ وكان جده الحارث ، ملك كنده المناويء للمنذر الثالث ، ملك الحيرة الذي(*) تغلب عليه وقتله(١٣٤) ؛ وقد انفصم بعد موت الحارث عرى الحلف الذي أقامه ، وقسم أبناؤه مختلف القبائل التي كان يتألف منها بينهم ؛ وحكم حُجْر ، والد الشاعر ، بعض الوقت على بني

---

(١٣٣) من المعروف أن ترتيب الابيات في المعلقات على نحو ما وصلت الينا مضطرب مشوش في الغالب وان عدد القراءات المختلفة كبير جدا ، وقد اتبعنا بصورة عامة النص والترتيب الواردين في ترجمة نولدكه الالمانية .

(*) نهاية الصفحة «١٠٣» من النص الانكليزى .

(١٣٤) راجع ما ورد في الصفحة ٤٢ من النص الانكليزي = ص ٨٦ من الترجمة العربية .

أسد في أواسط بلاد العرب ولكنهم في الأخير ثاروا عليه وقتلوه ، « ووقع واجب الثأر لمقتله على كاهل امريء القيس الذي يُمثّل لنا الامير الكفء الوحيد في أسرته ، وترجع المعلومات التاريخية القليلة الخاصة به التي تجدها بين أيدينا الى مخاطراته عندما كان مصمماً على الاخذ بالثأر »(١٣٥) وقد رويت بتفصيل مسهب في « كتاب الاغاني » ، ولكن لا حاجة لاعاقتها استمراونا في الموضوع هنا بل يكفي أن نذكر أن محاولاته نعاقبة الثوار الذين ساعدهم المنذر ، العدو التقليدي لاسرته ، لم تنجح الا قليلاً ؛ فأخذ سمته الى القسطنطنية حيث استقبل بترحاب من لدن الامبراطور جستنيان الذى كان يرغب فى أن يرى اعادة سلطان كنده شوكةً فى جنب منافسيه الفرس ، وعينه الامبراطور حاكماً على فلسطين ، غير انه مات في انقرة وهو فى طريقه اليها (حوالي سنة ٥٤٠م) وقيل انه هلك على غرار « نيسُسْ »(١٣٦) Nessus بعد ان ارتدى حلة مسمومة

---

(١٣٥) « الشعر العربي القديم » ، ص ١٠٥ .

(١٣٦) [راجع « معجم لاروس الفرنسي » ، ص ١٥٦٥ ، وكذلك هارفي : « مساعد اوكسفورد للادب الانكليزى » ص ٢١٥ حيث جاء فى هذا الاخير : « ان ديانيرا Deianira ابنة اوينيوس ، ملك ايتوليا ، أثار جمالها اعجاب الكثيرين وقد وعد والدها بأن يزوجها من أقوى شخص يتقدم لخطبتها ، فحصل هرَقْل على الجائزة وتزوج من ديانيرا ؛ وفيما كانا يسافران معاً أوقفهما فيضان نهر ايڤينوس فتبرع نيسُس (وهو مخلوق نصفه انسان ونصفه حصان) بأن يحمل ديانيرا الى الشاطيء الثاني بسلام فوافق هرقل، ولكن لم يكد نيسس يصل بديانيرا الى الشاطيء المقابل حتى بدا يعاملها بعنف ، فلما رأى هرقل ذلك أطلق عليه سهماً مسموماً ، فجرح نيسس جرحاً مميتاً ، ولكيما يثأر هذا لنفسه أعطى ديانيرا حلته الملطخة بالدماء المسمومة زاعماً بأنها تعيد اليها زوجها ، عندما يعشق الاخريات ، فجربته ديانيرا فى زوجها هرقل فيما بعد فهلك ! » (وقدكان الأصوب أن يقول نكلسن : « هلك على غرار هرقل » وليس « نيسس » كما هو واضح من سياق الاسطورة) [المترجم] .

بعث بها هدية اليه جستنيان الذى عشق امرؤ القيس ابنته فهو لذلك يعرف أحياناً (بذي القروح) •

وتحيط بشخص امرىء القيس الرومانسي أخبار اسطورية عديدة(١٣٧) ففي بعض الحكايات ان أباه طرده انفةً من قوله الشعر واغتاظ منه لمخازيه التي نجمت عن مغامراته الغرامية فكان يسير في احياء العرب ومعه اخلاط من الشذاذ على شاكلته ، يحيا حياة ضلالة ، فلقب من جراء ذلك « بالملك الضلّيل » ؛ وعندما بلغته اخبار مصرع أبيه(★) صاح : « ضيعني صغيراً ، وحمَّلني دمه كبيرا ؛ لا صحو اليوم ولا سكر غدا • اليوم خمر وغدا أمر ! » ثم شرب سبعاً فلما صحا آلى ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يَدَّهِنَ بدُهْنٍ ولا يُصب امرأة ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك بثأره ؛ وكان في وادي تَبَاله(١٣٨) ، شمال نجران صنم للعرب تعظِّمُهُ في جاهليتها يقال له ذو الخَلَصَة(١٣٩) ، فاستقسم عنده بقِداحِهِ وهي ثلاثة : الآمر والناهي والمتربِّص ، فأجالها فخرج الناهي فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال بلغة فجّة : « لو أبوك قُتِلَ ما عُقْتَني ! » •

---

(١٣٧) لاجع عن حياته (حسب ما ورد في كتاب الاغاني) ديوان امرىء القيس مع ترجمته وحواشيه التي نشرها البارون ماكگوكين دىسلان (بأريس ، ١٨٣٧) ص ١ــ ٥١ « وامرؤ القيس الشاعر والملك » تأليف فريدريش روكيرت (شتوتكارت وتيوبنگن ، ١٨٤٣) « المؤلف » حياته مفصلة في الاغانى (طبعة دار الكتب) ج ٩ ص ٧٧ ــ ١٠٧ [المترجم]

(★) نهاية الصفحة «١٠٤» من النص الانكليزي •

(١٣٨) موضع بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليالٍ من مكة •

(١٣٩) مرمرة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج ، وكان سدنتها بني امامة من باهلة من أعصر ، وكانت تعظمها وتهدى لها خثعم وبجيلة وازد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن (الاصنام لابن الكلبي ، ص ٤٣) •

ويكاد امرؤ القيس يُعد بالاجماع أعظم شعراء الجاهلية ، وقد وصفه عليه السلام بانه « قائدهم الى النار » في حين أن الخليفتين الراشدين عمر وعلي (رضوان الله عليهما) ، رغم نزعتهما الدينية امتدحا عبقريته واصالته(١٤٠) ؛ وعندما نأتي الى المعلقة ذاتها نجد ان النقاد الاوربيين قد تنافسوا فيما بينهم في الثناء على لغتها اللطيفة واخيلتها الممتازة وحلاوة انسياب أبياتها وسحر التصوير وتنوعه فيها وفوق ذلك كله الشعور بأنها ملهمة بمرح الشباب وزهوه ، والمقطع التالي (الذي ترجمناه) مقتبس من النصف الاول من القصيدة حيث الحب هو الموضوع الطاغي(١٤١) :ـ

وَيَوماً عَلَى ظَهْرِ الكثيبِ تَعذّرَتْ
عليَّ وآلتْ حَلْفَةً لم تَحلّلِ(١٤٢)

أفاطِمَ مهلاً بعضَ هذا التدلّلِ
وانْ كنتِ قد أزمعتِ صَرْمي فأجملي(١٤٣)

---

(١٤٠) على أنه لم يكن مخترع القصيدة العربية كما وُصِفَتْ فى أعلاه (ص ٧٦ وما يليها من النّص الانكليزي = ص ١٣٢ وما يليها من الترجمة العربية) ويتضح ذلك من ذكره فى بعض أبياته شخصاً اسمه ابن هُمام ، أو ابن خِذام ادخل أو على الاقل أشاع المقدمة الاستهلالية التى تكاد تفتتح بها كل قصيدة وهي البكاء على الاطلال المهجورة (ابن قتيبة كتاب الشعر والشعراء ، ص ٥٢ [= ص ٩٢ «شرح ديوان امرىء القيس» : (طبعة دار الفكر للجميع) والبيت الذى أشار اليه نكلسن هو [منالكامل]:

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديارَ كما بكى ابنُ خِذام

و (عوجا) بمعنى ميلا واعطفا و (المحيل) المتغير و (ابن خذام) شاعر جاهلي قديم بكى الديار قبل امرىء القيس ٠ «المترجم»]

(١٤١) تُرجمت الابيات فى أعلاه الى الانكليزية من طبعة ارنولد للمعلقات (لايبزغ ، ١٨٥٠) ص ٩ وما يليها ؛ الابيات : ١٨ ـ ٣٥ = دار المعارف بمصر (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ، ص ١٢ ٠

(١٤٢) تعذرت : « تصعبت » « لم تحلّل » : لم تستثن من يمينها ٠

(١٤٣) ازمعت : عزمتِ وأجمعت وفاطمة بنت العبيد بن ثعلبة من عُذْرة [وهنا نهاية الصفحة ١٠٥ من النص الانكليزي] ٠

أغـــرّكِ منـــي ان حـُبـــــكِ قــاتلـــي
وانــك مهمــا تأمري القلبَ يـَفـْعَلِ
وان كـُنـْتِ قـــد ســاءتـك مني خليقـــة
فسُلّــي ثيابي من ثيــابكِ تـَنـْسـُلِ (١٤٤)
ومـــا ذَرَفَتْ عينـــاكِ الا لتقـــدحـــي
بســهميكِ في اعشــار قلب مـُقـَتَّلِ (١٤٥)
وبيضـــةِ خـِـدْرٍ لا يـُرام خـِبــاؤهـــا
تمتعتُ من لـَهـْوٍ بها غيرَ مـُعـْجَلِ (١٤٦)
تجــاوزتُ احراســـاً وأهــوال معشـــرٍ
عليَّ حـِراصٍ لو يـُشـِرّون مقتلي (١٤٧)
اذا مـــا الثـــريا في الســـماءِ تعـرَّضتْ
تعرُّضَ أثنــاء الوشــاحِ المفصَّلِ (١٤٨)

---

(١٤٤) أي اخرجي أمري من أمرك ونسل الريشُ ينسُل ، اذا سقط .

(١٤٥) الاعشار القطع والكسور والقدح : الخرق .

(١٤٦) غير مُعْجَلِ أى لم أفعله مرة ولا مرتين فاعجل عنه بل فعلته مراراً .

(١٤٧) يُشِرُّون : يظهرون ويُروى : يُسرون يكتمون .

(١٤٨) يقول : تجاوزت هذه الاهوال والاحراس حين تصوبت الثريا للمغيب وذلك ان الثريا تستقبلك بأولها حين تطلعُ ، فاذا أرادت المغيب تعرّضت أى ارتك عُرضها أي ناحيتها فشبهها بالوشاح المفصل اذا تلقاك بناحيته ، والمفصل الذي جعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤة ؛ وقال بعض أهل المعاني أراد بالثريا الجوزاء ، لان الثريا لا تتعرض ، وجعله مثل قول زهير : « كأحمر عاد » وانما أراد أحمر ثمود (هامش ٢٤ ص ١٤) .

فجئت وقـد نَضَت (١٤٩) لنـوم ثيابهـا
لـدى الستر الالبسةَ المتفضّـلِ (١٤٩)

فقـالت يمـينَ اللهِ مالـك حيلـة
وما إنْ أرى عنكَ العَمايةَ تنجلي (١٥٠)

خـرجتُ بهـا تمشي تجـرُ وراءَنـا
عَلى أثَريْنا ذيلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ (١٥١)

فلمـا أجـزنا سـاحة الحـيِّ وانتحـى
بنا بطنُ حِقْفٍ ذي رُكامٍ عَقَنْقَلِ (١٥٢)

اذا قلت هـاتي نوليـني تمـايلتْ
عليَّ هضيمَ الكشحِ ريّـا المخلخلِ (١٥٣)

---

(١٤٩) هنا زحاف قبيح أولع به امرؤ القيس وهو القبض فى تفعيلة مفاعيلن الواقعة فى الحشو ، (نضت) بمعنى خلعت و(اللبسة) هيئة اللباس والمتفضل اللابس ثوبا واحدا ·

(١٥٠) العماية : الجهالة وهو من عمى القلب ·

(١٥١) أي خرجت من البيوت لاخلو بها والمرط ازار خز له عَلَم ، ويكون من صوف أيضاً وانما تجرُ مرطها ليخفى أثره وأثرها فلا يستدل عليها والمرحَّل الموشى ؛ وهو ضـرب من البرود وشـيه معـين كتعيـين الرحل ·

(١٥٢) اجزنا : قطعنا ، والساحة الفناء ، والحِقْفُ من الرمل : المعوجُ ومعنى ركام : بعضه على بعض ؛ والعقنقل : المنعقـد المتداخـل وانتحى : اعترض ، والواو زائدة عند الكوفيين ، وهى عنـد البصريـين للعطف ، وجوابُ لما محذوف لعلم السامع ·

(١٥٣) نولينى من النوال وهـو العطيـة ومعنى تمايلت : عطفت والهضيم الضامر وقوله : ريّا أي ممتلئة لحماً وشحماً فى موضع الخلخال من ساقيها ، أي ليست بناتئة العظام ·

مهفهفــــةٌ بيضـــــاءُ غــــيرُ مُفاضــــةٍ

ترائبُهـــا مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ (١٥٤)

كَبِكْرِ مُقــاناةِ البيـــاضِ بصُــفْرَةٍ

غــذاها نميرُ المــاء غَــيرِ المُحلَّلِ (١٥٥)

تصُــــدُّ وتبــدي عــن اســيلٍ وتتقــي

بناظرةٍ من وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفلِ (١٥٦)

وجيــدٍ كجيــد الرئـــمِ ليس بفــاحشٍ

إذا هــي نصَّـــتْهُ ولا بِمُعَطّــلِ (١٥٧)

وفــرعٍ يُغَشّي المتــنَ أســـودَ فاحــمٍ

أثيثٍ كَقِنْــوِ النخلــةِ المتعثكِــلِ (١٥٨)_

وكمفارقات غريبة مع هذه الطراوة الرقيقة المثلى هي الابيات النافرة الصلبة التي تكاد تتبعها مباشرة حيث يسمع الشاعر وهو يتجول في البيداء القاحلة صوت ذئب جائع فيخاطبه كرفيق★ [من الطويل] :

---

(١٥٤) المهفهفة : الضربة اللحم المخففة والمفاضة الضخمة البطن ، أي هى خميصة البطن ضامرته والترائب جمع تريبة وهى موضع القلادة من الصدر ، والسجنجل : المرآة بالرومية ٠

(١٥٥) البكر هنا : البيضة الاولى من بيض النعام وخصَّهــا لان الاولى لا يخلص بياضُها خُلوصَ سائرها وهى أيضا الدرة التى لم تثقب، يريد ان المرأة بيضاء يخالط بياضها صفرة وكذلك لون الدر ، وقــولــه « غذاها نمير الماء » يعنى المرأة ، والنمير الماء العذب الناجع فى البدن ، يعنى انها نشأت بأرض مريئة ، ومعنى غير المحلل أى لم يُنزَل عليــه فيكدر ؛ ويجوز فى اعراب (غير) الرفع والنصب والجر ٠

(١٥٦) الناظرة : العين أى بعين بقرة ذات طفل ٠

(١٥٧) نصته : مدته وأبرزته والمعطل الذى لا حَلْيَ عليه ٠

(١٥٨) الاثيث : الكثير النبات والقنو : العِذق والمتعثكل : المتداخل لكثرته ٠

(★) نهاية الصفحة «١٠٦» من النص الانكليزى ٠

كِـــلانا اذا مـا نـال شـــيئاً أفاتـــه

ومن يحترث حرثي وحرثك يَهْزُلِ (١٥٩)

وقد وصفت صفات فرسه السامية ومقدرتها فى الصيد وتختم المعلقة بصورة فخمة للرعد بين تلال نجد •

طـــرفـــة :

كان طرفة بن العبد من قبيلة بكر العظيمة ، وكان الفخذ الذى ينتمي اليه قد استقر فى البحرين على الخليج العربي ، وقد ظهر نبوغه في الهجاء مبكراً فمارسه مع الصديق والعدو بلا تمييز ، وبعد أن بدد إرثاً فى مـلاذ عابثة تحامته اسرته « كالبعير المعبّد » وأخيراً اصطلح معهم ووعد باصلاح أساليبه وعاد الى قومه وقيل إنه اشترك فى « حرب البسوس » ، ولم يطل الامر حتى تبدد ما كان لديه من مال ثانية وبلغ به الامر أن جعل يرعى قطيع أخيه ، واجتذبت معلقته التي نظمها فى هذه الفترة أحد ذوي قرباه الاغنياء فعاد الى استقلاله موقتاً ، وعندما عقد الصلح بين بكر وتغلب لفت الشاعر الشاب بصره صوب الحيرة حيث كان عمرو بن هند قد ارتقى العرش مؤخراً (٥٥٤م) فأحسن الملك استقباله وألحقه مع خاله الشاعر المتلمس بخدمة ولي العهد غير ان لسان « طرفة » الحاد كان قد قيض له ان يكلفه غالياً ، إذ شعر بالتعب والامتعاض من شكليات البلاط الصلبة فارتجل أُهجية يقول فيها [من الوافر] :

---

(١٥٩) أفاته : أتلفه ، من الفوت ، « ومن يحترث حرثي وحرثك » أى من يفعل فعلي وفعلك » [راجع محمد أبو الفضل ابراهيم : ديوان امرىء القيس ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ ، ص ٣٧٢] (المترجم)

لعل الشراح العرب على حق حين ينسبون هذا البيت والابيات الثلاثة السابقة له (٤٨ ــ ٥١ فى طبعة ارنولد) الى الشاعر الصعلوك تأبط شرا • [المؤلف]

وليت لنا مكان الملك عمرو   رغوثا[١٦٠] حول قبتنا تخور[١٦١]

وعقيب ذلك حدث أن جلس قبالة اخت الملك على مائدة واحدة فهتف وقد أُخِذَ بجمالها★ [من الهزج]

ألا يا ثانيَ الظبي الـ   ـلذي يبرق شنفاه[١٦٢]
ولولا المَلِكُ القاعِـ   ـدُ قد ألثمني فاهُ

وكان عمرو بن هند ذا مزاج عنيف لا يلين ، وقد بلغه هجاء طرفه وأضافت وقاحته الجديدة وقوداً لغضبه فأرسل فى طلب طرفة والمتلمس ومنحهما إذناً بزيارة بلدهما ، وزوّد كلاً منهما بكتاب مختوم موجه الى عامل البحرين ، وعندما خرجا من المدينة هاجت شكوك المتلمس ؛ ولما لم يكن هو ولا رفيقه يحسن القراءة ، ناول كتابه لاحد صبيان الحيرة[١٦٣] فعلم ان فيه أمراً بدفنه حياً فرمى بالرسالة الغادرة فى جدول ماء ورجا طرفة أن يفعل نفس الشيء ، ولكن طرفة رفض ان يفض الختم الملكي وأستأنف رحلته الى البحرين حيث قذف به فى السجن وأُعدم .

هكذا هلك طرفة العاطفي البليغ شقياً في زهرة شبابه ـ ولم يكد يبلغ العشرين على بعض الروايات ـ وقد رسم فى معلقته صورة حية لنفسه ؛ وأبرز مظهر للقصيدة ، بصرف النظر عن وصف طويل (وبالنسبة لنا نحن الحضر ممل بشكل مؤلم) للجمل ، هو حثُّه على المتعة الحسّية كغاية

---

(١٦٠) الرغوث : النعجة المرضع .

(١٦١) تخور : تثغي .

(★) نهاية الصفحة «١٠٧» من النص الانكليزى .

(١٦٢) الشنفان مفردهما شنف : ما علق فى الاذن أو أعلاها من الحلي .

(١٦٣) لقد أشرنا مقدما (ص ٣٩ من الطبعة الانكليزية = ص ٨٢ من الترجمة العربية) الى ثقافة عرب الحيرة المسيحيين.

وحيدة للحياة [من الطويل] :

أَلاَ ايُّهــذا اللائمي احضُـرَ الوغــى(١٦٤)
وأن أشهَدَ اللذات ، هل أنت مخلدي ؟(١٦٥)

فإنْ كُنتَ لا تسـطيـع دفــع منيتـي
فـدعني ابادرهـا بمـا ملـكت يـدي(١٦٦)

ولـــولا ثـلاثٌ هــن مـــن عيشـــة الفتـى
وجـدِّكَ لـم أَحفِلْ متى قـام عُوَّدي(١٦٧)

فَمِنْهُنَّ ســبقي العـــاذلاتِ بشَـرْبَةٍ
كُمَيْتٍ متى مـا تُعْلَ بالمـاءِ تُزْبِـدِ(١٦٨)

---

(١٦٤) الوغى : أصله صوت الابطال في الحرب ثم جعل اسمـاً للحرب .

(١٦٥) الخلود : البقاء ، والفعل خَلَدَ يخلُدُ ، والاخلاد والتخليد : الابقاء . يقول الا أيها الانسان الذى يلومنى على حضور الحرب وحضور اللذات ، هل تخلدني ان كففت عنهما ؟ ويلاحظ ان الفعل أحضُرَ منصوب بـ (أن) محذوفة ، وهو من شواهد (أن) في النحو .

(١٦٦) اسطاع يسطيع : لغة في استطاع. يقول فان كنت لا تستطيع أن تدفع الموت عني فدعنى ابادر الموت بانفاق أملاكي ، يريد ان الموت لابد منه فلا معنى للبخل بالمال وترك الملذات .

(١٦٧) الجَد : الحظ والبخت ، والجمع جُدود ، وقوله : وجدِّك قسم . أحفل ابالي والعوَّد جمع عائد من العيادة . يقول : فلولا حبي ثلاث خصال هن من لذة الفتى الكريم لم ابال متى قام عوَّدي من عندى آيسين من حياتي ، أى لم ابال متى مت .

(١٦٨) يقول : احدى تلك الخلال انى أسبق العواذل بشربة خمر كميت اللون أى حمراء غامقة متى صب الماء ازبدت [وهنا نهاية الصفحة «١٠٨» من النص الانكليزى] .

وكَرّي إذا نادى المُضافُ مُحنَّباً
كسِيدِ الغضا ، نَبَّهتَهُ ، المتوردِ (١٦٩)
وتقصيرُ يومِ الدَّجنِ ، والدَّجنُ مُعْجِبٌ
بِبَهكَنَةٍ تحتَ الطِّرافِ المُعَمَّدِ (١٧٠)

علينا الآن ، ونحن نحاول المحافظة على التسلسل التاريخي ، ان نذكر معلقتين ولو أنهما ليستا متصلتين ببعضهما البعض اتصالاً مباشراً (١٧١) فهما

---

(١٦٩) الكر : العطف والكرور الانعطاف • المضاف : الخائف والمذعور والمضاف : الملجأ • المحنب : الذى فى يده انحناء • السيد : الذئب والجمع السيدان • الغضا : الشجر وسيد الغضا أخبث أنواع الذئاب يقول : والخصلة الثانية عطفي اذا ناداني الملجأ اليّ والخائف مستغيثاً أياي فرساً فى يده انحناء يسرع فى عدوه اسراع ذئب يسكن فيما بين الغضا اذا نبهته وهو يريد الماء ، جعل الخصلة الثانية اغاثة المستغيث واعانته اللاجىء اليه ، فقال : اعطف في اغاثته فرسي الذى فى يده انحناء وهو محمود فى الفرس اذا لم يفرط ، ثم شبه فرسه بذئب اجتمع له ثلاث خلال ، احداها كونه فيما بين الغضا ، والثانية اثارة الانسان اياه ، والثالثة وروده الماء وهما يزيدان فى شدة العَدْو •

(١٧٠) الدجن : الغيم • البهكنة : المرأة الحسنة الخلق السمينة الناعمة • المعمد المرفوع بالعمد • يقول : والخصلة الثالثة انى أقصراليوم الغائم بالتمتع بامرأة ناعمة حسنة الخلق تحت بيت مرفوع بالعمد ، وقوله: والدجن معجب أى يعجب الانسان •

[الابيات ٥٤ ـ ٥٩ (لايل) ؛ ٥٦ ـ ٦١ (أرنولد) «المؤلف»]

تجد الابيات كذلك فى ديوان طرفة بن العبد (مكتبة صادر ، بيروت، ١٩٥٣) تحقيق وشرح كرم البستاني ، ص ٤٢ ـ ٤٤ [المترجم]

(١٧١) راجع نولدكه: المعلقات الخمس ، جا ص ٥١ وما يليها ، وعلى ما تقول الرواية التقليدية (الاغاني ، ١٧٩/٩) ان ركبا من بني تغلب ذهبوا فى غزوة (هكذا يقول نكلسن فى حين ان صاحب الاغاني الذى نقل عنه يقول انهم ذهبوا فى أمر من امور النعمان بن المنذر) فضلّو الطريق فى المفازة فمات القوم عطشا بعد أن رفض جماعة من بني بكر أن يقدموا لهم ماءً (هنا أيضا تختلف رواية الاغانى عن ترجمة نكلسن : فالنص العربي

من فترة واحدة ـ عهد عمرو بن هند ، ملك الحيرة (٥٥٤ ـ ٥٦٨م) والى ذلك فان تشابههما القوى المشترك واختلافهما عن المعلقات الاخرى ولا سيما عن القصائد النموذجية كقصيدتي عنترة ولبيد سبب آخر لربطهما معاً ، وميزتهما البارزة القدر الفاحش المخصص للموضوع الرئيس ، مما يترك مكاناً ضئيلاً للدوافع الثانوية •

عمـرو بن كلثـوم :

كان عمرو بن كلثوم من قبيلة تغلب وأمّه ليلى بنت الشاعر الفارس المشهور المهلهل ؛ وكانت امرأة بطولية المزاج ويبدو ذلك من هذه القصة التي تسجل عملاً انتقامياً سريعاً من جانب عمرو مما استحدث المثل القائل : « أشجع من عمرو بن كلثوم »(١٧٢) :

قال عمرو بن هند ذات يوم لندمائه : هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة امي ؟ فقالوا : نعم ! أم عمرو بن كلثوم • قال : ولم ؟(★) قالوا : لان أباها مهلهلُ بنُ ربيعة ، وعمها كليب وائل أعز العرب ، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو وهو سيد قومه ؛ فأرسل عمرو ابن هند الى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمّه ؛ فأقبل عمرو من الجزيرة الى الحيرة فى جماعة بني تغلب ، وأقبلت ليلى بنت مهلهل فى ظُعُنٍ من بني تغلب ، وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة

يقول : فنزلوا بالطرفة وهى لبنى شيبان وتيم اللات ، فذكروا انهم اجلوهم عن الماء وحملوهم على المفازة، فمات القوم عطشا) فلما بلغ ذلك بني تغلب غضبوا وأتوا عمرو بن هند فاستعدوه على بكر ، ليجبرهم على دفع الدية التى طالبوا بها واختاروا عمرو بن كلثوم ليدافع عن قضيتهم فى الحيرة فأنشد عمرو معلقته بين يدى الملك فرد عليه الحارث مناصرا بنى بكر •

(١٧٢) فريتاغ : الامثال العربية ، ج ٢ ص ٢٣٣ •

(★) نهاية الصفحة «١٠٩» من النص الانكليزى •

والفرات ، وأرسل الى وجوه أهل مملكته فحضروا فى وجوه بني تغلب ، فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند فى رُواقه ، ودخلت ليلى وهند فى قبة من جانب الرّواق ، وكانت هند عمة امرىء القيس بن حُجر الشاعر ، وكانت ام ليلى بنت مهلهل بنت أخى فاطمة بنت ربيعة التي هي أم امرىء القيس ، وبينهما هذا النسب ؟ وقد كان عمرو بن هند أمر امه أن تنحّي الخدم اذا دعا بالطُّرَف وتستخدم ليلى ، فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالطرف فقالت هند : ناوليني يا ليلى ذلك الطبق ؟ فقالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ، فأعادتها عليها وألحت ، فصاحت ليلى : « وا ذلاه ! يا لتغلب ! » فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه ، ونظر اليه عمرو ابن هند فعرف الشر في وجهه ، فوثب عمرو بن كلثوم الى سيف لعمرو ابن هند معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره ، فضرب به رأس عمرو بن هند .(١٧٣)

معلقة عمرو من صنع رجل جمع فى شخصه صفات الرجولة المثلى كما كان يفهمها شعب لم يخفق فى تقييم عرض العمل المعتمد على ذاته والطاقة الحاسمة حتى بأسمى الدرجات واذا كانت هذه الفضائل قد عرضت في معلقة عمرو بمباهاة مبالغٍ فيها تجرح شعورنا بالحياء والتحفظ اللائق ، فمن الخطأ الفاضح أن نستنتج ان كل هذه الجلبة والغضب لا يدل على شيء . فالشاعر البدوي يرى من واجبه الحتمي ان يمجد الى أقصى حد نفسه واسرته وعشيرته والمحارب البدوي لا يمل من اعلان شجاعته التي لا تزعزع وسرد انجازات سلاحه اللامعة ، ويتهدد ويتوعد بنفس اللهجة ولكن ذلك لا يستتبع انه (مايلز غلوريوسز) فعمرو لم يكن كذلك بالتأكيد ومعلقته تترك انطباعاً حياً لقوة واعية سامية ويبدو أن الابيات

---

(١٧٣) الاغاني : ٩/١٨٢ .

الثمانية الاولى(★) قد اضيفت الىالقصيدة في تاريخ مبكر جداً فمنها ظهرت الاسطورة القائلة بان عمراً قتل نفسه سكراً بشراب صرف ومن المحتمل انها ادمجت في المجموعة الاصلية للمعلقات وجدير بنا ان نترجمها الى الانكليزية لذاتها ، وهي [من الوافر] :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا
ولا تُبقي خمورَ الاندرينا(١٧٤)
مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فيها
إذا مَا الْمَاءُ خالطها سَخِينَا(١٧٥)
تجورُ بذى اللبانةِ عن هواهُ
اذا ما ذاقها حتى يلينا(١٧٦)
ترى اللَّحِزَ الشحيحَ اذا أُمِرَّتْ
عليه لِمَالِهِ فيها مُهينا(١٧٧)

(★) نهاية الصفحة «١١٠» من النص الانكليزى .

(١٧٤) هبي : استيقظي من نومك (الصحن) القدح الضخم (اصبحينا) اسقينا الصبوح وهو شرب أول النهار (الاندرينا) قيل هي قرية بالشام وقيل انها قرية بجنوبي حلب .

(١٧٥) (مشعشعةً) ممزوجة بالماء (الحُصّ) الزعفران أو الوَرْس (سخينا) ان كان اسما فهو بمعنى مسخناً ونصبه على الحال من ضمير خالط العائد الى الماء والمعنى : اسقينا خمرا ممزوجة بالماء كأنها — وقد خالطها الماء الساخن — مزجت بالزعفران لاصفرار لونها ؛ وان كان (سخينا) فعلاً ماضيا من السخاء و (نا) فاعله فالمعنى : اذا مزجت بالماء وروّت عروقنا نجود عند ذلك ويشتد كرمنا ؛ ونصبت (مشعشعةً) أما على انها مفعول ثان (لأصبحي) لان معناها اسقى وأما على الحال من (خمور) .

(١٧٦) تجور : تميل (اللبانة) الحاجة .

(١٧٧) اللحز : البخيل الضيق الخلق (الشحيح) البخيل مع حرص والحريص (امرّتْ) اديرت على القوم [راجع ، مصطفى الغلاييني : رجال المعلقات العشر ، ص ٢٠٣ «المترجم»]

صــــددتِ الـكـأس عنـــا ام عمـروٍ
وكان الـكأسُ مجراهـا اليمينـا[178]

ومـا شــرُّ الثـــلاثة أُمَّ عمـــروٍ
بصـاحبـك الــذي لا تصبحينـا[179]

وكـأس قـــد شــربتُ ببعلبـــكٍ
واخـــرى فى دمشـقَ وقاصرينـا[180]

وإنّـا ســـوف تدركنـــا المنـــايا
مقـــدَّرَةً لنــــا ومُقـدَّرينَا[181]

وفى المقطع التالي يصف حزنه على رحيل حبيبته التي يراهـا بعين خياله بالغة نهاية رحلتها فى بلاد اليمامة النائية :

تـــذكرت الصبـــا واشـــتقت لمّـــا
رأيتُ حُمولهـا أُصُـلاً حُدينـا[182]

وأعـرضـتِ اليمامـــة واشـمخرّت
كـأسـيافٍ بـأيـــدي مصلتينـــا[183]

فمـا وجـــد ت كوجـــدِ يُ أمُّ ثقبٍ
أَضـلَّتْـهُ فرجّعتِ الحنينـا[184]

---

(١٧٨) صددتِ أي صرفت ·
(١٧٩) أى لست أنا شر الثلاثة فتعدل عنى الكأس ·
(١٨٠) بعلبك ودمشق وقاصرين أسماء مواضع فى بلاد الشام ·
(١٨١) الابيات ١ – ٨ (ارنولد) وفى طبعة لايل حذف البيت ما قبل الاخير (المؤلف) [راجع كذلك « جواهر الادب » لاحمد الهاشمي ج ٢ ص ٦١ (المترجم)] ·
(١٨٢) أصلا : أصيل وهو العشي ·
(١٨٣) أعرضت : قابلت · اشمخرت : ارتفعت · مصلت : مجرد ·
(١٨٤) ام ثقب : الناقة ·

ولا شمطاءُ لم يترك شقاها

لها من تسعةٍ الا جنينا(١٨٥)

والآن يلتفت الشاعر فجأة الى موضوعه الرئيس فيخاطب(★) عمرو بن هند ، ملك الحيرة ، بتحدٍ وينذر اعداء تغلب بأنهم سيقابلون من هو أكثر من كفءٍ لهم:ـ

ابا هندٍ(١٨٦) فلا تعجل علينا — وأَنظرنا نخبرك اليقينا(١٨٧)

بأنا نورد الرايات بيضاً — ونصدرهن حمراً قد روينا(١٨٨)

وسيدِ معشرٍ قد توجوهُ — بتاج الملك يحمي المحجرينا(١٨٩)

تركنا الخيل عاكفة عليه — مُقلدةً أعنتها صفونا(١٩٠)

وقد هرّتْ كلابُ الحيّ منا — وشذبنا قتادةً من يلينا(١٩١)

متى ننقل الى قومٍ رحانا — يكونوا فى اللقاء لها طحينا(١٩٢)

---

(١٨٥) شقاها : شؤمها ٠

الأبيات ١٥ ـ ١٨ (لايل) ؛ ١٩ ـ ٢٢ (ارنولد) «المؤلف»

[يراجع كذلك أحمد الهاشمي : جواهر الادب ، جـ٢ ص٦٢ «المترجم»]

(★) نهاية الصفحة «١١١» من النص الانكليزى ٠

(١٨٦) يستعمل العرب « الكنية » للدلالة على اسلوب ألفة فى الخطاب حيث الرجل لا يُدعى باسمه بل بكنيته فيقال « يا أبا فلان » (اما أن يكون أبنا أو بنتا كما فى المثال الذى بين أيدينا) «المؤلف» والعرب لا تتكنى بالبنت ولعل الشاعر كناه بابنته من باب الاحتقار « المترجم »

(١٨٧) انظرنا : أمهلنا ٠

(١٨٨) كناية عن بأسهم فى الحرب ٠

(١٨٩) المحجرون : الخارجون على القانون ٠

(١٩٠) صفونا : جمع صافن وهي من الخيل ٠

(١٩١) هرت : نبحت وشذبنا أى قطعنا ٠ القتادة : واحدة القتاد وهو الشوك يترجمها نكلسن : « حتى الجن تفزع منا » ٠

(١٩٢) هذا البيت هو الرابع والتسعون فى المعلقة مع ذلك فان نكلسن قد نقله الى صدر القصيدة ، وأصل الرحى ما استدار من الشيء والرحى هنا الحرب ، تشبيهاً بالرحى ٠

وَرِثْنَا المجدَ قد علِمَتْ مَعَدٌّ(١٩٣)

نطاعِنُ دونه حتى يبينا(١٩٤)

ونحن اذا عماد الحرب خرت على الاحفاض نمنع من يلينا(١٩٥)

بأي مشيئةٍ عمروَ بن هندٍ نكون لقَيْلِكُمْ فيها قَطِينا(١٩٦)

بأي مشيئةٍ عمروَ بن هندٍ ترى أنا نكون الأرذلينا ؟

بأي مشيئة عَمْرَو بنَ هنْدٍ تُطيع بنا الوشاةَ وتزدرينا(١٩٧)

وان قناتنا يا عمرو أعيتْ على الاعداء قبلك ان تلينا(١٩٨)

اذا عض الثقاف بها اشمأزَّتْ وولته عشوزنةً زبونا(١٩٩)

عشوزنة اذا غُمِزتْ أرنَّتْ تشج قفا المثقِّفِ والجبينا(٢٠٠)

وتختم المعلقة بمديح لقبيلة الشاعر ، وهو مديح رائع في اسرافه(*) :

وقد علم القبائل غير فخرٍ

اذا قُبب بأبطحها بُنينا

---

(١٩٣) تدل لفظة « معد » هنا على العرب بصورة عامة . (المؤلف)

(١٩٤) يبين : يظهر .

(١٩٥) الاحفاض : عمد الاخبية [الابيات ٢٠ ــ ٣٠ (لايل) بعد حذف الابيات ٢٢ ، ٢٧ و ٢٨ «المؤلف»] .

(١٩٦) القيل : السيد والقطين : الخدم .

(١٩٧) الازدراء : الاحتقار .

(١٩٨) هذا اسلوب مجزى للقول بأن تغلب لم تخضع (المؤلف) والقناة ههنا العزة .

(١٩٩) الثقاف : خشبة تقوم بها الرماح . اشمأزت : ارتفعت ، والعشوزنة : الشديدة الصلبة . الزبونة : الدفوع .

(٢٠٠) غمزت : أي لينت ؛ ارنت أي صوتت . تشج أي تجرح . المثقف : المصلح للرماح [الابيات : ٤٦ ــ ٥١ (لايل) بعد حذف البيت ٤٨ «المؤلف»]

(*) نهاية الصفحة «١١٢» من النص الانكليزى .

بأنـــا العاصـــمون اذا أُطعنـــــا

وأَنّـــا الغـــارمـــون اذا عُصينـــا

وانـــــا المنعِمـــون اذا قـــدرنا

وانـــــا المهلكـــون اذا أُتينـــا

وانـــا الحـاكمـون بمـا أردنـــا

وانـــــا النازلـــون بحيـث شـينا

وانـــــا التاركـــون لمـــا سخِطنا

وانـــــا الآخـــذون لمـــا هوينـــا

وانـــــا الطالبـــون اذا نقمنـــا

وانـــــا الضـاربون اذا ابتلينـــــا

وانـــــا النازلـــون بـكل ثغـــرٍ

يخـــاف النازلـــون بـــه المنـــونا[٢٠١]

ونشرب ــ ان وردنا ــ الماء صفواً

ويشـرب غـــيرنا كـــدراً وطينـــا

لنـــا الدنيـــا ومن اضـحى عليهـــا

ونبطِشُ حـــين نبطِشُ قادرينـــا

اذا بلـــغ الرضـيع لنـــا فطـــاماً

تخـــر لـــه الجبـــابرُ سـاجدينـا

نزلتـــم منـــزل الاضـياف منـــا

فاعجلنـا القِـرى انْ تشتمونا[٢٠٢]

---

(٢٠١) الثغر : المكان المخوف ٠

(٢٠٢) أى اننا سنُري أعداءنا انهم لا يستطيعون تحدينا بوقاحة وهذا البيت وهو الثالث والتسعون فى طبعة لايل محذوف عند ارنولد ٠

ملأنــا البـــر حتى ضـاق عنــا
كـــذاك البحـــر نملؤه سفينـــا[٢٠٣]

الحارث بن حلزه :

واول متعة من هذه المعلقة هي معلقة الحارث بن حلزة من بني بكر ومن المحتمل ان درجها ضمن المعلقات يرجع كما اقترح نولدكه الى حقيقة ان حمــاد نفسه كان من موالي بني بكر فأحب أن يصانع أسياده بانتخاب ما يقابل معلقة عمرو بن كلثوم التي خلدت بني تغلب منافسيهم العظام ، على ان لقصيدة الحارث اهمية تأريخية اذ تلقيضوءاً على منازعات في شمالي بلاد العرب تتعلق بالصراع بين الامبراطورية الرومانية والفارسية وغرضها الشكوى من اتهامات غير عادلة وجهها فريق من بني تغلب يعرفون بالاراقم ضد بني بكر [من الخفيف][★] :

واتـانـا من الحـــوادث والانبـــاء
خطب ، نعنـى بـــه ، ونساء[٢٠٤]
أن اخوانـنـــا الاراقـــم يغـــلو
ن علينـــا ، في قيلهـــم إحفـاء[٢٠٥]

---

(٢٠٣) الابيات ٩٤ ـ ١٠٤ (ارنولد) بعد حذف الابيات ١٠٠ و١٠١ واذا كانت الالفاظ الاخيرة أكثر من خيال شعري فالبحر هنا يجب أن يكون اشارة الى نهر الفرات ٠

(المؤلف)

(★) نهاية الصفحة «١١٣» من النص الانكليزى ٠

(٢٠٤) الخطب الامر ، صغيرا كان أو كبيرا ، وهو هنا الامر العظيم (نعنى به) نشغل به عن غيره وتصيبنا مشقة بسببه (لم يترجم نكلسن هذا البيت انما أضفناه اتماما للسياق ٠) ٠

(٢٠٥) الاراقم هم حي من تغلب (يغلون علينا) يرتفعون علينـــا (القيل) القول (احفاء) مبالغة والحاح يعني بذلك ما يشدد به بنو بكر من طلب ديات من مات منهم مع عمرو بن هند ٠

يخلطُون البريء منا بذي الذّنـ

بِ ولا ينفعُ الخليّ الخِـلاء"(٢٠٦)

زعَمـوا ان كل من ضـرب العـير

مـوالٍ لنـا وانـا الـولاء"(٢٠٧)

وثمة شخص لا يسميه الحارث كان يسوّد صفحة بني بكر امام ملك الحيرة فيخبره الشاعر بأن لا يتصور ان وشاياته سيكون لها أي أثر دائم فكثيرا ما اتُّهمت بنو بكر باطلاً من لدن أعدائها ولكنه (يضيف أخيرا) :ـ

فَبَقِينَـا عَلَى الشَّنَـاءَةِ تَنْمِينَـا

حُصُون"(٢٠٨) وعِزَّةٌ قعساء"(٢٠٩)

قبل ما اليوم بَيَّضَتْ بِعُيُونِ

النَّاسِ فيهـا تَعَيُّطٌ وإبـاء"(٢١٠)

---

(٢٠٦) قوله : « ولا ينفع الخليّ الخلاء » ، الرواية المشهورة فتح الخاء من الخلاء وهو الترك ، وروي بكسرها مأخوذ من الخـلاء في الابل بمنزلة الحران في الدواب ٠

(٢٠٧) تراجع الابيات في «شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها » للشيخ أحمد بن الامين الشنقيطي ، دار الاندلس للطباعة والنشر ، بيروت (بلا تاريخ) ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ٠

(٢٠٨) هـذه روايـة الزوزني وفي روايـة الخطيب « جُدُود » (الغلاييني : رجال المعلقات العشر ، ٢٤٣) والشناءة البغضاء ومثلهـا الشنآن (تنمينا) ترفعنا ٠

(٢٠٩) قعساء : منيعة ثابتة والمعنى : فبقينا ـ مع بغض الناس لنا وعداوتهم ـ أعزاء اولي منعة ٠

(٢١٠) قبل ما اليوم : أي قبل اليوم ومـا زائدة ، وبيضت بعيون الناس : « بيضتها » أي أعمتها والباء زائدة « والتعيط » الترفع والاباء ٠

وكأنَّ المنونَ تَردِي بنا أرعَنَ
جَوْناً ينجابُ عنه العَماءُ(٢١١)

مكفهراً على الحوادث لاتر
تُوهُ للدهر مُؤْيدٌ صَمّاءُ(٢١٢)

وهو يلتمس من مغضبيه بالا يخرقوا بحمقهم السلم الذى أنهى حرب البسوس :ـ

فاتركُوا الطَّيْخَ والتعاشي وإمّا
تَتَعَاشَوْا ففي التعاشي الدّاءُ(٢١٣)

واذكُرُوا حلفَ ذي المجَازِ (٢١٤) وما قُدِّ
مَ فيه العُهودُ والكُفَلاءُ

أيّما خُطّةٍ أردتم فأدُّو
ها إلينا ، تمشي بها الأَملاءُ(٢١٥)

---

(٢١١) تردي : ترمي وترجم والباء فى (بنا) للتجريد نظير قولهم لئن لقيت فلاناً لتلقين به الاسد « والارعن » الجبل الذى له حدود وأطراف تخرج عن معظمه ، «والجون» الاسود «وينجاب عنه» : ينشق عنه «والعماء» السحاب الابيض ٠

(٢١٢) وصف هذا الجبل بأنه مكفهر أي صلب منيع « ولا ترتوه » لا تنقصه وتنال منه « والمؤيد » الداهية « وصماء » لا تسمع اعتذارات أي ان هذا الجبل منيع على حوادث الدهر لا تنال منه الدواهي الصماء ٠
[الابيات ٢٣ ـ ٢٦ «المؤلف»] جواهو الادب : ٢/٨٤ المترجم ٠

(٢١٣) الطيخ : الكبر والعظمة (التعاشي) التجاهل والتعامي يريد التجاهل عن الحق والتعامي عن الاقرار به ؛ هذه رواية الزوزني ؛ وروى الخطيب : فاتركوا الطيخ والتعدي الخ ٠٠٠

(٢١٤) [موضع بالقرب من مكة ٠ « المؤلف »] راجع الزيات : تاريخ الادب العربي ، ص ٦٦ « المترجم » ٠

(٢١٥) قوله : تمشي بها الأملاءُ ، هذه رواية الخطيب ؛ وروى الزوزني : تَشفى بها ، ويروى : تسعى بها الأملاءُ ٠ [الأبيات : ٤٠ ـ ٤٢ (لايل) ٦٥ ـ ٦٧ (آرنولد)] ٠

عنتـرة :

برز عنترة بن شداد الذى كان والده من قبيلة عبس في حرب داحس(٢١٦) ولا يُذكر بصورة رئيسة في العصور الحديثة شاعراً بل بطل قصة ـ اخيل البدوي ؛ غير اننا لا نستطيع أن نقول عنه انه ابن إلهة(★) بأي وجه من وجوه الخيال فقد كانت امه أَمَةً سوداء ولابد انه كثيراً ما عُيّر بدمه الافريقي الذي أفصح عن نفسه بشجاعة ملتهبة أكسبته احترام العرب الأنقى منه دماً والأقل شجاعة بوجه عام ؛ وقد أحب عنترة ابنة عمه « عبلة » وتمشياً مع العادة العربية التى تمنح ابن العم الحق الاول في يد ابنة عمه تقدم للزواج منها، وعبثاً ما طلب ـ فابن العبدة عبدٌ الا اذا أعتقه أبوه ـ الى أن حدث ذات مرة ان كان العبسيّون منشغلين في معركة حامية الوطيس مع بعض الغزاة الذين استاقوا ابلهم فرفض عنترة أن يشترك في القتال قائلاً : «العبد لا يُحسن الكَرَّ انما يُحسنُ الحِلابَ والصَرَّ »(٢١٧) فصاح والده قائلاً : «كُرّ ، وأنت حرٌ » ومع ان عنترة لم ينطق بعبارة مباهاة فارغة إذ أنشد :ـ

إني امرُؤٌ من خير عبسٍ منصباً
شطري، وأحمي سائري بالمُنْصُلِ (٢١٨)

فان اشاراته الازدرائية الى « البرابرة الثرثارين » والى « العبيد المقطوعة الآذان المتجلببة بجلد الضأن » طبيعية بالنسبة لرجل ارتفع

---

(٢١٦) راجع : هـ · ثوربيكه « عنترة ، شاعر جاهلي » (بالالمانية) « لايبزغ ، ١٨٦٧ »

(★) نهاية الصفحة «١١٤» من النص الانكليزي ·

(٢١٧) الحِلاب ـ بكسر الحاء ـ مصدر حلب الشاة وغيرها ـ من باب نصر وضرب ـ ومثله فى المصدرية «الحلب» بفتح فسكون والحَلَب بفتحتين و (الصرّ) أن يُشد ضرع الناقة بالصرار لئلا يرضعها ولدها ·

(٢١٨) الغلاييني : رجال المعلقات العشر ، ص ٢١٥ ·

شأنه بالرغم من اللطخة العالقة بأصله ، ومات شيخاً في غارة على قبيلة طي المجاورة ومعلقته مشهورة لمشاهد القتال المثيرة فيها وقد ترجمت احداهـا الى الانكليزية وهي [من الكامل][(٢١٩)] :

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالكٍ
ان كنت جاهلةً بما لم تعلمي[(٢٢٠)]
يُخبرك من شَهِدَ الوقيعةَ أنني
أغشَى الوغَى ، وأعفُّ عند المغنم[(٢٢١)]
اذ لا أزال على رحالة سابحٍ
نهدٍ ، تعاوره الكماةُ مُكَلَّمِ[(٢٢٢)]
ومدججٍ كرهَ الكُماةُ نزالَهُ
لا مُمعنٍ هرباً ولا مُستَسلِمِ[(٢٢٣)]
عادت له كفّي بعاجلِ طعنةٍ
بمثقّفٍ صَدْقِ الكُعُوبِ مُقَوَّمِ[(٢٢٤)]

---

(٢١٩) لقد ترجمت هذه القطعة بشيء من التصرف كما يرى القارىء بمقارنته الابيات (٤٤و٤٧ـ٥٢ فى طبعة لايل) التي تستند اليها مع الصفحة ١١٥ ـ ١١٦ من النسخة الانكليزية . [المؤلف]

(٢٢٠) هلا سألت الخيل : أي عن وقائعي ومشاهدى .

(٢٢١) اغشى الوغى : أجيئها .

(٢٢٢) الرحالة : السرج من جلود لا خشب فيه يتخذ للركض الشديد (سابح) فرس سابح شديد الجري (النهد) الفرس الحسن الجميل المشرف ومن معانيه الاسد والكريم ينهد اليه فى معالي الامور (تعاوره الكماة) أتوه واحدا بعد آخر (مكلّم) مجرّح .
وهنا نهاية الصفحة «١٥» من النص الانكليزى .

(٢٢٣) المدجج المستتر بسلاحه (لا ممعن هربا) أى لا يترك القتال هربا منه ويقال أمعن الفرس أى تباعد فى سيره ونصب هربا على انه مفعول لاجله .

(٢٢٤) صدق الكعوب : صلبها ومستويها والكعوب عقد الانابيب .

برحيبة الفرغين يهدي جَرْسُها

بالليل مُعْتَسِّ الذئاب الضُرَّمِ (٢٢٥)

فشككت بالرمح الاصمِّ ثيابَهُ

ليس الكريم على القنا بمحرَّمِ (٢٢٦)

فتَركْتُهُ جَزَرَ السبّاعِ ينُشْنَهُ

يقضُمن حسن بنانه والمِعْصَمِ (٢٢٧)

زهـــير :

في حين ان قصيدة عنترة ترجع الى المراحل النهائية لحرب داحس فان معلقة معاصره زُهير بن أبي سُلمى من قبيلة مُزَينَة تمجد عملا كريماً شخصياً حقق عقد الصلح فبوساطةِ اتسمت بانكار الذات من جانب شيخين من ذبيان هما هَرِم بن سنان وحارث بن عوف دفعت الدية برُمتها الى العبسيّين الذين كانوا يستحقونها لسقوط العدد الاكبر من القتلى من جانبهم ، فهذه الامثولة للوطنية الكريمة التي لا مطمع لها ـ لان هرم والحارث لم يسفكا دماً ـ كانت موضوعاً ملائماً لرجل قيل عنه انه لم يمدح الرجال الا بما يستحقون :ـ(★) :ـ

---

(٢٢٥) الرحيبة : الواسعة ؛ (جرسها) الصوت و (المعْتسّ) المبتغي والطالب و (الضرم) الجياع ٠

(٢٢٦) فشككت : شققتُ (ثيابه) درعه وقيل قلبه بل قيل ما تحت ثيابه وذكر الثياب واردة ما تحتها مجاز لان الثياب تضم الجسم (القنا) الرماح ومفردها قناة و (الاصم) الصلب المتين ٠

(٢٢٧) «الجزر» الشاة المذبوحة والمعنى تركته فريسة للسباع (ينشنه) يتناولنه (القضم) الاكل أو الكسر بأطراف الاسنان (البنان) الاصابع أو أطرافها مفردها بنانة (المعصم) موضع السوار من الساعد « جواهر الادب ٢/٥٧ » ٠

(★) نهاية الصفحة «١١٦» من النص الانكليزى ٠

سعى ساعيا غيظ بن مرة[٢٢٨] بعدما

تَبَزَّلَ ما بين العشيرة بالدم

فأقسمتُ بالبيت الذى طاف حوله

رجالٌ بنوهُ من قريشٍ وجُرْهُمِ [٢٢٩]

يميناً لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُما

على كُلِّ حالٍ من سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ [٢٣٠]

تداركتما عبساً وذبيان بعدما

تَفَانَوْا ودقّوا بينهم عِطْرَ مَنْشَمِ [٢٣١]

وفي ختام مديحه يلتفت الشاعر الى العشيرتين المتصالحتين مؤخراً والى حلفائهما فيحذرهم بصورة جدية ازاء أي تفكير في الانتقام :ـ

فلا تكتُمُنَّ اللهَ ما في صُدُورِكُم

ليخفى ، ومهما يُكتم اللهُ يَعلم[٢٣٢]

---

(٢٢٨) غيظ بن مرة من ذرية ذبيان وجد هرم وحارث (المؤلف) والساعيان فى هذا الصلح هما الحارث بن عوف وهرم بن سنان ـ كما ذكرنا ـ واليهما يوجه زهير الثناء (تبزل) بمعنى تقطع • [المترجم]

(٢٢٩) البيت هو الكعبة وجرهم اسم لقوم كانوا ولاة البيت قبل قريش وأبادهم الله لبغيهم والطواف هنا بمعنى الطواف الديني فى الحج •

(٢٣٠) السحيل : الخيط المفرد غيرالمفتول والمبرم المفتول ، والسحيل هنا والمبرم كناية عن الرخاء والشدة والسهولة والصعوبة •

(٢٣١) منشم : امرأة من همدان أو من بني غدانه تبيع عطرا فاذا حاربوا اشتروا منها كافورا لموتاهم وهذا كناية عن تهيئهم للشر والحرب وهو مثل يضرب لقوم هاجت الفتنة بينهم [الابيات ١٦ـ١٩ (لايل) «المؤلف»] وكذلك جواهر الادب : ٤٨/٢ ـ ٤٩ والغلاييني : رجال المعلقات العشر ، ١٥٧ ـ ١٥٨ [المترجم] •

(٢٣٢) أي لا تكتموا الله ما تضمرونه ظانين انه يخفى عليه ، فمهما يكتم عنه يعلمه •

يؤخّر فيوضع في كتاب فَيُدَّخَر

ليوم حسابٍ أو يُعجَّل فيُنْقَمِ (٢٣٣)

وما الحرب الا ما علمتم وذُقتمو

وما هو عنها بالحديث المرجَّم (٢٣٤)

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة

وتَضْرَ اذا ضرَّيتُموها فتَضْرَمِ (٢٣٥)

فتعرُكُكم عرك الرّحى بثقالها

وتلقح كِشافاً ثم تُنْتَج فتُتْئِمِ (٢٣٦)

وبعد مقطع غامض نوعاً ما فيما يتعلق بالاعمال الفوضوية لشخص اسمه حصين بن ضمضم التي أوشكت(*) أن تشعل المعارك من جديد

---

(٢٣٣) يؤخر ما تكتمونه من الامر فيكون فى علم الله ، وهو يؤخره الى يوم الجزاء أو يعجل بالجزاء والانتقام من صاحبه .

(٢٣٤) الحديث المرجّم هو الذى لا يُوقف على حقيقته ولا تُعلم صحته . يقال رجّم بالغيب أى تكلم بما لا يعلم .

(٢٣٥) تبعثوها : تثيروها بعد أن همدت (تضر) يقال ضري الكلب بالصيد يضرى ضرى وضَراءً اذا لزمه وتعوده (ضريتموها) عودتموها أو هجتموها (تضرم) تلتهب ــ والمعنى اذا عودتم الحرب عليكم فانها تتعود فلا تقدرون بعد ذلك على التملص من عواقبها والتخلص من جرائرها .

(٢٣٦) النقال : جلد يبسط تحت الرحى عند الطحن . [الابيات ٢٧ ــ ٣١ «المؤلف»] الغلاييني : رجال المعلقات العشر ، ص ١٥٩ وجواهر الادب : جـ ٢ ص ٤٩ «المترجم»

يقول نكلسن انه ليس ثمة سبب للشك في صحة هذه القطعة التي تقدم دليلا على انتشار الافكار اليهودية والمسيحية في بلاد العرب الوثنية ويلاحظ ابن قتيبة ان هذه الابيات تدل على اعتقاد الشاعر بالبعث (كتاب الشعر والشعراء ، ص ٥٨ س ١٢) .

(*) نهاية الصفحة «١١٧» من النص الانكليزى .

يستأنف زهير الكلام ليفرض دروس السلوك العالي والخلق القويم التي يقتضيها الموقف [من الطويل] :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولاً لا أبالك يسأم (٢٣٧)

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تُمِته ومن تخطئ يُعمَّرْ فيهرم (٢٣٨)

ومن لم يصانع في امور كثيرة
يُضرَّس بأنياب ويوطأ بمنسم (٢٣٩)

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغنَ عنه ويُذْمَم (٢٤٠)

ومن يجعل المعروفَ من دون عرضه
يَفِرْهُ ومن لا يتق الشتمَ يُشتم (٢٤١)

---

(٢٣٧) تكاليف الحياة : اتعابها ومشقاتها (الحول) السنة .

(٢٣٨) المنايا ج منية وهى الموت (خبط) أى تخبط خبط عشواء وهى الناقة التى لا تبصر ليلا فهى تخبط بيديها كل شيء اذا مشت فلا تتوقى شيئا وبها يضرب المثل فى السير على غير هدى ورشد و (الهرم) أقصى الكبر .

(٢٣٩) يصانع : يجامل ويداري (يضرس) يعض بالاضراس عضاً شديداً ــ والمعنى انه يذل ويهان ويتعب (يوطأ) يُداس (المنسم) خف البعير وقيل المنسم للبعير كالظفر للانسان .

(٢٤٠) الفضل : الزيادة وأراد به الزيادة فى المال .

(٢٤١) يَفِرْهُ : يحفظه واصل معنى الوفر الزيادة والكثرة يقال وفر المال يفرُ وفراً ووفوراً اذا كثر واتسع (ومن لا يتق الشتم) أى من لا يتحفظ منه والتحفظ منه بأن لا يفعل ما يوجبه .

ومن لم يذُدْ عن حوضه بسلاحه
يُهدَّمْ ومن لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمَ (٢٤٢)

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
وان يرقَ أسباب السماء بسُلَّمِ (٢٤٣)

ومن يعصِ أطراف الزِّجاجِ فانَّهُ
يطيعُ العوالي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ (٢٤٤)

ومَنْ يوفِ لا يُذْمَمْ، ومن يُهْدَ قلبه
الى مُطْمَئِنِّ البِرِّ لا يتجمجَمِ (٢٤٥)

ومن يغترب يحسِبْ عدواً صديقَه
ومن لا يكرِّمْ نفسه لا يُكرَّمِ (٢٤٦)

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وان خالها تخفى على الناس تُعلمِ (٢٤٧)

---

(٢٤٢) يذد : يدفع ، يريد أنه من طمع الناس أن يبطشوا بالضعيف وان يظلموا من لا يقدر على الظلم يعني من لم يدفع الظلم بمثله يظلم ·

(٢٤٣) يقول : ان من خاف من أسباب الموت فالموت لابد ملاقيه ولو صعّد فى السماء ·

(٢٤٤) الزّجاج : أسفل الرمح والعوالي جمع عاليه وهى أعلاه (اللهذم) السنا الطويل والمعنى من عصى زجاج الرمح وهي لا تقتل اطاع عواليه وهي قتاله أى من لم يطع باللين أطاع بالشدة ·

(٢٤٥) لا يتجمجم : لا يحجم ولا يتأخر ؛ يقال تجمجم عن الامر اذا لم يقدم عليه · [ترتيب الابيات فى طبعة لايل هو كما يأتي : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٤ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٣ ، ٤٩ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٨ «المؤلف»]

(٢٤٦) من يغترب عن بلاده وأهله ويقم فيمن لا يعرف أخلاقهم وعاداتهم يلتبس عليه الامر فلا يفرق بين الناس فيحسب صديقه عدواً ومبغضه محبا ·

(٢٤٧) الخليقة : السجية والطبيعة (خالها) ظنها ·

وتنسجم حكمة شعر زهير المختصرة المفيدة وجديته الخلقية مع ما قيل(*) أعلاه فيما يتعلق بأفكاره الدينية ، ومن وجهة نظر اخرى ، مع التقليد الذى سار عليه ، وهو أن ينظم القصيدة فى أربعة أشهر وينقحها فى أربعة أشهر ، ويعرضها على أصحابه من الشعراء لاربعة أشهر ولا يشهرها حتى يأتي عليها حول كامل .

وليس لدينا عن حياته الا الشيء اليسير ولعله توفي قبل الاسلام ، ولو انه قد روي عنه انه قابل الرسول (ص) عندما بلغ المائة فصاح عليه السلام عندما رآه : « اللهم قِنِي من شيطانه »(٢٤٨) . والموهبة الشعرية التى ورثها من خاله « بشامه » أورثها ولده « كعب » صاحب قصيدة : « بانت سُعاد » المشهورة .

لبيد :

ولد لبيد بن ربيعة من بني عامر بن صعصعة في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد وقيل اِنه توفي بُعيد مبايعة معاوية بالخلافة سنة ٤١هـ/٦٦١م فهو أصغر الشعراء السبعة ، وباعتناقه الاسلام تخلى عن الشعر قائلاً : « أبدلني الله القرآن مكان الشعر » وكان كزهير ذا اتجاه ديني قوي ، حتى في أيام وثنيته كما يرى في مقاطع عديدة من ديوانه .

لقد كان لبيد بدوياً حقاً ، ويجب أن نعتبر معلقته بصورها الطريفة الساحرة عن حياة الصحراء ومشاهدها واحدة من أجود الامثلة للقصيدة الجاهلية التي وصلتنا . ويدين الشاعر ببعض الشيء لاسلافه ولكن يبدو

(*) نهاية الصفحة «١١٨» من النص الانكليزي .

(٢٤٨) لقد اشير أعلاه الى العقيدة العربية القديمة بأن الشعراء مدينون بوحيهم « للجن » الذين يسمون أحيانا (بالشياطين) راجع كولدتزيهر : دراسات فى اللغة العربية (بالالمانية) ج ١ ص ١ ــ ١٤

ان القسم الاعظم قد استُمِدَّ من ملاحظاته الشخصية ، ويبدأ بالاسلوب التقليدي بوصف بقايا مضارب فخذ القبيلة التي تنتمي اليها الحبيبة تلك التي لا تكاد تشخص [من الكامل] :ـ

عفتِ الدِّيارُ مَحِلُّها فمقامُها
بِمِنىً تأبَّدَ غَوْلُها فرِجامُها(٢٤٩)

فمدافِعُ الرَّيانِ عُرِّيَ رَسْمُها
خَلَقاً،كما ضَمِنَ الوُحيَّ سِلامُها(٢٥٠)

دِمَنٌ تجرَّم بعد عهد أنيسها
حججٌ خلونَ ، حلالها وحرامُها(٢٥١)

رُزقت مرابيعَ النجومِ وصابها
وَدْقُ الرَّواعِد جودها فَرِهامُها(٢٥٢)

من كل سارية وغادٍ مدجنٍ
وعشية متجاوب اِرزامُها(٢٥٣)

---

(٢٤٩) عفت أى اندرست وامّحت و (المحل) هنا بدل من الديار (مِنى) اسم موضع غير الذى قرب مكة والجار والمجرور حال من الديار (تأبد) : توحّش (الغول والرجام) اسمان لموضعين [وهنا نهاية الصفحة ١١٩ من النص الانكليزي] .

(٢٥٠) المدافع ، جمع مدفع وهو مجرى الماء (الريان) اسم لجبل (عُرّي) تجرد (الوُحِيّ) جمع وَحْيٍ وهو الكتابة (السِلام) الحجارة ومفردها سَلِمَه .

(٢٥١) تجرم الشيء : انقضى بحيث لا يبقى منه شيء .

(٢٥٢) المرابيع أوائل الامطار فى الربيع (النجوم) الانواء و (صابها) : مطرها و (الودق) المطر و (جوده) غزيره و (رهامه) لينه وصغيره .

(٥٢٣) الساريه : السحابة و (غادٍ) يسير بالغداة و (مدجن) مظلم و (الارزام) صوت الرعد .

فعلا فرُوعُ الايهُقان وأطفلت

بالجلهتين ظباؤها ونعامُها(٢٥٤)

والعينُ ساكنةٌ على أَطلائها

عوذاً تأجّل بالفضاءِ بهامُها(٢٥٥)

وجلا السيول عن الطلول كأنها

زُبرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها(٢٥٦)

أو رجعُ واشمةٍ أسفّ نَؤُورها

كففاً تعرض فوقهن وشامُها(٢٥٧)

فوقفتُ أسألها وكيف سُؤالُنا

صُمّاً خوالد ما يبين كلامُها(٢٥٨)

ويطلب الشاعر من نفسه بعد البكاء على رحيل حبيبته الا يعود الى التفكير فيها ويرحل على عجل بعيداً عن الموضع وينبغي له بطبيعة الحال أن يمتدح جمله فيقدم بطريق المقارنة صورتين رائعتين لحياة الحيوان يصف في الاولى الحمار الوحشي وهو في حالة سباق بأقصى سرعته على مؤخرة التلال عندما يدفع به الظمأ والجوع مع اناثه بعيداً عن الوحدة الجرداء التي يأويان اليها عادة ، والصورة الثانية ترسم لنا بقرة وحشية

---

(٢٥٤) الايهقان : نبت" وهو جرجير البر (أطفلت) : أصبحت ذات أطفال (الجلهتان) : الجهتان •

(٢٥٥) العين : البقرة و (أطلاؤها) أولادها و (العوذ) حديثه النتاج لان ولدها يعوذ بها (تأجل) تجمع •

(٢٥٦) يريد أن السيول كشفت عن الطلول فظهرت كالكتب تجدد ظهورها الاقلام وقد استجاد الفرزدق هذا البيت حتى قيل انه سجد حينما سمعه •

(٢٥٧) الواشمة من تحلي الأيدى بالوشم •

(٢٥٨) الخوالد : البواقي (ما يبين) : لا يظهر [الابيات ١ ــ ١٠ (لايل) بحذف البيت الخامس « المؤلف »] •

افترس عجلها الذئاب ، راقدة بين تلاع الرمل في ليلة لا ينقطع مطرها ؟ وعند الفجر « بكرت تزل عن الثرى أزلامُها »(٢٥٩) ولاسبوع كامل تركض جيئة وذهوباً ، باحثة عن عجلها بلهفة ، فتسمع فجأة أصوات الصيادين يتقدمون فتهرُب مرتاعة ويطلق الصيادون كلابهم لانهم لا يستطيعون أن يقتربوا منها قيد غلوة ، فتكر عليهم مستميتة فتجرح أحدهم وتقتل الآخر بقرنها الشبيه بالابرة .

وبعد أن يخاطب حبيبته مرة اخرى ، يتحدث الشاعر مرتاحا عن قسطه في القصف والمرح اللذين يفخر بهما العربي النبيل لا أقل من شجاعته(*) :ـ

أَوَ لَمْ تكُنْ تَدْرِي «نَوارُ» بأَنني
وصَّالُ عَقْدِ حبائلٍ جَذَّامُها(٢٦٠)
ترّاكُ أمكنةٍ إذا لم أَرْضَهـا
أوْ يرتبط بعضَ النفُوسِ حمامُها(٢٦١)
بَلْ أَنتِ لا تدرينَ كَمْ من ليلةٍ
طَلْقٍ لذيذٍ لَهْوُهَا و ندَامُها(٢٦٢)

---

(٢٥٩) بكرت : غدت بكرة (تزل) ، تسرع (الثرى) : التراب (ازلامها) : قوائمها .

(*) نهاية الصفحة ١٢٠ من النص الانكليزى .

(٢٦٠) نوار : مبنية على الكسر ومحلها الرفع لانها فاعل تدرى (بانني) الباء حرف جر زائد للتوكيد وليست باء التعدية لان «درى» يتعدى بنفسه . (الحبائل) جمع حباله وهى المصيدة والمراد بها هنا المودة والمحبة مجازا لان الحب مصيدة يصاد بها العاشق (الجذام) مبالغة اسم فاعل من الجذم وهو القطع .

(٢٦١) فى رواية اخرى يعتقي أى يحبس أو يأتي ويروى كذلك يعتلق أى يتعلق وأراد بالبعض نفسه .

(٢٦٢) الليلة الطلق هي التى لا برد فيها ولا ريح ولا مطر .

قَدْ بِتُّ سَامِرَها وغاية تاجرٍ
وافيتُ إذ رُفِعَتْ وَعَزَّ مُدامُها[٢٦٣]

أُغلي السِّباء بكلِّ أدكن عاتقٍ
او جونة قدحت وفض ختامها[٢٦٤]

بصبوحِ صافيةٍ وجذب كرينةٍ
بموتَّرٍ تأتالُه إبهامُها[٢٦٥]

ويستمر يباهي بخدماته الخطرة جاسوساً في بلاد العدو عندما كان يراقب طوال النهار على قمة منحدر صخري ، وبسلوكه الذى لا يعرف الخوف وتأكيده المترفع لحقوقه في مجتمع في الحيرة حيث انضم اليه مندوباً ، وكرمه وسخائه تجاه الفقير ؛ وقد خصصت الابيات الختامية ، حسب العادة ، لامور ذات متعة مباشرة ولاطراء على فضائل أفراد عشيرة الشاعر .

ويمكننا أن نذكر بالاضافة الى أصحاب المعلقات ثلاثة شعراء الاول والثاني منهما قد اعترف بهما بالاجماع على انهما من أعاظم الشعراء الذين انجبتهم بلاد العرب ـ النابغة والاعشى وعلقمة .

نابغة ذبيان :

عاش النابغة[٢٦٦] ـ واسمه زياد بن معاوية من بني ذبيان ـ في بلاط

---

(٢٦٣) الغاية : الراية وأراد بها راية الخمار التى ينصبها على حانوته ليهتدى اليه و (عزّ) غلا وارتفع .
(٢٦٤) السباء : شراء الخمر ، و (جونة) سوداء و (الادكن) الزق (قدحت) غُرف منها ومزجت أو بزلت .
(٢٦٥) الابيات ٥٥ ـ ٦٠ (لايل) .
(٢٦٦) ان لفظة النابغة تطلق على الشاعر الذى تبطىء عبقريته فى الافصاح عن ذاتها لكنها تنطلق ـ حين تفعل ذلك ـ بقوة ووفرة » (مادة نَبَغَ) « المؤلف »

غسان والحيرة خلال النصف الثاني من القرن الذى سبق الاسلام ؛ وحاميه الاصلي النعمان بن المنذر أبو قابوس ملك الحيرة ولسنوات عديدة استمتع بالطاف الشمس الملكية ، متنعماً بكل امتياز أغدقه النعمان على أقرب أصدقائه اليه ، وقد روي حادث انفصالهما عن بعضهما بروايات مختلفة فحدى هذه الروايات تقول ان الشاعر وصف مفاتن(★) الملكة المتجرده وكان الملك قد طلب اليه أن يمجدها ، ففعل ذلك بحيوية وسحر بحيث أثار شكوك زوجها ، ولكنه يقال ـ وكلمات النابغة تجعل ذلك محتملا ـ ان أعداءه وشوا به قائلين إنه ناظم هجاء بذيء في النعمان ، وكانوا نحلوه اياه هم أنفسهم ؛ على كل حال لم يكن خيار سوى أن يترك الحيرة بأقصى سرعة وقبل مضي طويل وقت نجده في بلاط غسان قد احتفى به وكرّم ، مدّاحاً للملك عمرو بن الحارث وآل جفنة النبلاء ، ولكن قلبه كان لا يزال في الحيرة ؛ ولم يفتأ ، بعد أن جرح جرحاً عميقاً بالوشايات التي كان ضحيتها ، يؤكد براءته ؛ بَرِماً بشقاء المنفى؛ وهذه القصيدة التي خاطب بها النعمان هي اعتذار وطلب للصفح في الوقت ذاته(٢٦٧) :ـ

أتاني ، أَبَيْتَ اللعنَ ، أنك لُمْتَني

وتلك التي أهتمُّ منها وأَنْصَبُ(٢٦٨)

(★) نهاية الصفحة : «١٢١» من النص الانكليزى .

(٢٦٧) الديوان ، طبعة ديرنبرغ ، ص ٨٣ ؛ نولدكه ، منتخبات ، ص ٩٦ ، ديوان النابغة الذبياني، طبعة المكتبة الاهلية فيبيروت (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م) ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢٦٨) ابيت اللعن : أي أبيت أن تأتي أمرا تلعن عليه (تلك) : أي تلك الملامة التي صيرتني مهتماً (انصب) اعيى بعد مشقة .

فَبِتُّ كأنَّ العائداتِ فرشنَ لي
هُراساً يُعلّى فراشي ويُقشَبُ(٢٦٩)
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء اللهِ للمرء مذهبُ
لئن كُنتَ قد بُلغتَ عني خيانةً
لمُبلغكَ الواشي أغشُّ واكذبُ
ولكنني كنتُ امرأً لي جانبٌ
من الارض فيه مستراد ومذهب(٢٧٠)
ملوكٌ واخوانٌ إذا ما أتيتُهم
أحكَّمُ في أموالهم وأُقرَّبُ(٢٧١)
كفعلِكَ في قوم أراك اصطنعتهم
فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا(٢٧٢)
فلا تتركنّي بالوعيد كأنّني
الى الناس مطليٌّ به القار أجربُ(٢٧٣)

---

(٢٦٩) العائدات : الزائرات من النساء فى المرض ، (فرشن) : بسطن (الهراس) : نبت له شوك كثير (يقشب) يخلط ويجدد ٠

(٢٧٠) لى جانب : أي متسع من الارض (فيه مستراد) أي اقبال وادبار ٠

(٢٧١) قوله : ملوك واخوان يعني الغسانيين ٠

(٢٧٢) يقول : اجعلني كأقوام صاروا اليك وكانوا مع غيرك فاصطنعتهم وأحسنت اليهم ولم ترهم مذنبين اذ فارقوا من كانوا معه فأنا مثلهم صرت عنك الى غيرك فاصطنعنى فلا ترني مذنباً في شكرهم ان لم تر اولئك مذنبين فى شكرك وذلك اشارة الى الاصطناع ٠

(٢٧٣) الوعيد : التهديد (القار) القطران ٠ يقول تداركني بعفوك لا تدعني تحت غضبك فأكون كالبعير الأجرب الذي يتحاماه الناس لئلا يعدي ابلهم فهم يطردونه عنها ٠

ألــم تــر ان الله أعطــاك سُــورة
تــرى كل مَـلْكٍ دونهـا يتذبذب'[٢٧٤]
فانـك شـمس والملـوكُ كـواكـب
اذا طلعـت لـم يبـد منهن كوكبُ
ولسـتَ بمستبق أخـاً لا تلمُّــهُ
على شَعَث ، أيُّ الرجالِ المهذب'[٢٧٥]
فـان أك مظلومـاً فعبـدٌ ظلمتَـهُ
وان تكُ ذا عُتبى فمثلكَ يُعتِب'[٢٧٦]

ومن المبهج أن ندون هنا انه اصطلح أخيرا مع الامير الذى أحبه ، وان الحيرة أصبحت وطنهُ مرة اخرى • أما تاريخ وفاته فمجهول ولكنه يقع قبل ظهور الاسلام بالتأكيد ولو اتيحت له الفرصة لمات مسلما على أكبر احتمال : فهو يقول عن نفسه انه (ذو أُمَّةٍ)[٢٧٧] أي (ذو دين) •

---

(٢٧٤) سوره : منزلة وفضيلة (يتذبذب) يضطرب ويقلق • يقول ان منازل الملوك دون مرتبته فكأنهم مقلقون دونه • [(★) وهنا نهاية الصفحة «١٢٢» من النص الانكليزي •]

(٢٧٥) يقال استبقيت فلانا فى معنى أن تعفو عن زلله فتسبقي مودته (الشَعَث) التفرق والفساد (تلمه) تجمعه وتصلحه • يقول من لم تصلحه من الناس وتقومه فلست بمستبقيه ولا براغب فيه (اللمم) الجمع لما تفرق من أخلاقه ثم فسر وقال : أي الرجال المهذب أى انك لا تجد مهذبا لا عيب فيه •

(٢٧٦) يُعتب : يعطى العتبى أي الرضى • يقول أنا عبدك الذى ان شئت ظلمته وان شئت أرضيته •

(٢٧٧) الديوان : طبعة ديرنبرغ ، ص ٧٦ ، القطعة الثانية س ٢١ (وهل يأثمن ذو امة وهو طائع ؟) وفى موضع آخر (ص ٨١ ، القطعة السادسة س٦) يقول مخاطبا حبيبته :

حيّاكِ وَدٌّ فانا لا يحِلُّ لنا   لهوُ النساءِ وان الدين قد عزَمَا

ومع ان الرواية التى تقول بأنه كان بالفعل مسيحياً ينقصها السند ، فان اقامته الطويلة في الشام والعراق لابد ان أطلعته على مظاهر المسيحية وبعض أفكارها الرئيسة على الاقل .

الأعشى :

قلما تطغى اللهجة الصارمة الجدية الخاصة بشعر النابغة على شعر معاصره الاصغر منه ، ميمون بن قيس ، الذى عرف بصورة عامة بلقبه : الاعشى – أي الضعيف البصر . كان من «المطربين» بحرفته وقد طاف بلاد العرب من أقصاها الى أقصاها وبيده المعزف يتغنى بمديح اولئك الذين يكافئونه ؛ وقد بلغت شهرته – هَجّاءً – درجة لم يجرؤ معها الا القليلون على الامتناع عن دفع ما يطلبه ؛ ويقف ، حسب الاجماع العام ، في المرتبة الاولى بين شعراء العرب ويعتبره أبو الفرج ، صاحب « الاغانى » متفوقا على سائر الشعراء ، على انه يضيف قائلا : « وليس ذلك بمجمعٍ عليه لا فيه ولا في غيره »(٢٧٨) وقد جعلته حياة التجوال هذه على اتصال بكل نوع من أنواع الثقافة المعروفة يومذاك في بلاد العرب ، ومع انه لم يكن نصرانيا مقطوعا بنصرانيته فان شعره يرينا الى أي حد كان قد تأثر بمطارنة نجران

وكان « وَدّ » إلهاً عبده العرب الجاهليون ؛ وفى النص الذى أورده ديرنبورغ لفظة « ربي » (أي الله) ولكن راجع ملاحظات نولدكه فى مجلة جمعية المستشرقين الالمان المجلد ٤١ (١٨٨٧) ص ٧٠٨ « المؤلف »

لقد ترجم نكلسن لفظة « الدين » بلفظة Religion فى حين ان كلمة « الدين » هنا تعني « الحج » . يقول لما اعترضت هذه المرأة سبيله قال لها . لا يحل لنا اللهو بك لاننا حجاج قد عزمنا عليه أي على الحج ونكلسن فسرها بقوله : « لان الدين قد أصبح أمراً جدياً » (راجع ديوان النابغة الذبياني ، ص ٩٣) « المترجم »

(٢٧٨) الاغاني : ٧٧/٨ [(*) وهنا نهاية الصفحة : «١٢٣» من النص الانكليزي] .

الذين كان على صلة وثيقة بهم وبتجار النصارى من الحيرة الذين كانوا يبيعونه خمرهم ولم يرتفع الاعشى فوق المستوى الاخلاقي للجاهلية .

وروي انه وفد على النبي (ص) لينشده قصيدته التى مدحه فيها ، فبلغ خبره قريشا فخافت أن تتسع شهرة خصمهم بمديح صناجة العرب فرصدوه على طريقه وسألوا عن غايته ، فقال : « أردت صاحبكم هذا لأُسلم » . قالوا : « انه ينهاك عن خلالٍ ويحرمها عليك ، وكلها بك رافق ولك موافق » . قال : « وما هُنّ ؟ » فقال أبو سفيان بن حرب : « الزنا » . قال : « لقد تركني الزنا وما تركته ، ثم ماذا ؟ » قال : « القمار » . قال : « لعلي ان لقيتُه ان اصيب منه عوضاً من القمار ، ثم ماذا ؟ » قالوا : «الربا» قال : « ما دِنْتُ ولا ادّنْتُ . ثم ماذا ؟ » قالوا : « الخمر » . قال : أَوَّهْ ! أرجع الى صُبابةٍ قد بقيت لي في المهراس(٢٧٩) فأشربها » ؛ فقال أبو سفيان : « هل لك في خير مما همت به ؟ » قال : « وما هو ؟ » قال : « نحن وهو الآن في هدنة ، فتأخذ مائة من الابل وترجع الى بلدك سَنَتَك هذه وتنظر ما يصير اليه أمرنا ، فان ظهرنا عليه كنت قد أخذت خَلَفاً ، وان ظهر علينا أتيتَه » ؛ فقال : « ما أكره ذلك » ؛ فقال أبوسفيان: « يا معشر قريش ، هذا الاعشى ! واللهِ لئن أتى محمداً واتّبعه ليُضرِمَنّ عليكم نيران العرب بشعره ، فاجمعوا له مائةً من الابل » ، ففعلوا ، فأخذها وانطلق الى بلده »(٢٨٠) .

ويمتاز الاعشى بوصف الخمرة وحفلاتها ، وقد ذكر بعض من زار منفوحة في اليمامة حيث قبر الشاعر أن أهل القصف اعتادوا أن يلتقوا عند قبره ويصبوا عنده فضلات الاقداح ؛ وكمثال لاسلوبه فى هذا الغرض

---

(٢٧٩) المهراس حجر منقور يسع كثيرا من الماء .

(٢٨٠) الاغانى : ٨/٨٥ السطر الاخير ــ ٨/٨٦ السطر العاشر .

ترجمنا بضعة أبيات من أشهر قصيدة له عدها بعض النقاد من المعلقات :ـ

وقد غدوتُ الى الحانوت يتبعني
شاوٍ مِشَلٌ شلولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ(٢٨١)

في فتيةٍ كسُيوفِ الهندِ قد علموا
أَنْ هالكٌ كلُّ من يحفى وينتعِلُ(٢٨٢)

نازعتُهُم قُضُبَ الريحان متكئاً
وقهوةً مُزَّةً راووقُها خَضِلُ(٢٨٣)

لا يستفيقون منها ، وهي راهنة
الابهاتِ ، وان عَلّوا وان نهلوا(٢٨٤)

يسعى بها ذو زُجاجاتٍ له نطفٌ
مقلصٌ أسفلَ السربال معتمِلُ(٢٨٥)

---

(٢٨١) الحانوت : بيت الخمار و (الشاوي) الذى يشوي اللحم و (المشل) السوّاق الخفيف و (الشلول والشلشل) : الغلام الحار الرأس الخفيف الروح النشيط فى عمله و (الشول) من يشول بالشيء الذى يشتريه المشتري فيحمله له ويرفعه [(★) وهنا نهاية الصفحة «١٢٤» من النص الانكليزى]

(٢٨٢) أي كالسيوف فى المضاء والصرامة و (أَنْ) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن المحذوف وجملة « هالك كل من ... » خبرها (فهالك) خبر مقدم و (كل) مبتدأ مؤخر ·

(٢٨٣) (نازعتهم قضب الريحان) أي أتناولها مرة ويتناولونها اخرى و (القهوة) الخمرة و (الراووق) الوعاء الذى تروق فيه الخمر و (خضل) دائم الندى لا يجف لكثرة شربهم ·

(٢٨٤) راهنة : دائمة أمامهم أي لا ينتهون الا اذا أبطأ عليهم الساقى فصاحوا به : « هات » ولو شربوا عللا بعد نهل أى مرة بعد اخرى ·

(٢٨٥) النطف : القرطة من اللؤلؤ و (مقلص) مشمر و (السربال) القميص و (المعتمل) النشيط ، والمعنى : يسعى بالخمر ساقٍ يحمل زجاجتها مقرط الاذن بلؤلؤ ، مشمر ذيله ، معتمل نشيط ·

ومستجيبٍ تخال الصنجَ يَسمعُهُ

اذا تُرَجّعُ فيه القَيْنَةُ الفَضُلُ(٢٨٦)

والسَّاحبَاتُ ذُيولَ الخزّ آونةً

والرّافلاتُ على أعجازها العجلُ(٢٨٧)

علقمـــة :

لا نعرف الا الشيء القليل جداً عن حياة علقمة بن عَبَدَه الملقب (بالفحل) وأشهر قصائده هي تلك التي يخاطب بها الحارث الاعرج الغساني بعد يوم حليمة يتوسل فيها اليه بأن يطلق سراح بعض الاسرى من تميم ـ قبيلة الشاعر ـ وكان بينهم أخوه أو ابن أخيه ، شاس ؛ والابيات التالية تكاد تكون مضرب المثل(٢٨٨) :ـ

فـان تسـألوني بالنســاء فـانني

بصـير بـادواء النسـاء طبيـب(٢٨٩) ؛

اذا شـاب راس المـرء أو قـل ماله

فليس لـه من وُدّهـن نصيـب

---

(٢٨٦) أي ان العود والصنج متفقان فى النغم لا يشذ أحدهما عن الآخر والمرأة الفضل التى تلبس ثوبا واحدا كأنها متبذلة •

(٢٨٧) رفل : جر ذيله وتبختر فى مشيه والعجلة : القربة الصغيرة يشبه أردافها الممتلئة المرتجة بالقربة الصغيرة التى يترجرج فيها الماء • [لايل : عشر قصائد عربية قديمة ص ١٤٦ وما يليها الابيات ٢٥ـ٣١] •

(٢٨٨) اهلورت : الدواوين ، ص ١٠٦ الأبيات ٨ ـ ١٠ [جواهر الادب : ٩٧/٢ « المترجم »]

(٢٨٩) الادواء : جمع داء ، أي بطباعهن المعيبة التى هى بمنزلة الامراض فيهن •

يـردن ثـراء المـال حيث علمنَه
وشـرخ الشبـاب عندهن عجيب (٢٩٠)

شعر الرثاء :

وبالنظر لهذه الابيات المقللة من شأن المرأة يصح أن نلاحظ ان شعر النساء العربيات في العصر الجاهلي مذكّر في خصائصه بشكل واضح ، وقلما كانت أغانيهن في الحب ، بل كثيرا ما كانت عن الموت ؛ واعتبر الرثاء أو المرثية ميدان اختصاصهن ؛ ويظهر أقدم شكل للرثاء في الأبيـات التى أنشدتها اخت تأبط شراً عند وفاته [من الرجز] :

نِعمَ الفتى غادرتم برخمان بثابت بن جابـر بن حيـان
من يقتلُ القِرن ويروي الندمان (٢٩١)

و « الرثاء العربي ـ كقاعدة ـ بسيط جداً ، فالشاعرة تبدأ بوصف أحزانها ودموعها التى لا يمكن أن تُرقأ ، ثم تبين كم كان الفقيد جديراً بالحزن العميق وينعت ويوصف نموذجاً للفضيلتين العربيتين الرئيستين : الشجاعة والكرم ، ثم يطرح السؤال التالي بلهفة : « من للحزم بعد الآن ، من للاعداء ، منذا يطعم الفقراء وقتالحاجة ويبعد وحشة الغرباء ؟ » واذا كان بطل المرثية قد مات ميتة فظيعة نجد بالاضافة لذلك شهوة ملتهبة « للانتقام » وظمأ لرشف دم القاتل ، وقد عُبِّر عن ذلك بعنفِ احساسٍ

---

(٢٩٠) الثراء : الكثرة ، أى يحببن من يعلمن عنده مالا ، و (شرخ الشباب) أوله و (عجيب) معجِب [(★) وهنا نهاية الصفحة : «١٢٥» من النص الانكليزى]

(٢٩١) الحماسة (طبعة اوربا) : ص ٣٨٢ س ١٧ [= المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، نشر أحمد امين وعبدالسلام هارون ، القاهرة ، ١٩٥١ ، جـ٢ ص ٨٢٧هـ = التبريزي : ٢/١٦١ س ٦ و ٧ « المترجم »]

لا يقدِر عليه الا النساء »(٢٩٢) .

الخنســـاء :

مكانة الشرف للنساء العربيات اللائي امتزن بالشعر « للخنساء » ، واسمها الحقيقي تُماضِر وقـد ظهرت في السنين الاخـيرة التى سـبقت الاسلام ؛ وأشهر مراثيها هي تلك التى ناحت فيها على أخويها الشجاعين « معاوية » و « صخر » ، وكلاهما قتل بالسيف أو الرمح ؛ ومن الصعب ترجمة العاطفة العارمة الحيّة وقوة اللهفة ورفعة الاسلوب البسيط الذى يميز شعر الخنساء ، ولكن ههنا بضعة أبيات(★) : ـ

لَقَدْ صوَّتَ الناعي بِفَقْدِ أَخِي النَّدى
نِداءً لَعَمْرِي لاأَبَالَكَ يُسمَعُ
فَقُمْتُ وقدكادتْ لِرَوْعة هُلْكِه
وفَزْعتِه نَفْسِي منالحُزْنِ تَتْبعُ(٢٩٣)
اليـــه كـأني حَوْبـةً وتخشّـعاً
أخـو الخمـرِ يسمـو تارةً ثم يُصرعُ(٢٩٤)

وتقول في مطلع قصيدة اخرى :

---

(٢٩٢) نولدكه : بحث فى فن الشعـر العربى القديم ص ١٥٢
Beiträge zur Kentniss der Poesie der alten Araber

(★) نهاية الصفحة «١٢٦» من النص الانكليزي .

(٢٩٣) أي تتبعه وتلحق به .

(٢٩٤) اليه متعلق بتتبع (حوبة) : حالة (اخو الخمر) : السكران (يسمو) : ينهض (يصرع) يسقط .

نولدكه ، نفس المصدر ، ١٧٥ [= ديوان الخنساء ، دار صادر ، بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ص ٩١ « المترجم »]

يذكرني طلوع الشمس صخراً

وأذكره لكل غروب شمسٍ

آخر الشعراء الذين ولدوا فى العصر الجاهلي :

بوسعنا أن نضيف الى الشعراء الذين ذكرناهم عدداً كبيراً آخر من مثل حسّان بن ثابت الذى اختص بالرسول (ص) فقام له بجهد نافع ، وكعب بن زهير صاحب القصيدة المشهورة التي مدح بها محمدا (ص) والمعروفة بـ « بانت سعاد »(٢٩٥) ، ومتمم بن نويره الذي ناح ، كالخنساء، على أخٍ له ، وأبو مِحْجَن ، شاعر الخمرة الذى عاقبه الخليفة عمر (رض) بالسجن والنفي لتعلقه بالشراب المحظور ، والحطيئة (القزم) الذى لم ينافسه منافس في الهجاء ؛ وهؤلاء كلهم من طبقة المخضرمين أي الذين ولدوا في الجاهلية ولكنهم ماتوا ، حتى وان لم يكونوا مسلمين ، بعد ظهور الاسلام على كل حال .

مجموعات الشعر القديم :

لقد رتب لغويو البصرة والكوفة الذين انقذوا الشعر العربي القديم من الاندثار مادتهم وجمعوها حسب مبادىء مختلفة ، فاما انهم جمعوا أشعار شخص معين أو عدد من الاشخاص الذين ينتمون الى نفس القبيلة أو الطبقة ووضعوا في صعيد واحد ؛ وسميت مثل هذه المجموعة «بالديوان» وجمعها « دواوين » أو ان المصنف يجمع عددا من القصائد المختارة انتخبت لشهرتها(*) أو ميزتها أو لاسباب اخرى أو انه يصنف مجموعة «مقطوعات قصيرة » أو « نتف » رتبت تحت عناوين مختلفة حسب موضوعاتها .

---

(٢٩٥) لقد ترجمت قصيدة « بانت سعاد » الى الانكليزية فى كتابي : « مترجمات من الشعر الشرقي ونثره » ص ١٩ـ٢٣ [المؤلف]

(*) نهاية الصفحة : «١٢٧» من النص الانكليزي .

الدواوين : ويجب أن نذكر بين الدواوين دواوين الشعراء الستة وهم : النابغة وعنترة وطرفة وزهير وعلقمة وامرؤ القيس وقد دونها اللغوي الاندلسي المعروف بـ « الاعلم » (المتوفى سنة **٤٧٦**هـ/**١٠٨٣**م) مع شرح كامل ونشرها اهلورت سنة **١٨٧٠**م ، وكذلك أشعار الهذليين تصنيف السكَّري (المتوفى سنة **٢٧٥**هـ/**٨٨٨**م) التي نشرها كوسكارتن Kosegarten وڤيلهاوزن .

والمجاميع الرئيسة حسب تواريخ تصنيفها هي :ـ

١ ـ المعلقات : وهي عُنوان مجموعة سبع قصائدَ لامرىء القيس وطرفة ، وزهير ولبيد ، وعنترة ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حِلِّزه ، تضاف اليها أحياناً قصيدتان للنابغة والاعشى ؛ ويحتمل أن يكون المصنف « حماد الراوية » ، أحد النظّامين ،من أصل فارسي عاش أيام بني امية ومات في النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد ؛ وقد سبق أن بحثنا المعلقات فلنمض قُدُماً الى مجموعة أضخم وان كانت أقل شهرة ، ويرجع تاريخها الى نفس الفترة وهي :

٢ ـ المفضليات[٢٩٦] : وهو العنوان الذى عرفت به بصورة عامة باسم مؤلفها « المفضل » الضبي (توفي حوالي **١٧٠**هـ/**٧٨٦**م) وقد قام بجمعها بأمر من الخليفة المنصور لتعليم ولده وولي عهده « المهدي » ؛ وتضم **١٢٨** قصيدة وهي متوفرة لدينا بنسختين : نسخة الأنباري (المتوفى سنة **٣٠٤**هـ/**٩١٦**م) المستمدة من ابن الأعرابي ابن المفضل بالتبني ، ونسخة المرزوقي (المتوفى سنة **٤٢١**هـ/**١٠٣٠**م) وقد طبع ثوربيكه حوالي نصف المفضليات(*) سنة **١٨٨٥**م وقام السر شارلس لايل بطبع النص الكامل

---

(٢٩٦) وعنوانها الاصلي (المختارات) أى القصائد المختارة أو (الاختيارات) .

(*) نهاية الصفحة «١٢٨» من النص الانكليزى .

مع الشرح والترجمة الانكليزية والهوامش[٢٩٧] ٠

وطلاب الشعر العربي كلهم أَلِفُوا كتاب :ـ

٣ ـ الحماسة لابي تمام حبيب بن أوس ، وهو نفسه شاعر مبرز عاش على عهد الخليفتين المأمون والمعتصم ومات حوالي (٢٣٦هـ/٨٥٠م) وقد زار قبيل وفاته عبدالله بن طاهر ، حاكم خراسان المتنفذ ، الذى كان فى الواقع سلطانا مستقلا ؛ وقد روى ابن خلكان ان أبا تمام صنف «الحماسة» في رحلته هذه ، فعند وصوله الى همدان كان الشتاء قد حل ، ولما كان البرد قارصا هناك فان الثلج قطع الطريق واضطره الى التمهل وانتظار ذوبانه ، وقد أقام أثناء مكثه مع أحد شخصيات البلد البارزة وكانت له مكتبة فيها مجاميع أشعار نظمها عرب البادية وغيرهم ولما كان لديه اذ ذاك متسع من الوقت فقد تصفح هذه الكتب وانتخب منها المختارات التى صنف منها حماسته[٢٩٨] ، وينقسم الكتاب الى عشرة أبواب غير متساوية الطول يحتل أولها الذى منح الكتاب اسمه (مع الشرح) ٣٦٠ صفحة «في طبعة فريتاغ» في حين ان السابع والثامن لا يحتاجان معا الى أكثر من ١٣ صفحة ؛ وتحمل هذه الابواب أو الفصول العناوين التالية :

١ ـ باب الحماسة
٢ ـ باب المراثي
٣ ـ باب الادب
٤ ـ باب النسيب

---

(٢٩٧) اوكسفورد ١٩١٨ ـ ١٩٢١ أما فهارس الاعلام والبلدان والشواهد والالفاظ المختارة فقد أعدها البروفيسور بيڤان ونشرها سنة ١٩٢٤ فى سلسلة منشورات ئى جي دبليو گب التذكارية ٠

(٢٩٨) ابن خلكان (طبعة وستنفيلد) رقم ٣٥٠ = ترجمة دى سلان ، جـ٢ ص ٥١ ٠

٥ ـ باب الهجاء
٦ ـ باب الأضياف والمديح(★)
٧ ـ باب الصفات
٨ ـ باب السَيْر والنعاس .
٩ ـ باب المُلَح
١٠ ـ باب مذمة النساء

وتضم « الحماسة » مقطوعات شعرية كاملة بحد ذاتها مع قطع مستخلصة من قصائد أطول ؛ وقليلون هم الشعراء المشهورون نسبياً في هذه المجموعة ؛ وطائفة منهم من العصر الجاهلي وآخرون من صدر الاسلام ، في حين ان العديد منهم بلا اسم أو عرفوا بالابيات الملحقة بأسمائهم فحسب . اذا كان المستوى الرفيع من الجودة التى بلغها هؤلاء الشعراء يرينا من جهة ان نبوغاً طبيعيا في الشعر كان واسع الانتشار وان هذا الفن كان قد نما بنجاح بين أوساط المجتمع العربي كافة فيجب الا ننسى مدى ما يرجع من ذلك الى الذوق السامي لابي تمام الذى قال عنه التبريزي شارح الحماسة : « انه أشعر في الحماسة منه في شعره » .

٤ ـ حماسة البحتري :

حماسة البحتري (المتوفى سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م) وهو معاصر أصغر من أبي تمام سناً ، أقل جودة من النموذج الذى تحاكيه(٢٩٩) ومهما يكن الكتاب ملائما من الناحية العملية ، فان التقسيم الى عدد كبير من الابواب التى يوضح

(★) نهاية الصفحة : «١٢٩» من النص الانكليزى .
(٢٩٩) راجع نولدكه : Beiträge ص ١٨٣ وما يليها . يبدو أن هناك العدد القليل نسبيا من القصائد ذات التأريخ الجاهلي فى مجموعة البحتري .

كل منها موضوعا ضيقا في تحديد يسيء جديا الى القيمة الفنية للكتاب ؛ والى ذلك يظهر ان للبحتري تقديرا للجمال الشعرى أقل اتزانا اذ يقال انه لم يعجب إلاّ بما هو منسجم مع أسلوبه وأفكاره •

٥ ـ جمهرة أشعار العرب :

جمهرة أشعار العرب مجموعة مؤلفة من تسع وأربعين قصيدة من المحتمل أنها صنفت حوالي سنة ١٠٠٠م على يد أبي زيد محمد القرشي الذي لا نجد له ذكرا في مكان آخر(★) •

المصادر النثرية :

فضلا عن الدواوين والمجاميع الشعرية ، فقد ذكر العديد من الابيات الجاهلية في كتب السير واللغة وغيرها من نحو كتاب « الاغاني » لابي الفرج الاصفهاني (المتوفى سنة ٣٥٧هـ/٩٦٧م) وكتاب « الامالي » لأبي علي القالي (٣٥٧هـ/٩٦٧م) و « الكامل » للمُبرِّد (المتوفى سنة ٢٨٥هـ/٨٩٨م) و « خزانة الأدب » لعبدالقادر البغدادي (المتوفى سنة ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م) •

رواية الشعر الجاهلي :

لقد رأينا ان أقدم القصائد التى بين أيدينا ترجع الى مستهل القرن السادس للميلاد ، في حين أن فن الكتابة لم يشع استعماله بصورة عامة بين العرب الا بعد حوالي مائتي عام ، فالشعر الجاهلي قد حفظ بالرواية الشفوية فحسب ، وهنا ينهض أمامنا سؤال وهو : « كيف كان ذلك ممكنا ؟ ما الذي يضمن لنا ان الاشعار التى عاشت طوال هذه المدة على شفاه الناس احتفظت بشكلها الاصلي ولو على وجه التقريب ؟ » ليس من شك في أن العديد من الابيات من نحو الابيات التى تمجد قبيلة الشاعر أو تهجو أعداءها

(★) نهاية الصفحة : «١٣٠» من النص الانكليزى •

كانت تنشد باستمرار من لدن أفراد قبيلته ، وبهذه الطريقة أيضا حفظت مقطوعات مناسبات أو نتف من قصائد أطول ؛ على أن القصائد الكاملة من مثل « المعلقات » ما كان ليصلنا منها الا القليل جدا أو لا شيء لو اعتمد بقاؤها على مجرد شعبيتها •

الـرواة : ان الذى أنقذها فعلا فى الدرجة الاولى وجود نظام يشبه نظام « الشعراء المتجولين » Rhapsodists في اليونان ، فقد كان لكل شاعر ممتهن راوية يصحبه في كل مكان ويحفظ أشعاره عن ظهر غيب ويرويها للآخرين مع الظروف المتعلقة بها ؛ وكانت شخصية الشاعر والراوية في الغالب مرتبطة ببعضها البعض ، « فزهير » كان راوية زوج امه « أوس بن حَجَر » ، في حين ان راويته هو كان « الحطيئة » فاذا كانت رواية الشعر بادىء ذي بدء ولعا من الاولاع فقد أصبحت فيما بعد مهنة تدر ربحاً وبدلا من أن يكون الرواة ملازمين لشعراء على انفراد الفوا طبقة مستقلة تحمل في ذاكرتها ذخيرة هائلة(*) من الشعر القديم والثقافة المنوعة ، فقد روي مثلا ان حمادا قال للخليفة الوليد بن يزيد ذات مرة : « أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام» ، قال : «سأمتحنك في هذا» ثم أمره بالانشاد ، فأنشد حتى ضَجِرَ الوليد ، ثم وكَّلَ به من استحلفه ان يصدقه عنه ويستوفي عليه ، فانشده الفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمائة الف درهم • »(٣٠٠) ا هـ وهكذا ففي حوالي نهاية القرن الاول للهجرة أي حوالي ٧٠٠ للميلاد عندما بدأت عادة تدوين الشعر ، كان

(*) نهاية الصفحة : «١٣١» من النص الانكليزى •

(٣٠٠) ابن خلكان ، طبعة وستنفيلد ، رقم ٢٠٤ = ترجمة دي سلان ، جـ ١ ص ٤٧٠ = وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان (تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٤٨) جـ١ ص ٤٤٨ رقم ١٩٤ •

لا يزال هناك الكثير من الشعر الجاهلي دائرا على الألسن ، ولو أنه من المحتمل ان أكثر من ذلك بكثير قد فقد دون أمل العثور عليه، وقد هلك عدد من الرواة في الحروب، أو ماتوا ميتة طبيعية دون أن يتركوا من يستأنف عملهم، وقد جاءت الظروف الجديدة بمهام جديدة وأساليب اخرى من الحياة ولم يكن للكثرة الساحقة من المسلمين أي اهتمام بالشعر القديم الذى كان يمثل في نظرهم روح الوثنية الضالة ، فلم يكونوا ليطلبوا شيئاً خارج نطـــاق القرآن والحديث ؛ ولكن لاسباب سوف تبين في فصل آخر ، كانت لغة القرآن والحديث قد غدت غريبة بسرعة ، كلغة الكلام خارج شبه الجزيرة العربية : فالعربية الواضحة التى كان يفخر بها محمد (ص) لم تعد مفهومة تمام الفهم بالنسبة للمسلمين الذين استوطنوا العراق وخراسان وســوريا ومصر[1] ، فكان لزاماً تفسير النص المقدس وكان من هذه الضرورة أن ولد علم القواعد والمفردات اللغوية[*] [أي فقه اللغة] .

الانسانيون : فاللغويون أو كمـا عبر عنهم بشكل ملائم « انسانيـو البصرة والكوفة » حيث استقصيت هذه الدراسات بحماسة غريبة وجدوا خير موادهم بطبيعة الحال ، في الشعر الجاهلي ـ وهو ينبوع من العربية لم يلوث[2] . وقد كوّن الشعر القديم بادىء ذي بدء مجرد قاعدة للتتبـع اللغوي ، غير انه بمرور الزمن قد أيقظ حماسا أدبيا ، وقد طُلب الاحياء

---

(١) لا نوافق المؤلف على هذا الرأي فأحاديث محمد (ص) لا تزال واضحة مفهومة حتى فى عصرنا الحاضر ، وما كان يفخر به محمد لا يزال موضع فخره وسيبقى كذلك الى أبد الآبدين .

[المترجم]

(*) نهاية الصفحة : « ١٣٢ » من النص الانكليزى .

(٢) لا نعلم الى أي حد يصدق قول المؤلف هذا بعد أن القي ضبابا من الشك على طائفة من الشعر الجاهلي المنحول (المترجم)

من الرواة بلهفة وشوق وحثوا على أن يفرّغوا ما لديهم من مخزون العلم فجمعت منظومات مشاهير الشعراء ، وصنفت ودونت ، وبازدياد الطلب زاد العرض[٣] .

الرواية المنحولة للشعر القديم : وفي مثل هذه الظروف كان لا مندوحة من حصول بعض الاخطاء ؛ ففضلاً عن خيانة الذاكرة بلا تقصد ، لا يشك في أن هناك حالات كثيرة تعمد فيها الرواة الخيانة والخداع ؛ وكان الاغراء لنحل أبياتهم أو مقطوعاتهم التى لفقوها من مصادر معروفة عندهم وحدهم ، شاعرا قديماً ، اغراء قويا لانه لم يكن هناك غير مجال ضئيل لفضح ذلك ، وكانوا في معرفتهم بالشعر وفي مواهبهم الشعرية عامة أكثر من انداد للغويين الذين قلما كانت لهم أى قابلية انتقادية وانما كانوا مستعدين ليأخذوا ما يصل لايديهم مهما كان شأنه[٤] .

حماد الراوية : والقصص التى تروى عن حماد الراوية ترينا بوضوح مدى عدم اكتراثه ، في الاساليب التى اتبعها ، ولو أن لدينا من الاسباب

---

(٣) هناك تفاصيل عديدة ممتعة تتعلق برواية الرواة واللغويين للشعر الجاهلي فى كتاب اهلورت
— Bemerkungen ueber die Aechtheit der Alten Arabischen Gedichte
« تعليقات على القصائد الثماني من الشعر العربي القديم » (كرايفسفالد ، ١٨٧٢) زودت مادة الخلاصة التى بين أيدينا .

(٤) فيما يتعلق بصحة القصائد الجاهلية التى وصلتنا فان ملاحظات أحد الاساطين فى الموضوع وهو المرحوم السرشارلس جي . لايل تبدو لي معقولة بشكل واضح (مقدمة المفضليات ج٢ ص ١٦ ـ ٢٦) ويختم كلامه بقوله : « وعلى العموم فان الانطباع الذى تتركه دراسة هذه المخلفات القديمة عن كثب هو انه علينا أن نتقبلها كنتاج الاشخاص الذين تحمل أسماءهم » ؛ وكل ما يمكن أن يقال ضد هذه الفكرة قد ذكره البروفيسور مارغوليوث بمعلوماته الواسعة كالمعتاد (أصل الشعر العربي ، مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، ١٩٢٥ ص ٤١٧ وما يليها) .

ما يجعلنا نعتقد انه لم يكن مثالا نموذجيا في جماعته ؛ وقد روي ان معاصره المفضل الضبي قال : « قد سلّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً . » وأضاف « لان حماداً رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يُشبه به مذهب رجل[*] ويُدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عند ناقد ، وأين ذلك ؟ »[٥] اهـ .

خلف الاحمر : وقد وصل هذا الفن فى الانتحال درجة الكمال عند خلف الاحمر (المتوفى حوالي سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م) وكان قد تعلمه في مدرسة حمّاد ، واذا كان حقاً هو الذى نظم « اللاميّة » المشهورة المنسوبة الى « الشنفرى » فلابد ان مواهبه الشعرية كانت من أرفع مرتبة ، وقد ندم في شيخوخته واعترف بأنه نظم عدة قصائد تقبلها علماء البصرة والكوفة منه على انها قصائد غير منحولة ، غير انهم ضحكوا منه ساخرين وقالوا : « أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة »[٦] .

أسباب اخرى للافتعال :

فضلا عن الافساد الذى مرجعه الرواة فقد تراكمت عوامل اخرى سببها اللغويون أنفسهم : فالقرآن والحديث كانا بطبيعة الحال بلهجة قريش وقد دونا فيما بعد بلهجة قريش كذلك ، القبيلة التي ينتمي اليها محمد (ص) ، واعتبرت هذه اللهجة المستوى الكلاسي أو التقليدي للغة[٧]

(*) نهاية الصفحة : «١٣٣» من النص الانكليزى .

(٥) الاغانى : حـ ٥ ص ١٧٢ س ١٦ وما يليه . [المؤلف]

(٦) المزهر ٢/٢٠٣ = جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ٢/١٢٨ [المترجم]

(٧) على ان وجهة النظر هذه ليست متفقة مع الحقائق التاريخية ولا الرأي العام العربي فى أيام الجاهلية . راجع نولدكه ، «اللّغات السامية» (بالالمانية) ص ٤٧ .

وعلى ذلك فكل ابتعاد عنها في الشعر القديم قد « صُلّح » في الاغلب وجعل متسقاً معها ، وحصلت عدة تغييرات بتأثير الاسلام ، فمن المحتمل مثلا أن لفظة « الله » كثيرا ما عوضت عن لفظة « اللات » الالهة الوثنيّة ؛ والى ذلك فان تركيب القصيدة وتفككها وحاجتها الى الترابط المنطقي ساعد على حذف مقاطع كاملة أو أبيات مفردة أو نقلها من موضع لآخر • بوسعنا أن نمثّل لجميع أنماط التحريف هذه بالتفصيل ولكن بمقدور القارىء ، أن يكوّن لنفسه فكرة مما قيل ، عن مدى احتمال احتفاظ القصائد ، في وضعها الحاضر ، بالشكل الذى نطقت بـه لاول مرة أمـام عرب الجاهليـة(★) المتبدين •

الدين : كان للدين تأثير ضئيل على حيـاة العرب الجاهليين بحيث لا يمكننا أن نتوقع وجود أثر كبير له في شعرهم ، فقد كانوا يعتقدون بالله أعظم بشكل غامض وبشكـل أوضـح ببناتـه الثـلاث ـ اللات ومنـاة والعزّى ـ اللائي كن يبجلن في بلاد العرب قاطبة وكان الله ـ بظنهم ـ يتقبل شفاعتهن بلطف ؛ وكانت هناك كذلك أصنام عديدة تتمتع بتقدير سامٍ ما دامت تجلب الحظ السعيد لعابديها ؛ أما عن التقوى الحقيقية فلم يكن البدوي الاعتيادي ليعرف شيئاً ولم يكن ليشعر بالدعـوة للصـلاة لآلهته ، وان وجدها في الغالب ملائمة للقسم بها ، وقد يدعو الله في سـاعة الشدة كالغريق الذى يتشبث بالقشّة ، غير ان ايمانه بالمراسيم الخرافية كان أقوى ، اذ لم يتمسك بدينه بمنتهى الجدية ، ولكنه كان سريع التقدير لمنافعه العملية فقد منحه الراحة والامان خـلال الاربعـة الاشهر الحرم ، حيث حرّمَ القتال خلالها وذلك فضلا عن الملاذ التافهه •

سوق عكاظ : ثم ان ايجاد نظام الحج الى مكة ساعده على الاشتراك

(★) نهاية الصفحة : «١٣٤» من النص الانكليزي •

في مهرجان قومي ، وسارت التجارة يداً بيد مع الدين واقيمت الاسواق العظيمة وأشهرها جميعاً « سوق عُكاظ » الذى كان يستمر لعشرين يوما ، وكانت هذه الاسواق بشكل ما مركز الحياة الاجتماعية والسياسية والادبية للعرب الاقدمين ، وكانت المناسبة الوحيدة التى يمكن خلالها وجود اتصال حر آمن بين أفراد مختلف القبائل(٨) .

وكانت المظاهر الشعرية والخطابية تزود الكثير من الانتعاش والهياج اللذين كانت تزودهما الالعاب الرياضية في بلاد الاغريق القديمة وانكلترا الحديثة ؛ فهنا كان الشعراء المتنافسون يلقون أبياتهم ويضعونها تحت حكم استاذ معترف به ؛ ولم تجد المواهب الصاعدة في أي مكان آخر مثل هذه الفرصة للحصول على شهرة واسعة النطاق : فما تقوله عكاظ اليوم تردده بلاد العرب قاطبة في الغد . ويُروى ان محمداً الشاب أصغى في عكاظ معجباً(★) بالفصاحة المُقْنِعة لقس بن ساعدة ، مطران نجران ، ولعله قارن خطاب الواعظ المسيحي مع القصائد المتلألئة التى ينشدها الشعراء الوثنيون .

وقد كانت وجهة النظر البدوية عن الحياة هيدونية(٩) ؛ فالحب والخمرة والمقامرة والصيد وملذات الغناء والخيال ، والتعبير المؤنق باقتضاب ومغزى ، عن الفطنة والحكمة ـ كل هذه الاشياء طيبة حسنة على ما كان يعتقد ، أما خارج نطاقها فكان لا يرى الا القبر :(١٠)

---

(٨) راجع ڤيلهاوزن Reste Arab. Heidentums « بقايا الوثنية العربية » (الطبعة الثانية) ص ٨٨ وما يليها .

(★) نهاية الصفحة : «١٣٥» من النص الانكليزى .

(٩) الهيدونية : عبادة اللذة أو مذهب السرور .

(١٠) الحماسة ، ٥٠٦ [= طبعة المكتبة الازهرية ، ط ٣ ، القاهرة، ١٩٢٧ ، جـ٢ ص ١٣ « باب الادب » المترجم]

إن شِـواءً ونَشْـوةً وخَبَبَ البازِلِ الأمُونِ (١١)
يُجْشمهـا المرءُ في الهوى مسـافَةَ الغـائِـطِ البطـينِ (١٢)
والبيض يـرفُلْـنَ كـالـدُّمى
في الرَّيْطِ والمُذْهَبِ المَصُونِ (١٣)
والـكُثْرَ والخَفْضَ آمنـاً
وَشِـرعَ المِزْهَرِ الحَنُـونِ (١٤)
مـن لَـذَّةِ العيـشِ والفـتى
للدَّهْرِ ، والدَّهرُ ذو فُنُـونِ (١٥)
واليُسْـرُ كالعُسْـرِ والغِنَـى
كالعُـدْمِ والحـيُّ للمَنُـونِ

[والأبيات لسُلمى بن ربيعة]

ومن الخطأ أن نظن ان هؤلاء الرجال أمضوا حياتهم دائماً أو حتى بصورة عامة في طلبٍ عابثٍ للذة ؛ وكانت لهم بعض الاهداف ـ الدنيوية بلا شك ـ من نحو اكتناز الاموال أو احراز المجد أو الاخذ بالثأر ، وفي هذا يقول أحدهم(١٦) [من المنسرح] :

---

(١١) النشوة الخمر والسكر والخبب ضرب من سير الابل والبازل التى قد استكمل لها تسع سنين فتناهت قوتها والامون الناقة التى يؤمن عثارها .

(١٢) الغائط : المطمئن من الارض والبطين الواسع الغامض .

(١٣) البيض : الحسان يرفلن : يتبخترن والريطة : الملاءه والمذهب المصون : الثياب الفاخرة المطرزة بالذهب .

(١٤) الشرع : أوتاد العود وهو المزهر .

(١٥) من لذة العيش : خبر ان فى أول القطعة ، ذو فنـون : ذو شؤون .

(١٦) ديوان الحماسة : ٢٣٧ .

إنّي أَبَى اللهُ أنْ أمــوتَ وفي

صــدريَ هَــمٌ كأنَّــهُ جبــلُ(١٧)

ويمس امْرؤُ القيس وتراً أعمق :ـ

ولــو أنما أســعى لأدنى معيشــة

كفاني ـ ولم أطلب ـ قليلٌ من المالِ

وَلــكِنَّمــا أسعى لمجــدٍ مؤثلٍ

وقــد يُدركُ المجد المؤثل أمثـالي

وما المرءُ ما دامتْ حشاشةُ نفسهِ

بمدركِ أطرافِ الخطوبِ ولا آلي(١٨)

---

(١٧) البيت مستهل قطعة للمثلم بن عمرو التنوخي يليه قوله :

يمنعنــي لــذة الشــراب وإنْ

كــان قطــاباً كــأنــه العســلُ

حتى أرى فارس الصَّموتِ عــلى

أكســاءِ خيــلٍ كــأنهــا الابلُ

[الحماسة (طبعة أوربا) : ٢٣٧ ؛ التبريزي ٢/١٨ـ١٩] ٠

(١٨) ديوان امرىء القيس ، طبعة دى سلان ، ص ٢٢ من النص العربي ، س ١٧ وما يليه = رقم ٥٢ الاسطر ٥٧ ـ ٥٩ (ص ١٥٤) فى كتاب اهلورت : دواوين الشعراء الستة على انه فيما يتعلق بالبيت الاخير قارن كلمات قيس بن الخطيم عند الاخذ بثأره : (الحماسة ٨٧) [= ص٥٥ الطبعة المصرية] :

متى يأتِ هذا الموتُ لاتُلْفَ حاجةٌ

لنفسيَ إلا قــد قضيتُ قضــاءَها

[راجع كذلك « شرح ديوان امريء القيس » ، منشورات دار الفكر ـ بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٥٢ الابيات : ٥٢ ـ ٥٤ وهى من قصيدة مطلعها (من الطويل) :

الا عم صباحاً أيهــا الطلل البالي

وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُرِ الخالي ؟]

المترجم.

[وهنا نهاية الصفحة « ١٣٦ » من النص الانكليزي] ٠

الديانة اليهودية والمسيحية في بلاد العرب :

هذه عواطف نبيلة أفصح عنها بنبل ؛ بيد ان الانسان يسمع زفرة الملل كما لو كان المتكلم يناضل ضد اعتقاده بأن قضيته خاسرة مقدما وانه ليرحب بضربة القدر النهائية فقد كان عهد ضجيج وحشي واضطراب فالمنازعات القبلية والعائلية ملأت البلاد ، كما يقول زهير ، بدخان الشر ، فلا عجب أن تتساءل العقول الجدية المفكرة ـ ما قيمة حياتنا ؟ وأي معنى لها ؟ والى أين تفضي ؟ ولم يكن بوسع الوثنية ان ترد على مثل هذه الاسئلة ، غير ان بلاد العرب لم تكن في القرن الذي سبق محمداً (ص) قد ركنت الى الوثنية تمام الركون اذ كانت الجاليات اليهودية قد استقرت في الحجاز منذ عهد طويل ؛ ومن المحتمل أن أقدم الجاليات يرجع تاريخها الى فتح فلسطين على يد تيتس Titus [(١٩)] أو هادريان Hadrian [(٢٠)] وأصبح اللاجئون في موطنهم الجديد مستعربين تماماً بطريق تماسهم مع قوم مجانسين لهم تقريباً ، على نحو ما تشهد النماذج القليلة من شعرهم ؛ على أنهم بقوا يهودا لا في تنمية تجارتهم وصناعاتهم المختلفة فحسب بل في أكثر خصائصهم حيوية ـ الا وهو الدين ؛ وبهذا مع حقيقة انهم عاشوا في مجتمعات منعزلة وسط السكان المحيطين بهم تميّزوا كملح الصحراء ؛ ولم يَتَحَدَّ سيطرتهم

---

(١٩) (حوالي ٤٠ ـ ٨١م) امبراطور روما (٧٩ ـ ٨١م) ابن فيسپاسيان خلف أباه كقائد روماني في الحرب ضد اليهود ونهب اورشليم (٧٠م) وكان امبراطورا محبوبا أعان ضحايا بركان فيزوف (٧٩م) الذى دمَّر مدينتي « پومپيي » و « هيركولانيوم » وكذلك منكوبي حريق روما الهائل (٨٠م) [راجع لاروس ، النسخة الانكليزية ، ١٩٦٨ ، ص ١٢١٢]

(٢٠) ٧٦ ـ ١٣٨م ، امبراطور روما (١١٧ ـ ١٣٨م) ابن تراجان بالتبني وخليفته • تخلّى عن سياسة تراجان التوسعية في آسيا وعزز حدود الامبراطورية وقام باصلاحات ادارية وعسكرية وقضائية وتجول في الاقاليم على نطاق واسع مشجعا تطبيق العادات والروح العلمية الرومانية وتشييد الابنية العامة الجميلة [راجع لاروس ، النسخة الانكليزية ، ص ٥١٠] •

الدينية في الحجاز أحد بصورة جدّية غير ان الامــر يختلف في اليمن . بوسعنا أن نحذف الاسطورة التى بموجبها ادخلت اليهودية من الحجاز الى تلك البلاد على يد تُبَّع أسعد كامل ؛ فالمؤكد أنه حوالي مستهـل القرن السادس ثُبِّتَت هناك جنباً الى جنب مع المسيحية ، وأنها أحرزت عـلى منافستها في شخص الملك الحميري « ذي نواس » الذي اتخذ اليهوديـة ديناً له ، نصرا دمويا قصير الأمد ، ولكن لا يبدو ان المسيحية في اليمن ، اللهم الا بين سكان هضبة نجران ، عاشت كمـا فعلت في أقصـى الشمـال والشمال الشرقي حيث التخوم الرومانية(*) والفارسية يحرسهـا مجندو العرب التابعون لغسّانَ والحيرة .

العباديون في الحيرة :

وقد رأينا ان المدينة الاخيرة كانت تضم عددا كبـيرا من السكـان المسـيحين الذين كانوا يميـزون باسـم « العبـاد » أي خدّام الله وعـن طريقهم نقلت ثقافة بابل الآرامية الى جميع أصقاع شبه الجزيرة ؛ وقـد تعلموا فن الكتابة قبل أن تمارسه بلاد العرب عموما بردح طويل كما ترينا حكاية طرفة والمتلمس ؛ وانتجوا أقدم شعر مكتوب في اللغة العربية ـ وهو شعر يختلف جد الاختلاف في طبيعته عن ذلك الـذى يكوّن الموضـوع الرئيس لهذا الفصل ، ولسوء الحظ ان القسم الاعظم منه قد ضاع ، لان الجمّاعين الذين ندين لهم بصيانة الشيء الكثير من الشعر الجاهلي ، كانوا قد كرسوا أنفسهم للنماذج التقليدية ولم يرغبـوا في أن يثقلـوا كاهـل ذاكرتهم بأي شيء من طراز جديد .

عديّ بن زيد :

وأشهر الشعراء العباديين هو « عديّ بن زيد » الذي رسمنا الخطوط

(*) نهاية الصفحة : «١٣٧» من النص الانكليزى .

العريضة لسيرته مغامراً سياسياً ، ولا يعد بين نقاد المسلمين من الفحول أو شعراء الطبقة الاولى لانه كان (قَروياً) أي من سكان المدن وتلقى النكتة الآتية بهذه المناسبة ضوءاً على الموضوع : قال الشاعر العجَّاج (المتوفى حوالي سنة ٩١هـ/٧٠٩م) عن معاصِرَيْهِ « الطرمّاح » و « الكميت » : « كانا يسألاني عن الغريب فأُخبرهما به ، ثم اراه في شعرهما وقد وضعاه في غير مواضعه » ، فقيل له : « ولم ذاك ؟ » قال : « لانهما قَرَويّانِ يصِفانِ ما لم يَرَيَا فيضعانه في غير موضعه ، وأنا بدويٌّ أصف ما رأيتُ فأضعهُ في مواضعه »[٢١] • اهـ ويُذكر عديّ بصورة رئيسة بخمرياته ، ولقد اقترنت المسيحية الشرقية دوما بشرب الخمر وبيعه وحمل تجار الخمر العباديّون الذين قيل انهم لقنوا دينهم للاعشى الشهير ، الافكار المسيحية الى قلب بلاد العرب وكان عديّ يشرب ويمرح كسائر الناس ولكن « فكرة انا سنموت غداً » المختبئة وراء ذلك[*] نسمعها تتكرر في شعره ، فهو يسير الى جنب مقبرة فتدعوه أصوات الموتى[٢٢] • [من الرمل] :

مَن رآنا فليحدث نفسَهُ
أنَّهُ موفٍ على قَرْنِ[٢٣] زوالِ
وصروفُ الدهرِ لا يبقَى لها
وَلِما تَأتي بهِ صُمُّ الجبالِ

---

(٢١) الاغاني : جـ٢/ص١٨/س٢٣ وما يليه = جـ٢ص ٩٧ [من طبعة دار الكتب المصرية «المترجم»]

(★) نهاية الصفحة : «١٣٨» من النص الانكليزى •

(٢٢) الاغاني : ٣٤/٢ س ٢٢ [= ١٣٤/٢ س ١٥ وما يليه ، طبعة دار الكتب المصرية « المترجم »]

(٢٣) أي على طرف زوال •

وُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا عندنا[٢٤]

يشربون الخمر بالماء الزلالِ

والأباريقُ عليها فُدُمٌ[٢٥]

وجيادُ الخيل تَردي[٢٦] في الجِلالِ

عَمِروا دهراً بعيشٍ حَسَنٍ

آمني دَهْرٍ هُمُو غَير عجالِ

ثم أضحَوا عَصَفَ الدهرُ بهم

وكذاك الدهر يودى بالرجالِ

وكذاك الدهر يرمي بالفتى

في طلابِ العيشِ حالاً بعد حالِ

ويقال ان انشاد هذه الابيات ، حفزت النعمان الاكبر ، أحد ملوك الحيرة الوثنيين الاسطوريين ، على أن يعتنق المسيحية ويصبح ناسكاً ؛ ومع ان القصة تتضمن مسخا مضحكا لتسلسل الحوادث التاريخية فهي صحيحة بقدر ما تسجل الانطباع الذي يحتمل أن يتركه الشعر المسيحي الجاد فى العقول الوثنية .

لم يكن الشعر الجاهلي وثنيا فى عاطفته بالمرة :

كان بلاطا الحيرة وغسان معروفين عند المغنين المتجولين الذين عاشوا

---

(٢٤) يترجمها نكلسن « قربنا » وفى الطبعة الاوربية للكامل « حولنا » ص ٢٨٣ .

(٢٥) جمع فِدام وهو ما يوضع فى فم الابريق لتصفية ما فيه من شراب .

(٢٦) تعدو وترجم الارض بحوافرها .

قبل ظهور محمد (ص) والذين وفدوا عليهما باحثين عن الرعاية والمثوبة بلهفة وشوق ؛ وبوسعنا أن نتأكد من أن رجالا من أمثال «النابغة» و «لبيد» و « الاعشى » لم يبقوا بمعزل عن تأثير الثقافة حواليهم حتى وان لم تتغلغل في أعماق حياتهم الا نادرا ، ولا يمكننا أن ننكر ان في الشعر الجاهلي قدرا لا يستهان به من آثار الشعور الديني ، غير ان المقاطع موضوعة البحث كانت تفسر فيما سبق على أساس الاضافات المتأخرة ، ولكن وجهة النظر هذه لم تعد هي السائدة ، والفضل في ذلك يعود بصورة رئيسة الى مناقشات الفون كريمر والسر شارلس لايل وفيلهاوزن الذين أثبتوا النقاط التالية : (١) ان الشعور الديني المنوه عنه أعلاه ليس اسلاميا في لهجته في كثير من الاحوال . (٢) وان المقاطع التي يتجلى فيها(*) ليست ذات أصل اسلامي . (٣) وانه النتيجة الطبيعية الحتمية للتأثير الواسع النطاق (وان كان على وجه العموم سطحيا) للديانة اليهودية وعلى الاخص المسيحية(٢٧) .

ولا يظهر هذا الشعور في تلميحات متكررة من مثل الراهب في صومعته المنعزلة ذلك الذي يثير مصباحه سبيل المسافرين المتأخرين ليلا ، وفي اشارات أكثر أهمية ، من نحو ما رأينا عند زهير مسبقا ، اذ يشير الى الكتاب السماوي حيث تدون الشرور ليوم الحساب ، بل كذلك في الميل الى الموعظة وفي النظر الى الباطن والتأمل في الموت وتقدير حياة الفرد أكثر من الكيان

(*) نهاية الصفحة : «١٣٩» من النص الانكليزى .

(٢٧) راجع فون كريمر : « حول أشعار لبيد » Ueber die Gedichte des Labid. في مجموعة جلسات أكاديمية فينا Phil - Hist. Klasse صنف الفلسفة والتاريخ (فينا ١٨٨١) ح ٩٨ ص ٥٥٥ وما يليها ؛ والسر شارلس لايل : الشعر العربي القديم ص ٩٢ و١١٩ وفيلهاوزن Reste Arabischen Heidentums « بقايا الوثنية العربية » (الطبعة الثانية) ص ٢٢٤ وما يليها .

المستمر للاسرة ؛ فهذه الاشياء ليست من خصائص الشعر العربي القديم ولكن حقيقة ظهورها في بعض الاوقات منسجم تمام الانسجام مع الحقائق الاخرى التي سبق أن بُيّنت ، وتبرر الاستنتاج القائل ان الدين والثقافة في القرن السادس للميلاد كانا يوسعان بشكل خفي غير ملحوظ نطاق تأثيرهما في بلاد العرب مُخَمِّرَيْنِ أذهان الجماهير الوثنية وممهدين السبيل تدريجيا للاسلام(*) .

(*) نهاية الصفحة « ١٤٠ » من النص الانكليزي .

الفصل الرابع

النبي محمد (ص) والقــرآن

بظهور محمد (ص) يُرفع فجأة القناع الذى لا يكاد يُخترق من على محيا العصر الذى سبقه ، فنجد أنفسنا على أرض صلبة من الروايات التاريخية ، ولكيما نفهم أسباب هذا التحول نرى من الضرورى أن نقدم شيئا عن المصادر الرئيسة التى استقينا منها معلوماتنا عن حياة الرسول (ص) وتعاليمه •

مصادر البحث : (١) القرآن الكريم :

هناك أولا ، بطبيعة الحال ، القرآن[١] المتضمن « بصــورة قطعيــة الايحاءات أو الاوامر التى تلقاها محمد (ص) من حين لآخــر بطــريــق جبرائيل خطابا مباشرا من الله سبحانه وتعالى والتي قدمهــا لمن حواليــه بتوجيه قدسيّ ؛ وقد تلا محمد (ص) كل قطعة وقت ايحائها أو بُعَيْدَ ذلك أمام الصحابة أو الاتباع الحاضرين وكان يقوم بتدوينها بصورة عامة أحدهم على سعف النخيل أو الجلود أو الاحجار أو غير ذلك من المواد الصلبة الفجه حسبما اتفق واستمرت هذه الخطابات القدسية خلال ثلاث وعشرين سنة من حياته النبوية بحيث إنالقسمالأخير لم يظهر اِلاّ سنة وفاته

---

(١) يفضل نكلسن استعمال التهجئة المعتادة Koran فى الرسـم الافرنجى بدلا من التهجئة الصحيحة .Qur'àn التى يستعملهـا العلمــاء فالالفــاظ العــربيــة التى دخلت المعجمــات الانكليزية من نحــو Vizier, Caliph, Koran ونحوها لا تحتاج فى كتابتها ، على رأيه ، الى أي اعتذار •

واذ ذاك أغلق الدستور ، غير ان المحتويات(★) لم ترتب ترتيبا نظاميا ولم تجمع في حياة الرسول (ص)[٢] .

كيف حفظ القرآن : على ان القطع حفظت فى نسخ مجزّأة ، وعلى الاخص بالتلاوة الشفهيّة الى أن قللت الحروب الدامية التى أعقبت وفاة محمد (ص)[٣] عدد الحفاظ الى حد كبير ، وعلى ذلك[٤] فقد جاء عمر ابن الخطاب (رض) بعد معركة اليمامة (١٢هـ/٦٣٣م) الى أبي بكر (رض) في خلافته وقال له : « ان القتل قد استحر بالقراء يوم اليمامة واني أخشى أن يستحر القتل في القراء في المواطن كلها فيذهب كثير من القرآن فأرى أن يجمع القرآن بحال » فوافق أبو بكر وعهد بالمهمة الى زيد بن ثابت أحد كتبة الرسول (ص) فهو الذي جمع النتف بصعوبة كبيرة « من الرقاع[٥] واللخاف[٦] والعسف[٧] وصدور الرجال » فكانت الصحف التى جمعت على هذه الشاكلة عند أبي بكر (رض) بقية حياته ثم عند عمر

(★) نهاية الصفحة «١٤١» من النص الانكليزى .

(٢) ميور : حياة محمد ، المقدمة ، ص ٢ وما يليها . **بوسعي ان** أقول فى الحال انني لا اوافق اطلاقا على الرأي المتضمن فى هذه الفقرة من حيث ان محمدا (ص) لم يعتقد فى نفسه بأنه ملهم . «نكلسن» [وقد حذفنا **ثلاث كلمات من النص الاصلي « لميور » فى العبارات الآتية : « التي كان (يدعيها) محمد »** و « التوجيه القدسي (المزعوم) » و « الوحى (المدّعى) » **مما لا يليق بباحث علمى موضوعى كميور ويثير سخطنا واستنكارنا** « المترجم »] .

(٣) يقصد بذلك حروب الردة « المترجم » .

(٤) التفاصيل التالية مقتبسة من كتاب الفهرست (طبعة جى . فلوگل ، ص ٢٤ س ١٤ وما يليه) [= ص ٤٢ س ١٥ من طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة « المترجم »]

(٥) أي الرقّ .

(٦) الحجر الابيض الرقيق .

(٧) سعف النخل المجرد من الخوص .

(رض) حتى توفاه الله فصارت الى ابنته حفصة (رض) وبعد ذلك لاحظ حذيفة اليماني في خلافة عثمان (رض) ان نص القرآن الذى يتلى في الشام يختلف اختلافا جديا عن النص السائد في العراق فحذر الخليفة وطلب اليه أن يتدخل لئلا يصبح كتاب المسلمين المقدس موضع نقاش على نحو ما حصل لليهود والنصارى في كتبهم السماوية ؛ وفي سنة (٣١ هـ/ ٦٥١م) أمر عثمان (رض) زيد بن ثابت أن يعد نسخة منقحة بمساعدة ثلاثة من القرشيين قائلا لهم : « اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فانما أنزل بلسانهم »(٨) وبقي هذا التنقيح الشكل النهائي المتفق عليه للقرآن منذ ذلك الحين . « وقد تعددت النسخ وبعث بها الى الامصار واحرقت النسخ التي وجدت قبلها بأمر الخليفة » (٩) .

قيمة القرآن مرجعا ومستندا : والقراءات المختلفة فى النص الذى وصل الينا قليلة وغير مهمة أما صحته فمما لا يرقى اليه الشك ، والى ذلك سوف نرى ان القرآن مُسْتَنَد" انساني الى أقصى حد ويعكس كل مراحل شخصية محمد (ص) ويقف على مقربة من الحوادث الخارجية لحياته فلدينا هنا مواد ذات سلطة فريدة لا تقبل النقاش لاستقصاء أصل الاسلام ومستهل تطوره ــ وهي مواد لا توجد في البوذية أو المسيحية أو أي دين قديم آخر. وترتيب القرآن لا يمكن أن يوصف الا بأنه شيء خاص به اذ لم يلاحظ التسلسل التاريخي في ترتيب السور (أو الفصول) التى لم ترتب الا حسب طولها فحسب ، بوضع أطولها في المقدمة(١٠) والى ذلك فان الفصول نفسها

---

(٨) الفهرست : ص ٤٣ [النسخة المصرية] المترجم

(٩) ميور : « حياة محمد » ، المقدمة ص ١٤ [وهنا نهاية الصفحة «١٤٢» من النص الانكليزى .]

(١٠)باستثناء السورة الاستهلالية (سورة الفاتحة) التى هى دعاء قصير .

مؤلفة أحيانا من أجزاء متفرقة لا يربط بينها غير السجع ، ويستحيل في الغالب أن نكتشف المنطوق الاصلي للالفاظ التى نطق بها الرسول (ص) فعلا ، والمناسبة التى اوحيت فيها أو الفترة التى ترجع اليها وفى مثل هذه الحال يجب أن نلحق بالقرآن مرجعاً رئيسا ثانيا لمعلوماتنا وهو الحديث .

الحديث :

يقول الدكتور شپرنكر : في السنوات الاخيرة من حياة محمد (ص) كانت ثمة عادة ورعة وهي انه عندما يتقابل مسلمان ينبغي لاحدهما أن يسأل عن الخبر (الحديث) وعلى الآخر أن يروى قولا أو حكاية عن الرسول (ص) واستمرت هذه العادة بعد موته عليه السلام وبقيت لفظة « الحديث » تطلق على الفاظ وحكايات لم تعد « حديثة »[١١] ، وبتمادى الزمن اقيم نظام محكم للحديث كالقرآن ـ وهو في الاصل المقياس الوحيد الذى يسترشد به المسلمون في الامور الكبيرة والصغيرة[★] المتعلقة بالمصلحة العامة والخاصة على حد سواء ـ اذ وجد غير كافٍ للاحتياجات المعقدة لامبراطورية متنامية بسرعة ، فلاذ الناس بأقوال محمد (ص) وأفعاله أي بالسنة النبوية التى اكتسبت الآن «قوة القانون وشيئا من سلطان الوحي[١٢]» ، ولم يكن للنبي (ص) مؤرخ لسيرته من نمط بوزويل[١٣] ولكنه يكاد حالما يشرع بالتبشير برسالته يصبح رجلا واضح المعالم بحيث ان ما يمليه يختزنه

---

(١١) سپرنكر Ueber das Traditionswesen bei den Arabern « حول علم الحديث عند العرب » (مجلة جمعية المستشرقين الالمان) ج١٠ ص ٢ .

(★) نهاية الصفحة : «١٤٣» من النص الانكليزى .

(١٢) لعل المؤلف يقصد هنا نوعا خاصا من الاحاديث يعرف « بالاحاديث القدسية » التى لها سلطان الوحي . « المترجم »

(١٣) بوزويل هو مؤرخ سيرة الدكتور جونسن وقد رافقه ونقل عنه الشيء الكثير « المترجم » .

أصحابه كنزا وأعماله تُراقب بانتباه ؛ وهكذا فقد كان خلال القرن الاول للاسلام رهط من الشهود الاحياء تجمع منهم الاحاديث وتحفظ عن ظهر غيب وتنقل شفهياً ؛ ويحتوي كل حديث على (المتن) و (السند أو الاسناد) فمثلا يقول المحدث : « أخبرني (أ) عن (ب) عن (حـ) ان النبي (ص) وأبو بكر وعمر (رض) كانوا يبدؤن صلاتهم : « بالحمد لله رب العالمين » .

كتب السير : وكانت المدونات والمصنفات فى الفترة الاولى نادرة نسبيا وقد كتب ابن اسحق (المتوفى سنة ١٥١هـ/٧٦٨م) أقدم سيرة للرسول (ص) متوفرة لدينا في الوقت الحاضر ؛ على أننا لا نمتلكها بشكلها الاصلي بل بنسخة ابن هشام (المتوفى سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م) وهناك كتابان مهمان وممتازان آخران من نفس النمط هما « كتاب المغازي » للواقدي (٢٠٧هـ/٨٢٢م) وكتاب « الطبقات الكبير » (أي الطبقات المختلفة للصحابة والتابعين) لابن سَعْد (المتوفى سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م) .

المجموعات العامة : واقدم المجموعات وأكثرها صحة للاحاديث المتنوعة لارشاد المسلمين نموذجا واسلوباً في الحياة بكل مناحيها ، ومرتبة بفصول حسب الموضوعات هى مجموعة البخاري (المتوفى سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م) ومسلم (المتوفى سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م) وكلاهما يحمل نفس العنوان وهو : « الصحيح » .

تفاسير القرآن :

بقي علينا أن نتحدث عن تفاسير القرآن فبعض القطع فسرها محمد (ص) نفسه ولكن المؤسس الحقيقي(*) لعلم التفسير هو عبدالله بن عباس ، عم النبي (ص) ؛ وأقدم تفسير للقرآن لدينا هو للبخاري في الفصل الخامس

(*) نهاية الصفحة : «١٤٤» من النص الانكليزى .

والستين من الصحيح (طبعة كريهل ج٣ ص ١٩٣-٣٩٠)[١٤] ومع ان كتابات المفسرين الاوائل قد بادت تماما فان خلاصة تتبعاتهم مجسدة فى التفسير العظيم للطبري (المتوفى سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م) وهو رجل موسوعي استوعب الكمية الهائلة من الاحاديث الموجودة في زمانه بأكملها ، والتفاسير التي ظهرت بعده تستند الى حد بعيد على هذا المؤلف الضخم الذي طبع في القاهرة بثلاثين مجلدا ؛ وتفسير الزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م) الموسوم بـ « الكَشَّاف » ؛ وتفسير البيضاوي (المتوفى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) أشهر هذه التفاسير وأسماها مكانة في الشرق الاسلامي ؛ وثَمَّ كتاب أوسع نطاقا وهو « الاتقان » للسيوطي (المتوفى سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م) اذ يستعرض العلوم القرآنية استعراضاً عاماً ويمكننا أن نعده مدخلا لدراسة تحليلية للقرآن .

صفة الحديث الاسلامي :

مع ان كل باحث غير متحيز يعترف بعدالة ادعاء ابن قتيبة عندما يقول: « ليس لامة من الامم اسنادٌ كأَسْنَادهم »[١٥] فانه من الواجب عليه فى الوقت ذاته أن يوافق قلبيا على ملاحظة يبديها مسلم آخر ، وهي : « لم نر الصالحين في شيءٍ أكذب منهم في الحديث[١٦] ويجد القارىء أوفر تأكيد لهذا الحكم القاسي فى الجزء الثاني من كتاب « دراسات اسلامية » لگولد تزيهر[١٧]؛ وقد أصبح انتحال الاحاديث خلال القرن الاول

---

(١٤) أضاف نكلسن هذا السطر فى الملحق لانه لم يكن بوسعه اعادة كتابة الصفحة . [المترجم]

(١٥) من مقتبسات شپرينگر فى كتاب سبق ذكره ، ص ١ ويفسر نكلسن العبارة بقوله : « ليس لدينٍ براهين وأدلة تاريخية كالاسلام » .

(١٦) من مقتبسات نولدكه فى مقدمة كتابه : « تاريخ القرآن » ص ٢٢ .

(١٧) انظر بصورة خاصة الصفحات ٢٨ ـ ١٣٠ .

للهجرة سلاحاً سياسياً ودينياً معترفاً به أفادت منه جميع الاحزاب ، ومارس هذا النوع من التدليس حتى أكثر الناس تُقىً وادعوا ان الغاية تبرر الواسطة وقد عُبِّر عن وجهة نظرهم خير تعبير في الكلمات التالية التى يُظن ان النبي (ص) قد فاه بها [أو بما في معناها]: «عليكم أن تقارنوا ما ينسب(*) الي بالقرآن • فما وافقه فهو مني سواء أقلته بالفعل أم لا » وفي موضع آخر قال : « كل ما قيل من قول صالح فهو مني »(١٨)

وكنتيجة لهاتين القاعدتين اتخذ كل مبدأ جديد شكل حديث نبوي ؛ ودافع كل مذهب ونظام عن نفسه بالاستنجاد بسلطة محمد (ص) وبوسعنا أن نرى مدى ضخامة الاحاديث المنحولة المتداولة من حقيقة ان البخاري (المتوفى سنة ٢٥٧هـ/٨٧٠م) حين دوّن مجموعته الموسومة « بالصحيح » حددها بنحو (٧٠٠٠) اختارها من بين ٦٠٠،٠٠٠ حديث •

وصحة الاحاديث فيما يتعلق بحياة النبي (ص) لا يمكن بحثها فى هذا المجال(**) وتحوي بلا شك أقدم السير وأحسنها ، وهي لابن اسحق ، قدرا كبيرا من المواد الخرافية ؛ غير أن روايته على العموم تبدو مخلصة وصحيحة نوعاً ما •

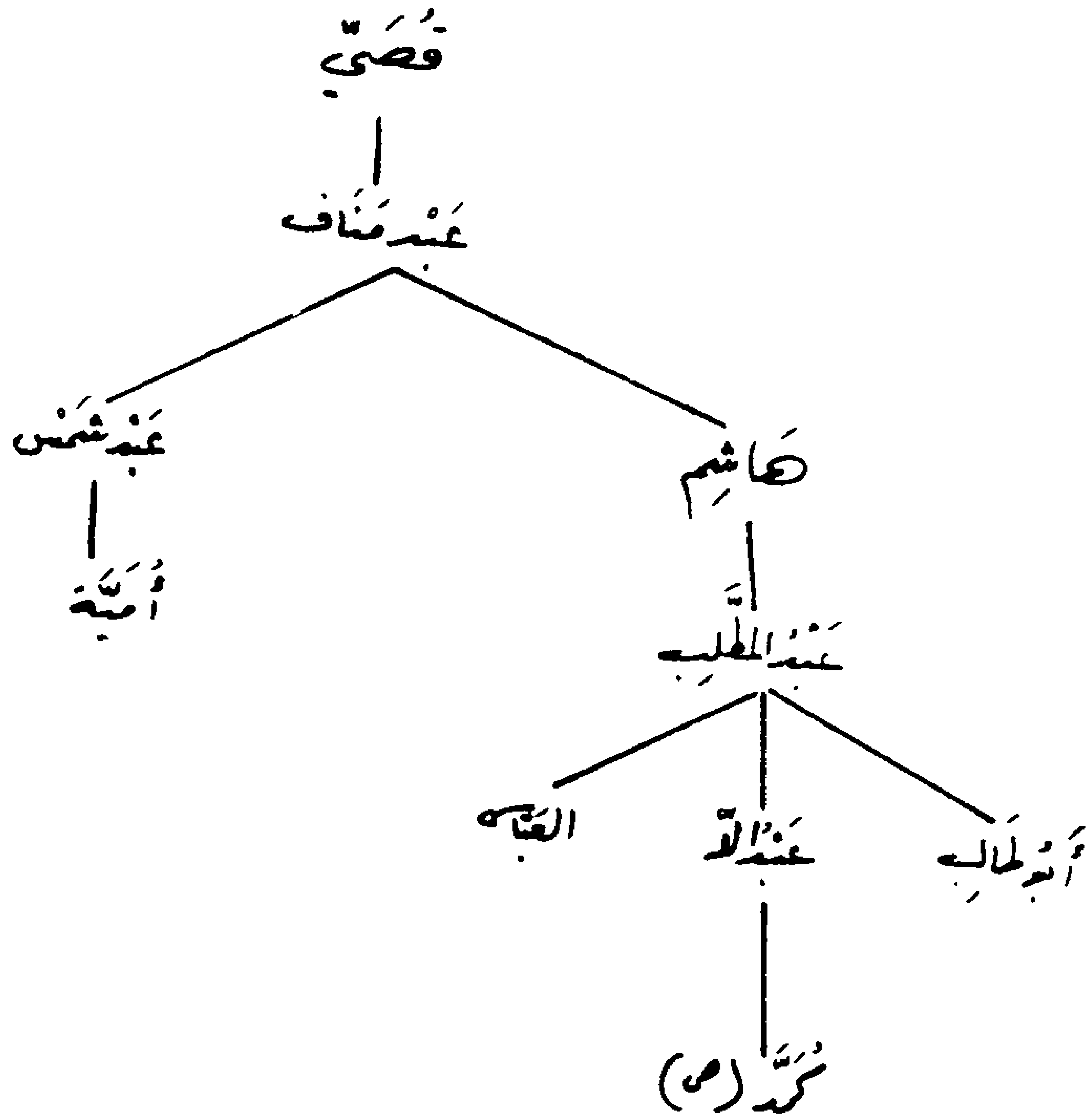
فاذا تقبلنا التسلسل التاريخي فان محمداً (ص) هو ابن عبدالله وآمنة من قبيلة قريش ، ولد في مكة في ١٢ ربيع الاول ، عام الفيل (٥٧٠-٥٧١م) وشجرة النسب التالية ترينا انحداره من قصي :-

---

(*) نهاية الصفحة : «١٤٥» من النص الانكليزى •

(١٨) دراسات اسلامية ، جـ ٢ ص ٤٨ وما يليها •

(**) بوسع القارىء أن يراجع مقدمة ميور لكتابه « حياة محمد » صص ٢٨ - ٨٧ والبحوث الحديثة (كايتاني ولامانس) أكثر شكا بكثير • راجع سنوك هرجرونيه : الاسلام (بالانكليزية) ص ٢٢ وما يليها [وهنا نهاية الصفحة «١٤٦» من النص الانكليزي] •



طفـولتـه :

بعد ميلاده بقليل عهد به الى مرضعة بدوية ـ حليمة ، امرأة من بني سعْد ـ فتنسم حتى بلوغه الخامسة الهواء النقيّ وتعلم الكلام بلغة الصحراء النقية ؛ ولعل حادثا خارقا واحدا قيل انه حصل له في هذا الوقت قائمٌ على حقيقة :ـ

محمد والملاكان :

قالت [حليمة السعدية] : انه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيـه لفى بَـهْمٍ[19] لنا خلف بيوتنا ، اذ أتانا أخوه يشتدّ[20] ، فقال لي ولابيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيض فاضجعاه ، فشقّا

(١٩) الصغار من الغنم واحدتها بهمة ٠
(٢٠) اشتد فى عدوه : أسرع ٠

بطنه ، فهما يسوطانه[٢١] فخرجت أنا وأبوه نحـوه ، فوجدناه قائمـاً منتقعاً[٢٢] وجهه . قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : «مالك يا بني ؟» قال : « جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيض ، فأضجعاني وشقا بطني ، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو » . قالت فرجعنا به الى خبائنا .

قالت : وقال لي أبوه : «يا حليمة ، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أُصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به » . قالت : « فاحتملناه فقدمنا به على امه » ، فقالت : « ما أقدمك به يا ظئر[٢٣] وقد كنت حريصةً عليه وعلى مُكثِهِ عندك ؟ » قالت فقلت : « قد بلغ الله بابني ، وقضيت الذي عليَّ وتخوفت الأحداث عليه ، فأديته اليك كما تحبين » . قالت : « ما هـــذا شأنك ، فاصدقيني خبركِ » ، قالت : فلم تدعني حتى أخبرتُهـا . قالت : «أفتخوفت عليه الشيطان؟» قالت قلت : «نعم». قالت «كلا ، والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وان لِبُنَيَّ لَشَأْناً . »[٢٤] اهـ .

والروايات الاخرى للقصة أكثر وضوحا ، فقد قيل ان الملاكـين اخرجا قلب محمد (ص) وغسلاه واستخرجا منه علقةً سوداء طرحاها ، أى طرحا لطخة الخطيئة الاولى[٢٥] .

---

(٢١) يقال سطت اللبن أو الدم اذا ضربت بعضه ببعض .

(٢٢) متغيراً .

(٢٣) العاطفة على ولد غيرها وتطلق على الذكر والانثى .

(٢٤) ابن هشام : ص ١٠٥ س ٩ وما يليه (الطبعة الاوربية) = جـ١ ص ١٧٣ ـ ١٧٤ (الطبعة المصرية ، تحقيق مصطفى السقا والابيارى وشلبى ، ١٩٣٦) .

(٢٥) يبدو ان هذه القصة ظهرت من التفسير الحرفى للآية الاولى من السورة ٤٤ « ألم نشرح لك صدرك ؟ » أي ألم نمنحك الراحة والاستنارة ؟ « نكلسن » [(★) وهنا نهاية الصفحة «١٤٧» من النص الانكليزى] .

توفي[٢٦] عبدالله قبل مولد ولده ، وعندما بلغ محمد (ص) السادسة توفيت والدته كذلك فكفل اليتيم باديء ذي بدء جده الشيخ عبدالمطلب ثم عمه أبو طالب وهو رجل فقير ولكنه شريف نفذ واجباته حامياً له بنبل حتى الساعة الاخيرة من حياته وسرعان ما نفد ميراث محمد (ص) الضئيل فراح يرعى الغنم(*) .

لقاؤه مع الراهب بحيرا : وفي سن الثانية عشرة صحب أبا طالب في رحلة تجارية الى الشام وقد قيل انه قابل أثناءها راهبا مسيحيا اسمه بحيرا اكتشف خاتم النبوة بين كتفي الغلام وباركه رسولا منتظراً(*) .

والحقيقة ان محمداً (ص) كان مجرد قرشي غير معروف الى أن نزل عليه الوحي ، ويندر أن نعتبر أي شيء متعلق به مما يمت الى ما قبل ذلك الحادث تاريخياً عدا زواجه بخديجة وهي أرملة كهلة ذات ثراء واسع ، وقد حصل ذلك عندما كان حوالي الخامسة والعشرين من عمره .

وكان محمد (ص) خلال الخمس عشرة سنة التالية مواطنا ثريا في مظهره لا يتميز عمن حواليه الا بتعبير معتاد من الحزن التأملي ويمكن تخمين ما كان يمر في خاطره بشيء من الاحتمال من الفاظه الاولى عندما تقدم واعظاً قومه . يقول سبحانه وتعالى(**) : « ألم يجدك ضالا فهدى ؟ » (القرآن ، السورة : ٤٣ الآية : ٧) فمتى وكيف بدأت عمليه التحول ؟ لا يمكن الرد على هذا السؤال ولكنه من الطبيعي ان نظن ان النتيجة المهمة

---

(٢٦) حذفنا قبل وبعد هذه الفقرة عبارات ندم نكلسن على كتابتها ولكنه لم يكن بوسعه رفعها من الطبعات المتتالية لان الصفحات كانت مصورة وبوسع القاريء أن يراجعها فى النص الانكليزى ان شاء .
[المترجم]

(*) هنا كذلك عبارة ندم عليها نكلسن — المترجم —

(**) حذفنا عبارة قبل هذا الكلام لا نوافق نكلسن عليها لانها مخالفة للحقائق الدينية التى نؤمن بها . [المترجم]

جدا التى يركز عليها مؤرخو سيرة محمد (ص)(★) انتباههم قد سبقت بفترة طويلة من التخمر والنضج •

الاحناف : ففكرة التوحيد كانت ممثلة فى بلاد العرب من قبل اليهود الذين كانوا بصورة خاصة يؤلفون عددا كبيرا في الحجاز ومن قبل عدة نِحَل غنوصية ذات طابع زهديّ ـ من نحو الصابئين[٢٧] والراكوسين؛ والى ذلك « فان التاريخ الاسلامي يعرف عددا من المفكرين الدينيين وصفوا بالحنفاء ظهروا قبل محمد (ص) »[٢٨] وأشهرهم ورقة بن نوفل من قريش ، وزيد بن عمرو بن نفيل وهو قرشي كذلك وأميّة بن أبي الصلت الثقفي ؛ ولم يكونوا نِحْلَةً كما تصور شپرينگر ، وقد أوضحت بحوث أكثر جدّةً عدم صحة نظرية نفس العالم الذى يقول انه كانت في الجاهلية حركة دينية واسعة النطاق قام محمد (ص) بتنظيمها وتوجيهها واستخدامها

(★) نهاية الصفحة : «١٤٨» من النص الانكليزي •

(٢٧) لقد أطلق العرب الوثنيون هذا الاسم الذى قد يعنى «المعمدين» على محمد (ص) وأتباعه وربما كان ذلك نتيجة قيامهم باداء فريضة الوضوء التى الزم بها كل مسلم قبل اداء الصلوات الخمس يوميا (انظر ڤيلهاوزن Reste Arab. Heid « بقايا الوثنية العربية » ص ٢٣٧) •

(٢٨) السر شارلس لايل : لفظتا « حنيف » و « مسلم » : مجلة الجمعية الآسيوية الملكية لسنة ١٩٠٣ ص ٧٧٢ ولم يعد ممكنا استقصاء المعنى الاصلي للفظة « حنيف » ولكن قد تكون ذات علاقة بلفظة « حانيف » العبرية (ومعناها المدنس) وتشير فى القرآن بصورة عامة الى دين ابراهيم وتبدو أحيانا مقاربة لمرادف « مسلم » ويجد القارىء معلومات اخرى فيما يتعلق بالاحناف فى مقالة السير شارلس لايل المشار اليها أعلاه • شپرينگر: حياة محمد وتعاليمه (بالالمانية) جـ١ ص ص ٤٥ ـ ١٣٤ ؛ ڤيلهاوزن Reste Arab. Heid. ص ٢٣٨ وما يليها ، كايتاني ، تاريخ الاسلام (بالايطالية) جـ١ ص ص ١٨١ ـ ١٩٢ •

لاغراضه الخاصة[٢٩] ؛ وكان الرواد العرب في هذا المجال ، اذا صح تسْميتهم بهذا الاسم ، مجرد أفراد منعزلين قلائل ؛ ويخبرنا ابن اسحق ان ورقة وزيد مع قرشيين آخرين رفضوا عبادة الاصنام وتركوا بيوتهم بحثاً وراء دين ابراهيم (ع) الصحيح وفي حين ان ورقة اعتنق المسيحية على ما يقال ، بقي زيد مرتداً تقياً دون أن تكون لـه صلة بالمسيحيـة أو اليهودية ، فاعتزل الاوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح عـلى الاوثان ونهى عن وأد البنـات تلك العـادة البربرية وقـال :(*) « أعبُـد ربَّ ابراهيم »[٣٠] . أما فيما يتعلق بأمية ابن أبي الصلت ، على ما يرويه عنـه كتاب الاغاني ، فقد نظر في الكتب السماية ، وقرأهـا ، ولَبِـس المسُوحَ تَعبُّداً ، وحرَّمَ الخمرَ وشكَّ في الاوثان ، وكـان مُحققـاً ، والتمس الدين الحق ، وقيل انه طمِعَ في أن يبعث نبياً في العرب ، فلما بُعث محمد (ص) حسده وناوأه بمرارة[٣١] . وشعر أمية الذى تُرجم بعضه في فصل سابق[٣٢] في موضوعات دينية بصورة رئيسة ويرينا نقاط تشابه عديدة مع المبادىء المبينة في السور الاولى من القرآن[٣٣] وكل الاحنـاف المدونـة

(٢٩) ما أكثر النظريات الغريبة التى حاكها الغربيون حول شخصية رسولنا الكريم (ص) والتى لم يتصد لها علماء المسلمـين بالرد والتفنيـد وبودى لو انها جميعا تترجم ويرد عليها ويرفق الرد بالاصل باللغة التى كتب بها . [المترجم]

(*) نهاية الصفحة «١٤٩» من النص الانكليزي .

(٣٠) ابن هشام ، ص ١٤٣ س٦ وما يليه [= الطبعـة المصرية ، جـ ١ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١] .

(٣١) الاغاني : ٣/١٨٧س ١٧ وما يليه [= طبعـة دار الكتب ، جـ٤ ص ١٢٢ س ٧ وما يليه] .

(٣٢) راجع ص ٦٩ من النص الانكليزى [= ص ١٢٣ من الترجمة العربية] .

(٣٣) أكبر الظن انها محاكاة من الشاعر لبعض الافكار القرآنية [المترجم]

أسماؤهم، باستثناء واحد فقط ، من الحجاز وغربي الجزيرة العربية وليس من شك في ان محمداً (ص) الذي كان معاصرا لاكثرهم ، قد تأثر بهم ولعله تلقى دافعه الاول من هذه الزمرة(٣٤) ؛ وفي حين أنهم لم يكونوا مهتمين الا بخلاصهم الذاتي تقدم محمد (ص) منطلقا من نفس النقطة الى ما وراء ذلك بكثير ، وليست عظمته في الافكار السامية التي كانت تثير حيويته بقدر ما هي في قوة دعوته الهائلة لضمير الانسانية العام والحماسة التي تكتنفها •

رؤيا محمد (ص) : يقال انه عندما بلغ محمد (ص) سن الاربعين جعل يرى أحلاما ورؤى ، ويرغب في الوحدة قبل كل شيء وقد اعتزل في كهف بجبل حراء ، بالقرب من مكة وعكف على التحنث (أي التقشف الديني) وذات ليلة من شهر رمضان(٣٥) ظهر له الملاك(٣٦) وقال : « اقرأ !(★) فأجابه : « ما انا بقارىء »(٣٧) ثم أمسك به الملاك بقوة قائلا :

---

(٣٤) تقرنه الروايات بصورة خاصة بورقة الذي كان ابن عم زوجته الاولى خديجة ويقال انه بارك له نبياً عندما كان محمد (ص) نفسه ما يزال مترددا (ابن هشام ، ص ١٥٣ ، س ١٤ وما يليه [= ج ١ ص ٢٥٤ من الطبعة المصرية]) •

(٣٥) هذه هي ليلة القدر المشهورة التي ذكرت في القرآن ، السورة : ٤٧ الآية الاولى •

(٣٦) هو روح القُدس وقد استبدل اسمه باسم جبريل في السور المدنية •

(★) نهاية الصفحة «١٥٠» من النص الانكليزي •

(٣٧) ولكن رواية اخرى (ابن هشام ، ص ١٥٢ س ٩ وما يليه = ج ١ ص٢٥٢ س ١٥ و ١٦ « الطبعة المصرية ») تمثل محمداً (ص) يرد على الملاك قائلا : (ما أقرأ ؟ أو ماذا أقرأ ؟) وقد أخبرني البروفيسور بيفان ان الرواية بهذه الصورة تحمل وجه شبه غريب ، لا يكاد يكون اعتباطياً ، مع الفاظ ايسايا (الفصل الاربعون ، الآية السادسة) : قال الصوت : اصرخ ؛ فقال : ماذا أصرخ ؟ » وقد ناقش نولدكه مسألة ما اذا كان النبي (ص) يحسن القراءة والكتابة (تاريخ القرآن ص ٧ وما يليها)

« اقرأ » ولما كان محمد (ص) ما يزال يرفض اطاعته فقد أمسك به بقوة مرة اخرى وقال :

« سورة العلق » (السورة السادسة والاربعون)

(١) اقرأ باسم ربّكَ[٣٨] الذى خلق (٢) خَلَقَ الانسانَ من عَلَق (٣) اقرأ ! وربُّكَ الاكرم (٤) الذي عَلَّم بالقلم[٣٩] (٥) عَلَّم الانسانَ ما لم يَعْلَمْ •

وعندما سمع محمد (ص) هذه الكلمات هرع مرتعدا الى خديجة وصاح « دثريني ! دثريني ! » وبقي مُدَثّراً حتى بارحه الرعب[٤٠] ؛ ويوضح حديث آخر يتعلق بنفس الحادث[★] ان الوحي حصل في

وتركها دون الوصول الى نتيجة ، وعلى رأى نولدكه ان صفة « أُمي » التي نعت بها محمد (ص) فى القرآن والتى تفسر عادة بالشخص الذى لا يحسن القراءة والكتابة ، لا تدل على انه يجهل القراءة والكتابة (كذا) ، بل مجرد انه لم يطلع على الكتب القديمة • قارن لفظة Centile .... وجاءفي القرآن، (السورة : ٢٩ الآية : ٤٧) : « وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون » •

(٣٨) معنى عبارة : « اقرأ باسم ربك » موضع نقاش وقد ترجمها بعضهم بعبارة Preach in the name of thy Lord عظ باسم ربك (نولدكه)أو Proclaim the name of thy Lord اعلن اسم ربك (هرشفيلد Hirschfeld) ولا أرى سبباً كافيا للتخلي عن التفسير التقليدي الذى تسنده الآيتان الرابعة والخامسة • لقد حلم محمد (ص) انه امر بأن يقرأ كلمة الله المكتوبة فى الكتاب السماوي الذى هو مصدر كل وحي •

(٣٩) يترجمها بعضهم بعبارة Who taught (the use of) the pen «الذى علم استعمال القلم» وقد ترجمها نكلسن : الذى علم بواسطة القلم •

(٤٠) هذه المعلومات عن الرؤيا الاولى لمحمد (ص) (البخاري ، طبعة كريهل ، جـ٣ ص٣٨٠ س ٢ وما يليه) مروية عن عائشة ، زوجته المحبوبة ، التى تزوجها بعد موت خديجة •

(★) نهاية الصفحة « ١٥١ » من النص الانكليزى •

حلم[٤١] . قال محمد (ص) : « وهببتُ من نومي ، فكأنما كُتِبَتْ في قلبي كتابا » ، ولن يبدو مدهشا ، اذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الافكار السائدة بين العرب في ذلك الحين عن موضوع الوحي[٤٢] ، ان محمدا (ص) ظن نفسه لاول وهلة قد تملكته احدى الارواح التى تعرف بمجموعها «بالجن» كما تتملك الشاعر أو الكاهن ، وكان قلقه الذهني الى درجة انه فكر حتى في الانتحار غير ان خديجة هدأت من روعه وأعادت الثقة الى نفسه وأخيرا حصلت لديه القناعة التى لا يمكن تغييرها وهي انه لم يكن فريسة لتأثيرات الارواح الشريرة بل انه نبي يوحى اليه ؟ ولمدة من الزمن لم يتلق وحياً جديدا[٤٣] ثم رأي فجأة ، كما روى هو فيما بعد ، الملاك جالسا على عرش بين الارض والسماء ، فهرع وقد تملكه الرعب ، الى منزله وطلب أن يُدثَّر وبينما كان على هذه الحال أوحيت اليه الآيات :

سورة المدثّر (السورة الرابعة والسبعون)

(١) يا أيها المدثّر (٢) قم فأنذر[٤٤] (٣) وربَّكَ فكبِّر (٤) وثيابَكَ فطهّرْ (٥) والرُّجْزَ[٤٥] فاهجرْ .

لم يعد محمد (ص) يشك في ان لديه رسالة قدسية يبشر بها بين

---

(٤١) ابن هشام ، ص ١٥٢ س٩ وما يليه = الطبعة المصرية ج١ ص ٢٥٣ س ٤ .

(٤٢) راجع أعلاه ، ص ٧٢ من النص الانكليزى [= ص ١٢٧ من الترجمة العربية] .

(٤٣) وتعرف هذه المدة « بالفترة » .

(٤٤) يترجمها نكلسن بلفظة Prophesy أي « تنبّأ » وهو تصرف لا معنى له !

(٤٥) ربما يشير بالرُجز الى عبادة الاصنام ، وعلى ما يقترح المستر ريجارد بيل (أصل الاسلام في محيطه المسيحي ص ٨٨) « بالانكليزية » فانلفظة الرُجز متماثلة علىأكبر احتمال مع اللفظة السريانية رگزه Rugza أي الغضب ، فهذه الآية من القرآن تعني : «اهرب من الغضب الذى سيحل» .

الملأ ؛ ومشاعر ارتياحه وامتنانه قد أُفْصِحَ عنها في عدة سور لهذه الفترة من نحو : ـ

سورة الضحى (السورة الثالثة والتسعون)

(١) والضُّحى (٢) والليلِ اذا سجى (٣) ما ودَّعكَ ربُّك وما قلى[*] (٤) ولَلآخرة خيرٌ لك من الاولى[٤٦] (٥) ولَسوف يُعطيك ربُّك فترضى (٦) ألم يجدكَ يتيماً فآوى (٧) ووجدك ضالاً فهدى (٨) ووجدكَ عائلاً فأغنى (٩) فأما اليتيم فلا تقهر (١٠) وأما السائلَ فلا تنهرْ (١١) وأما بنعمة ربكَ فحدِّثْ .

المسلمون الاوائل :

على رأي مؤرخي سيرة محمد (ص) انه مضت فترة ثلاث سنوات بين بعثته عليه السلام وظهوره مبشراً بين الملأ بما جاء به من دين ؛ وانه ليلتفت بادىء ذى بدء بطبيعة الحال ، الى اسرته واصدقائه ، ولكنه من الصعب أن نتقبل قول من يقول بأنه لم يدعُ الناس الى مشايعته جهارا خلال مثل هذه المدة الطويلة ؛ وقد أكد الزهري (المتوفى سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م) العكس في رواية قديمة رواها حيث نقرأ أن الرسول (ص) دعا الناس الى اعتناق الاسلام[٤٧] سراً وعلناً ، وان أكثر الذين استجابوا لدعوته كانوا شبانا ينتمون الى الطبقات الفقيرة[٤٨] ، على انه وجد بعض الاشياع المتنفذين ؛

(*) نهاية الصفحة «١٥٢» من النص الانكليزى .

(٤٦) الاشارة هنا اما الى مثوبة محمد (ص) فى الدار الثانية أو انتصار قضيته فى هذا العالم (نكلسن) .

(٤٧) الاسلام : مصدر من الفعل « أَسْلَمَ » ويعنى « الاستسلام » وبالمعنى الديني « الاستسلام لمشيئة الله » ويدل اسم الفاعل « مسلم » على من يستسلم على هذه الشاكلة .

(٤٨) شپرينگر : « حياة محمد » (بالالمانية) حـ ١ص ٣٥٦ .

وفضلا عن « خديجة » التى كانت أول من آمن به ، كان هناك ابن عمه « علي » ؛ وابنه بالتبني «زيد بن حارثة» ؛ والأهم من ذلك كله ، « أبو بكر ابن أبي قُحافة » ، أحد تجار قريش البارزين الذى كان محترما ومحبوبا بصورة عامة لاستقامته وحكمته ولطف مزاجه ؛ ويبدو ان محمداً (ص) قد تجنب بادىء ذي بدء كل ما من شأنه أن يعدّ اثارة للوثنيين ، مقتصرا على التعميمات الاخلاقية والدينية(★) ، بحيث آمن به الكثيرون واعتبره الاريستوقراطيون المكّيون أنفسهم بشيء من التسامح اللطيف داعية تنبؤات ورؤى ، لا ضير منه ؛ فقد كانوا يقولون عندما كان يمر بهم : « انظروا ! هذا هو الرجل من بني عبدالمطلب الذي يُنبيءُ عن السماء » .

عِداء قريش : ولكنه ما عتّم ان أكّد وحدة الله وكراهية عبادة الاوثان والتبشير ببعث الموتى حتى تضاءل أنصاره ازاء المناوأة المُرّة التي أثارتها هذه المبادىء في صفوف قريش الذين رأوا في الكعبة وعبادتها المهيبة المنبع الرئيس لرفاههم التجاري وقد أهاجهم تصريح الرسول (ص) بأن أسلافهم يحترقون في نار جهنم وقد أمّن نفوذُ أبي طالب السلامة الشخصية لمحمد (ص) ، وحافظت المشاعر العائلية القوية التى تسم المجتمع العربي القديم على بعض أفراد العصبة الصغيرة التى بقيت على اخلاصها وايمانها ، ولكن الكثيرين منهم كانوا مساكين بدون أصدقاء ؛ وتعرض هؤلاء ، ولا سيما العبيد منهم ، الذين اجتذبتهم أفكار المساواة في الاسلام بأعداد كبيرة لاضطهاد قاس[٤٩] مع ذلك فقد استمر محمد (ص) في وعظه ؛ وقد

(★) نهاية الصفحة «١٥٣» من النص الانكليزى .

(٤٩) يجب أن نتذكر ان هذا الفرع من الاحاديث الاسلامية يرجع الى تقاة القرن الاول للهجرة الذين كانوا يستنكرون الدولة الاموية الحاكمة من أعماق قلوبهم فانتقموا لانفسهم بتصوير سلوك الاسلاف المكين لبنى امية تجاه محمد (ص) بأشد الالوان الممكنة سوادا ولكن الحقائق تروي قصة

روي انه أجاب عمه أبا طالب الذى أنبأه عن الموقف التهديدي لقريش ورجاه ألا يحمّله من الامر ما لا يطيق : « يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامرَ حتى يُظهرَهُ الله أو أهلك فيه ، ما تركتُه »(٥٠) غير ان التقدم(*) كان بطيئاً ومؤلماً ؛ فالمكيون وقفوا محايدين بعناد ، هازئين في الوقت ذاته من سلطته النبوية والعقاب الرباني الذي أراد أن يرعبهم به ٠

الهجرة الى الحبشة : والى ذلك فقد استعملوا كل أنواع الضغط دون الوصول الى العنف الفعلي لاغواء أتباعه فارتد العديد منهم ، وفي السنة الخامسة من نبوته وجد نفسه مضطرا الى الامر بهجرة عامة الى مملكة الحبشة المسيحية حيث يُرحبُ بالمسلمين بذراعين مفتوحتين(٥١) وينسحبون من ميدان الاغراء(٥٢) فرحل حوالي مائة رجل وامرأة الى

اخرى ، والمهم انه لا توجد أي حالة اضطهاد حقيقية ذكرها القرآن فقد سمح لمحمد (ص) بأن يمكث فى مكة وان يستمر لسنوات عديدة على دعاية دينية اعتبرها مواطنوه ، باستثناءات قليلة ، بغيضة وخطرة ، ويحق لنا أن نتعجب من اعتدال قريش الذى لم يكن سياسة متقصدة قدر ما كان نتيجة عدم مبالاتها بالدين واخفاق محمد (ص) فى التقدم بصورة محسوسة فى مكة « نكلسن » ٠

لا يمكننا أن ننكر وجود الاضطهاد القرشي الاموي ازاء الاسلام ولولاه لما كانت بدر ولا أُحد   [المترجم]

(٥٠) ابن هشام ، ص ١٦٨ س ٩ وما يليه [وخص الشمس باليمين لانها الآية المبصرة وخص القمر بالشمال لانها الآية المحوة ، ابن هشام ، الطبعة المصرية ، ١/٢٨٥هـ١] ٠

(*) نهاية الصفحة : «١٥٤» من النص الانكليزى ٠

(٥١) فى هذا الوقت كان محمد (ص) يعتقد بأن مبادىء الاسلام والمسيحية واحدة فى جوهرها ٠

(٥٢) الطبري : ١/١١٨٠ س ٨ وما يليه ؛ قارن كايتاني ، تاريخ الاسلام (بالايطالية) ج ١ ص ٢٦٧ وما يليها ٠

المنفى ، تاركين نبيهم مع جماعة صغيرة من رفقائهم الاشداء المخلصين ، ليواظبوا على صراع غدا أكثر صعوبة يوما بعد يوم(*) .

* * *

بوسعنا أن نضع ببضع كلمات رؤوس أقلام لمجرى الحوادث الاخرى التي بلغت ذروتها في هجرة محمد (ص) الى المدينة ، فالاضطهاد أصبح أعنف من ذي قبل لان النبي (ص) الذي نهض عملاقا نشيطا رمى بكل قواه في التنديد بعبادة الاصنام ، وقد أعطى اعتناق عمر بن الخطاب (رض)، خليفة المستقبل ، رجل « الدم والحديد » ، اشارة للثورة العلنية « ولم يعد المسلمون يخفون عبادتهم داخل مساكنهم ، بل أخذوا يجتمعون بقوة واعية ووَضْعِ تحدٍ ، جماعاتٍ جماعاتٍ حول الكعبة يصلون محيطين بالبيت المقدس وعلت جرأتهم وتملك قريشاً الفزع والقلق » وانتقمت الاخيرة بقطع علاقاتها كافة مع بني هاشم الذين قطعوا على أنفسهم العهد للدفاع عن ابن اسرتهم سواء اعترفوا بنبوته أم لم يعترفوا وهذا المنع أو المقاطعة عزلهم في حارة من المدينة نائية حيث تحملوا لاكثر من سنتين أقصى حالات الفاقة التي لم تأت الا بزيادة ولائها لمحمد (ص) ، وفي الاخير حملت الانشقاقات بين قريش نفسها قريشاً على رفعها .

وفاة خديجة وأبي طالب :

بعد هذا بقليل مُنيَ النبي (ص) بخسارة مزدوجة ـ موت زوجته

(*) حذفنا بعد هذا الكلام « قصة الغرانيق » التي نقلها نكلسن عن الطبري : ٣/١١٩٢ ـ ١١٩٦ لاننا لا نؤمن بصحتها من جهة ولانها تسيء الى سمعة الرسول (ص) من جهة اخرى وقد فندها المستشرق الايطالي الاميرليو كايتاني في كتابه القيم : « تاريخ الاسلام » (بالايطالية) الذي ظهر الجزء الاول منه سنة ١٩٠٥ [راجع تفاصيل نقده للقصة في الصفحة ٢٧٩ وما يليها] وقد حذف ابن هشام كل ذكر لهذه الحكاية من سيرة الرسول (ص) وأنكرها الكثيرون من فقهاء المسلمين الثقاة .

خديجة الذى أعقبه موت أبي طالب ، ذلك النبيل الذى وان لم يعتنق الاسلام فقد بقي ثابتاً حتى النهاية دفاعاً عن ابن أخيه ؛ وتحقق محمد (ص) بعد أن ترك وحيدا ليحمي نفسه أنّ عليه أن يتخذ خطوة حاسمة فقد كان الموقف حرجاً وقد أظهرت الحوادث ان ليس ثَمَّ ما يأمله بل ثَمَّ كل ما يخشاه من اريستوقراطية مكة ، وقد أنذرهم مرة بعد اخرى عن القارعة التي ستحل ؛ مع ذلك لم يعيروه اهتماما وقد كان الآن مقتنعا بأنهم لا يرغبون في أن يؤمنوا وليس بوسعهم ذلك لان الله قد قرر لهم ، بحكمته التى لا يفهم قصدها ، اللعنةَ الأبدية وعلى ذلك فقد عزم على تصميم جريء وباسلوب التفكير العربي ، على تصميم بغيض(*) ألا وهو التخلي عن أفراد قبيلته والبحث عن مساعدة من الغرباء(٥٣) وبعد أن استنجد عبثاً بأهل الطائف التفت صوب المدينة حيث يمكن لافكار الاسلام الثورية أن تثبت جذورها وتزدهر بصورة أسرع بين سكانها ، المؤلفين الى حد كبير من اليهود ، مما

(*) نهاية الصفحة : «١٥٨» من النص الانكليزى .

(٥٣) يمكننا أن نتبين وجهة النظر المكيّة عن عمل محمد (ص) من الكلمات التى فاه بها أبوجهل فى معركة بدر : اللهم اجعل نقمتك على أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنْه الغداة (الطبري ، ١/١٣٢٢ س ٨ وما يليه = ج ٢ ص ١٥٠ أسفلها [طبعة القاهرة ١٩٣٩])وينشد شاعر مكي مشيرا الى المسلمين الذين تخلوا عن مدينتهم الاصلية وهربوا مع النبي (ص) الى المدينة (ابن هشام ، ص ٥١٩ س ٣–٥) [= طبعة مصطفى السقا ، ج٣ ص١٣ س١–٣ والابيات للحارث بن هشام بن المغيرة ردا على قصيدة لعلي بن أبي طالب من نفس الروى والوزن] :

أصيبوا كراماً لم يبيعوا عشيرةً
بقومٍ سواهم نازحي الدار والاصلِ
كما أصبحتْ غسّانُ فيكم بطانةً
لكم بدلاً منا فيا لك من فعلِ
عُقُوقاً واثماً بيّناً وقطيعةً
يرى جوركم فيها ذوو الرأي والعقلِ

في المدينة المقدّسة للوثنية العربية ، ولم يخِبْ ظنه هذه المرة ، فقد نادى به نبياً حقاً فريق كبير في المدينة واعتنقوا دينه بشوق وأقسموا على الدفاع عنه مهما كانت الظروف ؛ وفي ربيع سنة ٦٢٢م ترك مسلمو مكة منازلهم بهدوء وساروا شمالا ؛ وبعد بضعة أشهر (في ايلول ٦٢٢) دخل محمد (ص) نفسه ، بعد أن تجنب مراقبة قريش اليقظة ، المدينة منتصرا وسط الجماهير المزدحمة والهتافات الجديرة بفاتح ظافر •

الهجرة (الى المدينة) ٦٢٢م :

هذه هى الهجرة المشهورة التى تحدد ختام عهد البربرية (الجاهلية) وبداية العهد الاسلامي وتحدد كذلك عهدا جديدا فى تاريخ النبي (ص) ولكن قبل أن نحاول بيان طبيعة التغير نرى من الملائم أن نقدم بعض المعلومات عن تعاليمه المبكرة وتبشيره الاستهلالي كما هو موضح في ذلك الجزء من القرآن الذى اوحي اليه في مكة ، لنكوّنَ فكرة أصح عن سلوكه •

القرآن : اشتقت لفظة « القرآن » من الفعل العربي « قرأ » وتعني القراءة بصوت مرتفع أو الانشاد ، ويمكن اطلاق هذه التسمية أما على ايحاء منفرد أو على عدة ايحاءات تتلى معاً أو كما هو المعتاد ، على مجموعة الايحاءات برمتها التى يعتقد المسلمون انها كلام الله فعلا وحرفا، فهم على ذلك عندما يقتبسون من القرآن يقولون : « قال الله تعالى » وكل ايحاء يكوّن سورة مستقلة(٥٤) مؤلفة من آيات مختلفة الطول لا وزن لها ولكنها على العموم مسجّعة ، وهكذا فان اسلوب القرآن فيما يتعلق بمظهره

---

(٥٤) السورة بمعناها الاصلي صف من الاحجار أو الطابوق فى الجدار •

الخارجي قائم على السجع[٥٥] أو النثر المقفى ويمكننا أن ننعته منصفين بأنه أصيل مبتكر[★] وقد وقع الاسلوب بين السجع والشعر وهما الشكلان الوحيدان للاسلوب الرفيع المعروف عند العرب آنذاك ٠

هل كان محمد شاعراً ؟ لقد صرح هو نفسه بأنه ليس بشاعرٍ[٥٦] وهذا صحيح[٥٧] ، على انه يجب أن تتذكر بأن تبرأه لا يُشير بالدرجة الاولى الى الفن الشعري بل على الارجح الى شخص الشعراء وسلوكهم بالذات ؛ فهو النبي الموحى اليه لا علاقة له باناس مدينين بوحيهم الى الشياطين وقد هللوا لمثل الوثنية العليا التى كان يناضل للتغلب عليها ؛ « والشعراء يتّبعهم الغاوون ، ألم تر انهم في كل وادٍ يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون ؟ » (القرآن ، السورة ٢٦ الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٦) لم يكن محمد (ص) من هؤلاء[★★] ٠

السور المكية :

يقول نولدكه : « ان غرض محمد (ص) الاوحد في السور المكية هو تحويل الناس بالامتناع عن آلهتهم المزيفة الى الاله الواحد الأحد والى أي اتجاه قديوجه الحديث ؛ فهذه هي الفكرة الاساسية دائماً ، ولكنه بدلا من التشبث باقناع عقول سامعيه بالبراهين المنطقية كان يستخدم فنون البلاغة للتأثير على أذهانهم بطريق الخيال[٥٨] ؛ وعلى ذلك يمجد الله ويصف

---

(٥٥) راجع الصفحة ٧٤ أعلاه من النص الانكليزي [= ص ١٣٠ من الترجمة العربية]

(★) حذفنا هنا عبارة منافية للعقيدة الاسلامية ٠ [المترجم]

(٥٦) القرآن : السورة : ٦٩ الآية ٤١ ٠

(٥٧) حذفنا عبارة هنا للسبب السابق ذاته [المترجم]

(★★) حذفنا هنا فقرة لمنافاتها للمعتقدات الاسلامية [المترجم]

(٥٨) هذا كلام رجل لم يقرأ القرآن بروية ولم يتبين ما فيه من براهين منطقية ناصعة ٠ [المترجم]

عمله في الطبيعة والتاريخ ويستهزىء من الناحية الثانية بعقم الاصنام ؟ والمهم بصورة خاصة أوصاف النعيم الأبدي للمتقين وعذاب الاشرار ؟ وهذه ، ولا سيما الاخيرة ، يجب أن تعتبر احدى العوامل الجبارة في انتشار الاسلام عن طريق الانطباع الذي تتركه في مخيلة البسطاء (كذا)(٥٩) الذين لم يتصلبوا بعد من شبابهم فصاعداً ، بأفكار لاهوتيّة مماثلة ، وكثيراً ما يهاجم النبي (ص) خصومه الوثنيين شخصياً ويهددهم بالعقاب الأبدي ، وفي الوقت الذي يعيش فيه بين الوثنيين وحدهم قلما يهاجم اليهود الذين يقفون فى وضع أقرب اليه بكثير ، ولا النصارى اطلاقاً(٦٠) اهـ .

يجب(★) علينا أن نبحث في السور القصيرة الموضوعة في نهاية القرآن عن برهان على الموهبة النبوية لمحمد (ص) وهذه أقدمها على الاطلاق وفيها يتقد لهب الوحي نقيا ولا تخفت قوته الطبيعية وقد ترجمنا فيما يلي سورا وهى كسابقتها التى قدمناها تحاكي الاصل عن كثب ، على ما أعتقد ، على قدر ما هو ممكن في الانكليزية ، وليس بامكانها بطبيعة الحال أن تقدم أكثر من فكرة ضئيلة عن التأثير القوى للغة العربية الرنانة عندما تقرأ بصوت مرتفع . لقد وضع القرآن فى الاصل للترتيل ويجب أن يسمع لكى يقدر بما يستحقه .

---

(٥٩) لو كان الامر كما يقول نكلسن لما اعتنق الاسلام طائفة من أساطين مفكري الغرب الذين أتينا على ذكرهم فى كتابنا : « الاسلام ، ذلك ما اخترناه ! » (بالانكليزية) . [المترجم]

(٦٠) نولدكه : «تاريخ القرآن» ، ص ٥٦ [يظهر ان نولدكه ونكلسن لم يقرآ الآية ١٢٠ من سورة « البقرة » ولا الآيات ٥١ و٦٤ و٨٢ من سورة « المائدة »] « المترجم » [وهنا نهاية الصفحة ١٦٠ من النص الانكليزي] .

(★) حذفنا قبل هذا الكلام فقرة أساء فيها نكلسن الموازنة بين القرآن الكريم والعهد القديم ، ولا نقره عليها مطلقا ! [المترجم]

سورة الانفطار « مكية » (السورة الثانية والثمانون) :

(١) اذا السماء انفطرت (٢) واذا الكواكب انتثرت (٣) واذا البحار فجّرت (٤) واذا القبور بعثرت (٥) علمت نفسٌ ما قدمت وأخّرتْ (٦) يا أيها الانسان ما غرّك بربك الكريم (٧) الذي خلقك فسوّاك فعدلك (٨) في أيّ صورة ما شاء ركّبك (٩) كلا بل تُكذّبون بالدين[٦١] (١٠) وإنّ عليكم لحافظين[٦٢] (١١) كراماً كاتبين[*] (١٢) يعلمون ما تفعلون (١٣) ان الابرار لفي نعيم (١٤) وان الفُجّار لفي جحيم (١٥) يَصْلَوْنَهَا يوم الدين (١٦) وما هم عنها بغائبين (١٧) وما أدراك ما يومُ الدين (١٨) ثم ما أدراك ما يومُ الدين (١٩) يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والامرِ يومئذٍ لله .

سورة البروج (السورة الخامسة والثمانون) :

(١) والسماء ذاتِ البروج (٢) واليوم الموعود (٣) وشاهدٍ ومشهود (٤) قُتِلَ أصحابُ الاخدود (٥) النارِ ذات الوَقود (٦) اذ هم عليها قعود (٧) وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود[٦٣] (٨) وما نَقَموا منهم الا أَنْ يؤمنوا بالله العزيز الحميد (٩) الذى له ملك السماوات والارض واللهُ على كل شيء شهيد (١٠) ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثُمّ لم يتوبوا فلهم عذابُ جهنّمَ ولهم عذابُ الحريق (١١) ان الذين آمنوا وعَمِلوا

---

(٦١) يوم القيامة .

(٦٢) يعتقد المسلمون ان لكل انسان ملاكَيْن يدونان له أفعال الخير والشر (نكلسن) .

(*) نهاية الصفحة ١٦١ من النص الانكليزى .

(٦٣) يُعتقد بصورة عامة ان هذه الآية تشير الى اضطهاد ذي نواس لنصارى نجران (راجع الصفحة ٢٦ أعلاه من النص الانكليزى [= ص ٦٥ـ ٦٦ من الترجمة العربية] ويعتبرها گايگر Geiger اشارة الى الرجال الثلاثة الذين قذف بهم فى اتون النار : سفر دانيال ، الفصل الثالث) .

الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الانهار ذلك الفوز الكبير (١٢) ان بطش ربكَ لشديد (١٣) انه هو يبديءُ ويُعيد (١٤) وهوَ الغفورُ الودود (١٥) ذو العرشِ المجيد (١٦) فعّالٌ لما يُريد (١٧) هل أتاك حديثُ الجنود ؟ (١٨) فرعونَ وثمود[٦٤] (١٩) بَلِ الذين كفروا في تكذيب (٢٠) واللهُ من ورائهم محيط (٢١) بل هو قرآنٌ مَجيد (٢٢) في لوحٍ محفوظ[٦٥] .

سورة القارعة (السورة الحادية بعد المائة) :

(١) القارعة (٢) ما القارعة ؟ (٣) وما أدراك ما القارعة ؟ (٤) يوم يكون الناس كالفَراش المبثوث (٥) وتكون الجبالُ كالعِهن المنفوش (٦) فأما من ثقلت موازينُهُ (٧) فهو في عيشةٍ راضية (٨) وأما من خفت موازينُه (٩) فامُّهُ هاوية" (١٠) وما أدراك ما هيه ؟ (١١) نارٌ حامية .

سورة الكافرون (السورة التاسعة بعد المائة) :

(١) قل يا أيُّها الكافرون (٢) لا أعبُدُ ما تعبُدون (٣) ولا أنتم عابدون ما أعبُدُ (٤) ولا أنا عابدٌ ما عبدتُم (٥) ولا أنتم عابدون ما أعبُدُ (٦) لكم دينكُم وَلِيَ دين .

تعاليم محمد (ص) فى مكة :

وخلاصة المبادىء الاساسية التى دعا اليها محمد (ص) خلال العهد المكي هي :ـ

١ ـ لا اِلـه اِلا الله .

---

(٦٤) راجع أعلاه ، ص ٣ (من النص الانكليزى) [= ص ٣٣ـ٣٤ من الترجمة العربية] (وهنا نهاية الصفحة «١٦٢» من النص الانكليزي) .

(٦٥) النص الاصلي للقرآن والكتب السماوية الاخرى مدوّن حسب العقيدة الاسلامية فى اللوح المحفوظ فى السماء .

٢ ـ محمد رسول الله ، والقرآن كلام الله الموحى به الى رسوله •

٣ ـ الموتى يُبعثون يوم القيامة حيث يُقاضى كل انسان حسب أعماله في الحياة الحاضرة •

٤ ـ يدخل الصالحون في الجنّة والاشرار في النار •

لنأخذ هذه المبادىء على انفراد ونتبين بتفصيل أكثر كيف قُدمَ كل منها وبأى الحجج أُسند ، فالوقت لم يحن بعد لاشهار(*) السيف : فمحمد (ص) يكرر مرة بعد اخرى انه نذير وليس له سلطان للاكراه حيث لا يمكن الاقناع •

١ ـ وحدانية الله :

كان المكيون يعترفون بمكانة الله المثلى غير أنهم أهملوه في الظروف الاعتيادية من أجل أصنامهم وعلى هذا يقول الله تعالى : (٦٧) « واذا مسّكُمُ الضُرُ في البحرِ ضَلَّ من تدعون اِلا اياه ، فلما نجّاكم الى البر أعرضتم وكان الانسانُ كفورا »(٦٦) وكانوا شديدي التعلق بعبادة الكعبة لا لمنفعتهم الشخصية فحسب بل لدوافع من الخشوع تجاه أسلافهم أسمى من ذلك والاعتداد بتقاليدهم وقد اعتبر محمد (ص) اللهَ ربَّ الكعبة ودعا قريشاً لعبادته بهذه الصفة • (القرآن ، السورة ١٠٦ الآية ٣)(٦٧) وعندما رفضوا ذلك على أساس انهم يخشون أن تقوم العرب ضدهم وتخرجهم من أرضهم أكد لهم ان الله سبب كل ما عندهم من رخاء (القرآن ، السورة : ٢٨ الآية

(*) نهاية الصفحة ١٦٣ من النص الانكليزى •

(٦٦) القرآن ، السورة ١٧ (سورة الاسراء) الآية ٦٧ [وقد ذكر نكلسن سهوا الآية ٦٩ ، كما انه قال : « يتشكى محمد (ص) قائلا » فأبدلناها بعبارة : « يقول الله تعالى »]

(٦٧) سورة قريش : الآية : « فليعبدُوا ربَّ هذا البيت » [اضافة من المترجم] •

٥٧)[٦٨] على أن نقاشه الاساسي مستمد من ضعف أصنامهم التى لا تستطيع أن تخلق حتى ذبابة بالمقارنة مع المظاهر الرائعة للسلطان القدسي والعناية الالهية في خلق السماوات والارض والكائنات الحية جميعاً[٦٩] .

ومن المحتمل ان ربّ محمد (ص) أوجز أفكاره التوحيدية في الشهادة التأكيدية التالية وذلك قبيل انتهاء الفترة المكية :

سورة الاخلاص[٧٠] (السورة الثانية عشرة بعد المائة) :

(١) قل هــو الله أحــد **(٢)** الله الصمــد[٧١] **(٣)** لم يلد ولم يولد **(٤)** ولم يكن له كُفُواً أحد[★] .

٢ ـ محمد رسول الله :

لقد رأينا أنه عندما ظهر محمد (ص) رسولاً ظنّه الكل ، باستثناء نفر جد قليل ، مجنوناً أي قد تملكه جني ، إذا سُمح لي باستعمال لفظة قد تعود بالقارىء الى كتاب « الف ليلة وليلة » ؛ وقد قابل العرب الجاهليون مثل هؤلاء الاشخاص ـ العرافين والكهنة والشعراء ـ بشيء من الاحترام . ولو كان « جنون » محمد (ص) قد اتخذ سبيلا اعتيادية فان ادعاءه الوحي ما كان ليقابل بالتحدي والاعتراض ؛ وان ما دفع قريش لمعارضته لم يكن عدم الاعتقاد بوحيه ـ فما كان ليهمهم الا قليلا ما اذا كان تحت تأثير سحر الله أو أحد الجان ـ بل حقيقة تبشيره بمبادىء جرحت عواطفهم وهددت

---

(٦٨) سورة القصص الآية : وقالوا أن نتّبع الهُدى معك نُتَخطَّفْ من أرضنا ، أَوَ لَمْ نمكّن لهم حَرماً آمناً يُجبى اليه ثمراتُ كلِّ شيء رزقاً من لدنّا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » [اضافة من المترجم]

(٦٩) راجع على سبيل المثال الآيات التى ترجمها لين فى كتابــه : « منتخبات من القرآن » (لندن ، ١٨٤٣) الصفحات ١٠٠ ـ ١١٣ .

(٧٠) الاخلاص معناه تطهير الذات من الاعتقاد بأي إلـه عدا الله .

(٧١) الابدي .

(★) نهاية الصفحة «١٦٤» من النص الانكليزى .

مؤسساتهم وأتت على أعز تقاليد الحياة العربية القديمة من القواعد ؛ ولكي يقاوموا بنجاح الدعاية التي زعم لها دافعا سماويا اضطروا الى ان يقارعوه بنفس السلاح ويدعوا أنه ليس بنبيّ اطلاقا ولا برسول الله ، كما يؤكد هو ، بل مجرد « كذاب أشر »(٧٢) و « مجنون مثقف » و « شاعر مفتون » وما الى ذلك ؛ وان قرآنه الذي يقدمه كلاماً لله لم يكن غير (أساطير الاولين) أو ابتداع شاعر ، وصرخوا : « أليس هو رجلا مثلنا ، يروم السيطرة علينا ؟ فليطلع علينا بمعجزة لنؤمن » ولم يكن بوسع محمد (ص) الا أن يكرر تأكيداته السابقة وينذر الكفار بعقاب هائل ينتظرهم إما في هذه الدنيا أو في الاخرى • وقد قارن نفسه مرة بعد اخرى بالانبياء القدامى ــ نوح، وابراهيم ، وموسى وخلفائهم ــ الذين مثلوا مستخدمين نفس أساليب الجدل أو النقاش متلقين نفس الاجوبة كمحمد (ص) ، ويدعو قومه للاستماع اليه لئلا يهلكوا كما هلك الكافرون من قبلهم ، ويقول ان صدق القرآن مبرهن في التوراة والانجيل وكلها من وحي الله الواحد الأحد ولذلك فهي متماثلة في مادتها ، وما هو بكاهن مأجور ولا يروم(*) نفعاً شخصياً ومهمته مجرد التبشير ؛ ولم يستطع أن يستجيب لطلب معجزة الا بالاشارة الى أحلامه عن الملاك والاشارة بصورة خاصة الى القرآن نفسه ، فكل آية منه علامة متميزة أو معجزة ولذلك سميت (بالآيات)(٧٣) ، فاذا كان قد

(٧٢) كبرت كلمةً تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذباً •

(*) نهاية الصفحة «١٦٥» من النص الانكليزى •

(٧٣) ان اعتراف النبي (ص) بعدم قدرته على عمل المعجزات لم يمنع من اختراعها بعد موته ، وهكذا قيل انه جعل الكافرين يرون «القمر منفطرا» (القرآن ، السورة ٥٤ «سورة القمر » ، الآية الاولى : « اقتربت الساعة وانشق القمر ») ولو ان هذه الالفاظ كما هو واضح من النص تشير الى احدى علامات يوم القيامة [نكلسن] •

اخترعها ، فلم اذن لا يستطيع خصومه أن ينتجوا ما يضارعها ؟ « قل : لئن اجتمعتِ الانسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتون بمثلِه ولو كان بعضُهم لِبعضٍ ظهيراً » (القرآن : السورة : **١٧** «سورة الاسراء» الآية **٨٨**)[٧٤] .

٣ ـ القيامة والعقاب :

ان مثل هذه الافكار عن حياة مقبلة على نحو ما كان شائعا في بلاد العرب أيام الجاهلية لم تخرج عن دائرة الخرافات البربرية الغامضة من مثل تخيلهم قبر الميت مسكونا من لدن روحه في صورة بومة تصرخ[٧٥] فلا عجب اذن أن تبدو أفكار القيامة والعقاب التي تدعمها التهديدات والمجادلات في كل صفحة من صفحات القرآن تقريباً غير مقنعة بالنسبة لمشركي مكة ، وقد قال بعض شعرائهم[٧٦] [من الوافر] :

---

(٧٤) ذكر نكلسن الآية ٩٠ خطأ . [المترجم]

(٧٥) انتهز هذه الفرصة لاوجه انتباه القارىء الى مقالة جد ممتعة لصديقي وزميلي البروفيسور أ٠أ٠ بيفان وعنوانها : « معتقدات المسلمين الاوائل فيما يتعلق بوجود مقبل » (مجلة الدراسات اللاهوتية ، تشرين الاول ١٩٠٤ ، ص ٢٠ وما يليها) حيث نوقش الموضوع بأكمله مناقشة تامة [نكلسن] .

(٧٦) شداد بن الاسود الليثي ، ورد ذكره في رسالة الغفران لابى العلاء المعري (راجع مقالي في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية لسنة ١٩٠٢ ص ٩٤ و ٨١٨) قارن ابن هشام ص ٥٣٠ السطر الاخير [= ج ٣ ص ٣٠ السطر الاخير من طبعة السقا]) ابن (أبى) كبشة كنية تهكم اطلقت على محمد (ص) ولفظتا « الصدى » و « الهامة » تشيران الى طائر الموت الذى كان يظن عموما انه يطلق صرخته من هامة الميت ويمكن ترجمة كلتا اللفظتين ب "Soul" أو "Wraith" [وقد أورد نكلسن البيت : أيوعدنا « ابن كبشة » أن سنحيا ... الخ فاستعضنا عن ذلك بالنص الذى أورده ابن هشام في الطبعة المصرية ، غير انه ورد فيها لفظة « لقاء » بدل « حياة » التى نصت عليها «رسالة الغفران» لابى العلاء المعرى ، طبعة الدكتورة بنت الشاطىء ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ٣٥٤] « المترجم »

يخبرنا الرسول لسوف نحيا وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ ؟
أتتركُ ان تردَّ الموتَ عنّي وتُحيينِي اذا بَليَتْ عظامي؟

وقد زوّد الله رسوله (ص) بجواب حاضر لهذا التهكم : « قل يُحييها الذي انشأها أولَ مرة وهو بكل خلقٍ عليم »(*) (القرآن ، السورة ، ٣٦ ، سورة يس ، الآية ٧٩) وقد صوّر الموضوع ببلاغة ، غير انه من المحتمل أن مستمعي محمد (ص) كانوا أقل تأثراً بقوة الله الخلاّقة كما هي موضحة في الطبيعة والانسان منهم بالامثلة الفظيعة لقوته المدمرة كما هي مبينة في التاريخ ، وقد سبقت الاشارة اليها ؛ وبدا لمحمد (ص) نفسه فى بداية بعثته شيئاً مخيفاً أن يقف يوماً ما ، أمام الله ليقدم حساباً ، فدفعه شعوره المسيطر عليه بمسؤوليته للتبشير آملاً انقاذ مواطنيه ، وزودته رغم ضعفه وخوفه بقوة لتحمل الغَيْبة والاضطهاد ؛ وأعظم سور القرآن كافة ، كما يشير نولدكه ، هى تلك التى يصف فيها محمد (ص) كيف ان الطبيعة كلها ترتعد وتهتز بحلول يوم القيامة • « انه كما لو أن الانسان يرى الارض بالفعل ترتجف ، والجبال تتفتت فتغدو ترابا ، ويُقذف بالنجوم هنا وهناك باضطراب متوحش »(٧٧) ؛ والسورتان الثانية والثمانون والحادية بعد المائة اللتان تُرجمتا في أعلاه(٧٨) نموذجان للاسلوب النبوي الصحيح(٧٩) •

(*) نهاية الصفحة «١٦٦» من النص الانكليزى •

(٧٧) نولدكه : « تاريخ القرآن » (بالالمانية) ص ٧٨ •

(٧٨) أى فى النص الانكليزى [المترجم]

(٧٩) راجع كذلك القرآن ، السورة ١٨ سورة الكهف والآيات ٤٥ ــ ٤٧ [ويبدو ان نكلسن يقصد الآيات ٤٧ــ٤٩ وهى : (٤٧) ويوم نُسيّر الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا (٤٨) وعُرضوا على ربك صفاً ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل

٤ ـ **الفردوس الاسلامي :**

ليس ثم من شيء روحاني في صور الجنة والجحيم(*) ، فالفردوس

زعمتم ألّن نجعل لكم موعدا (٤٨) ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادرصغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلِمُ ربك أحدا » ، وكذلك السورة ٢٠ سورة طه الآية ١٠٢ وما يليهـا (١٠٢) يوم يُنفخ في الصور ونحشُرُ المجرمين يومئذ زرقا (١٠٣) يتخافتون بينهم ان لبِثتُم الا عشرا (١٠٤) نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة انْ لبثتم الا يوما (١٠٥) ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً (١٠٦) فيذرها قاعا صفصفاً (١٠٧) لا ترى فيهـا عِوَجاً ولا أمتاً (١٠٨) يومئذ يتبعون الداعي لا عوج لـه وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همساً (١٠٩) يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن وَرَضِيَ له قولا (١١٠) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يُحيطون به علما (١١١) وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حَمَلَ ظلما (١١٢) ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما · وكذلك السورة ٣٩ سورة الزمر ، الآية ٦٧ وما يليها (٦٧) وما قَدَرُوا الله حق قدره والارض جميعاً قبضتُه يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينـه سبحانه وتعالى عمّـا يُشركون (٦٨) ونفـخ في الصور فَصَعِقَ من في السماوات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نُفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون (٦٩) وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الـكتاب وجيء بالنبيـين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يُظلمون (٧٠) وَوُفِّيتْ كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون (٧١) وسيق الذين كفروا الى جهنم زُمراً حتى اذا جاءوها فُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ويُنذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين (٧٢) قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين · وكذلك السورة ٦٩ سورة الحاقة ، الآيات ١٣ـ٣٧ « (١٣) فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة (١٤) وحُملت الارض والجبال فدكتـا دكـةً واحدةً (١٥) فيومئذ وقعت الواقعة (١٦) وانشقت السماء فهي يومئـذ واهية (١٧) والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمـانيـة (١٨) يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية (١٩) فأمـا من اوتي كتـابَهُ بيمينه فيقول هاؤمُ اقرءوا كتابيه (٢٠) اني ظننت أني ملاقٍ حسابيـه (٢١) فهو في عيشة راضية (٢٢) في جنـة عاليـه (٢٣) قطوفهـا دانيـة

روضة لذة ممجدة حيث التقاة يرتاحون في ظلال باردة يشربون الشراب المزوج بالمطيبات ويتسلون بالحوريات وهن فتيات جميلات سود العيون كاللؤلؤ المكنون(٨٠) ، وكان هذا قد حسب ببراعة وسيلة لاغواء المستمعين (كذا) بتذكيرهم باحدى متعهم الرئيسة - حفلات الشراب المرحة التي كانت تقطع بين الحين والحين الحياة العربية الرتيبة ، التي كثيرا ما توصف في الشعر الجاهلي(**) ، ولكن « يبدو ان التفسير الحقيقي - كما أوضح البروفيسور بيفان - هو ان فكرة الاثابة في المستقبل كانت أول الامر جديدة بصورة مطلقة بالنسبة لمحمد (ص) نفسه وللجمهور الذي يخاطبه ولم تكن للجنة والجحيم ملابسات تقليدية ، ولم تزود اللغة العربية مصطلحات دينية للتعبير عن مثل هذه الافكار ؛ فاذا كان لابد لهما من أن يكونا مفهومين فان ذلك غير ممكن الا بطريق الوصف الدقيق وبتشبيهات مستعارة من الامور الدنيوية »(٨١) .

---

(٢٤) كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الايام الخالية (٢٥) وأما من اوتي كتابَه بشماله فيقول يا ليتني لم اوتَ كتابيه (٢٦) ولم أدر ما حسابيه (٢٧) يا ليتها كانت القاضيه (٢٨) ما أغنى عني ماليه (٢٩) هلك عني سلطانيه (٣٠) خذوه فغلّوه (٣١) ثم الجحيم صلّوه (٣٢) ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه (٣٣) انه كان لا يؤمن بالله العظيم (٣٤) ولا يحُضّ على طعام المسكين (٣٥) فليس له اليوم ههنا حميم (٣٦) ولا طعامٌ الا من غِسلين (٣٧) لا يأكُله الا الخاطئون .

(*) كل اللذات المذكورة في القرآن عن الجنة روحانية صرفة [المترجم]

(٨٠) لقد هجا أبو العلاء المعري المفكر المشهور الافكار الاسلامية في هذا الموضوع ببراعة في رسالة الغفران (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية لشهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٠ ص ٦٣٧ وما يليها) .

(**) حذفنا قبل نهاية الصفحة «١٦٧» من النص الانكليزي ادعاءً لنكلسن يتعارض ومعتقدنا الاسلامي [المترجم]

(٨١) مجلة الدراسات اللاهوتية لشهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٤ ص ٢٢ .

الصـــلاة :

لم يكن محمد (ص) مجرد حالم فملاحظـة الطقـوس والصلـوات الليلية وغير ذلك من أساليب التقشف دخلت الى حد كبير في دينه مضفية عليه الصفة الرسمية والزهدية اللتين يُحتفظ بهما حتى الوقت الحاضر . وقد أدخلت الصلاة عقيب السور الاولى فنحن نقرأ في بعض أقدم هـذه السور (السورة السابعة والثمانين ، « سورة الاعلى » ، وفي الآيتين ١٤ — ١٥) : « (١٤) قد أفلح من تزكّى (١٥) وذكر اسْم ربّه فصلّى ؛ ومع أن الصلوات اليومية الخمس الاجبارية على كل مؤمنٍ حقيقيٍّ غير مذكورة في القرآن فان سورة الفاتحة التى تماثل (دعاء الرب) عند المسيحيين ترتل على الدوام في مثل هذه المناسبات ، وقلما تحذف من أي عمل صالح عام أو خاص ، ولما كان من المحتمل ان سورة الفاتحة هى من آخر أيام العهد المكي فقد تجد مكانا لها هنا :ـ

سورة الفاتحة (السورة الاولى)

(١) بسم الله الرحمن الرحيم (٢) الحمد لله رب العالمين (٣) الرحمن الرحيم (٤) مالِكِ يومِ الدين(٥) اياك نعبُدُ واياك نستعين (٦) إهدنا الصراط المستقيم (٧) صراط الذين أنعمت عليهم غـيرِ المغضوبِ عليهـم ولا الضالين(★) .

ليلة المعراج وأسراء محمد (ص) :

وحوالي هذا الوقت وقبيل الهجرة حلم محمد (ص) انه قد نقل من الكعبة الى المعبد في بيت المقدس ومن ثَمَّ الى السماء السابعة والقسم الاول من الرؤيا مبيّن في القرآن (السورة السابعة عشرة ، سورة الاسراء ، الآية الاولى) : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد

(★) نهاية الصفحة «١٦٨» من النص الانكليزى .

الاقصى الذي باركنا حوله لنريَهُ من آياتنا انه هو السميع البصير » ، وقد وشَّتْ الاخبار التقليدية « المعراج » بشكل مدهش و «المعراج» هو الاسم الذي يعرف به صعود النبي (ص) الى السماء في الشرق بأجمعه فى حين أنه قد أصبح منذ عهد بعيد في تركيا وايران موضوعا محببا الى المتصوفة والشعراء ؛ وبموجب الاعتقاد السائد عند الناس ذلك الذى تتمسك بـه الاكثرية من علماء الدين ، انتقل محمد (ص) بجسمه حتى نهاية رحلته ، غير انه هو نفسه لم يؤيد هذا التفسير الحرفي ، ولو انه كان منتشرا فى مكة على ما يبدو ، ويروى انه سبَّب تخلي بعض أتباعه غير المصدقين عن ايمانهم •

محمد (ص) فى المدينة :

رجل تملكته والهمته أسمى فكرة يتمكن منها انسان ووعظ بلا خوف بالحقيقة التي اوحيت اليه وتزعم بمفرده تقريبا ما لاح لمدة طويلة أملا بعيدا ضد حصن الخرافة الذى لا يقتحم ؛ مع ذلك فقد جابه هذه المصاعب الهائلة بعزيمة هادئة لم تخضع قيد انملة للهزء أو الخطر ، بل تحدى أعداءه ليقوموا بأسوأ ما وسعهم ـ ذلك هو محمد (ص) في مستهل سيرته وهو يمثل مشهد العظمة التى لا تخفق في احراز عطفنا واعجابنا ؛ وفي المدينة حيث يجب أن نتجه الآن يبدو في ضوء أقل استهواء وجاذبية : فأيام الحماسة الدينية النقية ولت الى الابد ، واختفى النبي في ظل رجل الدولة ، وكانت الهجرة بلا شك جوهرية لتأسيس الاسلام وكان من الضروري لمحمد (ص) ان يبتعد عن قومه لكيما يؤسس مجتمعا يكوّن فيه الدين لا الدم الرباط الوحيد المعترف به ؛ وقد انجز هذه المهمة(★) بحكمة ومهارة تامتين ، ولو أن بعض الاساليب التى استخدمها لا يمكن أن تعذر

(★) نهاية الصفحة «١٦٩» من النص الانكليزي •

الا باعتقاده بأن كل ما كان يعمله انما كان يعمله باسم الله(٨٢) ؛ وقد مارس كأعلى رأس للثيوقراطية الاسلامية في الامور الروحية والدنيوية على حد سواء ـ لان الاسلام لا يميز بين الدين والدولة ـ سلطة مطلقة ولسنا بحاجة لان نتساءل عن مدى ما يرجع الى الاعتقاد بوحيه وما يرجع الى السياسة المتعمدة(*) .

استعداد المدينة للترحيب بمحمد (ص) مشرعا ونبيا :

كانت الاوضاع السائدة في المدينة مهيأة بشكل فريد لمقاصده فمنذ معركة بُعاث المشهورة (حوالي سنة ٦١٥م) التي مني فيها الخزرج بهزيمة ساحقة على يد الاوس ، بمساعدة حلفائهم من يهود بني قريظة وبني النضير ، انقسمت المدينة الى معسكرين متعادين ؛ فاذا كان السلام قد حفظ حتى الآن فما ذاك الا لان كلا الفريقين كان منهوك القوى فهو أضعف من أن يجدد القتال ؛ واذ تكون أذهان الناس متعبة مشتتة بالمصائب الدنيوية فانها تتلقى تسلية الدين برغبة ؛ واننا لنجد أمثلة لهذا الاتجاه في المدينة حتى قبل الهجرة فأبو عامر الذى أكسبته حياته الناسكة لقب (الراهب) يعد من الاحناف(٨٣) وقد قاتل في صفوف قريش في « أُحُد » ، وأخيرا رحل

---

(٨٢) ندم نكلسن على هذه الفقرة بعد سنين فكتب في الملحق الذى اضيف الى الكتاب ما يلي : « هذه احدى الفقرات التى كنت أود حذفها فهي حتى بشكلها الحاضر تدل على وجهة نظر اعتبرتها مغلوطة منذ عهد طويل » ا هـ . ويبدو ان ضمير نكلسن استيقظ متأخرا فندم على التخرصات التى أوردها في الفصل الخاص بحياة محمد (ص) بدليل قوله : « هذه احدى الفقرات التي كنت اود حذفها» ومعنى ذلك وجود فقرات اخرى ـ عدا هذه ـ تستوجب الحذف ، فحذفناها وأشرنا الى مواضع الحذف ليرجع اليها القارىء بنفسه في النص الانكليزى ويتأكد من سلامة عملنا [المترجم]

(*) حذفنا عبارات قبل هذا الكلام وبعده لان نكلسن قد جانب فيها وجه الصواب [المترجم]

(٨٣) ابن هشام : ص ٤١١ س ٦ وما يليه .

الى الشام حيث مات طريدا خارجا على القانون ؛ وثمة موحّد جاهلي آخر في المدينة هو أبو قيس بن أبي أنس وقد قيل انه اعتنق الاسلام في شيخوخته[٨٤] .

« لم يكن لسكان المدينة منفعة مادية فى عبادة الاصنام ولم يكن لهم معبد يحرسونه ، وقد تعلموا ، كما لو كان ذلك بالغريزة ، عن طريق اتصالهم الدائم بيهود مدينتهم وما يجاورها ، وكذلك القبائل المسيحية القاطنة فى أقصى الشمال من بلاد العرب على[*] حدود الامبراطورية البيزنطية ، احتقار اعتقادهم الوراثي في الاصنام ، واحترام الاعتقاد الانبل والانقى بالٰه واحد ، وأخيرا أصبحوا معتادين على فكرة الوحي الالهي بطريق كتاب سماوي خاص ذي أصل خارق نظير التوراة والانجيل ، فمن وجهة نظر دينية لم تقدم الوثنية في المدينة مقاومة للاسلام اذ كانت «كعقيدة» ميتة ، قبل أن تُهاجم ، ولم يدافع عنها أحد ولم يبك على زوالها أحد ؛ وكانت المعارضة الوثنية لعمل محمد (ص) مصطلحا سياسيا بالمرة وكانت صادرة عن اولئك الذين رغبوا فى المحافظة على فوضى الحياة الوثنية القديمة وكرهو حكم محمد المطلق »[٨٥] .

أحزاب المدينة : كانت هناك فى المدينة أربعة أحزاب رئيسة مؤلفة من اولئك الذين ساندوا النبي (ص) بحرارة أو عارضوه معارضة فعالة أو الذين نهجوا نهجا حياديا نسبيا ؛ وهم (المهاجرون) و (الانصار) و (المنافقون) و (اليهود) .

المهاجرون :

والمهاجرون هم اولئك المسلمون الذين تركوا بيوتهم في مكة

---

(٨٤) نفس المصدر : ص ٣٤٧ .

(*) نهاية الصفحة : «١٧٠» من النص الانكليزى .

(٨٥) ل.كايتاني ، « تاريخ الاسلام » (بالايطالية) ج ١ ص ٣٨٩

وصحبوا النبي (ص) في هجرته الى المدينة ـ ومن هنا جاءت تسميتهم بالمهاجرين ـ سنة ٦٢٢م وكان بوسعه أن يعتمد على اخلاصهم التعصبي له لانهم فقدوا كل شيء عدا أمل النصر والثأر •

الأنصـــار :

والأنصار هم سكان المدينة الذين اعتنقوا الاسلام وعاهدوا أنفسهم على أن يصونوا محمدا (ص) فى حالة حصول هجوم عليه ، وقد كونوا مع المهاجرين مجموعة هائلة آخذة بالنمو من المسلمين الصادقين وهم المدافعون الأُوَل عن العقيدة المحاربة •

المنـافقـون :

« على ان العديد من سكان المدينة لم يكونوا من ذوى النوايا الحسنة تجاه محمد (ص) ، فلا هم اعترفوا به نبيا ولا خضعوا له حاكما لهم ، ولما لم يجرُؤا على الجهر بمعارضته علانية لكثرة أشياعه المتحمسين له قابلوه بمقاومة سلبية أحبطت خططه غير مرة(*) وكان نفوذهم عظيما بحيث انه لم يجرُؤ من جانبه على اتخاذ اجراءات حاسمة ضدهم بل انه وجد من الضرورى أحيانا أن يتسامح معهم(٨٦) •

هؤلاء هم (المنافقون) الذين يصفهم محمد (ص) في الآيات التالية من القرآن الكريم :ـ

سورة البقرة (السورة الثانية)

« (٨) ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين (٩) يُخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم ومـا يشعُرُون

(*) نهاية الصفحة : «١٧١» من النص الانكليزى •

(٨٦) نولدكه : « تاريخ القرآن » (بالالمانية) ص ١٢٢ [وهذا دليل حنكته السياسة • « المترجم »]

(١٠) في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون • »[٨٧]

ولم يكن زعيمهم عبدالله بن أبيّ وهو رجل كفء ولكنه ضعيف الخلق نداً لمحمد (ص) الذى كان عبدالله مجرد مصدر تهييج له ولاشياعه دون أن يصبح ذا خطر حقيقي اطلاقا •

اليهــود :

وعلى العكس من ذلك اليهود الذين أتعبوا النبي (ص) بصورة جدية، وقد عقد بادىء ذى بدء آمالاً عالية على انهم سيتقبلون الوحي الجديد الذى جاء به اليهم والذى ادعى انه كلام الله الاصلي الذى سبق أن اوحى الى ابراهيم وموسى ولكن عندما لم يتفق اليهود واياه جابهوه بمختلف صنوف الاسئلة فالتفت محمد (ص) الى مرهقيه وقد شعر تمام الشعور بالتأثير المدمر للنقد الذى عرّض نفسه له واتهمهم صراحة بتزوير كتبهم المقدسة وتحريفها وأخذ منذ ذلك الحين يتعقبهم بكراهية قاتلة لم يكن لديهم عون تجاهها لتفرقهم السياسي ، فلاذت قلة منهم بالاسلام وكان مصير البقية اما القتل أو النفي •

من المستحيل هنا ان نفصّل الخطوات المتابعة التى استطاع بها محمد (ص) أن يتغلب خلال بضع سنوات على كل معارضة ويشيد سيادة الاسلام في بلاد العرب من أقصاها الى أقصاها ، الا اننا سنبين الحوادث البارزة بايجاز واقتضاب لنفسح المجال لامور أوثق صلة بموضوع هذا التاريخ •

---

(٨٧) الترجمة الانكليزية فى النص الاصلي للكتاب للمستشرق أي• ايج پالمر غير انه قد أخطأ فى ارقام الآيات فجعلها ٧ ـ ٩ وهي فى الحقيقة ٨ ـ ١٠ •

بداية الدولة الاسلامية :

كان هم محمد (ص) الاول مصالحة الاحزاب القاطنة داخل المدينة وادخال القانون والنظام بـين العناصـر المتباينـة التى وصفناهـا « وكتب رسول الله (صلعم) كتابا بين المهـاجرين والانصـار ، وادع فيـه اليهود وعاهدهم ، وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم»(٨٨) وهذه الوثيقة الخطيرة مدونة في « سيرة محمد » لابن هشام ص ٣٤١ – ٣٤٤(٨٩) وقد حلل محتوياتها ڤيلهاوزن بطريقة فذة(٩٠) اذ لاحظ بانصاف انه لم يكن عهدا ملتزما به تقبله ممثلو الفريقين موضوعَيْ البحث حسب الاصول وأبرموه وانما هو مجرد مرسوم من محمـد (ص) مستند عـلى شروط كانت قائمة مسبقا وقد تطورت منذ قدومه الى المدينة ، وفى الوقت ذاته لا يسع من يدرسه الا أن يعجب بعبقرية واضعه السياسية ؛ وهو فى ظاهره اصلاح حذر متحفظ ، وفى حقيقته ثورة ؛ ولم يجرؤ محمد (ص) أن يوجه ضربته علنا الى استقلال القبائل ، ولكنه حطمه فعلا بنقل مركز القوة من القبيلة الى المجتمع ، ومع ان المجتمع كان يضم اليهود والوثنيين فضلا عن المسلمين فقد اعترف تمام الاعتراف بما أخفق مناوِئوه في رؤيته مسبقا ، وهو ان المسلمين كانوا الشركاء الفعالين في المجتمع المؤسَّس حديثا ويجب أن يكونوا المسيطرين في أقرب وقت(★) .

كان كل شيء الآن قد نضج للصراع الذى لابد منه مع قريش فأوحى

---

(٨٨) ابن هشام : ص ٣٤١ س ٥ [= طبعة مصطفى السقـا ، جـ٢ ص ١٤٧ س ٨ و ٩] .

(٨٩) جـ٢ ص ١٤٧ – ١٥٠ (من الطبعة المصرية) « المترجم »

(٩٠) « تنظيم محمد الاجتماعي في المدينة » فى (تخطيطات وتمهيدات) الكراس الرابع ، ص ٦٧ وما يليها .

Muhammad's Gemeindeordnung Von Medina in Skizzen und Vorarbeiten, Heft IV. P. 67 Sqq.

(★) نهاية الصفحة : «١٧٣» من النص الانكليزى .

الله لرسوله عدة آيات من القرآن يأمر فيها المؤمنين بأن يعلنـوا الجهـاد ضدهم : ـ « (٣٩) أُذِنَ للذين يُقاتَلونَ بأنهم ظُلِموا وان الله عـلى نصرهم لقدير (٤٠) الذين أخرجوا من ديارهم بغـير حـق الا أن يقولوا ربُّنا الله (السورة الثانية والعشرون ، سورة الحج ، الآيتان ٣٩-٤٠)[٩١] « واقتُلُوهم حيث ثَقِفتُمُوهم وأَخرجوهـم من حيث أَخرجوكـم » (السورة الثانية ، سورة البقرة ، الآية ١٩١)[٩٢] « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنـة ويكون الـدين لله » (السـورة الثانيـة ، سـورة البقرة ، الآيـة : ١٩٣)[٩٣] .

معركة بدر (٢هـ/كانون الثاني ٦٢٤م) :

في كانون الثاني من سنة ٦٢٤م أحرز المسلمون ، وقوامهم ثلثمائة مسلح ، نصرا مجيدا في بدر على قوة أعظم من قوتهم بكثير زحفت من مكة لانقاذ قافلة غنية هدد محمد (ص) بالحيلولة دون وصولهـا ، وقـد قاتلت قريش بشجاعة ، غير انها تحطمت بهجوم لا يقاوم من رجال تعلموا النظام في المسجد يرون الموت جواز سفر أكيد الى الجنة ؛ ولم يصرع من المسلمين غير أربعة عشر أما قريش فقد فقدت تسعة وأربعين قتيلا ونحو ذلك من الأسرى ؛ غير ان خطورة نجاح محمد (ص) لا يمكن أن تقاس بالدمار المـادي الذي أنزله بأعدائه ؛ ويجب أن نعترف بأن معركة بـدر كمعركة (مارثون)[٩٤] احدى المعارك العظمى في التاريخ بأسره ، ومن أكثرهـا

---

(٩١) أورد نكلسن خطأ الرقمين ٤٠ ـ ٤١ .
(٩٢) أورد نكلسن خطأ الرقم ١٨٧ .
(٩٣) أورد نكلسن خطأ الرقم ١٨٩ .
(٩٤) معركة فى تاريخ الاغريق القديم بين الفرس واليونانيين كانت الغلبة فيها لليونانيين رغم قلتهم وحصل ذلك فى ممر مارثون الجبل المشهور سنة ٤٩٠ قبل الميلاد . [المترجم]

خلودا ، وذلك بسبب ما نجم عنها من نتائج خطيرة • هنا كانت أخيرا المعجزة التى كان يُطالب بها أعداء النبي (ص) : « (١٣) قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئةٌ تقاتِلُ في سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء ، ان فى ذلك لعبرةً لاولي الأبصار • » (القرآن : السورة الثالثة ، سورة آل عمران ، الآية ١٣)[٩٥] وكذلك قوله: « فلم تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم » (القرآن : السورة الثامنة ، سورة الانفال الآية ١٧) وقد لَفَتَ انتصار بدر الابصار كلها صوب محمد (ص) ، فمهما يكن اهتمام العرب ضئيلا بدينه ، لم يسعهم الا أن يحترموا الرجل الذى أذل سادات مكة ، فقد كان الآن قوة في البلد[*] ـ « محمد ، ملك الحجاز »[٩٦] وازدهرت قضيته في المدينة بشكل هائل ، فقد تأكد المتحمسون من دينهم ، واقتنع المتأرجحون وزاد خوف الكارهين •

معركة أُحُد ٣هـ/٦٢٥م : غير انه منى بنكسة موقتة فى السنة التالية في « أُحُد » حيث هزمت قريش بقيادة أبي سفيان جيشاً اسلامياً ، ولكن المنتصرين اكتفوا بالثأر « لبدر » ولم يحاولوا أن يتعقبوا ما حصلوا عليه •

استسلام مكة ٨هـ/٦٣٠م : فى حين ان محمداً (ص) لم ينم على الغار القديم الذي أحرزه[٩٧] ، ولم يفقد مرأى هدفه ، تقدم بحساب لا يرحم لسحق خصومه واحداً بعد الآخر الى أن فتح المكيون أنفسُهم في كانون الثاني سنة ٦٣٠م أبوابهم للنبي (ص) واعترفوا بقدرة الباري عز وجل ،

---

(٩٥) ذكر نكلسن الآية ١١ خطأ • [المترجم]

(*) نهاية الصفحة : «١٧٤» من النص الانكليزي •

(٩٦) ابن هشام ، ص ٧٦٣ س ١٢ [يأبى الافرنج الا أن يضفوا نعوتهم والقابهم حتى على الانبياء « المترجم »]

(٩٧) هذا مثل انكليزي يعني عدم الاكتفاء بتالد المجد دون طريفه [المترجم]

وذلك بعد ان رأوا عبث أية مقاومة اخرى ، وقد ترك استسلام المدينة المقدسة محمداً (ص) بلا منافس في بلاد العرب ، وكان عمله بهذا قد انجز على وجه التقريب ، فتدفقت الوفود من القبائل البدوية على المدينة مقدمة الولاء لقاهر قريش ، مسهمة بتردد في دين لم تر فيه شيئاً لطيفاً ملائماً كأمل نهب أعدائه .(٩٨)

وفاة محمد (ص) ١٠هـ/٦٣٢م

توفي محمد (ص) بعد مرض قصير في الثامن من حزيران سنة **٦٣٢**م. فخَلَفَهُ رئيساً للمجتمع الاسلامي صديقه القديم ومناصره المخلص أبداً « أبو بكر » فأصبح بذلك أول خليفة . لم يبق علينا الآن الا أن نستأنف استعراضنا للقرآن الذي وقفنا به في نهاية الفترة المكيّة ، وان نبين صفة الكتاب الموحى ومحتوياته خلال العشر السنوات التى أعقبت ذلك .

السور المدنية : ان السور المدنية تعكس باخلاص التغير المدهش فى حظّ محمد (ص) الذي بدأ بهجرته من مكة ، فقد اعتُرف به الآن نبياً ورسولاً لله ، غير ان هذا الاعتراف جعله سلطاناً أرضياً وحوّل فعاليته الدينية الى مسالك دنيوية ، (*) وتعالج سور هذه الفترة ، الى حد كبير ، اموراً قانونية واجتماعية وسياسية ، وتُعلن أنظمة دينية ـ كالصوم والزكاة والحج ـ وتُوضّح قوانين الزواج والطلاق ، وتعلق على أخبار اليوم ، وكثيراً ما تستخدم كنشرات أواحتجاجات يبررفيها محمد(ص) ما عمله [كذا] ويحث المسلمين على القتال ويلوم المتقاعسين ، وتستخلص عظة أخلاقية من

---

(٩٨) لعل نكلسن يقصد بهم اولئك الذين لم يلبثوا ان ارتدوا بعد وفاة النبي (ص) فهؤلاء هم الذين لم يروا فيه شيئا لطيفا ملائما. [المترجم]

(*) نهاية الصفحة : «١٧٥» من النص الانكليزى [وقد حذفنا بعض العبارات التى تلي هذه الصفحة مباشرة لانها تحليل مغلوط لشخصية الرسول الكريم . «المترجم»]

نصر أو هزيمة ، وتعلن الهدنة وتقول باختصار ما تلوح مناسبته ؛ وبدلاً من مشركي مكة ، أصبح اليهود والمنافقون ، مناوئوه في المدينة ، الصخرة العظيمة في ايذائه فقد لُعن اليهود بصورة خاصة، في مقاطع طويلة، جيلا عنيدا لم يصغ الى انبيائه في العهود الماضية أبداً ؛ ومهما تكن السور المدنية ذات قيمة تاريخية فهي لا تجتذب المطالع الأدبي ، لانها تشبه في اسلوبها الاعتيادي الممل سور أواخر العهد المكي(٩٩) : وبين حين وآخر يتأجج الرماد فيغدو لهباً ؛ ولو ان مثل هذه اللحظات من الروعة في ندرة متزايدة كما في آية الكرسي المشهورة :

آية الكرسي :

(٢٥٥) « الله لا اِلٰه اِلا هو الحي القيوم لا تأخذه سِنة" ولا نوم ، له ما في السماوات وما في الارض ، من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ؟ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ؛ وسِع َ كرسيه السماواتِ والارضَ ولا يؤدُه ُ حفظهما وهو العلي العظيم »(١٠٠) .

ويكاد الاسلام الذي جاء به محمد (ص) الى المدينة يكون مشتقاً برمته ، بطريق الرواية الشفهية ، عن المسيحية(*) واليهودية ، ولهذا السبب بالذات لم يترك الا انطباعاً ضئيلاً على العرب الوثنيين الذين كانت أفكارهم الدينية بصورة عامة من نوع بدائي للغاية ؛ وبالرغم من صفته

---

(٩٩) ما أبعد نكلسن عن الصواب فسور القرآن كلها رائعة مكيّها ومدنيها ولكنه التعصب الاعمى يضل ، مع الاسف ، كثيرا من الناس !
[المترجم]

(١٠٠) القرآن : السورة الثانية ؛ سورة البقرة ، الآية ٢٥٥ [وقد ذكر نكلسن ٢٥٦ خطأ] وترجمها الى الانكليزية ئي٠ايج٠ پالمر ٠

(*) نهاية الصفحة «١٧٦» من الترجمة الانكليزية ، [يأبى المستشرقون الا أن يردوا الاسلام الى المسيحية واليهودية بدون دراسة موضوعية أو تمحيص والا فأين البراهين على ذلك ؟] [المترجم]

الاجنبية وانعدام أى شيء يستهوي العاطفة القومية للعرب ، فقد انتشر في المدينة بسرعة ، حيث كانت التربة ، كما رأينا ، مهيأة له مقدماً ؛ وقد يشك المرء ، وهو محق في شكه ، ما اذا كان بوسعه أن يمد نفوذه على شبه الجزيرة لو لم يحمل مجرى الحوادث محمداً (ص) على ربط مبادىء الاسلام بالمعبد القديم فى مكة وأعني به الكعبة التي كان يجلّها العرب عموماً وتؤلف مركز عبادة لا تثير صعوبات في أذهانهم •

تعريب الاسلام : وقبل أن يمضى النبي (ص) عدة شهور فى المدينة أيقن ان أمله في اعتناق اليهود للاسلام قد باء بالخيبة فلقّن(١) أتباعه بألا يوجهوا وجوههم في الصلاة شطر المسجد الحرام فى القدس كما اعتادوا أن يفعلوا منذ الهجرة ، بل شطر الكعبة ، على حين انه بعد سنة أو سنتين أدخل(٢) في الاسلام مراسيم الحج التي مثلت بأنها عينت في الاصل لابراهيم (عليه السلام) ، المؤسس الاسطوري للكعبة والذى قال محمد (ص) بأنه محيي دينه ومعيده سيرته الاولى •

الصراع بين المثل الاسلامية والعربية العليا :

على ان هذه الامتيازات كانت أبعد ما تكون عن الكفاية للمصالحة بين شعب الصحراء الذى يعيش حراً ويفكر بحرية وبين دين ضيّق من نطاق ملاذه وأرغمه على دفع الضرائب وأداء الصلوات ووسم فضائله بميسم البربرية ؛ وكانت تعاليم الاسلام مضادة بصورة مباشرة لمُثُل الوثنية العليا وتقاليدها ؛ وليست أصالته ، على ما لاحظ گولدتزيهر ، في مبادئه التى هي يهودية ومسيحية ، بل في حقيقة ان محمداً (ص) كان أول من ساند هذه

(١)و(٢) ليس هو الذى لقن أتباعه ولا هو الذى أدخل فى الاسلام مراسيم الحج ، وانما الله سبحانه وتعالى ، ولكن نكلسن يأبى الا أن يقول أشياء يندم عليها فيما بعد كما اعترف هو صراحة • [المترجم]

المبادىء بجهد مستمر ضد النظرة العربية الى الحياة[٣] ؛ وفي الوقت الذي يجب أن نوجه القارىء الى صفحات الدكتور[★] گولدتزيهر المشرقة لمناقشة كاملة للصراع بين (الدين) الجديد وفضيلة (المـُرُوَّة) القديمة ، فلن يكون اضاعة للوقت تلخيص النقاط الرئيسة التى اصطدم فيها الاثنان مع بعضهما البعض[٤] ، فأول شيء كانت فكرة الاسلام الاساسية أجنبية وغير مفهومة عند البدو « ولم يكن تحطيم أصنامهم الشيء الذى عارضوه قـدر ما كان روح العبادة الذى اريد غرزه فيهم ؛ وتقرير حياتهم كلها بفكرة الله وقوة قضائه المسبق وعقابه ، والصلاة والصيام ، والتخلي عن الملاذ المشتهاة ، وتضحية المال والعقارالتى طلبت منهم باسم الله» وبالرغم من قولهم: « لا دين الا بالمروَّة » (أي لا دين الا بالفضيلة) فقد كان على البدوي الذى اعتنق الاسلام أن ينسى القسم الاعظم من قانونه الاخلاقي غير المدوّن؛ وعليه كمسلم تقي أن يقابل الشر بالخير ، ويعفو عن عدوه ، ويجد البلسم لمشاعره الجريحة ، ليتأكد من دخوله الجنة (القرآن : السورة الثالثة ، سورة آل عمران ، الآية ١٣٤) : « الذين ينفقون في السـراء والضـراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »[٥] والى ذلك فان التنظيم الاجتماعي للعرب الوثنيين كان مستندا على القبيلة ، في حين أنه كان يستند في الاسلام على مساواة المؤمنين ومؤاخاتهم جميعاً ؛ فالرابطـة الدينية محت كل فوارق الرتبة والنسب ، وتخلت نظريـاً عن المنازعـات

---

(٣) دراسات اسلامية : جـ١ ص ١٢ ·

(★) نهاية الصفحة «١٧٧» من النص الانكليزى ·

(٤) انظر فصل كولدتزيهر الاستهلالي الموسوم بـ «المروّة والدين» (بالالمانية) نفس المصدر ؛ ص ١ ــ ٣٩ ·

(٥) يذكر نكلسن خطأ الآية ١٢٨ من سورة آل عمران التى لا تعطى المعنى الذى يقصده ·

القبلية ، والمنافسة في الشرف ، والفخر بالعرق والجنس ـ وهي أشياء كانت في جذور الفروسية العربية بالذات • لقد صاح محمد (ص) قائلا : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (القرآن ، السورة التاسعة والاربعون ، سورة الحُجُرات ، الآية ١٣) وازاء مثل هذا المبدأ هبت الغرائز المحافظة والمادية لابناء الصحراء ثائرة ؛ ومع انهم أصبحوا مسلمين بجموعهم ، فان أكثريتهم لم يؤمنوا بالاسلام ولا عرفوا معناه ؛ وكثيراً ما كانت دوافعهم نفعية بصراحة ، فقد توقعوا أن يأتيهم الاسلام بالحظ السعيد فكان أحدهم اذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سوياً و(*)ولدت امرأته غلاماً سوياً وكثر ماله وماشيته قال : ما اصبت منذ دخلت في ديني هذا الا خيراً ، واطمأن، وان كان الامر بخلافه قال : ما اصبت الا شراً وانقلب(٦) ، على ان قدرة هؤلاء الناس على الحماسة الدينية قد بُرهنت برهاناً كافياً بالانتصارات التى أحرزوها بعد هذا بقليل على الجيوش المنظمة لامبراطوريتين عظيمتين ، غير ان ما الهمهم بصورة رئيسة ، فضلا عن حبهم الغنائم ، هو اعتقادهم الناجم عن نجاحهم بأن الله يقاتل الى جنبهم •

شخصية محمد (ص) :

لقد وضعنا الخطوط العريضة ، رغم انها جرداء وغير كاملة ، لتقدم الاسلام منذ أول ظهور محمد (ص) مبشراً الى يوم وفاته ؛ وخلال هذه السنوات العشرين زرعت على وجه التقريب بذور كل تطور فى التاريخ السياسى والعقلي للعرب ، فى العصور التى ستأتي ؛ وقد صاغ محمد (ص)

(*) نهاية الصفحة : «١٧٨» من النص الانكليزي •

(٦) البيضاوي فى تفسير القرآن جـ٢ ص ٣٧ (مصر ١٣٥٥) : السورة ٢٢ سورة الحج الآية ١١ : « ومن الناس من يعبُدُ الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » •

أكثر من أي رجل آخر وُجِدَ على وجه البسيطة ، مصير شعبه ؛ ومع انهم تركوه وراءهم بعيداً جداً في سيرهم على خط الحضارة والتمدن ، فهم ما يزالون يلتفتون الى الوراء لينظروا اليه طالبين الهداية والتأييد فى كل خطوة ؛ وليس هذا مكان محاولة تقدير لسلوكه الذي اختلفت فيه الاحكام اختلافاً بيناً ؛ على انني مقتنع شخصياً بأنه لم يكن محتالاً بلا خجل ولا منحطا مريضاً بأعصابه ، ولا مصلحاً اشتراكياً ، بل كان في بداية أمره على كل حال ، متحمساً دينياً مخلصاً ، موحى اليه بصدق كأي نبي من أنبياء التوراة .

وقد كتب دى غويه عنه يقول : « اننا نجد فيه ذلك التفهم الحكيم الذى ميَّزَ أفراد عشيرته : العزة ، والدراية والاتزان ، وهي صفات قلما تجدها في أناس من ذوي التكوين المريض ، وفيه تملك لاعصابه الى درجة غير قليلة ؛ وقد حولته الظروف من نبي الى مشرع وحاكم ، ولكنه لم يطلب لنفسه غير الاعتراف بأنه رسول الله اذ ان هذا الاعتراف(★) يتضمن الاسلام كله . كان سريع التهيج ككل عربي أصيل ؛ وفي الصراع الروحاني الذى سبق دعوته أثيرت هذه الصفة الى حد انها أخافته هو بالذات ، ولكن ذلك لا يضعه في صفوف الحالمين ، وقد دافع عن نفسه بأشد صنوف التأكيدات ضد اتهامه بأن ما رآه كان من تضليل الحواس فلم لا نصدقه ؟ »(٧)

(★) نهاية الصفحة «١٧٩» من النص الانكليزى .

(٧) ايم . جى . دى غويه : Die Berufung Mohammed's' Nöldeke-Festschrift « دعوة محمّد » فى (مدوّنات تكريم نولدكه) (گيسن ١٩٠٦) ج ١ ص ٥ [وهنا نهاية الصفحة : «١٨٠» من النص الانكليزى .]

الفصل الخامس

الخلفاء الراشدون والدولة الاموية

تمتد الخلافة ـ وهى فترة خلفاء محمد (ص) ـ لستة قرون وربع القرن (١١هـ/٦٣٢ ـ ٦٥٦هـ/١٢٥٨) وتقع في ثلاثة أقسام واضحة ذات فقرات متباينة جد التباين وصفات مختلفة :

الخلفاء الراشدون (١١هـ/٦٣٢ ـ ٤١هـ/٦٦١م) :

ويبدأ التقسيم الاول بانتخاب ابى بكر ، الخليفة الاول ، سنة ١١هـ/ ٦٣٢م وتنتهي باغتيال علي ، صهر النبي (ص) والخليفة الرابع سنة ٤١هـ/ ٦٦١م ويعرف هؤلاء الخلفاء الاربع بالراشدين لانهم ساروا باخلاص على هَدي خطى النبي (ص) ، وحكموا على منواله في المدينة المنورة ، بمساعدة أكابر صحابته الذين كونوا مجلساً غير رسمي للشيوخ •

الخلافة الاموية (٤١هـ/٦٦١م ـ ١٣٢هـ/٧٥٠م) :ـ

ويضم التقسيم الثاني خلفاء الاسرة الاموية من بيعة معاوية سنة ٤١هـ/٦٦١م الى معركة الزاب الكبرى سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م عندما دحر العباسيون الذين ادعوا الخلافة كأقرب الناس الى النبي (ص) مروان الثاني آخر خلفاء الاسرة الحاكمة ؛ والامويون بموجب الرأي الاسلامي كانوا ملوكاً حقاً وخلفاء مجاملة فحسب ولم يكن لهم كما سنرى لقب روحاني ولا دين من أي نوع كان الا بقدر ضئيل ؛ وقد نقلت هذه الاسرة التى رفعها وأبقاها في دست الحكم عرب الشام مركز الحكومة من المدينة الى دمشق(★) •

(★) نهاية الصفحة «١٨١» من النص الانكليزى •

الخلافة العباسية (١٣٢هـ/٧٥٠م ـ ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) :ـ

والقسم الثالث هو أطول الاقسام جميعاً وأهمها ويبدأ سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م ويمثل بارتقاء أبي العباس السفاح الخلافة سلسلة متصلة لسبع وثلاثين خليفة من نفس الاسرة وينتهي بعد مضي خمسمائة عام بنهب بغداد ، عاصمتهم الفخمة ، على يد هولاكو المغولي (٢٠ محرم ٦٥٦هـ/ كانون الثاني ١٢٥٨) ولم يكن العباسيون أقل طغياناً من الامويين ، ولكن باسلوب أكثر استنارة ، ففي حين ان الاخيرين كانوا عرباً خلصاً بمشاعرهم ، فان العباسيين كانوا مدينين بعرشهم الى القوميين الفرس ومشبعين بأفكار فارسية ادخلت عنصرا جديدا مثمرا في الحضارة الاسلامية .

مستهل الادب الاسلامي :

ان فترة الخلفاء الراشدين والدولة الاموية التي تؤلف موضوع الفصل الحاضر هي من وجهة نظرنا الخاصة عقيمة نوعاً ما فقد وجدت حياة العرب الوثنيين البسيطة تعبيراً كاملاً في شعرهم ، والحياة المتعددة الجوانب للمسلمين تحت حكم العباسيين يمكن أن تدرس في أدب غزير يعرض جميع خصائص العصور ، غير أنه لم يحفظ الا الشيء اليسير نسبياً من المستندات المعاصرة التي توضح التاريخ العقلي لصدر الاسلام ، وحتى ذلك الشيء اليسير لا يقدم لنا ، لنزعته المناوئة للاسلام ، الا معلومات ضئيلة عما يثير الاهتمام خارج نطاق أي شيء آخر ـ واعني بذلك الحركة الدينية وظهور اللاهوت وأصل الاحزاب والمذاهب العظيمة التي تظهر في مختلف مراحل تطورها في الادب المتأخر .

وحدة الدين والدولة :

من المستحيل ، ما دام الدين والدولة في الاسلام شيئاً واحداً في جوهرهما أن نعالج السياسة بمعزل عن الدين ، كما انه لا يمكن للظواهر

الدينية أن تفهم بلا اشارة مستمرة الى الحوادث السياسية ، والصورة التخطيطية الموجزة في أدناه للخلافة الراشدة ترينا الى أي حد تحقق تكامل هذه الوحدة وأية نتائج بعيدة المدى كانت لها ٠

ومن المحتمل أن عدم ترك محمد (ص) ابناً له هو أقل خطورة من اهماله أو رفضه تعيين خلف له[*] ، ولم يألف العرب الانحدار الوراثي للسلطة الملكية ، على حين ان فكرة الحق الالهي الكامن في اسرة النبي (ص) لم تنبثق بعد ، لذلك كان أمراً منسجماً تمام الانسجام مع العُرف العربي أن ينتخب المجتمع الاسلامي زعيمه على نحو ما كانت القبيلة أيام الجاهلية تنتخب شيخها ٠

انتخاب أبي بكر خليفة (١١هـ/حزيران ٦٣٢م) :

وأكثر الرجال احتمالا لهذا الغرض كانوا ـ والثلاثة من قريش ـ ابو بكر (رض) الذى كانت ابنته عائشة زوجة محمد (ص) المحبوبة ، وعمر ابن الخطاب (رض) وعلي بن أبي طالب (رض) زوج فاطمة الذي كان بذلك قد اتصل بالرسول بالدم فضلا عن المصاهرة وكان أبو بكر أسنَّهم وقد سانده عمر وعليه وقع الاختيار فى النهاية وان لم يكن ذلك بدون غليان لصراع حزبي ، وقد كان رجلا ذا ذوق بسيط ومظهر لا ينم عن ادعاء وتظاهر فاكتسب لقب الصديق[1] لايمانه بالنبي بلا تساؤل ، وكان بطبيعته لطيفاً ورحيماً فوقف حازماً عندما تعرض أمر الاسلام للخطر وسحق بيد من حديد الثورة التى انتشرت كالنار المشبوبة في بلاد العرب على أثر ورود خبر وفاة محمد (ص) ٠

(*) نهاية الصفحة : «١٨٢» من النص الانكليزي ٠

(١) ترجم نكلسن لفظة الصديق الى الانكليزية بلفظة "True" والواقع أن الكلمة تعني : The Believing « المترجم »

مسيلمة الكذاب : فظهر أنبياء مزيفون التف حولهم البدو وكلهم لهفة لالقاء العُشر والصلاة عن كاهلهم وفي أواسط شبه الجزيرة قاد بني حنيفة الى المعركة مسيلمة الذى حاكى الاسلوب المبكر للقرآن بتأثير مضحك اذا أخذنا بنظر الاعتبار الاقوال المنسوبة اليه من نحو قوله : « الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل ؟ له ذيل قصير وخرطوم طويل وهو بين خلق ربك شيء ضئيل • » وتسميه التواريخ الاسلامية بـ (الكذّاب) وتمثله دعيّ معجزات ساقط الخلق وهو مما يصعب أن يكون الحقيقة كلها • من الممكن أنه حصل على بعض مبادئه من المسيحية حسبما اقترح البروفيسور مارغليوث(٢) بيد اننا لا نعلم عنها الا الشيء اليسير جداً للوصول الى أي استنتاج ؛ وبعد صراع مستميت دحر مسيلمة(★) وقتل على يد «سيف الله» خالد بن الوليد ؛ وقد انتصرت السيوف الاسلامية في كل مكان فأحنت بلاد العرب رأسها بخضوع حزين •

الاسلام ديناً عالمياً :

مع ان ميور ومؤرخي سيرة محمد (ص) الآخرين قد ادعوا بأن الاسلام صمم فى الاصل للعرب وحدهم ، ولم يطلب تقبلاً على مقياس عالمي فان تأكيدهم ينقض بشهادة القرآن التي لا لبس فيها ، ففي بعض السور القديمة (السورة ٦٨ سورة « القلم » الآيتان الاخيرتان ٥١ ـ ٥٢) نجد : (٥١) « وإنْ يكادُ الذين كفروا ليُزلقونك بأبصارهم لمّا سمِعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون (٥٢) وما هو الا ذكرٌ للعالمين • »(٣)

---

(٢) « فى أصل الاسمين : (مسلم) و (حنيف) وأهميتهما ». (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية لسنة ١٩٠٣ ص ٤٩١) •

(★) نهاية الصفحة «١٨٣» من النص الانكليزى •

(٣) راجع تى • دبليو• آرنولد : «تعاليم الاسلام» ص ٢٣ وما يليها حيث جمع عدة مقاطع بذات المآل ؛ وقد تساءل الاستاذ سنوك هرغرونيه

فتح ايران والشام : (١٢هـ/٦٣٣ - ٢٣هـ/٦٤٣) :

لقد جاء الوقت الآن لتحقيق هذا الحلم الرائع بمقياس واسع فقد كانت حروب الفتوحات العظيمة الهمتها الحماسة التبشيرية للنبي (ص) وبُررتْ بامثولته ؛ وانسجم واجب التقى مع دواعي الدولة : « لقد كانت سياسة حسنة حقاً توجيه القبائل البدوية التى أخضعت حديثاً صوب غرض خارجي حيث يمكنهم أن يطمنوا شهوتهم في الحصول على الغنائم على مقياس واسع ، والحفاظ على احساسهم الحربي ، وتقوية أنفسهم في ارتباطهم بالدين الجديد »(٤) ولا يمكننا ايراد قصة انجازاتهم هنا بل يكفي أن نقول انه خلال اثنتي عشرة سنة بعد وفاة النبي (ص) أصبحت الامبراطورية الفارسية اقليماً تابعاً لهم وانتزعت الشام بالاضافة الى مصر من الحكم البيزنطي •

التسامح الاسلامي : ويجب ألا يُظن ان اتباع زرادشت والمسيح فى هذه الاقطار أدخلوا فى الاسلام كرهاً فقد اعتنقه الآلاف طواعية مدفوعين بعوامل مختلفة لا مجال لتعدادها والذين تشبثوا بالدين الذى نشأوا عليه(★)

(الاسلام : ص ٤٤) : « أكان محمد (ص) شاعرا بعالمية بعثته ؟ » ويقرر انه لم يكن كذلك ؛ وانا الآن اتفق على انه لاحظ عمله فى البداية كمجرد الجزء العربى لمهمة عالمية وفى مثل هذه الحالة فان عبارة ذكر للعالمين فى القطعة المقتبسة تعنى : تحذيرا للناس كافة (فى مكة أو بلاد العرب) غير ان تعابير مماثلة في سور مدنية تحمل ، على ما اعتقد ، مفهوما أوسع ففكرة الاسلام ديناً عالمياً متضمن فى اعتقاد محمد (ص) فيما بعد - اذ لم يصل اليه الا تدريجيا - بأن الكتب السماوية اليهودية والمسيحية محرفة وان القرآن وحده الذى يمثل العقيدة الاصلية التى بَشّر بها الانبياء قبله كافة ، كل بدوره ، واذ توصل الى هذه القناعة ، لم يكن بالرجل الذى يترك الآخرين يعملون بموجبها •

(٤) نولدكة : « خطوط عريضة من التاريخ الشرقى » (بالانكليزية) ترجمة : جى•ايس بلاك ص ٧٣ •

(★) نهاية الصفحة : «١٨٤» من النص الانكليزى •

حصلوا على الأمان والتسامح بدفع (الجزية) .[5]

الخليفة عمر (١٣هـ/٦٣٤م ـ ٢٤هـ/٦٤٤م) :

ان مد الفتح الاجنبي ما كاد يبدأ بالانسياب قبل وفاة أبي بكر حتى اكتسح الشام وايران بسرعة مذهلة في خلافة عمر بن الخطاب (١٣هـ/٦٣٤م ـ ٢٤هـ/٦٤٤م) واستمر متقدماً ولو بزمجرة متناقصة تحت حكم الخليفة الثالث : عثمان . بوسعنا أن نتوقف قليلا عند شخصية عمر النبيلة الذى اعتبره المسلمون الصالحون فيما بعد تجسيداً لجميع الفضائل التى ينبغي للخليفة أن يتحلى بها ؛ ولعل شخصيته قد رفعت الى درجة المثاليات ولكن القصص المروية عنه على كل حال تقدم لنا صورة تثير الاعجاب للرجل وعصره ؛ وهنا بعضها وقد اقتُبس بشكل اعتباطي تقريباً من صفحات الطبري :

بساطة شمائله :

قال أحدهم : رأيت عمر يأتي العيد ماشياً حافياً اعسر ايسر متلبباً[6] برداً قطرياً[7] مشرفاً على الناس كأنه على دابة »[8] وحدث مولى للخليفة عثمان بن عفان قال كنت رديفاً لعثمان بن عفان حتى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر ، شديد السموم فاذا رجل عليه ازار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الابل يدخلها الحظيرة ، حظيرة إبل الصدقة فقال عثمان : « من ترى هذا ؟ » قال فانتهينا اليه فاذا هو عمر بن الخطاب فقال « هذا والله

(٥) راجع البروفيسور براون : « تاريخ فارس الادبى » ج ١ ص ٢٠٠ وما يليها .

(٦) تلبب : أى التف برداء .

(٧) قطري : ذو لون أحمر مزين بصور .

(٨) الطبري : جـ١ ص ٢٧٢٩ س ١٥ وما يليه .

القوي الأمين »[٩] ـ واعتاد عمر أن يتجول في الاسواق ويرتل القرآن ويحكم بين المتجادلين حيثما وجدهم ـ وعندما سأل كعب الاحبار ، أحد أحبار اليهود المشهورين في المدينة ، سأل : « كيف بالدخول على أمير المؤمنين »[١٠] فتلقى الجواب التالي : « ليس[*] عليه باب ولا حجاب ، يصلي الصلاة ثم يقعد فيكلمه من شاء »[١١] .

شعوره بالمسؤولية الشخصية :

ولقد قال عمر في بعض خطبه : « والذي بعث محمداً بالحق لو أن جملاً هلك ضياعاً[١٢] بشط الفرات ، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب[١٣] » (يعني نفسه) وروي انه قال في مناسبة اخرى : « لئن عشت ان شاء الله لاسيرن في الرعية حولا[١٤] فاني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني[١٥] أمّا عمالُهم فلا يرفعونها اليّ ، وأما هم فلا يصلون اليّ فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى الجزيرة[١٦] فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى البحرين فأقيم

---

(٩) نفس المصدر : ١/٢٧٣٦ س ٥ وما يليه ، والآية المقتبسة من القرآن الكريم هي من السورة الثامنة والعشرين ، « سورة القصص » الآية ٢٦ حيث استشهد بها بحق موسى (عليه السلام) والآية : « قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين » .

(١٠) كان عمر أول من اتخذ لقب (أمير المؤمنين) وهو اللقب الذى خوطب به الخلفاء بعده بصورة عامة .

(*) نهاية الصفحة : «١٨٥» من النص الانكليزي .

(١١) الطبري : ١/٢٧٣٨ س٧ وما يليه .

(١٢) أى اهمالا .

(١٣) نفس المصدر : ١/٢٧٣٩ س ٤ وما يليه .

(١٤) أي سنة كاملة .

(١٥) أى رغبات يحال دون وصولها الي .

(١٦) بلاد شمال العراق بين الموصل وحلب .

بها شهرين ، ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا ! »[١٧] .

الخليفة شرطياً :

وجاء ذات ليلة الى باب عبدالرحمن بن عوف فضربه فجاءت المرأة ففتحته ، ثم قالت له : « لا تدخل حتى أدخل البيت وأجلس مجلسي » فلم يدخل حتى جلست ثم قالت : « ادخل ! » فدخل ثم قال : « هل من شيء ؟» فأتته بطعام ، فأكل وعبدالرحمن قائم يصلي ، فقال له : « تجوز[١٨] أيها الرجل ! » فسلم[١٩] عبدالرحمن حينئذٍ ثم أقبل عليه[٢٠] فقال : « ما جاء بك في هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « رفقة[٢١] نزلت في ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة فانطلق فلنحرسهم » فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشزٍ[٢٢] من الارض يتحدثان فرفع لهما[٢٣] مصباح ، فقال عمر : « ألم أنْهَ عن المصابيح بعد النوم ؟ [٢٤] فانطلقا فاذا هم قوم على شراب لهم فقال : « انطلقْ فقد عرفته ! » فلما أصبح أرسل إليه فقال : « يا فلان ! كنت وأصحابك البارحة على شراب » قال : « وما علمك

---

(١٧) نفس المصدر : ١/٢٧٣٧ س ٤ وما يليه .

(١٨) أي اختصر في صلاتك .

(١٩) أي أنهى صلاته بالتسليم على الرسول (ص) .

(٢٠) أدار وجهه نحوه .

(٢١) جماعة من المسافرين .

(٢٢) مرتفع .

(٢٣) رفع له الشيء : شاهده من بعيد .

(٢٤) يُفسر منع عمر المصابيح لان الجرذان كانت تأخذ الفتيلة وتحرق سقوف البيوت التى كانت فى ذلك العهد من الجريد أي سعف النخيل .

يا أمير المؤمنين(*) ؟ » قال : « شيءٌ شهدته » . قال : « أولم ينهك الله عن التجسس ؟ » قال فتجاوز عنه(٢٥) .

تشدده إزاء أسرته :

كان عمر اذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال : « اني نهيت الناس عن كذا وكذا ، وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير - يعني الى اللحم - وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الا أضعفت عليه العقوبة ! »(٢٦)

تعليماته الى عماله :

« كان عمر اذا استعمل عاملا كتب له عهدا وأشهد عليه رهطا من المهاجرين والانصار واشترط عليه أن لا يركب برذونا ولا يأكل نقيا(٢٧) ولا يلبس رقيقا ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس(٢٨) - وكان عمر اذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول : « اني لم أستعملكم على أمّة محمد (ص) على اشعارهم(٢٩) ولا على ابشارهم ، انما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة ، وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، واني لم اسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ، ولا تجلدوا العرب فتذلوها ، ولا تجمروها(٣٠) فتفتنوها(٣١) ولا تغفلوا(٣٢) عنها

(*) نهاية الصفحة : «١٨٦» من النص الانكليزي .

(٢٥) أي عفا عنه ، الطبري : ٢٧٤٢/١ س١٣ وما يليه .

(٢٦) نفس المصدر : ٢٧٤٥/١ س ١٥ وما يليه .

(٢٧) الخبز الابيض .

(٢٨) نفس المصدر : ٢٧٤٧/١ س ٧ وما يليه .

(٢٩) جمع : شَعَر ويعني أنه يمنعهم من نتف شعرهم .

(٣٠) جمرهم : أي أبقاهم على الحدود وحال دون عودتهم الى عوائلهم.

(٣١) فتنه : أغراه .

(٣٢) غفل عنه : أهمله .

فتحرموها[٣٣] ، جردوا القرآن[٣٤] وأقلوا الرواية عن محمد [صلعم] وأنا شريككم » وكان يقصّ من عماله[٣٥] ، واذا شُكِيَ اليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه فان صح عليه أمر يجب أخذه به أخذه به »[٣٦] .

ديوان عمر :

كان أول من دوّن الدواوين[٣٧] للعرب في الاسلام وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم العطاء[٣٨] ، والمعلومات التالية عن انشائها مستخلصة من التاريخ الرائع الموسوم بـ « الفخري » :ـ

« فلما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة (٦٣٦م) وهي خلافة عمر رضى الله عنه ، رأى ان الفتوح قد توالت[★] ، وان كنوز الاكاسرة قد ملكت ، وان الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت ، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الاموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك ؟ وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس ، فلما رأى حيرة عمر قال له : « يا أمير المؤمنين : ان للاكاسرة شيئا يسمونه ديوانا ، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل » ، فتنبه عمر (رض) وقال : « صفه لي » فوصفه المرزبان ، ففطِن عمر لذلك ودوّن

---

(٣٣) حرمه : جعله ييأس ويقنط .
(٣٤) جرد القرآن : كرس نفسه للقرآن .
(٣٥) أقصّ (الناس) من عماله : أي اقتص من امراء الامصار من أجل اولئك الذين عوقبوا ظلماً وعدواناً .
(٣٦) أخذه بالشيء : عاقبه بسببه ، نفس المصدر : ٢٧٤٠/١ السطر الاخير وما يليه .
(٣٧) وضع السجلات .
(٣٨) أى عين لهم مرتباً .
(★) نهاية الصفحة : «١٨٧» من النص الانكليزي .

الدواوين وفرض العطاء ، فجعل لكل واحد من المسلمين نوعا مقررا ، وفرض لزوجات الرسول صلوات الله عليه وسلامه ولسراريه وأقاربه حتى استنفد الحاصل ولم يدخر فى بيت المال شيئا • قالوا فقام اليه رجل وقال : « يا أمير المؤمنين ، لو تركت في بيوت الاموال شيئا يكون عدة لحادث ان حدث » ، فزجره عمر ، وقال : « كلمة القاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها ، وهى فتنة لمن بعدي • اني لا أعد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، فهي عُدتنا التى بها بلغنا ما بلغناه » • ثم ان عمر رأى أن يجعل العطاء على حسب السبق الى الاسلام والى نُصرة الرسول عليه الصلاة والسلام فى مواطِن حروبه(٣٩) •

أريستوقراطية الاسلام :

وقد أُخذت كذلك ، القرابة من محمد (ص) بنظر الاعتبار فقد قال عمر : « والله ما أدركنا الفضل في الدنيا ولا نرجو ما نرجو من الآخرة من ثواب الله على ما عملنا الا بمحمد (صلعم) فهو شرفنا وقومه أشرف العرب ثم الأقرب فالأقرب • ان العرب شرفت برسول الله ، ولعل بعضها يلقاه الى آباء كثيرة(٤٠) وما بيننا وبين أن نلقاه الى نسبة(٤١) ثم لا نفارقه الى آدم إلا آباء يسيرة ، مع ذلك والله لئن جاءت الاعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة فلا ينظر رجل الى قرابة ، وليعمل لما عند

---

(٣٩) الفخرى : طبعة ديرنبرغ ، ص ١١٦ س ١ ـ ص ١١٧ س ٣ [= طبعة محمد عوض ابراهيم وعلى الجارم ، مصر ١٩٢٣ ص ٧٩ س ١٧ـ ص ٨٠ س ١٢] •

(٤٠) « لقيه الى آباء كثيرة » : أى كان له أجداد كثيرون مشتركون معـه •

(٤١) « لقيه الى نسبه » : التقى الفرعان عند نفس الجد الاعلى •

الله(*) فان من قصر به عمله لم يسرع به نسبه »(٤٢) .

ويمكننا أن نقول فى عمر بما لا يقل ملاءمة عن قولنا في كرومويل :

« صاغ الطريف من الممالك والتليدْ

في قالبٍ من صُنْعِهِ فذٍ جديدْ »(**)

وهو الآخر قد برر حكمة الشاعر :

ذات الفنون التى جاءت بسلطـان

قـد كان صائِنها دوماً بايمـانِ(**)

تمصير البصرة والكوفة (١٧هـ/٦٣٨م) :

أصبحت بلاد العرب بعد أن تطهرت من الكفار فى ظل النظام الذى اوجده ساحة واسعة للتجنيد للجيوش الاسلامية المتأهبة : فالعرب كونوا في الاقاليم المفتوحة طبقة عسكرية خاصة تحيا فى معسكرات عظيمة وتعيش بالواردات التى تجمع من السكان غير المسلمين ومن مثل هذه المعسكرات انبثقت مدينتان قدر لهما أن تتركا طابعهما فى التاريخ الادبي ـ البصرة في دلتا دجلة والفرات ، والكوفة التى مصّرت حوالي نفس الوقت على الرافد الغربي للمجرى الاخير ، غير بعيدة عن الحيرة .

موت عمر (٢٤هـ/٦٤٤م) :

قتل عمر على يد عبد فارسي اسمه فيروز ، وهو على رأس المصلين في المسجد الكبير ، وبموته انتهت الثيوقراطية العسكرية وأيام الرخـاء

(*) نهاية الصفحة «١٨٨» من النص الانكليزى .

(٤٢) الطبرى : ٢٧٥١/١ س ٩ وما يليه .

(**) حاولنا نقل البيتين الى العربية شعرا مراعين معنى الاصل الانكليزى بدقة . [المترجم]

للخلافة الراشدة ، وتتضح الخطوط العريضة لاخلاقه فى الحكايات التى ترجمت في أعلاه ، ولو ان تفاصيل كثيرة يمكن أن تضاف لاكمال الصورة : لقد كان بسيطا ومقتصدا ، قائما بواجبه بلا خوف أو محاباة ، قويا الى درجة الخشونة ، مع ذلك فقد كان قادرا على اللطف ازاء الضعفاء وحكما قاسيا تجاه الآخرين ولا سيما تجاه نفسه • خلق ليكون حاكماورجلا بكل معنى الكلمة ؛ وعندما(★) نلتفت الى الاضطرابات التى حصلت بعد موته نجنح الى الموافقة على رأي عالم متنسك قال بعد ذلك بخمسة قرون : « لقد طوي حظ الاسلام في أكفان عمر بن الخطاب »[1] •

بيعة عثمان (٢٤هـ/٦٤٤م) :

عندما اعتنق اريستوقراطيو مكة الاسلام لم يستسلموا الا لما لابد منه ، وكان عليهم الآن أن يهتبلوا الفرصة ليثأروا لانفسهم ، فعثمان بن عفان الذى خلف عمر بن الخطاب كان من اسرة مكية ممتـازة ، هي الاسرة الاموية أو « بنو أمية » الذين تزعموا المعارضة دائماً ضد محمد (ص) ولو ان عثمان نفسه كان بين أوائل مريدي النبي (ص) وكان شيخا تقيا ذا نوايا طيبة ــ اداة طيعة فى أيدي أقربائه الطموحين ، وسرعان ما صعدوا الى كافة المناصب المربحة والمهمة وعاشوا على خيرات البلاد الدسمة ، وكثيرا ما أثار سلوكهم اللاديني سؤالا عما اذا كان هؤلاء المعتنقون للاسلام في اللحظة الاخيرة لا يزالون وثنيين في صميم قلوبهم •

استيـاء عـام :

وهناك أسباب اخرى أسهمت فى اثارة استياء عام وكان سرعة تزايد

(★) نهاية الصفحة «١٨٩» من النص الانكليزى •

(١) ابن خلكان (طبعة وستنفيلد) رقم ٦٨ ، ص ٩٦ س ٣ ؛ ترجمة دى سلان ، جـ١ ص ١٥٢ •

البذخ والتحلل الخلقي في المدينتين المقدستين فضلا عن المواقع الاسكانية الجديدة قذى في عيون المسلمين التقاة ، وجاهدت الاريستوقواطية الاسلامية الحقيقية ، وهم صحابة النبي (ص) ، بزعامة علي وطلحة والزبير ، لنسف انبلاء المنافسين الذين هددوهم بالدمار ؟ وكان الجيش المتحزب متأهباً للثورة على غطرسة امية وجشعها فاندلعت نيران الثورة واخيرا قتل الخليفة الشيخ في بيته بعد أن عانى حصار عدة أسابيع ، وهذا الحادث يحدد فترة في تاريخ العرب ، فالحروب الاهلية التي نجمت عنه مزقت وحدة الاسلام من أعلاها الى أسفلها ولم يلتئم الجرح أبدا .

بيعة علي : (٣٦هـ/٦٥٦م)

بويع الآن علي ابن عم النبي (ص) وصهره الذي كان قد بقي(★) حتى الآن في المؤخرة ، خليفة للمسلمين ، ورغم ان الشبهة في أنه كان متآمرا مع القتلة يمكن وضعها جانبا ، فقد أبدى ضعفا يدان عليه في تركه عثمان لمصيره دون محاولة انقاذه(٢) ولكن عليا كانت له كل الفضائل تقريبا عدا ما يتسم به الحاكم عادة وهي : القوة والعزم وبعد النظر(٣) .

شخصية علي :

كان محاربا شجاعا ، ومستشارا حكيما ، وصديقا صدوقا وخصما كريما ، وامتاز بالشعر والبلاغة ، وأشعاره وأقواله مشهوزة في الشرق

(★) نهاية الصفحة «١٩٠» من النص الانكليزي .

(٢) لقد حاول الامام علي انقاذه فقد أرسل ولديه الحسن والحسين للدفاع عنه . [المترجم]

(٣) هذا رأي لا نوافق المؤلف عليه ، فقد كانت كل صفات الزعامة متوفرة في الامام الا ان الظروف كانت غير مواتية ، اذ انقلب المجتمع الاسلامي الزاهد الناسك الذي يمثله الامام علي الى مجتمع لا يؤمن بالمساواة في توزيع الثروة يمثله معاوية ، وذلك على اثر الفتوحات وتدفق الثروات ودخول العناصر الاجنبية التي مزقت كيان المجتمع الاسلامي [المترجم]

الاسلامي ولو ان قليلا منها يصح نسبته اليه ، روح لطيفة سامية جديرة بأن تقارن مع مونتروز وبايارد(*) ولم تكن له موهبة للحقائق الصارمة لفن السياسة فبزّه منافسون لا يتورعون عن شيء وكانوا يعرفون ان « الحرب لعبة خدعة » ، وهكذا كانت سيرته في بعض معانيها مخفقة ، ولم تعترف الامة بأجمعها بسلطته خليفة في حياته •

عبادته بطلاً :

وعلى العكس من ذلك فقد ترك الى الوقت الحاضر تأثيرا بعد وفاته يأتي بعد تأثير محمد (ص) نفسه مباشرة واعتبر خلال قرن من مصرعه خليفة النبي(ص) بالحق الالهي، شهيداً مباركا ، معصوما من الاثم والخطيئة ، بل حتى على رأي بعضهم تجسيدا لله سبحانه وتعالى(٤) ؛ فعلي الاسطورة الشيعية ليس صورة تاريخية ممجدة فحسب ، بل يمثل ، على الاكثر بشكل اسطوري خالص ، المطامح الدينية والاغراض السياسية لجزء كبير من العالم الاسلامي •

علي ضد معاوية :

لنعد الآن الى قصتنا : ما كاد الثوار المنتصرون يبايعون عليا خليفة حتى رفع معاوية بن ابي سفيان عامل الشام شعار الثأر لعثمان ورفض البيعة ؛ ولمعاوية ، كرأس الاسرة الاموية ؛ أن يطالب بحق ، بمعاقبة قتلة قريبه ، غير ان النزاع(**) بينه وبين علي كان في الواقع من أجل الخلافة •

معركة صفين : (٣٧هـ/٦٥٧م)

وجرت معركة عظيمة في صفين وهي قرية على الفرات وكان علي

(*) بطلان أولهما اسكتلندي وثانيهما فرنسي وكلاهما قتل • [راجع ويبستر : معجم الاعلام « بالانكليزية » ص ١٠٤٦ و ١١٧] [المترجم]

(٤) هذا رأي فرقة من الغلاة تعرف « بالعلي اللهيّة » • [المترجم]

(**) نهاية الصفحة : «١٩١» من النص الانكليزي •

قاب قوسين أو أدنى من كسب المعركة عندما فكر معاوية في خدعة ، اذ أمر جنوده ان يرفعوا المصاحف على رؤوس الحراب ويصيحوا : « هذا كتاب الله : فليكن حكما بيننا ! » وقد نجحت الخدعة التعيسة ؛ وكان في جيش علي الكثيرون من التقاة المتعصبين الذين استهواهم التحكيم المقترح للقرآن بقوة لا تقاوم ، فقفزوا الآن بصخب مهددين بخيانة زعيمهم ، ما لم يضع قضيته تحت تصرف القرآن • عبثاً احتج علي وتجادل مع المتمردين وحذرهم من الفخ الذى كانوا يدفعونه اليه ، كل ذلك في اللحظة التى كان النصر قد أصبح فى قبضتهم •

التحكيم : لم يكن له الا أن يذعن ويعين حكماً له رجلاً ذا ولاءٍ مشكوك فيه هو أبو موسى الاشعري ، من أسن صحابة الرسول الاحياء ، وعين معاوية من جانبه عمرو بن العاص الذى أثار بدهائه المناورة الحاسمة •

الجـزاء : عندمـا جـاء الحكمـان لتقديم رأيهمـا نهض أبو موسى عـلى حسب الترتيب الذى تم فى الجلسة التمهيدية وهو انه يجب خلع كل من علي ومعاوية وعلى الناس أن ينتخبوا خليفة جديرا بالمنصب بدلهمـا وانتضى سيفه قائلا : «هكذا أخلع علياً بن أبي طالب» ثم تقدم عمرو وقال : « أيها الناس ! قد سمعتم ما قال وانه قد خلع صاحبه وأنا أيضا قد خلعته معه واثبت صاحبي معاوية(٥) [كما اثبت هذا السيف فى قرابه] » ولكي يمثل قوله بالعمل أعاده الى قرابه • انه لمن سمات الافكار العربية فى الخلق ان هذه الخدعة الوقحة هلل لها أشياع معاوية انتصارا دبلوماسيا منحه تبريرا قابلا للتلوين(★) لاتخاذ لقب الخليفة • استعد الجانبان لتجديد القتال بيد أن علياً فى الوقت ذاته وجد يديه مليئتين بالمشاغل الداخلية •

---

(٥) راجع « الفخري » : طبعة علي الجارم ، ص ٨٩ وقد ذكر الخاتم بدل السيف •

(★) نهاية الصفحة : «١٩٢» من النص الانكليزي •

ثورة الخوارج على علي :

والآن تخلى عنه فريق كبير من جنده ، بينهم بعض المتحمسين الذين أرغموه على قبول التحكيم لمجرد انه قبل به • خرجوا من صفوف الجيش ورفعوا راية الثورة • هؤلاء المنشقون أو « الخوارج » ، كما يلقبون ، حافظوا على مبادئهم الدينية بشجاعة مستميتة ، ومع أنهم كثيرا ما دحروا ، فقد كانوا يعودون الى سوح القتال مرة بعد أخرى •

اغتيال علي (٤١هـ/٦٦١م) :

وأخيرا تركت خطط علي لاستعادة الشام سنة ٤٠هـ/٦٦٠م عندما عقد صلحا مع معاوية وبعد ذلك بقليل صُرع في مسجد الكوفة التي كان قد جعلها عاصمته على يد متآمر خارجي هو ابن مُلْجم •

بمقتل علي يمكن انهاء صورتنا التخطيطية للخلافة الراشدة بشكل ملائم ، وقد كان من الضروري تقديم بعض المعلومات عن هذه السنوات ذات الحيوية في التاريخ الاسلامي ولو على حساب املال القارىء الذى ربما كان يرغب لو ان مجالا أضيق كان قد خصص للناحية السياسية •

﴿ الدولة الأموية ﴾

جاء الامويون الى الحكم ولكنهم حكموا في كل مكان ، باستثناء الشام ومصر ، بالسيف وحده ، وكانوا كأحفاد وممثلين للاريستوقراطية الوثنية التى جاهدت بكل قواها لتدحر محمداً (ص) غاصبين في نظر المجتمع الاسلامي الذي ادعوا قيادته خلفاء له[١] ؛ وسنرى بعد قليل كيف أن هذه المعارضة عبرت عن نفسها في حزبين كبيرين : « الشيعة » أو اتباع علي والمذهب المتطرف « للخوارج » الذين ذكروا في أعلاه ، وكيف أنها قويت

---

(١) معاوية نفسه قد قال : « أنا أول الملوك » (اليعقوبي ، طبعة هوتسما ، جـ٢ ص ٢٧٦ س ١٤) •

تدريجياً بالمسلمين من غير العرب ، حتى اكتسحت(*) الحكومة الاموية ، وأقامت العباسيين مكانهم •

التقاليد الاسـلامية معادية للأمويين : يجب أن نتذكر في تقديرنـا لشخصية الامويين ان الذين كتبوا نُصب الدولة المنهارة هم أعداؤها ، ولا يمكن أن يعتبر صحيحا من الناحية التاريخية أكثر من الصورة الكالحة التي رسمها « تاسيتس »(**) للامبراطور « تايبيريس »(***) وقد حُكم على الامويين بأنهم طغاة ظامئون لشرب الدماء لانهم أوقفوا القوى الثورية عند حدهـا بصرامة لا ترحم ؛ في حين أن أفاضلهم على كل حـال كانـوا حكاما أقوياء وذوي كفاية بشكل فريد ومسلمين غـير صالحين ورجـالا دنيويين صالحين وقلما كانوا قساة ، وكانوا بسطاء في حياتهم • ان لم يكونوا ذوي تفكير عالٍ فهم يقفون على العموم فوق مستوى العباسيين خلقاً قدر ما هم دونهم ثقافة وعقلية •

حلم معاوية :

وكان حلم معاوية مضرب المثل ولو أنه هو الآخر يستطيع أن يكون صارما أحيانا • عندمـا زاره أفراد من آل علي في دمشق التي كانت الآن حاضرة الامبراطورية الاسلامية آواهم بكرم وآنسهم وكان متلهفـاً لان

(*) نهاية الصفحة : «١٩٣» من النص الانكليزي •

(**) تاسيتس Tacitus (پبليس كورنيليس) (حوالى ٥٥–١٢٠م) : مؤرخ روماني • من مؤلفـاتـه : « حوار عن الخطبـاء » و « اگريكولا » و « جيرمانيا » و « التواريخ » و «الحوليات» • اسلوبه جد رصين ومهذب • [المترجم]

(***) تايبيريس Tiberius (٤٢ ق•م – ٣٧ ب•م•) ثاني امبراطرة الرومان ؛ وهو ابن اغسطس بالتبني ؛ حاز على انتصارات عسكرية بارعة في عدة أصقاع من أوربا ، وكان امبراطورا كفأً ، رغم انه كان صارما وغير محبوب ؛ وقد عاش بعد سنة ٢٦م في عزلة بجزيرة كاپري • [المترجم]

يعمل ما يطلبون ، ولكنهم (ويرويها المؤرخ مستحسناً) كانوا يخاطبونه بأغلظ العبارات ، ويغيظونه بأفظع اسلوب : وهو أحيانا يرد عليهم بدُعابة ، وأحيانا اخرى يتظاهر بأنه لا يسمع وكان يصرفهم دائما بهدايا فاخرة وعطايا وفيرة(٢) . وقد قال : « لا أرفع سيفي عندما يكفي السوط ، ولا سوطي عندما يكفي لساني ، ولوكان بيني وبين رعيتي شعرة ما قطعتها»(٣).

ساعات دراسته :

وبعد انتهاء مشاغل النهار كان يبحث عن الراحة بين الكتب ويستمر الى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الامم وحروبها(*) ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الامم السالفة(٤) .

زياد بن أبيه :

وكان مساعد معاوية الرئيس زياد بن سمية (وسمية امه) أو كما هو معروف عموما زياد بن أبيه لان اسم والده لم يعرف ، ولو ان الاشاعات كانت تشير الى أبي سفيان ، وفي هذه الحال يكون زياد أخا معاوية لابيه وبدلا من أن يتنصل معاوية من هذه التهمة ، اعترف به أخا وجعله عاملا على البصرة حيث حكم الاقاليم الشرقية بعصا من حديد .

يزيد (٦١هـ/٦٨٠ ـ ٦٤هـ/٦٨٣) :

كان معاوية دبلوماسيا داهية ـ وقد صحت مقارنته بريشيليو ـ الذى

---

(٢) الفخري : طبعة ديرنبرغ ، ص ١٤٥ .
(٣) اليعقوبي : ج٢ ص ٢٨٣ س ٨ وما يليه .
(*) نهاية الصفحة : «١٩٤» من النص الانكليزي .
(٤) المسعودي ، مروج الذهب (طبعة باربييردى مينارد) ج ٥ ص ٧٧ [= طبعة محمد محي‌الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ج ٢ ص ٣٣٢ س ٤ ـ ٦] .

أهلته معرفته العميقة بالطبيعة البشرية أن يكسب الى جانبه رجالا من ذوى الافكار المعتدلة فى جميع الاحزاب المعارضة له ، ولكن سرعان ما أثبتت الاحداث فراغ هذه المصالحة الظاهرية ، فيزيد الذى خلف أباه كان ابن ميسون وهي بدوية تزوجها معاوية قبل أن يصبح خليفة ولم يكن لبذخ دمشق سحر لروحها غير المتحضرة ، وقد أعربت عن حنينها الى موطنها الاصلي بأبيات حزينة [من الوافر] :ــ

لَبيتٌ تنفُخُ الارواحُ فيه ... أحبُّ اليَّ من قصر منيفِ
ولبسُ عباءة وتقَر عيني ... أحبُّ الي من لبسِ الشفوفِ
وأكل كُسيرة في قعر بيتي ... أحب اليّ من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج ... أحب الي من نقر الدفوف
وكلب ينبح الطراق دوني ... أحب الي من قط الوف
وخرقٍ من بني عمي نحيف ... أحب الي من علج عنيف(٥)(★)

وقد حقق معاوية للسيدة التى أزعجته اشارتها الوقحة اليه ، ما أرادت ، فعادت الى أسرتها ، ونشأ يزيد بدوياً بغرائز البدو وأذواقهم ــ حب اللذة وكره التقى والاعراض عن قواعد الدين باستهتار .

الحسين يزحف على الكوفة :

وقد حدد بداية حكمه حادث لا يستطيع حتى الآن الا القليلون من المسلمين أن يتحدثوا عنه من دون شعور بالفظاعة والخوف ؛ والحقائق بايجاز هى : في خريف سنة ٦١هـ/٦٨٠م ترك الحسين بن علي الذى ادعى بأنه أحق بالخلافة لانحداره من النبي (ع) مكة مع كافة أفراد اسرته

(٥) نولدكه : منتخبات ، ص ٢٥ س٣ وما يليه بعد حذف السطر الثامن [(★) وهنا نهاية الصفحة : «١٩٥» من النص الانكليزى]

وعدد من أصدقائه المخلصين قاصدا الكوفة حيث توقع من أهلهـــا الذين كانوا كلهم على وجه التقريب من الشيعة أن يناصروا قضيته وقد كانت مغامرة جريئة اذ أخبره الشاعر الفرزدق الذى كان يعرف المزاج المتقلب لمواطنيه أن قلوبهم معه وسيوفهم مع بني امية ؛ ولكن تحذيره قدم عبثاً ؛ وفي الوقت ذاته بعث عبيدالله بن زياد ، عامل الكوفة ، قوة من الخيـالـة لايقاف الثائر الاول عند حده ، وذلك بعد ان أفزع الثائرين في المدينـة وقطع رأس زعيمهم مسلم بن عقيل الذى كان ابن عـم الحســين • كان طريق التراجع ما يزال مفتوحاً أمامه غير أن أتباعه صرخوا بالثأر من أجل دم « مُسلم » ، فلم يكن بوسع الحسين أن يتردد ، وبعد أن اتجه شمالا على طول الفرات ، حط رحاله في كربلاء ، مع عصبة صغيرة اشتملت على حوالي مائتي نفس ، بما فيهم النساء والاطفال ؛ وفي هذا الموقف اليائس قدم شروطاً ربما كانت تُقبل لولا أنّ شَمِرَ بنَ ذي الجوشن ، وهو اسم بغيض ولعين الى الأبد ، أقنع عبيدالله بأن يصر على الاستسلام بلا قيد أو شرط ؛ فر'فض الطلب فصفّ الحسين رفقاءه ـ وهم حفنة من الرجال والصبيان ـ للمعركة ضد الجموع التي أحاطت بهم ، وكل التفاصيل المرعبة التى استنبطها الحزن والعاطفة قلما يمكن أن(*) تزيد من المأساة في المشهد الاخـــير •

مجزرة الحسين وأتباعه في كربلاء (١٠ محرم ٦١هـ = ١٠ تشرين الاول ٦٨٠م) :

ويبدو أن المسؤولين الامويين أنفسهم أحجموا عن بشاعـة مجزرة عامة وكانوا يأملون أن يأخذوا حفيد النبيّ (ص) حياً ؛ على أن شَمِر لم تكن لديه مثل هذه التحفظات ، فحث جنوده على الهجوم مستهجنا التمهل

(*) نهاية الصفحة : «١٩٦» من النص الانكليزي •

والابطاء وسرعان ما انتهى الصراع غير المتكافىء فصرع الحسين وقد نفذ فيه سهم ، وقُطِّعَ أتباعه الشجعان الى جنبه عن آخرهم •

أفكار كتاب المسلمين والاوربيين المتباينة :

تعتبر التقاليد الاسلامية ، التى هى متفقة في عدائها للدولة الاموية مع استثناءات نادرة ، الحسين شهيداً ويزيد قاتله ، في حين أن المؤرخين المحدثين يتفقون على الاكثر مع السر دبليو ميور الذى يوضح بأن الحسين : « عندما استسلم لتصميم ضد العرش وان كان عقيماً ، كان يهدد بالخطر ويتطلب الاخماد السريع »(٦) كانت هذه بطبيعة الحال وجهة نظر الحزب الحاكم وعلى القارىء أن يكوّن استنتاجه الخاص فيما يتعلق بالمدى الذى يبرر فيه الاجراء الذى اتخذوه •

الامويون فى نظر الاسلام :

وتقرر المسألة بالنسبة للمسلمين بعلاقة الامويين بالاسلام فهم بخرقهم قوانينه واستهانتهم بمثله العليا لا يمكنهم أن يكونوا غير طغاة ، وحتى بكونهم طغاة لم يكن لهم حق فى قتل المؤمنين الذين هبوا مسلحين ضد سلطتهم المغتصبة ؛ وعندما نأتي لتمحيص ما يعرف بحكم التاريخ ، نرى انه حكم الدين ، حكم الاسلام الثيوقراطي على الامبريالية أو التسلط العربي ؛ وعلى هذا الاساس يُلعن الامويون بحق ، ولكن من المستحسن أن نتذكر ان التمييز بين الدين والدولة لا أثر له فى نظر المسلمين •

شخصية يزيد : لقد كان يزيد من الناحية الدينية رجلاً طالحاً : لذلك فقد كان طاغية شريراً ، فالواحد يستلزم الآخر • أما من وجهة

---

(٦) خففنا العبارة الاصلية لانها غير منصفة ولا تليق بالامام الحسين (ع) ولا بالمؤرخ نفسه الذى لم يفهم مغزى ثورة الحسين ضد الطغيان الاموى • [المترجم]

نظرنا غير المتحيزة فقد كان أميراً لطيفاً ورث موهبة والدته الشعرية وكان يفضل بشكل لا حد له(*) الخمرة والموسيقى والعبث على مشاق الاعمال العامة ، وعرب الشام الذين تبينوا في الامويين حكاما شرعيين كان تفكيرهم فيه ساميا ، وقد قال فيه كاتب نصراني : « انه رجل رقيق الحاشية ، قدّرته الشعوب التي خضعت لسلطته حق قدره ، وهو ، على خلاف ما اعتاده الناس ، لم يرم الى اكتساب المجد الذاتي ارضاء لانانيته في الملك ، بل عامل جميع من عاش معهم معاملة تشعر بالمساواة والبساطة »(٧) وقد تأسف لمصير النساء والاطفال من اسرة الحسين ، وعاملهم بكل مظاهر الاحترام ، وأرسلهم الى المدينة حيث أضافت روايتهم للمأساة وقوداً جديداً للكراهية والاشمئزاز اللذين نظر بهما الى المسؤولين عنها بصورة عامة .

والحق أن للامويين سبباً كافياً للندم على يوم كربلاء فقد منح حزب الشيعة شعار التجمع ـ « الثأر للحسين ! » الذي لبت دعوته الجهات كافة ، ولاسيما الموالي الفرس الذين كانوا يتوقون للخلاص من النير العربي ، وكان انصهارهم بالشيعة ـ وقد انضووا بالآلاف بعد سنوات قليلة تحت لواء المختار ـ حادثاً ذا خطورة تاريخية بالغة ولسوف نبحثه عندما نأتي الى الكلام عن الشيعة بصورة خاصة .

استباحة المدينة ومكة (٦٣ ـ ٦٤هـ/٦٨٢ ـ ٦٨٣م) :

ان مقتل الحسين لا ينهي قصة فظائع يزيد فقد نهب جيش الشام

(*) نهاية الصفحة : «١٩٧» من النص الانكليزي .

(٧) كتاب الصلة لايزيدور هيسپالس ، الفقرة : ٢٧ من اقتباس فيلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها : ص ١٠٥ (النسخة الانكليزية) [= ص ١٣٧ (الترجمة العربية) للدكتور يوسف العُش ، مطبعة الجامعة السورية ، دمشق ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م] .

المدينة ، مدينة النبي(ص) لانها طردت عاملها الاموي في حين أن مكة ذاتها ، حيث نصب عبدالله بن الزبير نفسه خليفة منافسا ، حوصرت وهدمت الكعبة .

ثورة المختار :

هذه الفظائع المزعجة للعواطف الاسلامية اشعلت نار ثورة ، فقد ثأر المختار للحسين ، اذ حاصر الكوفة وقتل نحوا من ثلثمائة من سكانها المتهمين ، بما فيهم المجرم شمر ؛ وقد دحرت جيوشه عبيدالله بن زياد وقتلته ، غير أنه هو الآخر قتل بعد زمن ليس بالطويل على يد(★) مُصعب ، أخي ابن الزبير وقُتل سبعة آلاف من أتباعه صبرا ؛ وعند موت يزيد سنة ٦٤هـ/٦٨٣م كانت الامبراطورية الاموية مهددة بالانهيار على نحو ما أنشد شاعر معاصر [من الكامل] :

لما رأيت الناس هرُّوا فتنة(٨) عمياء توقد نارها وتُسعَّرُ
وتشعبوا شعباً فكل جزيرةٍ فيها أمير المؤمنين ومِنبرُ

تجدد الحرب الاهلية :

بدأت انشقاقات عنيفة بين عرب الشام ، العمود الفقرى للدولة ، وقاتلت الجماعات القبلية العظيمة من كلب وقيس تلك التى حافظ تحالفها على ابقاء الدولة الاموية فى الحكم فى معسكرين متضادين فى مرج راهط (٦٥هـ/٦٨٤م) الاولى لمروان والثانية لابن الزبير ؛ وكسب نصر مروان

(★) نهاية الصفحة : «١٩٨» من النص الانكليزي .

(٨) هرُّوا فتنةً أي كرهوها ، والفتنة العمياء التى لا يهتدى فيها لوجه أمر ــ وجواب لما محذوف .

الحماسة ٢٢٦ [طبعة ١٩٢٧ المصرية ، ص ١٧٦] لفظة « عرش » فى الترجمة هى فى الاصل « منبر » ومنه كان يؤم الخليفة الصلاة العامة ويخاطب جموع الناس .

ولاء الشام ، ولكن قيساً وكلباً أصبحتا منذ الآن فصاعدا فى حال عداء عنيف[٩] ؛ وكان هذا في جوهره نزاعا بين عرب الشمال وعرب الجنوب ــ نزاعا امتد بسرعة ، وتطور الى عداء جنسي مستحكم ، وقد حملاه معهما الى أقصى بقاع الارض ، فمن ذلك مثلا اتخذت بعد فتح الاندلس احتياطات ضد الحروب الاهلية باشتراط عدم استقرار الشماليين والجنوبيين فى نفس المناطق ، وقد رسم كولدتزيهر صورة التاريخ الادبى لهذه الخصومة بمعلوماته الواسعة المعتادة وبراعته[١٠] وكان الهجاء بطبيعة الحال[★] السلاح الرئيس فى كلا الجانبين ؛ وهنا قطعة لشاعر شمالي من العهد الاموى[١١] [من الطويل] :

فللزنج خيرٌ حين تُنسب والداً
من ابناء قحطان[١٢] العفاشلة الغُرلِ
أناس اذا الهيجاء شبت رأيتهم
أذلَّ على وطء الهوان من النعل
نساؤهُمُ فوضى لمن كان عاهراً
وجيرانُهم نهبُ الفوارس والرَّجل

---

(٩) كانت كلب فى الاصل احدى القبائل الشمالية (انظر روبرتسن سمث : « القرابة والزواج » الطبعة الثانية ، ص ٨ وما يليها ــ وهو مرجع أنا مدين به الى الاستاذ بيڤان) ولكن هناك دليلا على ان الكلبيين كانوا يعتبرون يمانيين ، أو من عرب الجنوب ، فى وقت مبكر من العهد الاسلامي (راجع كولدتزيهر : « دراسات اسلامية » ، ج ١ ص ٨٣ س م وما يليه) ٠

(١٠) دراسات اسلامية : ج١/ص ٧٨ وما يليها ٠

(★) نهاية الصفحة : «١٩٩» من النص الانكليزي ٠

(١١) الاغانى : ١٣/٥١ من اقتباس كولدتزيهر ، نفس المصدر ، ص ٨٢ [= الاغانى : طبعة دار الكتب المصرية ١٤/٢٦٨] ٠

(١٢) قحطان الجد الاسطورى لعرب الجنوب ٠

وهكذا فان الشعب العربي عاد فتمزق بالادعاءات القبلية التى سعى محمد الى الغائها ، وليس مما يدعو الى الدهشة أنها برهنت أخيرا على انها القاضية على بني أمية فقد كانت الاسرة التي اشتدت عليها الضائقة ترنح مقدما ، وأعداؤها على أبوابها ، ولحسن الحظ انها أنجبت فى هذه الازمة حاكما قديرا بشكل خارق وذا حيوية ، وهو عبدالملك بن مروان الذى لم ينقذ اسرته من الدمار فحسب ، بل أعاد تثبيت سيادتها واستهل دورا أكثر تألقاً من أى دور سبقه •

عبدالملك وخلفاؤه :

خلف عبدالملك أباه سنة ٦٦هـ/٦٨٥م ولكنه كان بحاجة الى سبع سنوات من القتال الشديد ليركز ادعاءه فى الخلافة ، وعندما صرع أعظم منافسيه وهو ابن الزبير فى المعركة سنة ٧٣هـ/٦٩٢م كان الثوار ما يزالون يجتاحون الاقاليم الشرقية ، وقد قاوموا الحجاج عامل العراق ذا اليد الحديدية مقاومة مستميتة ؛ ولكن كفى حديثا عن سفك الدماء ، فقد كان للسلم كذلك انتصاراته خلال حكم عبدالملك المليء بالاتعاب وحكم خلفائه الاكثر هدوءاً ؛ وأربع من الخلفاء الخمس الذين أعقبوه هم من أبنائه ــ الوليد (٨٧هـ/٧٠٥م ــ ٩٧هـ/٧١٥م) وسليمان (٩٧هـ/٧١٥م ــ ٩٩هـ/٧١٧م) ويزيد الثاني (١٠٢هـ/٧٢٠م ــ ١٠٦هـ/٧٢٤م) وهشام الثاني (١٠٦هـ/٧٢٤م ــ ١٢٦هـ/٧٤٣م) والخامس وهو عمر الثانى ابن أخيه عبدالعزيز ، وتمتعت البلاد الاسلامية فى القسم الاعظم من هذا العهد بفترة من الراحة والرخاء اللذين أحسنت الافادة منهما فخففت ، ولو أنها لم تقض على الدمار المرعب الذى أحدثته حرب أهلية كادت تكون مستمرة(★) لعشرين سنة •

(★) نهاية الصفحة : «٢٠٠» من النص الانكليزي •

اصلاحات عبدالملك :

لقد أدخلت اصلاحات عديدة ، وكان بعضها ذا طابع سياسي تماما ، في حين أنه مع ذلك للبعض الآخر الذى الهمته نفس الدوافع علاقة مباشرة بالتاريخ الادبى ، فقد نظم عبدالملك مصلحة بريدية ممتازة بطريقة تبديل الخيل فى المحطات لنقل الطرود والمسافرين ، واستبدال النقود الرومية والفارسية التى كانت فى التداول عموما بقطع ذهب وفضة جديدة أمر بنقش جمل قرآنية عليها ؛ وجعل العربية بدلا من اليونانية أو الفارسية اللغة الرسمية للادارة المالية .

الكتابة العربية : وقد اتخذت خطوات فضلا عن ذلك لتحسين الكتابة العربية المتسمة بالنقص والخلل البالغين لتزويد قاعدة سليمة بهذه الطريقة لدراسة القرآن وتفسيره ، فضلا عن جمع الاحاديث أو أقوال النبي (ص) التى تكوّن متمما لذلك لا يستغنى عنه ؛ وكانت الابجدية العربية ، على نحو ما كانت تكتب عليه يومذاك ، تتألف من الحروف الصحيحة فحسب ، ولكي نمثل لذلك بالانكليزية نقول ان لفظة "Bnd" قد تدل على Band بانـد أو Bend بينـد أو Bind بِنْـد أو Bond بونـد ؛ و Crt قـد تدل على Cart كارت أو Carat كارات أو Curt كـورت وهكـذا ؛ ولم يكن العربي ليكترث لهـذا الغموض الا قليلا ، فقد نشأ ما هو أسوأ من هذا التشويش بكثير من جراء كون الكثير من الحروف الصحيحة نفسها متشابها تماما ، فمثلا كان من الممكن أن تقرأ نفس المجموعة الثلاثية من الحروف كـ « نبت » و « بنت » و « بيت » و « تنب » و « نتب » و « نيب » و بطرق اخرى مختلفة وبناء على صعوبات اللغة العربية التى هى عظيمة بحيث ان الاوربي الذى تُعينُه كتب القواعد العلمية ونصوص ليست عرضة للابهام كثيرا ما يجد نفسه حائرا حتى عندما يألفها بشكل مقبول ، بوسع الانسان أن يتخيل أن القرآن كان بالفعل كتابا

مختوما للجميع باستثناء عدد يسير من جموع الاجانب الذين اعتنقوا الاسلام بعد الفتوحات الاولى •

الحجاج بن يوسف (ت٩٦/٧١٤م) :

وجاهد الحجاج الشهير عامل عبدالملك على العراق الذى بدأ حياته معلما ، لتوسيع نطاق استعمال الحركات (التى استعيرت من السريانيــة) والنقاط الموضوعة فوق الحروف الصحيحة المتماثلة وتحتها ، وان مثل هذا الرجل الخارق(★) ليستحق أكثر من ذكر عابر • كان رجلا صارما في روحه النظامية ، وكان بالامكان الاعتماد عليه لاداء واجبه من دون أى التفات الى الرأي العام ، وقد اختاره عبدالملك لحصار مكة التى كان عبدالله بن الزبير متشبثــا بهــا منافسا للخليفــة • لقد قصف الحجاج المدينة بالحجــارة ، ودحر الدعيّ وبعث برأسه الى دمشق ، وأصبح بعد ذلك بعامين عاملا على العراق ؛ وعندما دخل مسجد الكوفة ارتقى المنبر وقدم نفسه الى سكان المدينة المجتمعين بهذه الكلمات التاريخية [من الوافر] :

« أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني[١٣]

يا أهل الكوفة ! اني أرى رؤوسا قد أينعت وحــان قطافهــا واني لصاحبها ، واني أرى الدماء بين العمائم واللحى »[١٤] وبقية الخطاب على نفس وتيرة الاستهلال ، ولم يستعمل تهديدات فارغة كمــا وجـــد المتذمرون في الحال • فالثورة التى كانت متأججة قبل وصوله ســرعــان ما أخمدت • « أعاد النظام الى العراق وأخضع سكانه »[١٥] ولعشرين سنة

(★) نهاية الصفحة : «٢٠١» من النص الانكليزى •

(١٣) البيت للشــاعر سُحَيْم بن وَثِيل [الرياحي] [ويضــرب للمشهور المتعالم و(ابن جلا) النهار ، مجمع الامثال للميدانى : جـ١/ص٣٣]

(١٤) الكامل للمبرد ، طبعة دبليو رايت ، ص٢١٥ س ١٤ وما يليه•

(١٥) ابن قتيبة : كتاب المعارف ، ص ٢٠٢ •

منح حكمه المستبد العالم الشرقي السلم والامان •

خدماته للادب :

ربما كان قاسيا ، ولو أن حكايات تعطشه للدماء هى بلا شك مبالغ فيها كثيرا ، ولكن يجب أن نذكر كمحمدة له أنه أسس وحافظ على الاوضاع المستقرة التى تقدم فراغا لتنمية المعرفة ؛ وتحت اشرافه دُرس القرآن والحديث بمثابرة في كل من الكوفة والبصرة ، حيث جعل الكثيرون من صحابة النبي (ص) مقر سكناهم ؛ وهكذا نشأ في البصرة علم النحو الذى ارتبط كما سنرى في صفحة تالية ، باسم تلك المدينة بشكل خاص(★)؛ وقد شاطر الحجاج أذواق سيده الادبية ، فأعجب بالشعراء القدامى ومد جناح حمايته على المحدثين ، وكان استاذ البلاغة السديدة الذى باهى بأسلوبه العربي الانيق ؛ وهو أبغض الناس في زمانه ، وانه ليعيش فى التاريخ ظالما وحشيا وجزارا للمسلمين الورعين التقاة ؛ ولقد خدم الامويين خدمة حسنة وباخلاص ، وعندما مات سنة ٩٦هـ/٧١٤م لم يترك بعده غير قرآنه ، وسلاحه ، وبضع مئات من القطع الفضية •

الوليد :

كان من الاقوال السائرة فى دمشق ان الناس يلتقون فى زمان الوليد فيسأل بعضهم بعضا عن الابنية الجميلة والعمارات ، وفى زمان سليمان عن الطعام والنساء ، فى حين أن القرآن والدين كانا فى عهد عمر بن عبدالعزيز (رض) موضوعين للمحادثة محببين الى النفس(١٦) ولدينا من رغبة الوليد العارمة للعمارة نصب تذكارى ممتاز فى مسجد دمشق الكبير (وهو فى

(★) نهاية الصفحة : «٢٠٢» من النص الانكليزى •

(١٦) الفخرى ، ص ١٧٣ [= طبعة محمد عوض وعلي الجارم ، ص ١١٥ ــ ١١٦] ؛ ابن الأثير ، طبعة تورنبرغ ، ج ٥ ص ٥ •

الاصل كتدرائية القديس يوحنا) الذى هو المشهد الرئيس فى المدينة الى يوم الناس هذا ؛ وكان يلحن ، ومع ان أباه كان يوبخه ملاحظا بانه « لكيما يحكم امرؤ العرب عليه أن يكون ضليعا بلغتهم » لم يستطع أن يتعلم التعبير الصحيح أبدا(١٧) .

الفتوحات الاسلامية فى المشرق :

وقد ساعد السلم المستمر الذى ساد الآن الامبراطورية الوليد على استئناف أعمال الفتوحات ، فغزت جيوشه في الشرق بلاد ما وراء النهر ، وأخذت بخارى وسمرقند واندفعت قُدُما الى التخوم الصينية ؛ وعبرت قوة اخرى نهر الاندلس ، وتغلغلت الى « مُلتان » وهى مركز شهير للحج فى جنوب البنجاب ، فسقطت فى قبضة المسلمين بعد حصار طويل ؛ غير ان ألمع تقدم وأغناه بنتائجه كان فى أقصى الغرب وقد قرر مصير أسبانيا ؛ ومع ان المسلمين كانوا قد أحرزوا موطىء قدمٍ في شمالي افريقيا قبل هذا التاريخ بثلاثين سنة فان وضعهم كان قلقا دائما الى أن أخضع موسى(*) بن نصير البربر تماما سنة ٩١هـ/٧٠٩م ولم يوسع نطاق نفوذ المسلمين فحسب بل نطاق دينهم أيضا الى المحيط الاطلسي .

فتح الاندلس (٩٣هـ/٧١١م ـ ٩٥هـ/٧١٣م) :

وبعد سنتين عبر عبده المعتوق طارق المضيق واستولى على المرتفعات المشرفة على ما حواليها والتى سماها الاقدمون بـ « كالپ "Calpe" ولكنها أصبحت تعرف منذ الآن فصاعدا «بجبل طارق» ؛ وجمع « لوذريق»، آخرُ سليل للغوط الغربيين جيشا للدفاع عن مملكته ، ولكن كان هناك خونة فى معسكره ، ومع انه قاتل بشجاعة فان انحرافهم غيَّر مصير المعركة ، فهرب الملك ، ولم يُعرف على وجه التأكيد ما حلّ به ؛ وزحف

(١٧) نفس المصدر ؛ قارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٥ ص ٤١٢

(*) نهاية الصفحة : «٢٠٣» من النص الانكليزى .

طارق الذي جوبه بمقاومة ضعيفة ، بسرعة على طليطلة ، في حين أن موسى الذي أثيرت غيرته بالتقدم الظافر لمساعده ، التحق الآن بالحملة ؛ وبعد أن شن هجوما عاصفا على المدن الواحدة تلو الاخرى وصل الى جبال البيرنه ؛ ويحدد فتح الاندلس الذي يرويه المؤرخون المسلمون بالعديد من الاجواء الخيالية أقرب ما وسع العرب الوصول اليه فى تكوين امبراطورية عالمية اطلاقا ؛ وصدَّ الانتصار العظيم لشارل مارتل فى تورز (بواتيير) Poitiers سنة ١١٤هـ/٧٣٢م تقدمهم على الارض الفرنسية نهائيا •

عمر بن عبدالعزيز (٩٩هـ/٧١٧م — ١٠٢هـ/٧٢٠م) :

قبل أن نترك الدولة الاموية يجب ألا يفوتنا ذكر عمر بن عبدالعزيز، الحاكم الذى يبرز مباينا لأسلافه بشكل خاص ، ويعتبر الكثيرون من المسلمين حكمه القصير النقطة المتألقة الوحيدة فى قرن طغيان لا ديني ملطخ بالدماء ، ولم يكن ما يماثله منذ أيام سميّه وقريبه المشهور[١٨] عمر بن الخطاب (رض) ، ولن نجد مثيلا له فى التاريخ المقبل للخلافة • لقد رغب افلاطون في أن يكون كل ملك فيلسوفا : وبموجب النظرية الاسلامية ينبغي لكل خليفة أن يكون قديسا ، وقد طمَّن عمر هذين المطمحين ، فعندما ارتقى منصب الخلافة جرت المحاورة التالية على ما يروى بينه وبين أحد مقربيه الاثيرين عنده ، وهو سالم السُدّي[*] :ـ

عمر : أسرّك ما وليتُ أم ساءك ؟

سالم : سرني للناس وساءني لك •

عمر : انى أخاف ان أكون قد أوبقتُ نفسي •

---

(١٨) كانت أمه ، ام عاصم ، حفيدة عمر الاول (رض)

(*) نهاية الصفحة : «٢٠٤» من النص الانكليزى •

سالم : ما أحسن ذلك ان كنت تخاف ، انما أخاف عليك الا تخاف !

عمر : عِظْنِي .

سالم : أبونا آدم اخرج من الجنة بخطيئة واحدة .(١٩)

ولم يجد الشعراء والخطباء حظوة في بلاطه الذى كان يعج برجال الدين والزهاد(٢٠) ؛ وقد أنذر عماله اما أن يعدلوا أو يذهبوا ؛ ولم يسمح للاعتبارات السياسية بأن تتدخل في مثله الاعلى عن العدالة ، ولكن كانت له ، كما يوضح ڤلهاوزن ، أهداف عملية ، فتقاه جعله متلهفا للصالح العام ، لا أقل منه لخلاص ذاته ؛ أما ادارته الدولة بنجاح فموضع نقاش وجدل ، فالمظنون عموما ان اصلاحاته كانت ذات طابع طوبائي مدمر لخزينة الدولة(٢١) . مهما يكن الامر فقد أظهر حكمة في البحث عن جسر عبر الهوة المنذرة بالخطر بين الاسلام و «الاسرة الامبراطورية المالكة» ، وهكذا فقد الغى عادة لعن الامام « عليّ » (ع) من المنبر في صلاة الجمعة ، وهي العادة التى كانت سائدة لمدة طويلة . لقد جرت محاولة سياسة المصالحة متأخرة كل التأخر ، ولفترة قصيرة جد القصر ، لتكون مؤثرة ، غير انها لم تعدم الثمرة بالمرة فعند سقوط الاسرة الاموية

---

(١٩) المسعودى : مروج الذهب ، حـ٥ ص ٤١٩ وما يليها .

(٢٠) ابن الاثير ، طبعة تورنبرغ : ٤٦/٥ قارن الاغانى : ج ٢٠ ص ١١٩ س ٢٣ وقد استثنى عمر ، على ما ذكرني به الاستاذ بيڤان ، الشاعر جرير . راجع تاريخ الادب العربى لبروكلمان ، جـ١ ص ٥٧ .

(٢١) لقد وضعت تتبعات فيلهاوزن الخاصة في كتابه : « الدولة العربية وسقوطها » (صص ١٦٩ ــ ١٩٢) « النسخة الانكليزية » هذا الموضوع المعقد في ضوء جديد فهو يؤيد ان اصلاح عمر لم يكن مستندا على دواعٍ مثالية محضة بل تطلبتها ضرورات القضية وان اجراءاته ، وهي أبعد ما تكون عن اشاعة الفوضى في الامور المالية ، كانت مُصمَّمَةً لمعالجة الارتباك الذى كان قائما مسبقا .

أهينت حرمة قبور « الطغاة » المكروهين وأُخرجت رممهم وقبر عمر وحده الذى احتُرم ويخبرنا المسعودي(*) (ت٣٤٥هـ/٩٥٦م) أن جموع الحجيج كانت تزوره فى زمانه •

هشام والوليد الثانى :

ولا يدعو من تبقى من الامويين الى اهتمام خاص ، فهشام يقف رجل دولة مع معاوية وعبدالملك : وقيل ان الخليفة العباسى العظيم المنصور أعجب بأساليب حكومته وحاكاها(٢٢) ؛ أما الوليد الثاني فقد كان متحللا لا يرجى صلاحه ولأغانيه التى يمجد فيها مباهج الخمرة المحرمة قيمة كبيرة •

أبيات للوليد الثانى (١٢٦هـ/٧٤٣م ـ ١٢٧هـ/٧٤٤م) :

وقد اقتبس الشاعر والمفكر العظيم أبو العلاء المعري أبياته التالية التي يقول فيها(٢٣) [من المنسرح] :

أنا الامام الوليدُ مفتخراً ... أجُرُّ بردي ، وأسمعُ الغَزَلا

أسحبُ ذيلي الى منازلها ... ولا أبالي من لام أو عذلا

ما العيشُ الا سماعُ مُحْسِنَةٍ ... وقهوةٌ تتركُ الفتى ثَمِلا

لا أرتجى الحور في الخلود وهل ... يأمُلُ حورَ الجنان من عقلا ؟

اذا حَبَتْكَ الوصال غانيةٌ ... فجازِها بَذْلَها كمن وصلا

(*) نهاية الصفحة : «٢٠٥» من النص الانكليزى •

(٢٢) المسعودى : مروج الذهب : ٥/٤٧٩ •

(٢٣) النص العربى والترجمة الحرفية لهذه الابيات فى مقالتى عن « رسالة الغفران » (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية لسنة ١٩٠٢ صص ٨٢٩ و٣٤٢) [= « رسالة الغفران» ، تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٠ ، ص ٣٨٠ ، وقد أغفل نكلسن ترجمة البيت الاخير « المترجم »] •

الحركات السياسية والدينية للعصر :

لننتقل الآن من الملوك الى الرعية •

سنتكلم قبل كل شيء عن الاحزاب السياسية والدينية التى نسفت بمعارضتها تأثير البيت الاموي تدريجيا وسببت سقوطه في النهاية ، وسنقدم بعض المعلومات عن الافكار التى قاتلت من أجلها هذه الاحزاب وعن أسباب تذمرها من الحكم القائم •

ثانيا ـ يجب أن نذكر بضع كلمات عن المذاهب اللاهوتية الاكثر نقاءً دينيا ـ المعتزلة والمرجئة والصوفية •

وأخيراً عن الادب السائد يومذاك والذى يكاد يكون شعريا بصورة خاصة وعن زعمائه الممثلين له(★) •

عرب العراق :

كانت المعارضة للامويين بادىء ذى بدء مسألة سياسية بصورة رئيسة ، فخلافة معاوية أعلنت انتصار الشام على العراق وأصبحت دمشق ، بدل الكوفة ، حاضرة الامبراطورية ؛ وكما يلاحظ ڤيلهاوزن : « ان أقوى الثورات ضد الامويين جاءت من العراق ، لا من أي حزب خاص ، بل من جمهور العرب المستقرين هناك بأسرهم والذين كانوا متحدين فى استنكار ضياع استقلالهم وكره اولئك الذين آلَ الى قبضتهم»(٢٤)؛ وقد اتخذت هذه المشاعر في الوقت ذاته لونا دينيا ، وتماثلت مع قضية الإسلام ؛ والحكومة الجديدة كان ينقصها ، بشكل مؤسف ، المستوى الثيوقراطي الذى كان يُحكم عليها بموجبه ، فلذلك كانت شراً ؛ (وحسب نظرة المسلم للواجب) يجب على كل رجل سليم التفكير أن يعمل على تحطيمها •

(★) نهاية الصفحة : «٢٠٦» من النص الانكليزى •

(٢٤) ڤيلهاوزن : « الدولة العربية وسقوطها » ص ٣٨ (النسخة الانكليزية) •

الاحزاب المعارضة للحكم الاموى :

بين عشرات الآلاف المجاهدة من أجل هذا الهدف والعاملة على ايجاد قضية مشتركة مع بعضها البعض ، بوسعنا أن نتبين أربعة أصناف رئيسة هي : ـ

(١) المسلمون المتدينون أو التقاة بصورة عامة الذين كونوا جناحا للحزب الراشد(٢٥) .

(٢) الخوارج الذين يمكن أن ينعتوا بالمطهرين وغلاة الثيوقراطيين المتطرفين .

(٣) الشيعة أو أنصار علي وآل بيته .

(٤) المسلمون من غير العرب الذين عرفوا « بالموالي » .

التقـاة : ومن الواضح ان التقاة ـ بما فيهم علماء الدين المتبحرون في القانون، وقُرّاء القرآن وصحابة النبي (ص)(★) وذريتهم ـ لم يسعهم الا أن يستهجنوا السلطة الزمنية التى كانوا الآن مجبرين على اطاعتها ؛ فالاعتقاد بأن القوة في صورة الطاغية وزبانيته ، قد داست على الحق ممثلا في القرآن والسنة (سنة محمد «ص») ؛ دفع بالكثيرين الى الثورة الفعّالة : فقد قيل انه هلك خمسة آلاف شخص في عملية نهب المدينة وحدها ؛ ودفع بآخرين من أمثال الحسن البصري ، وقد غمروا بالقنوط العميق ، الى أن يغمضوا أعينهم عن الدنيا ، وانقطعوا للتنسك : الاتجاه الذى كانت له نتائج خطيرة كما سنرى .

---

(٢٥) أى الكتلة الرئيسة للمسلمين ـ السُنّة ، اتباع السنة النبوية كما عرفوا فيما بعد ـ الذين لم يكونوا شيعة ولا خوارج ولكنهم كانوا يرون ان (١) الخليفة يجب أن ينتخبه جمهور المسلمين و (٢) ان يكون من قريش ، قبيلة النبى (ص) ؛ وقد ظهرت كل هذه الاحزاب من الصراع بين علي ومعاوية وقد دار اختلافهم الاصلي حول مسألة الخلافة وحدها .

(★) نهاية الصفحة : «٢٠٧» من النص الانكليزى .

الخوارج :

عندما وافق علي في ساحة القتال بصفين على لزوم اقرار ادعاء معاوية ومطلبه في « الخلافة » بالتحكيم ، اتهمه فريق كبير من جيشه بخيانة الامانه ؛ فهوالخليفة المنتخب شرعياً ــ هكذا كان نقاشهم ــ وكان لزاماً عليه أن يحافظ على كرامة منصبه من كل خرق بأي ثمن ؛ وفي طريق العودة انشق المتذمرون وهم نحو من اثنى عشر الف شخص وأقاموا معسكرا لانفسهم في حَرُورَاء وهي قرية بالقرب من الكوفة ؛ وكان شعارهم : « لا حكم الا لله » وبهذه الكلمات احتجوا على التحكيم وحاول علي أن يستميلهم اليه ثانية ، ولكن من دون أي نجاح دائم •

واقعة النهروان : (٣٨هـ/٦٥٨م) وانتخبوا خليفة من بينهم واجتمع أربعة آلاف مسلح منهم فى النَهْرَوان ، وعندما ظهر عليّ على رأس قوة أكبر من قوتهم بكثير تفرق الكثيرون منهم ؛ أما البقية ــ وهم حوالي نصف العدد ــ فقد فضلوا الموت من أجل عقيدتهم ؛ وكانت النهروان «للخوارج» ما صارت عليه كربلاء فيما بعد « للشيعة » الذين اعتُبروا منذ هـذا اليوم أعداءهم الالداء •

ثورات الخوارج : وقد حدثت ثورات خارجية عديدة فىصدر الدولة الاموية ، غير ان الحركة بلغت ذروتها فى سنوات الاضطراب التى أعقبت موت يزيد ؛ فقد اجتاح الازارقة ، الذين عرفوا باسم زعيمهم نافع بن الازرق، العراق وجنوب ايران،فيحين انجماعة اخرى وهمالنجادة بقيادة(*) « نجدة بن عامر » اخضعوا القسم الاعظم من بلاد العرب ، وقد صمد الثوار مدة طويلة بوجه عبدالملك ، واستمروا مصدرا للمتاعب حتى قضى أخيرا الحجاج سنة ٧٨هـ/٦٩٧م علىالثورة التى قادها شبيب قضاء مبرما •

معنى لفظة « خارجي » : لقد اقترح أن لفظة « خارجى » (وجمعها

(*) نهاية الصفحة : «٢٠٨» من النص الانكليزى •

خوارج) تشير الى آية في القرآن (السورة الرابعة ، سورة النساء ، **الآية ١٠٠**)[٢٦] حيث ورد ذكر « من يخـرُجْ من بيتـه مهـاجرا الى الله ورسولـه » ، فلفظة « خارجي » تعني « الذي يترك بيته بين الكفار من أجل الله » وتماثل لفظة « مهاجر » التى اطلقت على مسلمي مكة الذين صحبوا النبي (ص) في هجرته الى المدينة[٢٧] والاسم الآخر الذى كثيرا ما يوصفون به قرآني في أصله كذلك ، وهو « الشراة » (جمع : «شارى»)، ومعنـاه الحرفيّ « الباعة » ـ أي اولئك الذين يبيعون حياتهم وأموالهـم من أجل الجنّـة[٢٨] .

نظرياتهم السياسية : كان الخوارج عـلى الاكثر من الجنـود البـدو الذين استقروا في البصرة والكوفة بعد الحروب الايرانية ولم تغير الحياة المدنية مزاجهم المتمرد الا قليلا ، واذ هم أبعد الناس من الاعتراف بالقدسية الخاصة لقرشيّ ، فقد رغبوا في رئيس من دمهم يطيعونه على الطريقـة البدوية طالما لم يُسِيء أو يتجاوز السلطات الملقاة على عاتقه[٢٩] ، على أن مبعث الحركة الأساس كان التقى ويمكن ارجاعه ، كما أوضح ڤلهاوزن ، الى القُراء الذين جعلوا أمرا من امور ارضاء الضمير اجبار عليّ على اعلان

---

(٢٦) لقد ذكر نكلسن خطأ الآية : ١٠١ .

(٢٧) برنّاو : « الخوارج تحت حكم الامويين الاوائل » (بالالمانية) « لايدن ، ١٨٨٤ » ص ٢٨ على انه ليس مؤكدا بأى حال من الاحوال ان الخوارج تسموا بهذه التسمية ؛ على كل حال فاللفظة تتضمن الخروج من المجتمع الاسلامي ، ويمكن ترجمتها بلفظة Seceder أو Nonconformist

(٢٨) القرآن ، السورة التاسعة ، «سورةالتوبة» الآية:١١١ (وقدأورد نكلسن الرقم ١١٢ خطأ) : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون فى سبيل الله فيَقتُلُون ويُقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقـرآن ، ومن أوفى بعهـده من الله ، فاستبشروا ببيعِكُمُ الذي بايعتُم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

(٢٩) برونّاو ، المصدر نفسه ، ص ٨ .

التوبة من الغلطة القاتلة التي أجبرته على ارتكابها فتنتهم المؤقتة المؤسفة ، وتخلوا عن عليّ لنفس(★) السبب الذى أفضى بهم لضرب عثمان ، وفي كلتا الحالين كانوا مؤيدين لجانب الله تعالى ضد خليفة غير عادل(٣٠) ومن الضروري أن نتذكر هذه الحقائق ازاء مبادىء الخوارج الاساسية وهي : (١) ان كل عربي حر يحق له أن يُنتخب خليفة(٣١) (٢) وان الخليفة الشرير يجب أن يخلع واذا اقتضت الضرورة يُقتل ؛ وقد كتب « أمير المؤمنين » مُسْتَوْرِد بن عُلّفه الخارجي الى سماك بن عُبيْد ، عامل المدائن ، ما يلي : [أما بعد فقد نقمنا على قومنا الجور فى الاحكام وتعطيل الحدود والاستئثار بالفيء] وأنا ندعوك الى كتاب الله عزوجل وسنة نبيه (ص) وولاية أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما والبراءة من عثمان وعلي لاحداثهما في الدين وتركهما حكم الكتاب [فان تقبل فقد أدركت رشدك والا تقبل فقد أبلغنا في الاعذار اليك وقد آذناك بحرب فنبذنا اليك على سواء ان

(★) نهاية الصفحة : «٢٠٩» من النص الانكليزى •

(٣٠) فيلهاوزن : أحزاب المعارضة الدينية ـ السياسية فى صدر الاسلام (Abhandlungen der Königl. Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, phil. - Hist. Klasse, 1901) P. 8 Sqq. يجادل الكاتب مناقشاً برنّاو ان قدامى الخوارج لم يكونوا أعرابا حقيقيين وكانوا فى الحقيقة أبعد عن التقاليد البدوية ، من بقية المستوطنين العسكريين فى الكوفة والبصرة ؛ ويشير الى ان تقوى القرّاء المغالية ـ صلواتهم المستمرة وسهرهم وتلاوتهم المتكررة للقرآن ـ تتفق تماما مع ما يروى عن الخوارج ، وقد وصف بلغة مماثلة وفضلا عن ذلك فاننا نجد ذكراً لجماعة ترتدي البرانس (جمعُ برنُس) التى كانت فى ذلك الزمن شارة خاصة للزهد ، وأخيرا فان أقدم مرجع (أبو مخنف فى الطبري ، ١/ ٣٣٣٠ س ٦ وما يليه) يعتبر الخوارج فرعا من القرّاء ويذكر أفرادا من القراء بأسمائهم أصبحوا فيما بعد خوارج متعصبين •

(٣١) وعندما التحق الكثيرون من المسلمين من غير العرب بصفوف الخوارج فيما بعد ، وُسِّعَ نطاق الاختيار بحيث أصبح يضم الاعاجم وحتى الارقاء •

الله لا يحب الخائنين(٣٢)] •

ويبدو من هذا أن منهج الخوارج كان مجرد الاسلام الاول القائم على المساواة والاخوة الذى لم يحقق بكامل معناه وكان الآن قد دمّر بلا أمل استرجاعه ، وقد شاطر نظريا جميع المسلمين التقاة هذه الرغبة فى استرجاعه ولعن الحكومة القائمة ، لا أقل صدقا من الخوارج ؛ وأما ما ميز الحزب الاخير فهو القسوة التى لا سبيل لتأنيب الضمير اليها ، وبها كانوا ينقلون مبادئهم الى عالم التطبيق ، وكان من الحيوي بشكل مطلق بالنسبة اليهم ان يحكم الامام أو رأس المجتمع(★) باسم الله وحسب مشيئته ، واما اولئك الذين اتبعوا أي سبيل آخر سوى ذلك فقد حكموا على أنفسهم بالعقاب في العالم الآخر ؛ وتوقف الخلاص الابدي على اختيار خليفة للنبي (ص) ، والمسلمون الذين رفضوا لعن عثمان وعلي هم اسوأ الكفرة ، وانه لواجب كل مؤمن صادق أن يُسهم فى الجهاد ضد أمثال هؤلاء ويقتلهم مع زوجاتهم وأطفالهم ، وقد ارتدت هذه الفظائع على الثوار الذين سرعان ما وجدوا أنفسهم ازاء خطر الابادة ، فسادت مشورات أكثر اعتدالا ، فرأى الاباضيون (اتباع عبدالله بن اباض) العيش بين المسلمين والاختلاط بهم على اسس التسامح المتقابل أمراً مشروعاً غير ان المصالحة فى الحقيقة كانت غيرمنسجمة مع سبب وجود الخوارج وهواقامة دولة الله علىالارض، وكان هذا يعني الفوضى الفعلية :« فمنطقهم الذى لا يلين هشم كل كيان أوجده » كما قال علي وأضاف : « انما يقولون لا إمارة ولابد من إمارة برة أو فاجرة(٣٣) » مع ذلك فقد كان هذا من المثل النبيلة العليا التى قاتلوا من

---

(٣٢) الطبري : جـ٢ ص ٤٠ س ١٣ وما يليه [= جـ٤ ص ١٤٥ — ١٤٦ من طبعة القاهرة « طبعة محمود حلمي » ١٩٣٩] •

(★) نهاية الصفحة : «٢١٠» من النص الانكليزى •

(٣٣) الشهرستاني ، طبعة كيورتن ، جـ١ ، ص ٨٨ س ١٢ •

أجلها باخلاص لا شائبة فيه ، ولم تكن لهم ، خلاف الاحزاب السياسية الاخرى ، أي مصالح دنيوية يخدمونها ٠

دينهم : ان نفس روح التعصب الضارية صوّرت وجهات نظرهم الدينية التى كانت قاتمة وصارمة ، على نحوٍ يلائم القلة المختارة فى عالم ملحد ، ويصفهم الشهرستاني عندما يتحدث عن الاثني عشر الفاً الاصليين الذين ثاروا ضد عليّ بأنهم « أهل صيامٍ وصلاة »[٣٤] وتحكم القرآن فى حياتهم وتملك خيالهم بحيث أصبح تاريخ الدين فى مستهله والاضطهادات والاستشهادات وانتصارات العقيدة مأساة صادقة يمثلونها هم أنفسهم واولع فيهم الفزع من جهنم حماسا متشبثا من أجل الحق ، ومحصوا بدقة عقيدتهم هم بالذات ، فضلا عن عقيدة جيرانهم ، والويل لمن وجد عنده نقص ![★] فخطوة خاطئة واحدة تضمنت الحرمان من حظيرة الاسلام ، ومع ان الهفوة قد تغتفر عند جلاء صدق التوبة والندم ، فان أى مسلم ارتكب كبيرة مرة واحدة اعتبره الخوارج المتزمتون على الاقل ، ملعونا مع الكفرة في النار الخالدة ، بدون مهرب ٠

شعر الخوارج :

لو سمح المجال لامكن كتابة الشيء الكثير عن حروب الخوارج وعن أشهر مشاهير زعمائهم والقضايا التى اختصموا من أجلها والمذاهب التى انشقوا متجهين صوبها ٠ أما هنا فلا يسعنا الا أن نحاول ايضاح الخصائص العامة للحركة ٠ لقد أشرنا الى مظاهرها السياسية والدينية وسنختم كلامنا الآن بشيء من الاشارة الى مظهرها الادبي ٠ لم ينجب الخوارج شاعرا من

---

(٣٤) نفس المصدر ، ص ٨٦ س ٣ من الاسفل ٠

(★) نهاية الصفحة : «٢١١» من النص الانكليزى ٠

طراز « ملتن »[٣٥] Milton أو « بنيان »[٣٦] Bunyan بل كان لهم، كعرب من أصل بدوي، موهبة طبيعية لانشاد الشعر الذى لم يمكن أن يفطموا عنه رغم النص الحرفي للقرآن على ان الشعر اختراع شيطاني لا يليق بالمسلم التقي أن يقترب منه، غير أن هذه أشعار ذات صنف مباين للقصائد الوثنية وتنم عن حماسة دينية صارمة تبهج قلب النبي (ص) لو سمعها . خذ مثلا الابيات التالية التى نظمها خارجي فى السجن[٣٧] [من الطويل] : –

الا أيها الشارون قد حان لامرىءٍ شرى نفسه لله أن يترحَّلا
اقمتم بدار الخاطئين جهالةً وكلُّ امرىءٍ منكم يُصاد ليُقْتَلا
. . . .
. . . .
فياليتني فيكم على ظهر سابح شديد القُصَيْرى دارعاً غير أعزلا
ويا ليتني فيكم أعادي عدوَّكم فيسقيني كأسَ المنيَّةِ أوّلا
يعَزُّ عليَّ أن تخافوا وتطرَدُوا
ولما أُجَرِّدْ في المُحِلينَ مُنْصُلا
ولمّا يُفرِّقْ جمعهم كلُّ ماجدٍ اذا قلتُ قد ولَّى وأدبر أقبلا
مُشيحاً بنصل السيف في حَمَسِ الوغى
يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا(★)

---

(٣٥) شاعر انكليزي عاش سنة ١٦٠٨ – ١٦٧٤ ولد فى لندن وبلغ ذروته فى عهد كروموبل الذى أعدم شارل الاول وأخذ زمام الحكم بيده . [يراجع « معجم ويبستر للاعلام » : ص ١٠٢٦]

(٣٦) عاش سنة ١٦٢٨ – ١٦٨٨ وكان واعظا انكليزيا وكاتبا [يراجع معجم ويبستر للاعلام : ص ٢١٣]

(٣٧) الطبري : ٢/٣٦ س ٧ ، ٨ ، ١١ – ١٦ [= جـ٤ ص ١٤٣ طبعة محمود حلمي « المترجم »] .

(★) نهاية الصفحة : «٢١٢» من النص الانكليزى .

وعزّ عليّ أنْ تُضاموا وتُنقَصوا   وأُصبِحَ ذا بثٍ أسيراً مُكَبَّلا

قطري بن الفُجاءة :

كاد قطري بن الفجاءة القائد الخارجي الجرىء الذي هزم الجيوش التى بعث بها اليه الحجاج واحداً تلو الآخر ، يجيد الشعر اجادته القتال ، والابيات المدرجة في أدناه قد ضمنت ديوان الحماسة[٣٨] وذكرها ابن خَلّكان الذي يقول عنها انها « تشجع أجبن خلق الله ، وما أعرف في هذا الباب مثلها ، وما صدرت الا عن نفس أبيّة ، وشهامة عربية » [من الوافر]:[٣٩]

أقول لها وقد طارت شَعاعاً   من الابطال ويحك لن[٤٠] تُراعي

فانك لو سألتِ بقاءَ يومٍ   على الاجل الذى لك لن[٤١] تُطاعي

فصبراً في مجال الموت صبراً   فما نيل الخلود بمستطاعِ

ولا ثوب الحياة بثوب عزٍ

فيُطوى عن أخي الخَنَعِ اليراعِ[٤٢]

الشيعة :

لقد قسم مصرع عثمان المجتمع الاسلامي الذي لم يكن مجزأً بعدُ الى شيعتين أو حزبين ، أحدهما لعلي والآخر لمعاوية ، وعندما ارتقى الاخير الخلافة لم يعد زعيم حزب بل رأس دولة ولم يعد لشيعته وجود ؛ ومنذ ذلك الحين أصبحت « الشيعة » بصورة خاصة شيعة علي التى اعتبرت

---

(٣٨) الحماسة : ٤٤ .

(٣٩) ابن خلكان : طبعة وستنفيلد ، رقم ٥٥٥ ص ٥٥ س ٤ وما يليه ؛ ترجمة دى سلان ، جـ٢ ص ٥٢٣ [= طبعة محمد محي الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، جـ٣ ص ٢٥٦] .

(٤٠) ابن خلكان : ٢٥٦/٣ [« لا تراعى » بدل « لن تُراعي »] .

(٤١) المصدر نفسه : [« لم تُطاعي » بدل « لن تطاعي »] .

(٤٢) ديوان الحماسة ، طبعة المكتبة الازهرية ، القاهرة ١٩٢٧ جـ١ ص ٢٤ (واخو الخنع : الذليل واليراع : الجبان الذى لا قلب له) .

آل النبي الورثة الشرعيين للخلافة .

نظرية الحق الالٰهي : على انَّ فريقا جريئا لم يقتنع بالتشبث(*) بعلي كأفضل صحابة النبي (ص) والخليفة المنتخب شرعيا ضد منافسه معاوية ، بل أخذ بفكرة ظهرت حوالي هذا الوقت وهي ان الخلافة لعلي وسلالته بالحق الالٰهي . هكذا هو مبدأ الشيعة البارز الى يوم الناس هذا ؛ ويُظن على العموم انه بدأ في ايران حيث اعتاد الملوك الساسانيون أن يتخذوا لقب « إلٰه » (« باغ » بالفهلوية) وكان ينظر اليهم كتجسيدات متلاحقة للجلالة الالٰهيّة .

رأي دوزي في أصلها : يقول دوزي « مع ان الشيعة كثيرا ما وجدوا أنفسهم ازاء توجيه زعماء من العرب استغلوهم لكسب أغراضٍ شخصية فانهم مع ذلك كانوا جماعة فارسية في قرارة نفوسهم ، وهنا بالضبط بان الاختلاف على أوضح ما يكون بين الجنس العربي الذي يحب الحرية والجنس الفارسى المعتاد على الخضوع الذليل ؛ فقد كان مبدأ انتخاب خليفة النبي (ص) بالنسبة للفرس شيئا غريبا لا يمكن فهمه ، والمبدأ الوحيد الذي كانوا يعترفون به هو مبدأ الوراثة ، وما دام محمد (ص) لم يترك أبناءً فقد اعتقدوا ان صهره علي كان يجب أن يخلفه ، وان السيادة وراثية في اسرته ، وعلى ذلك فقد كان الخلفاء كافة في نظرهم ، باستثناء علي ، أي أبو بكر وعمر وعثمان فضلا عن الامويين ، مغتصبين لا تحق لهم الطاعة ؛ وقد نبتهم في رأيهم هذا الكره الذي شعروا به ازاء الحكومة والحكم العربي ، وفي الوقت ذاته القوا نظرات نهمة على ثروة أسيادهم ؛ والى ذلك فانهم ما داموا قد اعتادوا أن يروا في ملوكهم سلالة الآلهة الصغار فقد نقلوا هذا التقدير الوثني الى علي وأبنائه وكانت الطاعة المطلقة للامام من آل علي أهم واجب في نظرهم ، فاذا ما انجز ذلك فان ما تبقى يمكن أن يفسر رمزيا ويخرق

(*) نهاية الصفحة : «٢١٣» من النص الانكليزى .

من دون تورع ، اذ كان الامام بالنسبة اليهم كل شيء ، فهو الاله الذى جعل انسانا ؛ وكان الخضوع الذليل المصحوب بالتحلل الخلقي قاعدة نظامهم »[٤٣] (★) .

السبئيّون : الآن وقد انسجمت نظرية الحق الالهي الشيعية بالتأكيد مع الافكار الفارسية فهل كانت كذلك ذات أصل فارسي ؟ على العكس اذ تبدو باديء ذي بدء أنها ظهرت بين فرقة عربية غامضة ، هي السبئيّة ، التى كان مؤسسها عبدالله بن سبا (والصحيح سبأ «مهموزاً») من أهالي صنعاء في اليمن وقيل انه كان يهوديا[٤٤] اعتنق الاسلام فى أيام عثمان وأصبح على ما يظهر مبشرا جوّالا ، ويقول الطبرى : « ثم تنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم »[٤٥] فنحن نسمع بوجوده فى الحجاز ثم فى البصرة والكوفة وبعدها فى الشام ، وأخيرا استقر فى مصر حيث بَشَّر بمبدأ (الرجعة) .

مبدأ ابن سبأ : لقد قال : انه لغريب أن يعتقد الانسان بعودة عيسى (المسيح المنتظر) وينكر عودة محمد (ص) التى أعلنها الله (القرآن ، السورة : ٢٨ سورة « القصص » الآية : ٨٥)[٤٦] والى ذلك ، فهناك الف

---

(٤٣) دوزي : « مقالة فى تاريخ الاسلام » (الترجمة الفرنسية لڤيكتور شوڤان) ص ٢١٩ وما يليها [(★) وهنا نهاية الصفحة : «٢١٤» من النص الانكليزي] .

(٤٤) راجع رأي ڤيلهاوزن فى مبادىء الشيعة الدينية واصولها ، وكذلك رأيه فى السبئية فى بحثه الممتع جدا الذى سبق ان أشرت اليه وهو « **أحزاب المعارضة الدينية ـ السياسية فى صدر الاسلام** » ص ص ٨٩ وما يليها .
Abh. Der König. Ges. der Wissenschaften zu Göttingen, phil. - Hist. Klasse, 1901)

(٤٥) الطبري ، جـ١ ص ٢٩٤٢ س ٢ ـ ٣ .

(٤٦) **« ان الذى فرض عليكَ القرآن لرادُّك الى مَعَادٍ »** (أي الى مكة) والمخاطب هنا محمد (ص) وقد منح عموض لفظة « معاد » لونا لادعاء ابن

نبي ولكل منهم وصيّ ووصي محمد (ص) عليّ[٤٧] ومحمد خاتم الانبياء وعلي خاتم الاوصياء » ولذلك اعتبر ابن سبأ أبا بكر وعمر وعثمان غاصبين ، وأشاع مؤامرة واسعة النطاق من أجل علي ودخل في مراسلات سرية مع المتذمرين فى مختلف أقاليم الامبراطورية[٤٨] وعلى ما يقول[★] الشهرستاني نفاه عليّ لقوله « أنت ، أنت » يعنى : « أنت الاله »[٤٩] ، ويشير هذا الى المبدأ الذى بشّر به ابن سبأ و (غلاة الشيعة) الذين يقتبسون منه وهو ان الروح المقدسة التى تستقر فى كل نبي وتمضي بالتتابع من واحد لآخر نقلت عند موت محمد (ص) الى علي والى أحفاده الذين أعقبوه فى الامامة ويعتقد السبئية كذلك ان الامام قد يمر (بغيبة) موقتة ولكنه يعود يوما ما ليملأ الارض عدلا ، وكانوا يعتقدون ان العيد الالفي قريب ، ولذلك حُدد عدد الائمة أول الامر بأربعة ، وعلى ذلك يقول الشاعر كثير (ت ١٠٥هـ/٧٢٣م)[٥٠] [من الوافر] :

ألا اِنّ الأئمة من قريشٍ ... وُلاةَ الحقِ أربعةٌ سواءُ
عليٌّ والثلاثة من بنيه ... همُ الاسباط ليس بهم خفاءُ

سبأ بأنها تشير الى عودة محمد (ص) عند انتهاء العالم ، ويعتقد المسلمون ان نزول عيسى الى الارض هو من الآيات الكبرى التى تسبق البعث والنشور .

(٤٧) هذه فكرة يهودية ؛ ومنزلة علي من محمد كمنزلة هارون من موسى [نكلسن] ولكننا لا نرى وجها فى نسبتها الى اليهودية . [المترجم]

(٤٨) الطبري : نفس المكان .

(★) نهاية الصفحة : «٢١٥» من النص الانكليزي .

(٤٩) الشهرستاني ، طبعة كيورتن ، ص ١٣٢ س ١٥ .

(٥٠) الاغاني : ٣٢/٨ س ١٧ وما يليه (طبعة بولاق) وأبناء علي الثلاثة هم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفيّة .
[= جـ٩ ص ١٤ س ١٦ وما يليه (طبعة دار الكتب)] = الشهرستاني (طبعة كيورتن) جـ ١ ص ١١١ .

فسبطٌ سِبطُ ايمانٍ وبرٍّ وسبطٌ غيبتُه كربلاءُ
وسبطٌ لا تراهُ العين حتّى يقودَ الخيلَ يقدمها[٥١] اللواء
تغيَّبَ لا يُرى عنهم زماناً برَضوى عنده عسلٌ وماءُ

المهدي أو المسيح المنتظر :

ليست فكرة المسيح المنتظر خاصة بالشيعة ، بل ان اليهود والمسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام أدخلوها في الاسلام في فترة مبكرة ، وسرعان ما ترسخت جزءاً من العقيدة الاسلامية ، وجعلت أحاديث منسوبة الى النبي (ص) تروج معلنة ان اقتراب يوم القيامة ستَتقدمه فترة صخب واضطراب بعودة المسيح الذي يقتل الدّجال ، وأخيراً بظهور المهدي[٥٢] الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلماً وجوراً ؛ فتوقع ظهور منقذ من سلالة[★] الرسول (ص) ينتظم تاريخ الشيعة بأسره ، واسمى زعمائهم الدينيين كما رأينا كانوا أئمة من آل علي ، وقد نقل كل منهم سلطته لخلفه ؛ وبتمادي الزمن ظهرت مجادلات حول ترتيب التعاقب ، ففرقة لم تعترف الا بسبعة أئمة شرعيين ، في حين أن فرقة اخرى رفعت العدد الى اثني عشر ؛ وكان آخر إمام « للسبعيّة » الذين يعرفون عادة « بالاسماعيلية » هو محمد بن اسماعيل ، « وللاثنا عشرية » محمد بن الحسن[٥٣] ، وقد اختفت كلتا هاتين الشخصيتين بصورة غامضة حوالي ١٥٤هـ/٧٧٠م و ٣٥٧هـ/٨٧٠م وأكد أتباع الاثنين بعد أن رفضوا الاعتقاد بأنهما ماتا ، ان امامهم قد انسحب لفترة عن الانظار البشرية ، ولكنه سيعود أخيرا بكل تأكيد مَهدياً منتظَراً ،

---

(٥١) وفي رواية أخرى « يتبعها » ·
(٥٢) أي الشخص الذي يهديه الله · [نكلسن]
(★) نهاية الصفحة : «٢١٦» من النص الانكليزي ·
(٥٣) عن أصل هذه المذاهب انظر كتاب البروفيسور براون : « تاريخ الفرس الادبي » جـ١ ص ٢٩٥ وما يليه ·

وقد يأخذ منا وقتا طويلا تعداد جميع الادعياء والمتعصبين الذين زعموا لانفسهم هذا اللقب[٥٤] ، فاثنان منهم أسسا الدولة الفاطمية ودولة الموحدين اللتين سنذكرهما في موضع آخر ، ولكنهم كانوا على العموم يموتون على المشنقة أو في سوح القتال ، الا ان المثل الاعلى الذي كانوا يجسّدونه ، اذا صحّ التعبير ، لم يمت معهم ؛ فالحركة « المهدية » ، أو الايمان بثورة تقررها السماء تجتاح جميع قوى الشر وتبدأ عصرا ذهبيا من العدالة والحق اللذين لم يعهدهما العالم من قبل ، حقيقة قائمة وملهمة وجديرة بأن توزن بشكل صحيح من لدن اولئك الذين يشكّون فى امكانية قيام اصلاح اسلامي .

لقد بدأ الشيعة حزبا سياسيا ، غير انه لم يسعه أن يبقى كذلك لاى فترة من الزمن ، لان السياسة فى الاسلام تجنح دائما الى اتخاذ أساس ديني، كالمصلح الديني الناجح الذي يصبح دوما حاكما، سواء بسواء؛ وقد أمدّ السبئيون الحركة الشيعية بأساس لاهوتي[★] ؛ وزودتها مجزرة الحسين التى أعقبتها ثورة المختار بعنصر الحماسة الذى لا يُستغنى عنه .

تجمعات الشيعة فى كربلاء :

خلال بضع سنوات من مصرع الحسين كان ضريحه في كربلاء قد أصبح محجاً للشيعة ؛ وعندما ثار (التوّابون) سنة ٦٥هـ/٦٨٤م أخذوا سمتهم الى هناك ورفعوا عقائرهم معا في نحيب عالٍ ، وبكوا وابتهلوا الى الله أن يغفر لهم تخليهم عن حفيد النبي (ص) في ساعة ضيقه ، وصاح زعيمهم :

---

(٥٤) راجع مقالة دارمستيتر الممتعة : « المهدي منذ ظهور الاسلام الى يومنا هذا » (باريس ١٨٨٥) وقد عالج سنوك هرغرونيه الموضوع بصورة علمية أكثر فى مقاله : « المهدي » وهو مستل من « مجلة المستوطنين العالمية » (بالفرنسية) ١٨٨٦ » .

(★) نهاية الصفحة : «٢١٧» من النص الانكليزي .

« اللهم ارحم حسيناً الشهيد بن الشهيد ، المهدي بن المهدي ، الصديق ابن الصديق »(٥٥) ، اللهم اشهد اننا على دينهم وسبيلهم وأعداء قاتليهم وأولياء محبيهم »(٥٦) وهنا تكمن نواة التعزية ، أو مسرحيات المآتم التى تُمثل كل عام فى العاشر من محرم ، حيثما وُجِد الشيعة •

المختار : ولكن «موسى الشيعة» الرجل الذى أبان لهم طريق النصر ولو انه لم يقدهم اليه هو « المختار » بلا شك ، فقد تقدم باسم ابن علي ، محمد ، المعروف عموما بابن الحنفية باسم امه ؛ وهكذا أحرز تأييد «الشيعة العرب » ، الذين عرفوا بهذا الاسم بصورة صحيحة ، وكانوا متعلقين بعلي وأهل بيته ولم يؤكدوا مسألة الانحدار من صلب النبي (ص) فى حين أن أنصار الشيعة الفرس جعلوا ذلك أمرا حيويا ، وعلى ذلك أعلنوا ان ابناء علي من زوجته فاطمة هم وحدهم الائمة المؤهلون كلّ التأهيل ، وأخذ المختار هذا الحزب كذلك معه عندما رفع عقيرته طالبا الاخذ بثأر الحسين ؛ وقد وجد نفسه فى سنة ٦٧هـ/٦٨٦م سيد الكوفة ، ولا تهمنا نتيجة انتصاره ولا انهيار سلطانه بسرعة(★) ، ولكن يجب أن يُذكر هنا شيء عن أهدافه وصفة الحركة التى تزعمها •

موالي الكوفة :

كان أكثر من نصف سكان الكوفة مؤلفاً من الموالي الذين احتكروا الاعمال اليدوية والصناعة والتجارة ؛ كانوا على الاكثر من الفرس جنسا

(٥٥) يرى البروفيسور بيڤان أن فكرة الصدق فى لفظة « صدّيق » تدخل بسهولة فى فكرة « التحمل » و « الاخلاص » •

(٥٦) الطبرى : جـ٢ ص ٥٤٦ وكان هؤلاء التوابون عربا أحرارا من الكوفة ، وهى حقيقة تتوم كما لاحظ ڤيلهاوزن ، دليلا على أن « التعزية » ذات أصل ساميّ •

(★) نهاية الصفحة : «٢١٨» من النص الانكليزي •

ولغة ، فقد جاءوا الى الكوفة أسرى حرب وهناك اعتنقوا الاسلام ، ثم حررهم أسيادهم وتُقُبِّلوا موالي في القبائل العربية فاحتلوا الآن مركزاً غامضاً (Zwitterstellung) (٥٧) فهم لم يعودوا عبيداً ولكنهم ، ما يزالون معتمدين على أسيادهم ، محتاجين الى حمايتهم ، مرتبطين بخدمتهم ومؤلفين حاشيتهم فى السلم والحرب ؛ وفى هؤلاء الموالي الذين كانوا مؤهلين بفضل الاسلام لاكثر مما سمحت به العروبة المستحوذة عليهم أشرق الآن أمل تحرير أنفسهم من وضع الموالي والسمو الى الاسهام الكامل المباشر فى الدولة المسلمة »(٥٨) .

المختار والموالي :

مع ان المختار نفسه كان عربياً من اسرة نبيلة فقد وثق بالموالي وعاملهم على قدم المساواة ، وهو عمل استنكرته الطبقة الممتازة بمرارة ، إذ قالت له : « عمدت الى موالينا وهم فيء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً ، فأعتقنا رقابهم نأمل الاجر فى ذلك والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنا »(٥٩) .

ولكن المختار كان يعطي الموالي ما هو حقهم حسب ـ فقد كانوا مسلمين وكان لهم الحق كمسلمين أن يكون لهم قسط فى موارد الدولة ، على أنه بدا عملا فظيعاً بالنسبة للعرب المتكبرين أن يوضع الاعاجم المحتقرون في نفس مستواهم هم ، وهكذا القي بالمختار في أحضان الموالي ولم تعد الحركة الآن معادية للامويين قدر ما هي معادية للعرب .

تأثير الفرس على الشيعة : هنا نقطة التحول فى تاريخ الشيعة فقد

---

(٥٧) عبر نكلسن عما يريد بهذه اللفظة الالمانية التى وضعها بين قوسين وهى تعني « وضع الابن غير الشرعي » .

(٥٨) ڤيلهاوزن : «أحزاب المعارضة الدينية ــ السياسية» (بالالمانية)، ص ٧٩ .

(٥٩) الطبري : ٢/٦٥٠ س ٧ وما يليه .

تضخمت صفوفها بآلاف الفرس المشبعين بمبادىء السبئيَّة المغاليـة التي (★) أوضحت بايجاز اعلاه ، والمدفوعين بالكره الشديد لشعب مدحور تحت مواطيء الاقدام ازاء قاهريه والمنتصرين عليه ؛ وعلى ذلك فقد اتخذ الشيعة ، صفة دينية حماسية ، وسلكوا سبيلا جديدة أفضت بهم الى الابتعاد أكثر فأكثر عن العقيدة السويّة ؛ وقد فتح مبدأ التأويل الباب لمختلف صنوف الافكار المسرفـة فى المغـالاة فاحدى الفرق الشيعية الرئيسة وهي « الهاشمية » ، كانت تعتقد أن : «لكل ظاهر باطناً ولكل شخص روحاً ولكل تنزيل تأويلا ولكل مثال فى هذا العالم حقيقة في ذلك العالم ؛ والمنتشر في الآفاق من الحكم والاسرار مجتمع فى الشخص الانساني وهو العلم الذى استأثر الامام علي به ابنه محمد بن الحنفية وهو أفضى ذلك السر الى ابنه أبي هاشم وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الامام حقاً »(٦٠) •

وهكذا ودون أن يخرج الشيعة عن الاسلام بالاسم نقلوا الاسلام الى أيـة هيئـة أعجبتهم بفضل تأويل غامض قائم على السلطـة المعصومـة لآل محمد (ص) ومن تحت أنقاض حزب سياسي نهض تدريجياً تنظيمٌ ديني عظيم يستطيع أن يعمل فيه رجال ذوو آراء جد متباينة يداً بيد للخلاص من النير الاموي وقد قام بالخطوة الاولى نحو هذا التطور المختار وهو عبقري متعدد الجوانب يبدو انه جمع أدوار السياسي المغـامر والمصلح الاجتماعي والنبي والمشعوذ وقد سحق وقطع حلفاؤه الفرس أوصالا ولكن البذرة التي بذرها حملت محصولا وفيراً عندما نشر أبو مسلم بعد ستين عاماً رايـــة العباسيين السوداء فى خراسان •

(★) نهاية الصفحة : «٢١٩» من النص الانكليزي •

(٦٠) الشهرستاني : ترجمة هاربروكر ، ج ١ ص ١٦٩ [= كتاب الملل والنحل لمحمد الشهرستانى تحقيق وليم كيورتن ، لايبزغ ، ١٩٢٣ ، ص ١١٢ « المترجم »] •

أقدم مذهبين لاهوتيين :

ليس لدينا الا القليل جداً من المستندات المعاصرة عن أصل أقدم مذهبين لاهوتيين فى الاسلام وهما مذهب « المرجئة » و « المعتزلة » ، لنقدم شيئاً ايجابياً ، ومن المحتمل أن الأخيرين على كل حال ظهروا ، كما يقترح الفون كريمر ، تحت تأثير اللاهوتيين الاغريق(★) ، ولاسيما يوحنا الدمشقي وتلميذه ثيودور أبو قُرّة ، مطران حرّان(٦١) ، فالمسيحيون كانوا يدخلون البلاط الأموي بحرية ، فالاخطل المسيحي كان شاعر البلاط في حين ان الكثيرين من أبناء دينه كانوا قد تسنموا مناصب رفيعة في الحكومة، وتبادل المسلمون والمسيحيون الافكار فى نقاش ودي أو جدل مضاد ؛ وبعد أن تسلح العرب بأسلحة اللاهوت البيزنطية التي تفلق الشعرة رغم رقتها ، والتي سرعان ما تعلموا استعمالها بشكل حسن أكثر مما يلزم ، مضوا يجربون شفرتها فى مبادىء الاسلام .

المرجئة : كان البند الاساس للمرجئة هو أن كل انسان يعلن ايمانه بالله وحده لا يمكن أن ينعت كافراً مهما كانت الخطايا التي يرتكبها الى أن يمضي الله نفسه حكمه فيه(٦٢) وقد سمى المرجئة بهذا الاسم لانهم ارجأوا القرار فى مثل هذه القضايا ، وتركوا مصير المذنب معلقاً ما دام مشكوكاً فيه(٦٣) وقد طبقوا هذا المبدأ بطرق مختلفة ، فهم مثلا رفضوا إدانة علي

(★) نهاية الصفحة : «٢٢٠» من النص الانكليزي .

(٦١) فون كريمر ، تاريخ الثقافة Streifzuge ص ٢ وما يليها .

(٦٢) ان أفضل المعلومات التى ظهرت عن المرجئة الاوائل حتى الآن فى مقال لفان فلوتن عنوانه « الارجاء » (مجلة جمعية المستشرقين الالمان ، المجلد ٤٥ ص ١٦١ وما يليها) وبوسع القارىء كذلك ان يراجع الشهرستانى ، ترجمة هاربروكر ، جـ١ ص ١٥٦ وما يليها ؛ كولد تزيهر : دراسات اسلامية ، جـ٢ ص ٨٩ وما يليها ؛ فان فلوتن : السيطرة العربية (بالفرنسية) ص ٣١ وما يليها .

(٦٣) يعتقد فان فلوتن أن فى اسم « المرجئة » اشارة الى القرآن ،

وعثمان رأساً كما فعل الخوارج فقد قالوا : « إن كلا من علي وعثمان كان من عباد الله ويجب أن يحكم عليهما الله وحده وليس لنا ان ننعت أياً منهما بالكافر رغم أنهما مزقا الامة الاسلامية تمزيقاً »(٦٤) وعلى العكس من ذلك فأن المرجئة رفضوا مدعيات الشيعة(*) من أجل عليّ ومدعيات الامويين من أجل معاوية على حد سواء ، وقد التزموا على الاكثر موقفاً محايداً تجاه الدولة الاموية • كانوا مقاومين سلبيين مقتنعين ، كما يقول ڤلهاوزن ، « بالوقوف الى جنب القانون غير الشخصي » ؛ على انهم أحياناً حوّلوا مبدأ التسامح ضد حكامهم ؛ فالحارث بن سُريج والمرجئة العرب الآخرون التحقوا بموالي خراسان المضطهدين الذين أنكرت عليهم الحكومة الحقوق التي اكتسبوها ؛ باعتناقهم الاسلام(٦٥) ؛ فهؤلاء الفرس الذين اعتنقوا الاسلام ، على رأي المرجئة ، يجب ألا يعاملوا كدافعي جزية كفار ، وقد أدخل « المرجئة » نفس روح التسامح في الدين ، فقد وضعوا العقيدة فوق العمل ، مؤكدين حب الله وطيبته ، وكانوا يعتقدون بأن المسلم لا يعذب الى الأبد ؛ وقد ذهب بعضهم من أمثال جهم بن صفوان الى حد أن يعلنوا أن الايمان هو مجرد قناعة داخلية : فبوسع الانسان أن يتظاهر بالمسيحية أو اليهودية علناً أو أي شكل من أشكال عدم الاعتقاد دون أن تنتفي عنه صفة

السورة التاسعة ، سورة « التوبة » الآية : ١٠٦ (وقد ذكر نكلسن الرقم ١٠٧ خطأ) : « وآخرون مُرْجَوْنَ لأمر الله ، إما يُعذّبُهم واما يتوبُ عليهم ، واللهُ عليمٌ حكيم » •

(٦٤) قارن قصيدة ثابت قطنه (مجلة جمعية المستشرقين الالمان ، نفس المكان ، ص ١٦٢) التى تبين مبدأ المرجئة كله بشكل شعبى مبسط ؛ وقد عاش ناظمها الذى كان هو نفسه مرجئا فى خراسان خلال النصف الاخير من القرن الاول للهجرة •

(*) نهاية الصفحة : «٢٢١» من النص الانكليزي •

(٦٥) فان فلوتن : السيادة العربية ، ص ٢٩ وما يليها •

المسلم الطيب ، شريطة أن يعترف بالله قلبياً[٦٦] ؛ وقد وجدت المدرسة المعتدلة ممثلها الاشهر فى شخص أبي حنيفة (ت ١٥٠هـ/٧٦٧م) وعن طريق هذا الامام العظيم ـ الذى يعد أتباعه اليوم بالملايين ـ انتشرت مبادئهم الحرة و خُلِّدَتْ .

المعتزلة :

كانت البصرة خلال العهد الأموي ، عاصمة الاسلام الفكريّة ، وفى هذه المدينة نجد الآثار الاولى لمذهب تمسك بمبدأ أن الفكر يجب أن يكون حراً فى بحثه عن الحقيقة ، ويعود بنا أصل المعتزلة ، كما يُسمَّون عموماً ، الى الامام الناسك المشهور الحسن البصري (ت ١١٠ هـ/٧٢٨ م) وقد طلب اليه ذات يوم أن يبدي رأياً في مسألة اختلف فيها الخوارج والمرجئة وهي اذا كان مرتكب الكبيرة(*) مؤمناً أو كافراً ، وفيما كان الحسن يفكر في المسألة رد أحد تلامذته وهو واصل بن عطاء (وفي رواية اخرى عمرو بن عُبيد) ان أمثال هؤلاء الناس ليسوا مؤمنين ولا كفاراً بل هم فى منزلة بين المنزلتين ، ثم اعتزل وشرع يفسر اسس رأيه هذا لجماعة اجتمعت حوله فى جزء آخر من المسجد ؛ فقال الحسن : « لقد اعتزل عنا واصل » وعلى ذلك فقد سمّي اتباع واصل : « المعتزلة » (أي المنشقين)[٦٧] ومع

---

(٦٦) ابن حزم ، ورد ذكره فى مجلة جمعية المستشرقين الالمان ، المجلد ٤٥ ص ١٦٩ الهامش ٧ وكان جهم (المتوفى حوالي ١٣٠هـ/٧٤٧م) فارسيا على ما يمكن ان يُستشف من جرأة تخميناته .

(*) نهاية الصفحة : «٢٢٢» من النص الانكليزي .

(٦٧) فى مقال ظهر فى « مجلة الدراسات الشرقية » (بالايطالية) ١٩١٦ ص ٤٢٩ وما يليها أوضح البروفيسور سي. أي. نللينو ان هذه الرواية عن أصل اسم « المعتزلة » مغلوطة فاللفظة كما يقول المسعودي (مروج الذهب) جـ٦ ص ٢٢ و جـ٧ ص ٢٣٤) مشتقة من (الاعتزال) أى من مبدأ ان أي انسان ارتكب كبيرة يكون بذلك قد اعتزل عن المؤمنين الحقيقيين

ان الحكاية قد لا تكون صحيحـة حرفياً فلعله من الصواب ان نفترض ان المذهب الجديد نشأ فى البصرة بين تلاميذ الحسن[٦٨] الذى كان حيـاة الحركة الدينيـة وروحها فى القـرن الاول للهجرة ؟ ويرتبط الاعتزال بأوائل أشكاله بمبدأ المصير المقرر مسبقاً ، وينطق القرآن فى هذا الموضوع بصوتين[٦٩] • ولم يلاحظ مستمعوه ، كما لاحظ المسلمون الذين جاءوا بعد ذلك ، ان لغـة القرآن هي فى الغالب مزدوجـة ، وهكذا ففي المسألة الحاضرة نجد النصوص التي تتضمن مسؤوليـة الانسان الاخلاقية عـن اعماله فى قوله : فى الآيتين الكريمتين :

« كل نفس بما كسبت رهينة »[٧٠] و « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن اساء فعليها »[٧١] ـ تقف جنبـاً الى جنب مـع سواهما معلنة بان الله يقود الناس الى الهداية او الضلال كما يشاء وانه قد ختم على قلوب الاشرار

واتخذ مكانا (يوصف «بالفسق» أو عدم التقى) وسطاً بينهم وبين الكفار ، وعلى رأي المرجئة ان مثل هذا الشخص لا يزال مؤمنا حقيقيا فى حين ان خصومهم الوعيديين وكذلك الخوارج اعتبروه كافرا • (ص ٤٧٢ من ملحق النسخة الانكليزية للكتاب) •

(٦٨) ومال الحسن نفسه لبعض الوقت الى مبدأ الارادة الحرة غير انه تخلى عنه فيما بعد (ابن قتيبة : كتاب المعارف ، ص ٢٢٥) ويروى انه كـان يؤمن بأن كل شيء يحـدث جبراً عـدا الخطيئـة (المعتزلة ، طبعـة تى• دبليو• آرنولد ، ص ١٢ س ٣ من الاسفل) راجع ، على كل حال ، الشهرستانى ، ترجمة هاربروكر ، جـ١ ص ٤٦ •

(٦٩) هنا كلام لا يخلو من تحيز المستشرقين الذى الفناه ، وقـد أعرب نكلسن عن أسفه لهـذا الـكلام وأمثاله عن شخصية الرسول الكريم (ص) فيما بعد وقد آثرنا حذفه [المترجم] •

(٧٠) القرآن ، السورة الرابعة والسبعون : (سورة المدثر) ، الآية : ٤١ •

(٧١) القرآن ، السورة الحادية والاربعون : « سورة حم (السجدة) الآية : ٤٦ •

وان آذانهم صُمَّت عن سماع الحق ، وانهم قد كتب عليهم الهلاك حقاً . وقد سادت هذه النظرة الاستسلامية للمصير المحتوم فى القرن الاول للاسلام وكان مبدأ المصير المقرر مسبقاً يُرتضى به عموماً ، على أن ابن قتيبة(*) يذكر أسماء سبعة وعشرين شخصاً تمسكوا بفكرة ان أعمال الانسان اختيارية(٧٢) ويبدو اثنان بين هؤلاء وهما : مَعْبد الجُهَني وابو مروان غيلان اللذان قتلهما عبد الملك وابنه هشام انهما لم يدانا كملحدين بل على الارجح كعدوين للدولة الاموية(٧٣) وكان المؤسس الحقيقي للمعتزلة واصل بن عطاء (ت ١٣١هـ / ٧٤٨م)(٧٤) الذى أضاف مبدأً أساسياً ثانياً الى حرية الارادة اذ أنكر وجود الصفات الالهية ـ القوة والحكمة والحياة الخ ٠٠ ـ على أساس ان مثل هذه الصفات ، اذا ما اعتبرت أزلية ، حطّمت وحدانية الله ، ولذلك سمى المعتزلة انفسهم ب (**اهل التوحيد والعدل**) : أهل التوحيد للسبب الذى اوضح تواً ، والعدل لانهم تمسكوا بان الله ليس موجداً للشر وانه لن يعاقب مخلوقاته الا على اعمال ضمن نطاق سيطرتهم ، وترجع التطورات الاخرى لهذه الافكار العقلية الى العصر العباسي وستُبحث في فصل تالٍ ٠

نمو التنسك :

كان لمؤسس الاسلام ادراك فطري وطبيعة بشرية الى حد بعيد لم يحمله على أن يطلب

(*) نهاية الصفحة : «٢٢٣» من النص الانكليزي ٠

(٧٢) كتاب المعارف ، ص ٣٠١ ٠ لقد عرف الذين تمسكوا بمبدأ حرية الارادة ب « القدريّة » نسبة الى « القدر » أي القدرة التى قد تدل على (١) قدرة الباري على تقرير أعمال البشر و (٢) قدرة الانسان على تقرير أعماله هو ، وأكد خصومهم أن الناس يعملون « جبريا » فعرفوا بـ « الجبرية » ٠

(٧٣) فيما يتعلق بغَيْلان راجع : « المعتزلة » طبعة تي ٠ دبليو ٠ ارنولد ، ص ١٥ س ١٦ وما يليه ٠

(٧٤) ابن خلّكان ، ترجمة دى سلان ، حـ٣ ص ٦٢ ، الشهرستاني : ترجمة هاربروكر ، جـ١ ص ٤٤ ٠

من مواطنيه تشدداً قاتلاً مع النفس على نحو ما كان يمارسه احبار اليهود ورهبان النصارى ، ولم يكن دينه خلواً من المظاهر الزهدية كصوم رمضان وتحريم الخمرة ونظام الحج ولكن يصعب أن نسمي هذه المتطلبات غير معقولة ، وعلى العكس من ذلك فقد استهجن محمد (ص) العزوبة لا بأمثولته الشخصية فحسب ، بل بتعاليمه ايضاً ، فقد روى انه قال « لا رهبانية في الاسلام »(٧٥) ولم يقع في الحقيقة شيء من هذا القبيل لاكثر من قرن بعد وفاته ، على أن حركة الزهد خلال هذه الفترة خطت خطوات عظيمة ، وقد كانت النتيجة الحتمية للفكرة الاسلامية عن الله ، حيث صفات الرحمة والحب طغت عليها الجلالة والرعب والانتقام ، وتجلت فظائع يوم القيامة التي وصفت بشكل بارع في القرآن بقوة قناعة يصعب علينا أن نتخيلها ، فالشعور المبالغ فيه بالاثم ، كما لاحظ كولدتزيهر ، والفزع من العقاب الرباني كانا أول باعثين على الزهد الاسلامي ، وهكذا نقرأ ان « تميم الداري » ، الصحابي ، الذى كان نصرانياً قبل أن يسلم ، أمضى ليلة كاملة حتى الفجر مردداً آية واحدة من القرآن (السورة : ٤٥ سورة « الجاثية »

---

(٧٥) لعل حديث : « لا رهبانية في الاسلام » يرجع الى القرن الثالث للهجرة ، وحسب التفسير المعتاد للآية : ٢٧ من السورة السابعة والخمسين (سورة الحديد) : « ثم قفّينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل ، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة **ورهبانيّة ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رَعَوْها** حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » ؛ فان الرهبانية التى يمارسها زهاد النصارى قد استهجنت كبدعة لم يخولوا اياها بأمر رباني ، غير ان البروفسور ما سينيون (مقالة عن الاصول اللغوية الاصطلاحية للزهاد المسلمين « بالفرنسية » ص ١٢٣ وما يليها) يرينا ان بعض مفسري المسلمين الاوائل وكذلك متصوفة القرن الثالث للهجرة اعتبروا هذه الآية من القرآن مبررة وممتدحة اولئك النصارى الذين كرسوا أنفسهم لحياة الزهد الا فيما أهملوا تنفيذه من واجباتها [من تعليقات ملحق الكتاب ، ص ٤٧٣] .

الآية ٢١)[٧٦] : « أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سواءً محياهُم ومماتُهم ؟ ساء مايحكمون ! »[٧٧] وكان ابو الدرداء ، وهو صحابي آخر يقول : « لو كنتم تعرفون ما ستلاقونه بعد الموت لما أكلتم طعاما ولا شربتم ماء بشهية ويا ليتني كنت شجرة قطعت ثم اكلت »[٧٨] ، وكان ثم الكثيرون ممن يشاطرونه هذا الرأي وقد قويت عزيمتهم على ترك الدنيا والحياة من أجل الله وحده باشمئزازهم من دولة طاغية لا تعرف التقى وبمشهد من سفك الدماء وهتك الاعراض والحرب الاهلية ، يكاد لا ينقطع •

الحسن البصري[٧٩] :

الحسن البصري (ت ١١٠هـ/٧٢٨م) ـ الذى ذكرناه سابقا فى بحثنا عن المعتزلة ـ شخصية بارزة فى حركة الزهد المبكرة هذه التى سارت على نهج مستقيم[٨٠] ، وقد تمكن منه خوف الله بشدة بحيث انه ، كما يقول كاتب سيرته[★] : « بدا كما لو ان نار جهنم خلقت له وحده »[٨١] وظن كل من نظر الى وجهه انه قد أدركته مصيبة عظيمة

(٧٦) ذكر نكلسن الآية ٢٠ خطأ [المترجم]
(٧٧) الشعراني : لواقح الانوار (القاهرة ، ١٢٩٩هـ) ، ص ٣١ •
(٧٨) نفس المكان •
(٧٩) فيما يتعلق بحياة الحسن البصري ومبادئه راجع ماسينيون ، سبق ذكره ، ص ١٥٢ وما يليها [هذا الهامش من ملحق الكتاب « المترجم »] •
(٨٠) راجع فون كريمر : الافكار السائدة Herrschende Ideen ص ٥٢ وما يليها ؛ كولدتزيهر : « مواد عن تاريخ تطور التصوف » Materialien Zur Entwickelungsgesch Des Sufismus (مجلة فينا الاستشراقية ، المجلد ١٣ ، ص ٣٥ وما يليها) •
(★) نهاية الصفحة : «٢٢٥» من النص الانكليزي •
(٨١) الشعراني ، لواقح الانوار ، ص ٣٨ •

حديثاً[٨٢] وقد رآه صديق له ذات يوم يبكي فسأله في ذلك فأجاب: أبكي خوفا من أن أكون قد فعلت شيئا بلا تفكير مني أو قصد أو ارتكبت خطأ أو تكلمت بكلمة لاترضى الله واذ ذاك قد يقول لي : « اذهب فأنت الآن لم يعد لك تكريم فى سلطانى ولن أتقبل منك شيئاً منذ الآن فصاعدا »[٨٣] ويروي المبرِّد ان راهبين قادمين من الشام دخلا البصرة ونظرا الى الحسن فقـال أحدهما للآخر: «لنعرِّج فنزور هذا الرجل الذى يبدو سلوكه كسلوك المسيح» فذهبـا اليه فوجداه مسندا ذقنه على راحة كفه وهـو يقول : « كم أعجب من اولئك الذين امروا أن يخزنوا لانفسهم متاعاً فدعوا ليقومـوا برحلة ، مع ذلك فان المقدَّم فيهم يتباطأ من أجـل المتأخـر منهـم ! ليتني أعـرف ما ينتظرون ![٨٤] » والاقوال التالية نموذجية تفصح عن حقيقته :ـ

« ان الله جعل الصوم مضمارا لعباده ليستبقوا الى طاعته[٨٥] فسبق أقوام ففازوا وتخلف آخرون فخابوا ، ولعمري لو كُشف الغطاء لشُغل محسن باحسانه ومسيء باساءته عن تجديد ثوب أو ترطيل[٨٦] شعر[٨٧]

« تلقى أحدهم أبيض بضا يملـخ[٨٨] فى الباطـل ملخـا ينفـض

---

(٨٢) رسالة القشيري : (١٢٨٧هـ) ص ٧٧ س ١٠ ٠

(٨٣) تذكرة الاولياء لفريدالدين عطـار : جـ١ ص ٣٧ س ٨ من طبعتى انا [نكلسن] ٠

(٨٤) الكامل (طبعة رايت) ص ٥٧ س ١٦ ٠

(٨٥) ووجه الاستعارة هنا يكمن فى حقيقة ان الخيل العربية كانت توضع على اليسير من الطعام خلال فترة التدريب التى كانت تبدأ عادة قبل السباق بأربعين يوما ٠

(٨٦) ترطيل الشعر هو تليينه بالدُهن ٠

(٨٧) الكامل ، ص ٥٧ السطر الاخير [= الكامل فى اللغة والادب ، طبعة مصطفى محمد ، ١٣٥٥هـ ، ص ٥٩ « المترجم »] [وهنا نهاية الصفحة: «٢٢٦» من النص الانكليزي] ٠

(٨٨) يمر مرا سريعا ٠

مذرويه[٨٩] ويضرب أصدريه[٩٠] يقول : ها أنا ذا فاعرفوني • قد عرفناك فمقتك الله ومقتك الصالحون •[٩١]

« نِعمُ الله أكثر من أن تُشكر الا ما أعان عليه وذنوبُ ابن آدم أكثر من أن يسلم منها الا ما عفا الله عنه »[٩٢]

« ليس العجب ممن عَطِبَ كيف عَطِبَ انما العجب ممن نجا كيف نجا »[٩٣]

«حادثوا[٩٤] هذه القلوب فانها سريعة الدثور واقْدعوا هذه الانفس فانها طُلَعَة" وانكم الا تقدعوها تنزع بكم الى شر غايةٍ »[٩٥] •

لم يكن الحسن البصري صوفياً حقيقياً :

ان الصوفية الذين سنقول عنهم بضع كلمات قريبا يدّعون أن الحسن البصري كان واحدا منهم ، وهم على حق ما دام ينسب أهمية للحق الروحي ولم يكن ليرضى بمجرد الاعمال الخارجية للعبادة ، فقد صرح أن : « ذرة تقى خالص خير من الف ضعف وزنها صوما وصلاة ، »[٩٦] ومع ان بعض أقواله المدونة فى السير المتأخرة تضفي رواء على الاسطورة القائلة بأنه كان صوفيا كامل التصوف فليس من شك فى أن تصوفه ـ اذا ما استحق هذا الأسم ـ كان من النمط المعتدل جدا ويعوزه بالمرة الوهج والتسامى اللذين

---

(٨٩) ينفض مذرويه أى ناحيتيه •
(٩٠) يقال ذلك للفارغ •
(٩١) الكامل ، ٥٨ س ١٤ = ٦٠ س ٢ وما بعده •
(٩٢) نفسه ص ٦٧ س ٩ = ص ٦٨ س ١٥ و ١٦ •
(٩٣) نفسه ٩١ س ١٤ = ٩٣ س ٢ •
(٩٤) حادثوا : اجلوا واشحذوا •
(٩٥) نفسه ١٢٠ س ٤ = ص ١٢٣ س ٣ و ٤ •
(٩٦) رسالة القشيري : ص ٦٣ السطر الاخير •

تجدهما في القديسة رابعة العدوية التى تربط الروايات بينه وبينها[٩٧] .

ويفسر المتصوفون أنفسهم أصل لفظة « صوفي » بعدة طرق مختلفة .

اشتقاق لفظة « صوفي » : ولكن بين الاشتقاقات(*) المقترحة هنـاك ثلاثة فقط تستحق الاخذ بنظر الاعتبـار ، وهى اقتراحـات اولئك الذين يربطونها **بلفظة « صوفوس »** (Sofos) اليونانية (ومعناها الحكيم) أو بلفظة (صفا أى النقاء) أو الصوف[٩٨] والاقتراحان الاولان غير مقبولين لاسباب لغوية لا حاجة لنا بالدخول فيها[٩٩] ، ولو أنه يسعنا أن نبين أن الاشتقاق من « صفا » قد جعل مقدسا بسلطة قديسي المتصوفة وهـو مقبول بصورة عامـة فى الشرق[١٠٠] ويبدو السبب فى هـذا التفضيل في مثل هـــذه

---

(٩٧) من الجدير بالملاحظة ان القشيرى (ت ٤٦٦هـ/١٠٧٣م) وهو من أقدم المراجع فى التصوف لا يضع الحسن بين شيوخ التصوف الذين ذكرت تراجمهم فى الرسالة (ص ٨ ـ ٣٥) ولا يكاد يذكره أكثر من ست مرات فى كتابه ، وأقوال الحسن التى يستشهد بها هى من نفس صفـة الاقوال المحفوظة فى الكامل [« وللرسالة القشيرية » طبعتان أخريان غير الطبعة التىأشار اليها نكلسن : احداهما بتحقيقالدكتور عبدالحليم محمود، ومحمود بن الشريف ، ونشر دار الكتب الحديثة ، وتقع فى جزأين والاخرى باشراف مكتبة البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٤٠ ؛ فى مجلد واحد «المترجم»] .

(*) نهاية الصفحة : «٢٢٧» من النص الانكليزي .

(٩٨) راجع مقالة نولدكه : « صوفى » فى مجلة جمعيـة المسشرقين الالمان ، المجلد : ٤٨ ص ٤٥ .

(٩٩) يمكننا الآن أن نبين بالتأكيد ان لفظة «صوفي» بدأ ظهورها فى الكوفة فى القرن الثانى للهجرة وكانت باديء ذى بدء مقصورة على متصوفة العراق لذلك فان أقدم تطورات التصوف ، بمعناه الصحيح حدث فى وسط متأجج من الافكار الشيعية والهيلينية (المسيحية والغنوصيّة) [من هوامش الملحق : ص : ٤٧٣] .

(١٠٠) تبدو اشارة" الى « صفـا »في ثلاثـة عشـر من أصل سبعين تعـريفـا للفظتى « صـوفـى » و « التصـوف » المتضمنـة فى « تذكرة الاولياء » للمتصوف الفارسي المشهور فريد الدين عطّار (ت حوالي ٦٢٨هـ/١٢٣٠هـ) فى حين ان « الصوف » لم يذكر الا مرتين .

التعريفات : « الصوفيّ هو الذى يحتفظ بقلبه صافيا مع الله »[(١)] و « التصوف هو الاصطفاء ، فمن اصطُفِيَ من كل شيء عدا الله ، فهو الصوفي الحقيقي »[(٢)] واللفظة اذ فهمت بهذا المعنى كان لها مدلول سام قربها من الخاصة ؛ مع ذلك يمكن الرجوع بها الى مصدر متواضع تماما ، فالاردية الصوفية كانت كثيرا ما يرتديها رجال متنسكون في أوائل أيام الاسلام ليتميزوا (كما يقول ابن خلدون) عن اولئك الذين يتظاهرون بطراز أكثر بذخا من الملابس ، ومن هنا جاءت كلمة « صوفي » فهي تدل قبل كل شيء على الناسك الذى يرتدي الصوف على نحو ما كان الكبّوشيّون[(٣)] Capuchins مدينين بتسميتهم الى القلنسوة (Cappuccio) التى كانوا يرتدونها؛ وقد شاع استعمال التسمية على رأى القشيرى ، قبل نهاية القرن الثانى للهجرة (= ٨١٥م) على أنه فى هذا الوقت كانت حركة التصوف فى الاسلام قد اتخذت الى حد ما صفة جديدة ولابد ان معنى كلمة « صوفي » ، اذا كانت الكلمة موجودة مسبقا ، قد اجتازت مرحلة تغيّر مماثلة .

أوائل التصوف : يبدو لي انه من غير المحتمل أن النعت موضوع البحث يحدد نقطة[(★)] التحول عن التنسك الاعتيادي وانه اطلق لاول مرة ، كما يقول جامي ، على ابى هاشم الكوفي (عاش قبل ١٨٤هـ/٨٠٠م) الذى أوجد خانقاهاً (أى ديرا) للمتصوفة في الرملة بفلسطين؛ وايا ما كان الامر ، فان التمييز بين (الزهد) والتصوف ــ وهو تمييز يتجاوب بخطوط عريضة مع الـ Via purgativa . الحياة المطهرة والـ Via Illuminativa

---

(١) قالها بشر الحافي المتوفى سنة ٢٢٧ ــ ٢٢٨هـ/٨٤١ــ٨٤٢م

(٢) قالها جنيد البغداديّ (ت ٢٩٧ ــ ٢٩٨هـ/٩٠٩ ــ ٩١٠م) وهو من أشهر شيوخ المتصوفة .

(٣) الرهبان الكبّوشيّون هم من طائفة الفرانسسكان ، الجماعة المتزمتة التى جرى عليها الاصلاح سنة ١٥٢٨م ، ومن هذه اللفظة اشتق اسم لمعطف ذي قباء خاص بالنساء .

(★) نهاية الصفحة «٢٢٨» من النص الانكليزي .

الحياة المستنيرة للتصوف الغربي في القرون الوسطى – يبدأ بالظهور قبل انتهاء العهد الاموى ، ويتطور بسرعة في صدر الدولـة العباسيـة ، تحت تأثير الافكار الاجنبية ولا سيما الفلسفة الاغريقية ؛ واذ نترك هذا التطور المتأخر ليُبحث في فصل تالٍ نتبين الآن بايجاز أصل التصوف الذى يحمل هذه التسمية بصورة صحيحة والمظهر الاول للميـول الغريبـة التى يستند اليهـا .

ما يقوله ابن خلدون عن أصل التصوف :

ولا يمكننا ، فيما يتعلق بأصله ، أن نفعل شيئا أفضـل من اقتبـاس الملاحظات التى يستهل بها ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) فصل التصوف في مقدمة تاريخيه العظيم : « هـذا العلم من علوم الشريعـة الحادثة في الملة وأصله ان طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبـادة والانقطاع الى الله والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف ، فلما فشا الاقبال على الدنيا فيالقرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة(٤) .

(٤) مقدمة ابن خلدون [طبعة كاترمير ، باريس ، ١٨٥٨ ، ج ٣ ص ٥٩ – ٦٠ « المترجم »] = (بيروت ١٩٠٠) ص ٤٦٧ = ج٣ ص ٨٥ وما يليها منالترجمة الفرنسية « لدى سلان » وقد ذكر السهروردي في كتابه « عوارف المعارف » (المطبوع على حاشية احياء علوم الدين للغزالي ، القاهرة ، ١٢٨٩هـ) جـ١ ص ١٧٢ وما يليها ، نفس الشيء بتفصيل أكثر . قـارن كذلك القطعـة التى ترجمهـا البروفيسـور ئى٠جى٠ براون عن القشيري في ص ٢٩٧ – ٢٩٨ من الجزء الاول من كتابه « تاريخ الفرس

أقدم شكل للتصوف :

ويبدو من هذا واضحا أن التصوف اذا لم يكن فى الاصل متماثلا مع الثورة التنسكية التى كان الحسن البصري ، كما رأينا ، أبرز ممثل لها ، فقد انبعثت على كل حال من تلك الحركة ؛ ولم تكن تنظيما تأمليا كالحاد المعتزلة ، بل دينا عمليا وطريقة حياة ، وقد قال الجنيد : « ما أخذنا التصوف عن (القيل والقال) ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات »(٥) وكان أقدم المتصوفة نساكا ورهبانا ولكنهم كانوا شيئاً آخر كذلك فقد استخلصوا العنصر الروحي والزهدى فى الاسلام ، أو أدخلوه فيه ، اذا لم يجدوه هناك مسبقا .

الفرق بين الزهد والتصوف :

يقول السهروردي(٦) : « التصوف غير الفقر والزهد غير الفقر والتصوف غير الزهد فالتصوف اسم جامع لمعاني الفقر ومعاني الزهد مع مزيد أوصاف واضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا وان كان زاهدا وفقيرا » . ويوضح بعد ذلك بقليل(٧) الاختلاف على الوجه التالي :

الادبي » [والنص فى كتاب عوارف المعارف هو : وهذا الاسم لم يكن فى زمن رسول الله (ص) وقيل كان فى زمن التابعين ونقل عن الحسن البصرى رحمة الله عليه انه قال : « رأيت صوفياً فى الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذ وقال معي أربع دوانيق ؛ يكفيني ما معى ؛ ويشبه هذا ما روي عن سفيان انه قال : « لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء » وهذا يدل على ان هذا الاسم كان يعرف قديما وقيل لم يعرف هذا الاسم الى المائتين من الهجرة العربية] . « المترجم » [وهنا نهاية الصفحة : «٢٢٩» من النص الانكليزى] .

(٥) السهروردي ، المكان نفسه ، ص ١٣٦ وما يليها [= جـ١ ص ٢٨٣ من طبعة دارالكتب العربية الكبرى للبابى الحلبى، القاهرة ١٣٣٤هـ].

(٦) المكان نفسه ، ص ١٤٥ [= جـ١ ص ٣٠٠ من طبعة دارالكتب العربية للبابي الحلبي ، القاهرة ١٣٣٤هـ] .

(٧) جـ١ ص ١٤٧ ـ ١٥٠ (طبعة بولاق ١٢٩٦هـ) .

« الفقير في فقره متمسك به متحقق بفضله يؤثره على الغنى ، متطلع الى ما تحقق من العوض عند الله ... فكلما لاحظ العوض الباقي أمسك عن الحاصل الفاني وعانق الفقر والقلة وخشى زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض وهذا عين الاعتلال في طريق الصوفية لانـه تطلـع الى الاعواض وترك لاجلها ، والصوفي يترك الاشياء لا للاعواض الموعودة بل(★) للاحوال الموجودة فانه ابن وقته(٨)... فاذا اتضح ذلك ظهر الفرق بـين الفقـر والتصوف ، وعلم ان الفقر أساس التصوف وبـه قوامـه ، عـلى معنى ان الوصول الى رتب التصوف طريقة الفقر لا على معنى أنه يلزم من وجـــود التصوف وجود الفقر » .

ومفتاح التصوف هــو الاخـلاص الخالي الغرض العديم الذات ، أو بلفظة واحدة هو الحب ، وكانت هذه الفكرة رغم انها ليست غريبة تماما ، جد بعيدة عن كونها مألوفة لدى تقاة المسلمين الذين كانوا قد تأثروا تأثراً عميقا بقدرة الله وانتقامه منهم بطيبته ورحمته ، فالقرآن بصورة عامة يمثل الله صارما لا يمكن الاقتراب منه ، متطلبا منتهى الخضوع لارادته الكيفيـة ، ولكنه عديم الاكتراث ، الى أقصى حد ، بالمشاعر والمطامح البشرية ومثل هذا الكائن لا يستطيع أن يطمّن الغريزة الدينية ، وتاريخ التصوف بأسره احتجاج على الفصل غير الطبيعي بين الله والانسان وما يتضمنه مثل هـذا الادراك ، وعلى ذلك ، لا أعتقد أننا بحاجة الى النظر الى ما وراء الاسلام عن أصل مبادىء التصوف ، ولو انه من الخطأ عدم الاعتراف بالدور الذى لعبه التأثير المسيحي في اعطاء صورة لتطورها الأوّلي ؛ وكانت الصفة التأملية التى تشبعوا بها تدريجيا والتى غيرتهم بتمادى الزمن تغييرا تاما كامنة نوعا ما

(★) نهاية الصفحة : «٢٣٠» من النص الانكليزي .

(٨) أى انه يستسلم بلا تحفظ الى الاحوال الروحانية التى تمر به حسب مشيئة الله .

خلال العصر الاموى ، ولما يقرب من قرن بعد قيام الدولة العباسية .

المتصوفة الاوائل :

وما زال المتصوفة الاوائل على اسس صحيحة ، وليست علاقتهم بالاسلام مباينة لعلاقة متصوفة الاسبان فى القرون الوسطى بكنيسة روما الكاثوليكية ، فهم يعزون قيمة خارقة لبعض النقاط فى تعاليم محمد (ص) ويؤكدونها بحيث يتركون سواها ما يشبه الحرف الميت ، وهم لا ينغمسون في الدياليكتيكية العميقة بل يقتصرون على امور لها علاقة باللاهوت التطبيقي ؛ ويكون انكار الذات والتشدد الصارم مع الذات ، والتقى الحماسي ، والهدوء الذى اوصل الى شفا البلادة المظاهر الرئيسة لعقيدتهم .(★)

ويمكننا أن نرسم صورة كاملة حية لاوائل عهد التصوف من السير العديدة فى العربية والفارسية ، تلك التى تزودنا بتفاصيل وافرة عن طريقة حياة هؤلاء القديسين المسلمين ، وتدون بأمانة تقشفهم وأحلامهم ومعجزاتهم وأقوالهم ؛ وليس لدينا هنا غير مجال اضافة بضعة اسطر عن أهم أعضاء هذه المجموعة ــ ابراهيم بن أدهم ، أبي على شقيق ، فضيل بن عياض ، ورابعة ــ وكلهم مات بين منتصف القرن الثانى للهجرة ونهايته (٧٦٧ ــ ٨١٥م) .

ابراهيم بن أدهم :

كان من العائلة المالكة فى بلخ ، وكان يحمل قدامه أربعون سيف ذهب وأربعون رمح ذهب ، ومثل ذلك وراءه ، وقد سمع ذات يوم ، وقد خرج للصيد ، صوتاً صاح به : « استيقظ ! الهذا خلقت ؟ » فاستبدل ملابسه الفاخرة بجبة متواضعة ، وبقلنسوة راعٍ وبريّة وودّع مملكته وعاش

(★) نهاية الصفحة : «٢٣١» من النص الانكليزي .

لتسع سنوات في كهف بالقرب من نيسابور[٩] وكانت صلاتـه المعتـادة :
« اللهم ارفعني من عار المعصية الى مجد الخضوع لك » !

وقال : « يا الهي ! انك تعلم ان الجنات الثماني شيء يسير الى جنب ما كرمتني به والى جنب حبـك والى جنب منحي تماسا وثيقـا بالثناء على اسمك والى جنب هدوء البال الذى تهبني اياه عندما أتأمل جلالك » وقال في موضع آخر : «لن تدرك الحق حتى تجتاز ست عقبات : أولها أن تسد باب اللذة وتفتح باب الشدة ، وثانيها أن تسد باب الكبرياء وتفتح باب التواضع ، وثالثها أن تسد باب الراحة وتفتح باب البلاء ، ورابعها أن تسد باب النوم وتفتح باب اليقظة ، وخامسها أن تسد باب الغنى وتفتح باب الفقر ، وسادسها أن تسد باب الامل وتفتح باب تهيئة نفسك للموت »(★)

شقيق البلخي :

وضع شقيق ، وهو الآخر من بلخ ، تشديدا خاصا على واجب ترك الانسان ذاته بين يدى الله تماما أى (التوكل) وهي لفظة تكاد تكون مرادفة « للسلبية » فمثلا انه يجب على المتوكل الا يحاول الحصول حتى على كفاف العيش ، ويجب الا يطلب شيئا ولا يشتغل في تجارة : فعمله مع الله وحده ومن أقوال شقيق : « تسعة أعشار التقى في الهرب من الناس والعُشر الباقي في الصمت » .

---

(٩) ربما كان ابراهيم أحد الشكفتية «سكان الكهوف» في خراسان (ولفظة « شكفت » تعنى الكهف بالفارسية) الذين يسميهم السوريون : « الجوعيّة » (أى «الصائمين») انظر السهروردي ، المكان نفسه ، ص ١٧١ [= جـ١ ص ٣٠٠ ، طبعة دار الكتب العربيـة الـكبرى للبابي الحلبي ، المطبعة الميمنية بمصر ، ١٣٣٤هـ وفيها ورد : وقيل كان منهـم [أى من الصوفية] طائفة بخراسان يأوون الى الكهوف والمغارات ولا يسكنون القرى والمدن يسمونهم في خراسان شكفتية لان (شكفت) اسم الغار ينسبونهم الى المأوى والمستقر وأهل الشام يسمونهم « جوعية »] « المترجم »

(★) نهاية الصفحة : «٢٣٢» من النص الانكليزي .

فضيل بن عياض :

وبنفس الصورة ، صرح فضيل بن عياض ، وهو رئيس عصابة تائب : « ان الامتناع عن القيام بأى عمل من أجل الناس نفاق ، بينما القيام بأى عمل من أجل الناس شرك » ويمكننا أن نلاحظ كنقطة جدال ضد الاصل الهندى للتصوف انه بالرغم من كون المتصوفة الثلاثة الذين ذكروا من خراسان أو من بلاد ما وراء النهر ، وانهم لذلك على ما يظهر فى تماس مع الافكار البوذية ، لا يمكننا أن نعثر في أقوالهم على أى أثر لمبدأ الفناء الذى يلعب دورا عظيما فى الصوفية فى أدوارها التالية والتى شخصها فون كريمر وآخرون مماثلةً للنيرڤانا .(*)

رابعة العدوية(١٠)

نأتي الآن الى شخصية أكثر امتاعا واثارة للاهتمام اذ فيها تحول نمط التصوف النسكي والهدوئي بامتزاجه بالعاطفة ، وتشرع بشكل واضح باماطة اللثام عن اتجاه تقدمها المقبل ، والكل يعرف ان النساء قد لعبن دورا ممتازا فى تاريخ التصوف الاوربى ، فالقديسة تيريزا(١١) والمدام گويون

(*) النيرڤانا (Nirvana) خمود الشهوات الجسدية وسعادة النفس فى عالم الخلود فهى الراحة الابدية . [المترجم]

(١٠) لقد قدمت الآنسة مارغريت سمث فى كتابها : «رابعة المتصوفة» (كمبرج ، ١٩٢٨) معلومات علمية باعجاب عن حياة هذه القديسة المشهورة وتعاليمها والاسطورة المحاطة بها . أما القول بأنها ماتت ودفنت فى القدس فغير صحيح ذلك لان الكتاب المسلمين قد التبس عليهم أمرها بأمر قديسة أقدم منها وهى سميَّتها رابعة بنت اسماعيل (ت ١٣٥هـ) .

(١١) هناك قديستان مشهورتان باسم تيريزا ، احداهما أسبانية وهى تيريزا اڤيلا Teresa of Avilla (١٥١٥-١٥٨٢م) والاخرى فرنسية وهى تيريزا ليزيو Teresa of Lisieux (١٨٧٣ - ١٨٩٧م) ولعل (نكلسن) يقصد الاولى فهيقديسة أسبانية أصلحت النظام الكرملي وأقامت سبعة عشر منزلا للراهبات ، وبمعونة القديس (حنا ذي الصليب) انشأت ما يقارب

Guyon (١٢) وكتـريـن سـيينـا(١٣) وجـوليـانـا النـوريچيـه Juliana of Norwich (١٤) أسماء قليلة نذكرها اعتباطا ، وبالرغم من الموت العقلي الذي حكم به نظام محمد (ص)(١٥) على أكثرية المسلمات بوسع المتصوفة أن يباهوا ككاثوليك روما بعدد لا يستهان به من القديسات وأقدمهن ، والى حد بعيد ، أشهرهن ، هي « رابعة » التي تنتمي الى قبيلة عديّ ولذلك تسمى على العموم بـ « رابعـة العدويـة » • كانت بصريّة وتوفيت في بيت المقدس (اورشليم) ربما حوالي نهاية(**) القرن الثاني

هذا العدد من المنازل للرهبان ، وكتاباتها من أعظم الكتابات الصوفية المسيحية وبينها أثرها الخالد : « طريق الكمال » (حوالي ١٥٦٥م) وعيدها يوم ١٥ تشرين الاول •

أما الثانية فهي من الكرمليّين كذلك وقد الفت كتاب « قصة روح » (١٨٩٧م) ووضعت ترجمة حياتها الروحية ؛ وعيدها يوم ٣ تشرين الاول [لاروس « النسخة الانكليزية » ص ١١٩٢] •

(١٢) مدام گويون (١٦٤٨ ـ ١٧١٧) متصوفة فرنسية وقد أثرت تعاليمها التصوفية في (فينيلون Fénelon) وسجنت في الباستيل بتهمة الالحاد (١٦٩٥ ـ ١٧٠٢) [لاروس « النسخة الانكليزية » ص ٥٠٨] •

(١٣) كتريـن سيينـا Catharine of Siena (١٣٤٧ ـ ١٣٨٠) قديسة من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية • ولدت في سيينا • اشتهرت بالرؤى والايحاءات المذهلة ويرجع اليها الفضل في قرار البابا غريغوري الحادي عشر لمغادرة اڤينون والعودة الى روما (١٣٧٧م) والاعتراف بالبابا « أوربان » السادس (١٣٨٠م) وهي مؤلفة مجموعة رسائل وكتب دينية • [معجم ويبستر للاعلام ، ص ٢٦٧] •

(١٤) متصوفة انكليزية من مقاطعة نورج البريطانية •

(١٥) هذا قول لا يخلو من تحيز ، فان الاسلام لم يحكم بالموت العقلي على المسلمات ، بل بالعكس انقذهن من ضلالات الجاهلية وجورها ومنحهن قسطا غير قليل من الحرية ولولا الاسلام لما ظهرت المتصوفات من أمثال رابعة العدوية بدليل انه لم تظهر متصوفة واحدة في العصر الجاهلي • [المترجم] •

(**) نهاية الصفحة : «٢٣٣» من النص الانكليزي •

للهجرة ، وكان قبرها مزاراً في القرون الوسطى ، على ما يخبرنا به ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) ؛ ومع ان الاقوال والابيات التى ينسبها اليها كُتّاب المتصوفة قد لا تكون صحيحة النسبة فهناك كل سبب للاعتقاد بأنها تمثل بصورة معقولة الصفة الحقيقية لتعبدها الذى يُشبه تعبد جميع المتصوفات لانها موحاة بشعور رقيق متحمس فقد سئلت : « اتحبين الله تعالى ؟ » فقالت : « نعم » .

« اتكرهين الشيطان ؟ »

فأجابت : ان حبي لله لا يترك لي مجالا لكره الشيطان ؛ وقد رأيت النبي (ص) فى حلم فقال : « أتحبينني يا رابعة ؟ » فقلت : من ذا الذي لا يحبك يا رسول الله ؟ ـ ولكن حبي الله قد تملكني بحيث لم يُبق فى قلبي حباً أو كرهاً لاي شيء آخر » ويروى ان رابعة قالت الابيات التالية : [من المتقارب] : ـ

احبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمّن سواكا
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا(١٦)

وسواء أكانت هذه الابيات صحيحة أو مفتعلة بما فيها من مزاج من التعبد والتأمل (لان ناظمها يميز بين الحياة المستنيرة والتأملية ويعتبر الاخيرة بوضوح أفضل السبيلين) فهي تفيد في ايضاح نهاية مدرسة التصوف

(١٦) الغزالي : احياء علوم الدين (القاهرة ، ١٢٨٩هـ) حـ٤ ص ٢٩٨ [= طبعة دار الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٣٤ ، جـ٤ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ « المترجم »] .

النسكية وظهور «ثيوزوفيه» Theosophy [١٧] جديدة بنفس الاسم ، معترفة بأنها على اتفاق تام مع القرآن والسُنَّة ، وقد أسست الى حد ما على أفكار ذات أصل أجنبي ـ أفكار لا يمكن مصالحتها مع أي دين موحىً به ومعارضة بصورة مباشرة[*] للبساطة الفخمة الصارمة لاركان العقيدة الاسلامية •

الأدب الاموي :

لم يكن القرن الاول للاسلام ملائماً للأدب ، فقد تملك الفتح والتوسع ، بادىء ذي بدء ، ثم المنازعات الداخلية ، قُوى الامة وعادت بعد ذلك الروح الوثنية القديمة تحت حكم الامويين تؤكد ذاتها مرة اخرى ، وعلى ذلك فان أدب هذه الفترة يكاد لا يحتوى الا على الشعر بصورة خاصة وهو لا يحمل الا بعض علائم التأثير الاسلامي •

لم يكن محمد سبب تدهور الشعر العربى :

ولا نكاد نحتاج للاشارة الى الرأي الذى ساد أوربا فترة طويلة من الزمن وهو أن محمداً (ص) أفسد ذوق مواطنيه بوضع القرآن نموذجاً للاسلوب الشعري لا يرقى اليه أحد والاستهانة بانتاج الشعراء الوثنيين الذي كان موضع اطراء واعجاب ، وبفن الشعر بالذات ، وما بي حاجة الى أن اذكّر قرائي بأن القرآن قبل كل شيء ليس شعرياً في تكوينه (لذلك لا يمكن أن يتخذ نموذجاً من هذا النوع) وثانياً ـ هو كلام الله بالفعل ، حسب العقيدة الاسلامية ، فهو لذلك نسيج وحده لا يمكن محاكاته ؛ والى ذلك فان الشعراء الذين أدانهم النبي (ص) كانوا على الاكثر خصومه الاشد

---

(١٧) الثيوزوفية : مذهب الاتصال بالله أو الفناء فى الذات الالهية والبقاء بالله • [المترجم]

(*) نهاية الصفحة : «٢٣٤» من النص الانكليزي •

خطورة ، فقد كرههم لا شعراء بل منتجين لمُثل خاطئة ومدافعين عنها ، ولانهم تهكموا بتعاليمه ، في حين أنه على العكس من ذلك أكرم اولئك الذين استخدموا مواهبهم في الطريق الصحيح ومنحهم الجوائز ؟ فاذا كان المغنون البدو والفرسان الذين عاشوا ، وهم ينشدون الشعر ، حياة الصحراء الحرة ممن لم يرق الى مستواهم امراءُ الشعر اللامعون في البلاط الامبراطوري في دمشق وبغداد فان أسباب الانحطاط لا يمكن أن ترجع الى الموقف الشخصي لمحمد (ص) بل ترجع الى ظروف مختلفة لا يعد مسؤولا عنها الا الى حد انه أوجد نظاما دينيا وسياسيا ألهب المجتمع العربي بالثورة •

الشعراء الأمويون :

وشعراء الفترة التي نحن بصددها الآن تقصوا آثار القدامى بعبودية كما لو أن الاسلام لم يكن له وجود ، فبدلا من أن يتغنى الشاعر الذى يعيش في مدينة عظيمة ، بالانتصارات الرائعة(★) والاعمال البطولية للمحاربين المسلمين بقى يبكي على بقايا دمن محبوبته في العراء ، وما زال يمضي عبر الرمال المترامية الاطراف على الجمل المنقطع النظير الذى يصف فيه مزاياه الرائعة بصورة خاصة ؟ واذا ما حدث ان خاطب الخليفة فهو يضفى في عشر حالات ازاء حالة واحدة مستثناة ، جميع فضائل الشيخ البدوي على تلك الشخصية المعظمة • « لحسن الحظ ان محاكاة القصيدة الأثرية ، على كل حال بالنسبة لاعاظم شعراء الامويين ، هى ثانوية ليس غير ، وذلك بالنسبة لشكل آخر من الفن الذى يثير اهتمامنا التاريخي لدرجة عالية : أي قصائد المناسبات (وهى جد كثيرة عند جميع هؤلاء الكتاب تقريبا) التى يوحيها مزاج اللحظة وبوسعها ان تلقي ضوءاً حياً على

(★) نهاية الصفحة : «٢٣٥» من النص الانكليزي •

التاريخ المعاصر »[١٨] .

الموسيقى والغناء فى المدن المقدسة :

لقد جاءت الفتوحات التى قام بها خلفاء النبي (ص) بثروة هائلة الى مكة والمدينة وعندما أصبح للاريستوقراطية الأمويّة اليد العليا فيخلافةعثمان اتخذت هاتان المدينتان حياة شهوانيـة متحللة اخترقت كل تقييد فرضه الاسلام ؛ وانتج ازدياد البذخ تهذيباً مماثلا في الفن الشعري ؛ ومع ان الموسيقى لم تكن غير معروفة عند عرب الجاهلية فقد كان يرعاها بصورة رئيسة حتى الآن الاجانب ولا سيما المغنيات اليونانيات والفارسيات ، ولكننا نسمع فى القرن الاول للهجرة عن عدة مغنين عرب[١٩] من أهل مكة والمدينة الذين لحنوا مقطوعات محببة الى الجمهور ، وأصبحت الالفاظ والالحان منذ الآن فصاعداً متحدةً بشكل لا يقبل الانفصام على ما يخبرنا كتاب « الاغاني » حيث نجد مئات الامثلة ؛ ووسط الحشد المرح من طالبي اللذة لعبت النساء بطبيعة الحال دورا بارزا ؛ والحب الذى كان حتى الآن[*] يؤلف في معظم الحالات ، مجرد الاستهلال التقليدي للقصيدة ، أصبح الآن يُنشد لذاته .

عمر بن أبي ربيعة :

وفي مدرسة شبه الجزيرة هذه ، على ما يمكننا أن نسميها لتمييزها عن السلالة الجريئة والرجولية لشعراء الاقاليم العظام الذين نحن على وشك أن نذكرهم ، فان قصب السبق من دون نقاش هو لعمر بن أبي

---

(١٨) بروكلمان : تاريخ الادب العربى (النسخة الالمانية) ج ١ ص ٤٥ .

(١٩) من مثل معبد والغريض وابن سريج وطويس وابن عائشة .

(*) نهاية الصفحة : «٢٣٦» من النص الانكليزي .

ربيعة (ت ١٠١هـ/٧١٩م) وهو ابن تاجر مكي ثري • لقد أمضى أفضل شطر من حياته في تعقب السيدات النبيلات فهن وحدهن اللائي الهمنه بانشاد الشعر وكان شعره مغريا بحيث ان الورعين من المسلمين اعتبروه « اعظم جريمة ارتكبت ضد الله » وساحرا كذلك بحيث ان عبدالله بن عباس ، ابن عم النبي (ص) ، الذي اشتهر حجةً في القرآن والحديث لم يستطع الامتناع عن حفظ بعض أبيات النسيب التى أنشدها له عمر[٢٠] ؛ وقد قالت العرب بحقٍ ان قبيلة قريش أحرزت تفوقاً فى كل ميدان عدا الشعر ، ولكن يجب أن نعترف بأن عمر بن أبي ربيعة استثناء واضح من هذه القاعدة فألفاظه كألفاظ كاتلس Catullus [٢١] ، لها كل سهولة الحديث المهذب غير المتكلف ؛ واليك بعضاً من أبياته [من الخفيف] :

يا خليليَّ من ملامٍ دعاني وألِمَّا الغداةَ بالأظْعانِ
لا تلوما في آلِ زينب انّ الـ ـقلب رهنٌ بآل زينبَ عاني
ما أرى ما بقيتُ ان أذكر المو قِفَ منها بالخيْفِ[٢٢] الاشجاني

(٢٠) الكامل للمبرد ، ص ٥٧٠ وما يليها •

(٢١) Caius Valerius Catullus (حوالي ٨٤ ــ ٥٤ ق•م•) شاعر روماني غنائي ولد فى ڤيرونا ويعد واحدا من أعظم الشعراء الغنائيين فى تاريخ الادب الرومانى وله أكثر من مائة قصيدة معظمها غنائي يخاطب فى أغلبها صاحبته ليزبيا Lesbia وهى فى الحقيقة كلوديا اخت كلوديوس السيئة الصيت وزوجة (٦٣ ــ ٥٩ ق•م) كوينتس ميتيللس سيلر [معجم ويبستر للاعلام ، ص ٢٦٨] •

(٢٢) الخَيْف : ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غِلَظ الجبل • قال ابن سيده : وخيف مكة موضع فيها عند منى ، سمي بذلك لانحداره عن الغلظ وارتفاعه عن السيل•

لم تـدع للنسـاء عنديَ حظـاً[٢٣]

غـيرَ مـا قلت مـازحـاً بلسـاني

هي أهـل الصفـاء والـوُدِّ مني

واليهـا الهوى ، فـلا تعذُلاني[٢٤]

ليس لدينا مجال للتحدث عن الشعراء الاقل شأناً من نفس المدرسة كالعَرْجى (من بني امية) والأحوص وكثيرين آخرين •

شعر النسيب :

لقد أوضح الدكتور سي • بروكلمان(★) ان شعر النسيب لهـذه الفترة هو الى حد كبير ذو أصل شعبيّ ، فالاغاني المنسوبة الى جميل مثلا ، تلك التي يخاطب بها بثينة ، والى المجنون بطل روايات فارسيـة وتركيـة لا عد لها وهي التي يمجد فيها حبه لليلى ـ أغانٍ شعبية حقيقية من نحو ما نرى في « الف ليلة وليلة » وبوسعنا أن نسمعها في شوارع بيروت أو على شواطىء دجلة فى الوقت الحاضر ، والعديد منها جميل للغاية ، وقد اقتبسنا الابيات التالية من قصيدة قيل انها من نظم جميل [من الطويل] :ـ

الا ليت ريعان الشباب[٢٥] جديد

ودهـراً تـولى يـابثـين يعـودُ

فنَغنى كمـا كنـا نكونُ وأنتُمُ

قريبٌ(★★) واذ ما تبذُلِين زهيدُ

---

(٢٣) فى ديوانه : نصيباً •

(٢٤) الاغاني ، جـ ١ ص ٤٣ س ١٥ وما بعده ؛ نولدكه ، منتخبات ، ص ١٧ البيت الاخير وما يليه •

(★) نهاية الصفحة : «٢٣٧» من النص الانكليزي •

(٢٥) وفى رواية اخرى « ايام الصفاء » [المترجم]

(★★) وفى رواية اخرى : « صديق » [المترجم]

وهل أَلقَيَنْ فرداً بثينةَ مرة
تجود لنا من وُدِها ونجودُ ؟
عَلِقت الهوى منها وليداً فلم يزلْ
الى اليوم ينمي حبُّها ويزيدُ
وأفنيتُ عُمري بانتظاريَ وعدَها
وابليتُ فيها الدهرَ وهو جديدُ
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً
ولا حُبُّها فيما يبيدُ يبيدُ(٢٦)

الشعر فى الاقاليم :

تبرز أسماء الاخطل والفرزدق وجرير بتفوق في قائمة الشعراء الامويين ، فقد كانوا رجالا لهم طابع يختلف جد الاختلاف عن المغنين الملوّعين وفرسان الطنافس من أمثال جميل ، أولئك الذين رفضوا القتل الا في ميادين الحب ، ومن الجدير بالملاحظة ان الثلاثة ولدوا وترعرعوا في وادي ما بين النهرين فقد استُنفدت قوى الوطن الاصلي ، اذ تدفق شبابها الطموح العامل الى الاقاليم التى أصبحت الآن المراكز الرئيسة للفعالية العقلية .

نقائض جرير والفرزدق :

ويرتبط الفرزدق وجرير ارتباطا وثيقا بمنافسة غريبة — Arcades Ambo — id est — فكلاهما محتال عكف لسنوات عدة على مهاجاة علنية(*) ؛ ولما لم يتورع أي منهما في مسائل

---

(٢٦) نولدكه : منتخبات ، ص ٩ س ١١ وما بعده مع حذف س ١٣ [= الاغانى : ج ٧ ص ٨٣]

(*) نهاية الصفحة : «٢٣٨» من النص الانكليزي .

الذوق والادب ، فقد تبودلت أقذع الاهانات بينهما ، الا أنها اهانات مجردة من الحطة بميزتها الادبية وبالبراعة المدهشة التى يظهرها المتهاجيان في استعمال كافة مصادر السباب في اللغة العربية ، وسرعان ما رُددت هذه النقائض فى كل مكان وكان لكل منهما آلاف الاشياع المتحمسين الذين ادعوا بأنه متفوق على منافسه(٢٧) .

الاهتمام العام بالشعر :

« بينا المهلب [بن أبى صُفرة] ذات يوم بفارسَ وهو يقاتل الازارقة اذ سمعَ في عسكرِهِ جَلَبَةً وصياحاً ، فقال : « ما هذا ؟ » قالوا : « جماعةٌ من العرب تحاكموا اليك فى شيء » ، فأذِنَ لهم ، فقالوا : « انا اختلفنا في جرير والفرزدق ، فكل فريقٍ منا يزعُمُ ان أحدهما أشعرُ من الآخر وقد رضينا بحكم الأمير » ؛ فقال : « كأنكم أردتُم أن تُعرِّضوني لهذين الكلبين فيُمزّقا جلدتي ! لا أحكُمُ بينهما ، ولكني أدُلُّكم على من يهون عليه سِبالُ(٢٨) جرير وسبالُ الفرزدق ، عليكم بالأزارقة ، فانهم قومٌ عربٌ يُبصِرون بالشعر ويقولون فيه بالحق ؛ فلما كان الغد خرج عُبَيْدَةُ(٢٩) بنهلال [اليشكرى] ودعا الىالمبارزة فخرج اليه رجل من عسكر المهب [كان لقطريٍّ صديقاً] فقال له : ياعُبَيْدَةُ ، سألتك اللهَ ألا أخبرتَني عنشيءٍ أسألُك عنه؟» قال:«سلْ!»قال:«أوتخبرني؟» قال : « نعم ، انكنتُ أعلمُه »• قال: «أجريرٌ أشعر أم الفرزدق ؟» قال : « قبحكَ الله ! أتركتَ القرآن والفقه ، وسألتَني عن الشعر ؟ » قال :

(٢٧) نشر البروفيسور٠أ٠أ٠ بيفان طبعة من النقائض فى لَيْدن •
(٢٨) السبال : الشوارب •
(٢٩) أورده نكلسن بفتح العين وكسر الباء • [المترجم] •

« إنا تشاجرنا في ذلك ورَضِينا بك » ؛ فقال : من الذى يقول [من الكامل] :

وطوى الطِّرادُ مع القيادِ بطونَها
طَيَّ التِّجارِ بحَضْرَمَوْتٍ بُرْدا

فقال : جرير قال : هذا أشعر الرجلين »(٣٠) .

ان هذه الحادثة تقدم برهاناً قاطعاً على أن تذوق الشعر لم يكن مقتصراً على الحلقات الأدبية اطلاقاً ، بل كان متغلغلاً في الأمة باسرها وكان يراعى(★) حتى وسط متاعب الحرب وأخطارها ؛ وانا لنجد أمثلة مشابهة لذلك في تاريخ الأثينيين ، أكثر شعوب الغرب موهبةً ، وربما فى مكانٍ آخر ، ولكن تصوروا الجنود البريطانيين يناقشون اموراً من هذا القبيل حول نيران معسكراتهم !

الاخطـل :

والتحق الاخطل بالمعركة وكانت ميوله مع الفرزدق ، والنقائض التي نظمها هو وجرير ضد بعضهما البعض قد وصلتنا ، وكان هؤلاء الشعراء جميعاً نظير اخوانهم الاسلاميين عموماً ، مداحين محترفين ، جشعين ، مسمومين وعلى استعداد لقذف أي انسان لا يشتري مديحهم ، وقد تكون معلومات أوفى عنهم ذات متعة وفائدة للقارىء ولا سيما ان الحكايات التى يرويها مؤرخو سيرهم تلقي عدة أضواء جانبية غريبة على أساليب العصر وسلوكه .

---

(٣٠) الاغاني : ٧/٥٥ س ١٢ وما بعده . [ويلاحظ ان نكلسن قد ترجم القطعة بشىء من التصرف اذ حذف البيت الذى استشهد به عبيدة كما حذف بعض الالفاظ الاخرى التى لم ير لها ضرورة فى سياق القصة، ولكننا آثرنا أن نجاري النص الاصلي اتماما للفائدة فأوردناها بين عضادتين. « المترجم »]

(★) نهاية الصفحة : «٢٣٩» من النص الانكليزي .

لقد كان أكبر الثالوث سناً ، الاخطل (غياث بن غـوث) التغلبي ، مسيحياً ، كمعظم أفراد قبيلته ـ وكانوا قد استقروا في بلاد ما بين النهرين منذ مدة طويلة ـ وبقي على دينه حتى نهاية حياته ، ولو ان الخليفـــة عبدالملك على ما قيل ، قدم له مرتبا وعشرة آلاف درهم تدفع لـه نقـداً اذا ما اعتنق الاسلام ؛ على أن دينه كان مسألة ملاءمة أكثر منهـا مسألة مبدأ وكانت الفضيلة العظمى للمسيحية عنده في اباحة شرب الخمر لـه قـدر ما يشاء ؛ وتدل الحكايات التي تروى عنه على تدين متذلل مقرونا بمفاهيم خلقية جد ضعيفة وهي ظاهرة مألوفة لدارسي الكثلكة في القرون الوسطى ، اذ يروى سائح كان يطوف بالشام انه وجد الاخطل محبوساً في كنيسـة بدمشق يتوسل الى القس ليخلي عنـه ، وكان الاخير قـد وقف الى جنب الاخطل فرفع عصاه التي كان يتكىء عليها لانه كان رجـلا مسناً وقـال : « يا عدو الله ! أتعود تشتم الناس وتهجوهم وتقذفُ المحصَنات ؟ » وهو يقول : « لست بعائد ولا أفعل » ، ويستخذي له ، قال : فقلت له : يا أبـا مالك ، الناس يهابونك والخليفة يكرمك ، وقدرُك في الناس قدرُك ، وأنت تخضع لهذا هذا الخضوع وتستخذي له ؟(★) قال فجعل يقول لي : « انه الدين ! انه الدين ! »(٣١) .

وفي مناسبة اخرى كانت امـرأة الاخطـل حامـلا ... فمـر بـه الاسقف .. فقال لها : « الحقيه فتمسحي به ، » فعَدَتْ فلم تلحق الا ذنب حماره فتمسحت به ورجعت ، فقال لهـا : « هـو وذنب حمـــاره

(★) نهاية الصفحة : «٢٤٠» من النص الانكليزى .

(٣١) الاغاني : ١٨٢/٧ س ٢٥ وما بعده [لقد تصرف نكلسن فى ترجمة النص بعض الشيء فآثرنا متابعة الاصل العربى دون تصرف ويبدو أن نكلسن أكثر تصرفاً فى ترجمة النثر منه فى ترجمة الشعر «المترجم»]

سواء ! »[٣٢] انه طابع الروح المعادية للاسلام التى تظهر قوية في الامويين بحيث ان شاعر بلاطهم المنتخب والذائد عنهم مسيحي ، وقد كان في الحقيقة منحدرا انحدارا مباشرا من شعراء الجاهلية ، وقد كان المسلمون التقاة يشعرون بالخزي عندما كان يدخل على الخليفة بغير اذن وعليه جبة خز فاخرة وفي عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب تنفض لحيته خمراً[٣٣] ، غير ان احتجاجاتهم ذهبت ادراج الرياح في بلاط دمشق حيث ما كان أحد ليهتم ما اذا كان ناظم بيت جيد مسلماً أو مسيحياً وحيث كان الشاعر مرحباً به ترحيبا مضاعفا اذا ما كان دينه عونا له على خدمة أسياده من دون التفات الى العاطفة الاسلامية ؛ فلذلك مثلا ، التفت يزيد الاول الى الاخطل لينتقم من أهل المدينة لان أحد شعرائهم تغزل باخته ، فثلب الانصار ، اولئك الذين حققوا انتصار الاسلام ، في بيته المشهور [من الكامل] :

ذهبت قريشٌ بالمكارمِ والعلى   واللؤمُ تحتَ عمائمِ الانصارِ[٣٤]

يجب أن نتذكر ان الشعراء كانوا قادة الرأى العام وكانت أقوالهم كالنشرات السياسية ، أو بمثابة التحدث باسم الحزب الى جنب الحكومة القائمة أو ضدها ، [٣٥] فعندما سمع عبدالملك قصيدة الاخطل في مدح بني امية[٣٦] أمر بعض مواليه أن يطوف به في شوارع دمشق ويصيح : « هذا شاعر أمير المؤمنين ! هذا أشعر العرب ! »[٣٧] فلا عجب ان كان

---

(٣٢) الاغانى : ١٨٣/٧ س ٦ وما بعده .

(٣٣) الاغانى : ١٧٨/٧ س ١ وما بعده .

(٣٤) المصدر نفسه : ١٤٨/١٣ س ٢٣ .

(٣٥) نهاية الصفحة : «٢٤١» من النص الانكليزى .

(٣٦) «مدائح بني امية» Encomium Omayadarum طبعة هوتسما (ليدن ١٨٧٨) .

(٣٧) الاغاني : ١٧٢/٧ س ٢٧ وما بعده .

محبوبا لدى البلاط وشخصية بارزة بحيث ان قبيلة تغلب العظيمة كانت تدعوه حكماً كلما نشب خلاف بينهم(٣٨) وبالرغم من البذخ الذى كان يعيش فيه ، فان طبيعته كانت تتلهف للحرية وكثيراً ما ترك العاصمة ليزور موطنه في الصحراء ، حيث لم يكتف بأن يتزوج ويطلق عدة زوجات ، بل رمى بنفسه بحماس في منازعات قبيلته كذلك . لقد لاحظنا مسبقاً الدور الذى لعبه في المناجزة الأدبية بين جرير والفرزدق ، وقد بعث من فراش الموت بتوصية نهائية الى الفرزدق بأن لا يخلي سبيل عدوهما المشترك .

وقد امتدح نقاد العرب الاخطل لكثرة قصائده الطويلة وجودتها ، فضلا عن نقاء اسلوبه وتهذيبه وصحته ، ووضعه أبوعبيدة على رأس الشعراء الاسلاميين ، وقال أبو عمرو بن العلاء ، جامع الشعر الجاهلي الشهير ، لو ان الاخطل عاش يوما واحدا في الجاهلية لما فضلت عليه أحداً ؛ وقد اعترف الفرزدق بتفوقه في المديح ، وادعى هو بالذات انه فاق جميع منافسيه في ثلاثة أساليب : المديح والهجاء والنسيب ، ولكن ثمّ تبريراً أعظم لمباهاته بأن أهاجيه مما يمكن أن تنشده العذراء ـ ولا نقول الفتى اليافع ـ من دون خجل(٣٩) .

الفرزدق :

كان هَمَّام بن غالب ، المعروف بصورة عامة باسم الفرزدق ، ينتمي الى تميم ، وقد ولد في البصرة في نحو ختام خلافة عمر ؛ واشتهر جده صعصعة(*) في الجاهلية بافتداء الموؤدات (وعلى ذلك لُقّب بمحيي الموؤدات) وكان أبوه كذلك قد تشبع بتقاليد البدو القديمة من حيث

---

(٣٨) المصدر نفسه : ص ١٧٩ س ٢٥ وما بعده .

(٣٩) الاغانى : ٧/١٧٨ س ٢٦ وما بعده .

(*) نهاية الصفحة : «٢٤٢» من النص الانكليزى .

الكرم والشرف ، تلك التقاليد التى كانت آخذة بالزوال بسرعة بين سكان العراق المتفسخين خلقياً ؛ وكان الفرزدق انساناً سيئاً من النمط الذي يمثله فرانسوا ڤيلون Villon (٤٠) اذ كان مستهتراً متحللاً وعديم المبادىء تماماً ؛ وبصرف النظر عن موهبته للثلب لا نجد فيه ما يُمتدح سوى احترامه لذكرى أبيه واخلاصه لآل عليّ ، الاخلاص الذي كان يحتقر اخفاءه ، فألقى به الخليفة هشام في السجن لانشاده أمامه مديحاً متأججاً لحفيد علي ، زين العابدين ، وقد أثرت فيه مأساة الحسين بكربلاء تأثيراً عميقاً وطالب مواطنيه بتبرئة أنفسهم كالرجال [من الطويل] :-

فان أنتمُ لم تثأروا لابنِ خيرِكم
فالقوا السلاحَ واغزلوا بالمغازِلِ (٤١)

وقد أُبعد في شبابه عن مدينته الاصلية ، بسبب الأهاجي التي نظمها في اسرة نبيلة بالبصرة هم بنو نهشل ، فهرب الى المدينة فانغمر في المغامرات والتحلل الخلقي الى أن دفعه وصف مخجل لبعض مؤامراته أن يتحمل ثانية حكم الابعاد ، وتتضمن قصائده عدة اشارات الى ابنة عمه نَوار التي أجبرها بخدعة غير شريفة على الزواج منه ، في حين انها كانت على وشك

---

(٤٠) فرانسوا ڤيلون : شاعر فرنسي ، ولد سنة ١٤٣١ من اسرة فقيرة ، واسمه الاصلي فرانسوا دى مونتكوربييه فتبناه غليوم دى فيلون فاتخذ لقبه . عاش حياة شاذة وقتل بعض القسس (١٤٥٥) والقي القبض عليه فى عملية سرقة (١٤٦٢) وحكم عليه بالموت ثم ابدل بالنفي من باريس ويعد أول شاعر غنائي فرنسى وواحداً من أعاظمهم ، ومن آثاره الادبية : « العهد الصغير » (قصيدة فى أربعين مقطوعة ، ١٤٥٦) و « العهد العظيم » (قصيدة فى مائة وثلاث وسبعين مقطوعة وتتضمن عدة أغان وأناشيد ١٤٦١) [معجم ويبستر للاعلام ، ص ١٥٢٤] « المترجم » .

(٤١) الاغانى : ١٩/٣٤ س ١٨ [= ٢١/٣٨٤ تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٠م/١٣٧٩هـ] و ص ٧٢ طبعة مصطفى محمد ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ] وقد قدم نكلسن البيت ٤ على ٢ .

الزواج من غيره ، ودام النزاع بينهما ؟ وفي الاخير وافق الفرزدق على طلاق لا رجعة فيه شهد فيه الحسن البصري ، الفقيه الشهير ولم يكد(*) الامر يُنجز حتى جعل الفرزدق يرغب في نقضه وأنشد الأبيات التالية(٤٢) [من الوافر] :

ندِمتُ ندامة الكُسَعى(٤٣) لما ... غدت مِنّي مطلقةً نَوارُ
وكنتُ كفاقيءِ عينيه عمداً(٤٤) ... فأصبح لا يضيء له النهارُ
وما فارقتها شبعاً ولكن ... رأيت الدهر يأخذ ما يُعارُ
وكانت جنتي فخرجتُ منها ... كآدم حين أخرجه الضرارُ

وأصبحت « ندامة الفرزدق » الدالة على التأسف المرير أو الخيبة مضرب المثل • لقد مات قبل جرير بأشهر قليلة وذلك سنة ١١٠هـ/٧٢٨م وهي سنة اشتهرت كذلك بموت امامين شهيرين هما الحسن البصري وابن سيرين •

جرير :

كان جرير بن عطية من كليب ، وهي فرع من نفس قبيلة تميم التى انجبت الفرزدق وكان شاعر بلاط الحجاج ، عامل العراق المرعب ؛ وقد مدح حاميه بعبارات مسرفة بحيث أثار غيرة الخليفة عبدالملك الذى قابله فيما بعد عند قدومه الى دمشق ببرود وتعالٍ ملحوظين ، ولكنه بعد صده

(*) نهاية الصفحة : «٢٤٣» من النص الانكليزى •

(٤٢) الكامل للمبرد : ص ٧٠ س ١٧ وما بعده [= الديوان : ١/٣٦٣ – ٣٦٤] •

(٤٣) لقد كسر الكسعي قوسا ممتازة صنعها لنفسه (انظر مقامات الحريرى ، ترجمة شينيري ، ص ٣٥١) وقد لاحظ البروفيسور بيڤان ان هذا الشطر يكاد يكون نقلا حرفيا عن بيت منسوب الى عدى بن مَرينا الحيري ، عدو عدى بن زيد الشاعر (الاغانى : ٢/٢٤ س ٥) •

(٤٤) يذكرنا هذا الشطر بقصة الملك أوديب • [المترجم]

عنه مراراً ، حصل في الاخير على اذن بأن ينشده قصيدة نظمها في مدحه ، وعندما وصل الى بيته القائل [من الوافر] :

الستم خير من ركِبَ المطايا   وأندى العالمين بطون راح ؟

اعتدل الخليفة في جلسته على العرش وقال(★) : « من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو فليسكت »(٤٥) وقد علت شهرة جرير هجّاءً بحيث كانت تعتبر الهزيمة أمامهُ امتيازاً أعظم من قهر سواه ؛ وقد قال الشاعر الاعمى بشار بن برد (ت ١٦٧هـ/٧٨٣م) « هجوتُ جريراً فأعرض عني واستصغرني ، ولو أجابني لكنتُ أشعر الناس »(٤٦) . وترينا الحكاية التالية ان الثلب الذى كان يقذف به استاذ مثل جرير كان سلاحاً مميتاً بعيد الاثر يخزي من وقع فريسة له في أعين معاصريه مهما كان جديراً باحترامهم ، وغمر اسرته وعشيرته بعار أبدي :

كان ثمة شاعر مشهور يعرف براعي الابل « يقضي للفرزدق على جرير ويفضّلهُ ، وكان راعي الابل قد ضخُم أمره وكان من شعراء الناس ، فلما أكثر من ذلك خرج جرير الى رجال من قومه فقال : هلا تعجبون لهذا الرجل الذي يقضي للفرزدق عليّ وهو يهجو قومه وأنا أمدحهم ! [وقابله جرير ذات يوم وعاتبه ولكنه لم يحظ منه برد وكان الراعي يركب بغلة بصحبة ولده جندل الذى قال له : « لا أراك واقفا على كلبٍ من بني كليب كأنك تخشى منه شرا أو ترجو منه خيرا » وضرب

(★) نهاية الصفحة : «٢٤٤» من النص الانكليزى .

(٤٥) ابن خلكان (طبعة وستنفيلد) الرقم ١٢٩ ؛ ترجمة دى سلان ، ج ١ ص ٢٩٨ [= الرقم ١٢٧ (طبعة محمد محي‌الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٤٨) جـ١ ص ٢٩٠ س ١]

(٤٦) الاغاني : ٣/٢٣ س ١٣ (ط. بولاق) [= ٣/١٤٣ س ٥ـ٦ (ط. دار الكتب)]

البغلة ضربة فرمحت جريراً رمحة وقعت منهـا قلنسوته ، ولـكن الراعي مـا عاج عليه ، فأخذ قلنسوته فمسحهـا ثم أعادهـا على رأسـه ثم قـال. [من الوافر] :

أجنــدلُ مـا تقـول بنـو نمـيرٍ
اذا ما [••••] في [•••••] أبيك غابا(٤٧)

فانصرف جرير غضبان حتى اذا ما صلّى العِشاء بمنزله في عِلِّيَّةٍ له قال : « ارفعوا الي باطية من نبيذ وأسرجوا لي » ، فأسرجوا له ، وأتوه بباطية من نبيذ ، فجعل يهمهم فسمعت صوته عجوز في الدار فاطّلعتْ في الدرجة حتى نظرت اليه ، فاذا هـو يحبو عـلى الفراش عُرياناً لما هو فيه ، فانحدرت فقالت : « ضيفكم مجنون ! رأيت منه كذا وكذا ! » فقالوا لهـا : « اذهبي لطيَّتِكِ ، نحن أعلم(★) به وبما يمارس » ؛ فما زال كذلك حتى كان السحر ، ، ثم اذا هو يكبّرُ قد قالها ثمانين بيتاً في بني نُمير فلمـا ختمها بقوله [من الوافر] :

فغُضَّ الطرفَ انَّكَ من نُميرٍ فـلا كعبـاً بلغتَ ولا كلابا

كبَّر ثم قـال : أخزيته ورب الكعبة(٤٨) ؛ ثم أصبح •• ، وكـان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق••• ثم قصد مجلسهم••• ولم يسلم••• ثم اندفع فيهـا فأنشدهـا ••• فَنَكَسَ الفرزدق وراعي الابل وأَرَمَّ القوم(٤٩) [حتى اذا فرغ منهـا سار ، وثبت راعي الابل ساعة](٤٨) ثم

---

(٤٧) يمنعنا الحياء من اثبات الكلمتين النابيتين فى هذا الشـطـر - و (العِلِّية) فى السطر الذى يليه « الغرفة » • [المترجم]

(★) نهاية الصفحة : «٢٤٥» من النص الانكليزى •

(٤٨) هذه العبارة ليست فى الترجمة «المترجم» •

(٤٩) سكتوا •

ركب بغلته بشرٍّ وعرّ وخلّى المجلس حتى ترقّى الى منزله الذى ينزله ، ثم قال لاصحابه : « ركابكم ركابكم فليس لكم ههنا مقام ، فضحكم والله جرير » فتركوا البصرة من دون تأخير ليلحقوا بعشيرتهم فتشاءمت به بنو نمير وسبُّوهُ وابنَهُ فهم يتشاءمون به الى الآن(٥٠) »

ذو الرُّمّة :

ويلي الشعراء العظام لهذه الفترة ، ولكن بفاصلة طويلة ، ذو الرُمة (غيلان بن عُقْبة) الذى حاكى قصائد عرب البادية بأمانة متعبة رتيبة وقد ابتهج لغويو العصر التالي باسلوبه الأثري الصعب وامتدحوه فوق ما يستحق بكثير ؛ وقد قيل ان الشعر بُديء بامرء القيس واختتم بذى الرمة ، وهذا حق ، بمعنى انه آخر ممثل ذى أهمية للمدرسة البدوية الخالصة .

الكُتّابُ فى العصر الاموي :

لا يسعنا فيما يتعلق بكُتّاب هذا العصر الا ان نبدى بضع ملاحظات عامة حسبُ ، ذلك لان ما انتجوه تلف برمته أو كاد(٥١) ؛ وفي هذا الفرع من الادب طغت نفس الروح الدنيوية غير الاسلامية التى ذُكرت خَصيصةً للشعراء الذين ازدهروا في ظل بني امية ، وللاسرة المالكة نفسها وقد شجع بلاط دمشق الدراسات التاريخية(*) ووسع خطاها ؛ ولقد أشرنا في موضع آخر الى « عَبيد بن شَريّة » اليماني الذى كان عمله تنميق الاساطير القديمة وعرضها بشكل مقروء للجمهور ؛ وثمة يماني آخر من أصل

---

(٥٠) الاغاني : ٤٩/٧ س ٨ وما بعده .

(٥١) لقد أخذت المعلومات المدونة فى أعلاه بصورة رئيسة من كتاب كولدتزيهر : « دراسات اسلامية » ، ج ٢ ص ٢٠٣ وما بعدها .

(*) نهاية الصفحة : «٢٤٦» من النص الانكليزى .

فارسي هو « وَهْب بن منبه » مسؤول عن الكثير من المعلومات الاسطورية المتعلقة (بالأوائل) ، وهو ما يجعله المؤرخون المسلمون عادة مقدمة لكتبهم التاريخية ، ويبدو انـه كان هنـاك طلب متلهف لقصص الحروب الاولى للاسلام (المغازي) ؛ ويروى ان الخليفة عبدالملك أمر باحراق كتاب من هذه الكتب وقد رآه بيد ولده ؛ وأمره بدراسة القرآن بدلا عنه ؛ وترينا هذه الحكاية احساساً بالتقى من جانب عبدالملك قلمـا نسب اليـه[٥٢] ، وترينا كذلك أن تواريخ ذات صفـة اسطوريـة وشعبيـة سبقت تلك التى استندت على الروايات الدينية من نحو كتاب « المغازي » لموسى بن عُقبة (ت ١٤١هـ/٧٥٨م) « والسيرة النبوية » لابن اسحق ، مع العلم بأنه لـم يُحتفظ بكتاب من الصنف السابق[٥٣] ولم يكن التأثير اللاهوتي القوي الذى اكد ذاته في القرن الثانى للهجرة ملائماً لتطور نثر عربي على اسس قومية ؛ على انه في الوقت ذاته شرع علمـاء الدين بجمـع « الاحاديث » وتدوينها ولدينا تراث وحيد من هذا النوع فى « كتاب الزهد » لاسد بن موسى (ت ١٣٢هـ/٧٤٩م) ؛ وأشهر محدثي العصر الاموي هو محمد بن مسلم بن شهاب الزُهري (١٢٥هـ/٧٤٢م) الذى تميز بقبوله منصبا قضائيا تحت حكم الطغاة وهو عمل يعد لطفاً لم ينحدر اليه اخوانه الاشـد عنـاداً وشعوراً بالواجب •

* * *

المسلمون من غير العرب :

لقد كانت الشهوة للفتح أكثر من الحماسـة التبشيريـة هى التى

---

(٥٢) قارن براون : تاريخ فارس الادبى ، ج ١ ص ٢٣٠ •

(٥٣) يعني المؤلف صنف التواريخ ذات الصفة الاسطورية والشعبية• [المترجم]

حملت العرب على غزو الشام وفارس والاستقرار(★) في أرض أجنبية حيث عاشوا جنوداً على حساب أهل البلد الاصليين الذين لابد أن اعتبروهم جنساً أحط منهم شأناً ، واذا كان الاخيرون قد فكرا في أن يكسبوا الاحترام باعتناقهم دين الفئة الفاتحة ، فانهم وجدوا أنفسهم مخطئين بشكل محزن ، اذ أُلحق المسلمون الجدد مواليَ (ومفردها : مولى) بقبيلة عربية : ولم يمكنهم أن يصبحوا مسلمين على أي أساس آخر ، وكان الموالي أبعد الناس عن الحصول على المساواة في الحقوق التى كانوا يطمحون اليها والتى كان يجب حسب مبادىء الاسلام أن يتمتعوا بها ، فقد عاملهم أسيادهم الاريستوقراطيون باحتقار وكان عليهم أن يخضعوا لكل نوع من أنواع الاستهانة الاجتماعية ، وبدلا من أن يُعفَوْا من الجزية التى يدفعها غير المسلمين بقوا عرضة لابتزاز موظفي الحكومة المتزايد ، ويجب أن نتذكر أن هؤلاء « الموالي » لم يكونوا أرقاء جهلة ، بل رجالا يعترف العرب أنفسهم بثقافتهم ـ رجالا كونوا العمود الفِقْري للطبقة العاملة المؤثرة ، وتقصوا بحماس تلك الدراسات التى كانت يومذاك تلقى احتراما وتقديرا ، من نحو الفقه وأحكام الشريعة . كان هنا موقف ملىء بالخطر وبوسع الامويين أن يدعوا ، ازاء الشيعة والخوارج ، بشىء من ابداء وجه الصواب والعقل ، أنهم يمثلون جانب القانون والنظام ، ان لم يكن جانب الاسلام ، ولكنهم تجاه الصرخة المريرة للموالي المضطهدين لم تكن لديهم حجة سوى السيف(★★) .

(★) نهاية الصفحة : «٢٤٧» من النص الانكليزي .

(★★) نهاية الجزء الاول من الكتاب [ص ٢٤٨ من النص الانكليزى] . ويليه الجزء الثاني (بغداد ، مطبعة أسعد ، ١٩٦٧) ويتضمن الأدب العباسي والمغولي الى فجر العصر الحديث .

فهرست الموضوعات

وضعنا أرقام صفحات الترجمة متقابلة مع أرقام صفحـات النص الاصلي عـلى نحـو ما فعلنـا فى الجزء الثاني الموسـوم ب « تاريخ الادب العباسى » الـذى هـو تكملة لهـذا الجزء لتسهيل المراجعه وذلك للتأكد من صحة الترجمة ، كما اننا وضعنا العناوين الثانوية التى وردت فى الاصل الانكليزي ولم نترجمها بين [عضادتين]

الصفحة	Page

الفصل الثاني (تاريخ العرب الجاهليين وأساطيرهم) :

Page	الصفحة	
81	١٣٩	تأبط شراً
82	١٤٠	مظاهر الشرف العربي القديم
82	١٤١	الشجاعة
83	١٤٢	الولاء
84	١٤٤	قصة السموأل بن عادياء
85	١٤٥	حاتم الطائي
87	١٤٦	ابنة حاتم أمام الرسول (ص)
87	١٤٨	مكانة المرأة
88	١٤٨	البطلات العربيات : فاطمة بنت خُرشُب
89	١٤٩	فُكيهة
90	١٥٠	أميمة
91	١٥١	وأد البنات
91	١٥٣	ابنة الفقير
92	١٥٥	معاملة الاعداء
93	١٥٧	الأخذ بالثأر
94	١٥٩	[حكاية ثأر قيس بن الخطيم]
97	١٦٣	نشيد الانتقام لتأبط شراً
100	١٧٠	الشرف الذى يضفيه نبل الاسلاف
101	١٧١	المعلقات
103	١٧٣	أصل المجموعة
103	١٧٤	صعوبة ترجمة المعلقات
104	١٧٤	امرؤ القيس
107	١٨١	طرفة
109	١٨٥	عمرو بن كلثوم
110	١٨٦	[كيف ثأر عمرو لاهانة لحقت بأمه]
113	١٩٢	الحارث بن حلِزة
114	١٩٥	عنترة
116	١٩٧	زهير

	الصفحة	Page
لبيد	٢٠٢	119
نابغة ذبيان	٢٠٦	121
الأعشى	٢١٠	123
علقمة	٢١٣	125
شعر الرثاء	٢١٤	126
الخنساء	٢١٥	126
آخر الشعراء الذين ولدوا فى العصر الجاهلي	٢١٦	127
مجموعات الشعر القديم	٢١٦	127
الدواوين : (١) المعلقات (٢) المفضليات	٢١٧	128
(٣) حماسة أبى تمام	٢١٨	129
(٤) حماسة البحتري	٢١٩	130
(٥) جمهرة أشعار العرب	٢٢٠	130
المصادر النثرية	٢٢٠	131
رواية الشعر الجاهلي	٢٢٠	131
الرواة	٢٢١	131
الانسانيون	٢٢٢	133
الرواية المنحولة للشعر القديم	٢٢٣	133
حماد الراوية	٢٢٣	133
خلف الاحمر	٢٢٤	134
أسباب اخرى للافتعال	٢٢٤	134
الدين	٢٢٥	135
سوق عكاظ	٢٢٥	135
الديانة اليهودية والمسيحية فى بلاد العرب	٢٢٩	137
العباديّون فى الحيرة	٢٣٠	138
عدي بن زيد	٢٣٠	138
لم يكن الشعر الجاهلي وثنيا فى عاطفته بالمرة	٢٣٢	139
الفصل الرابع (النبي محمد «ص» والقرآن)		
مصادر البحث : (١) القرآن الكريم	٢٣٥	141

الموضوع	الصفحة	Page
سورة الانفطار	٢٥٨	161
سورة البروج	٢٥٨	162
سورة القارعة	٢٥٩	163
سورة الكافرون	٢٥٩	163
تعاليم محمد (ص) فى مكة :	٢٥٩	163
١ ــ وحدانية الله	٢٦٠	164
سورة الاخلاص	٢٦١	164
٢ ــ محمد رسول الله	٢٦١	165
٣ ــ القيامة والعقاب	٢٦٣	166
٤ ــ الفردوس الاسلامي	٢٦٥	167
الصلاة	٢٦٧	168
سورة الفاتحة	٢٦٧	168
ليلة المعراج واسراء محمد (ص)	٢٦٧	169
محمد (ص) فى المدينة	٢٦٨	169
استعداد المدينة للترحيب بمحمد (ص) مشرعا ونبياً	٢٦٩	170
أحزاب المدينة :	٢٧٠	171
المهاجرون	٢٧٠	171
الأنصار	٢٧١	171
المنافقون	٢٧١	171
سورة البقرة	٢٧١	172
اليهود	٢٧٢	172
بداية الدولة الاسلامية	٢٧٣	173
معركة بدر (٢هـ/كانون الثاني ٦٢٤م)	٢٧٤	174
معركة أحد (٣هـ/٦٢٥م)	٢٧٥	175
استسلام مكة (٨هـ/ ٦٣٠م)	٢٧٥	175
وفاة محمد (ص) (١٠هـ/٦٣٢م)	٢٧٦	175
السور المدنية	٢٧٦	176
آية الكرسي	٢٧٧	176

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الصفحة	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية	نص الآية
٣٣(هـ٨)	٧	«الأعراف»	٧٣	« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تَعْثَوْا فى الارض مفسدين . »
٣٤	٧	«الاعراف»	٧٨	« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » .
٥٠	٣٤	«سبأ»	١٥ـ٢٠	«لقد كان لسبأ في مسكنهم آية» ... الى « ولقد صَدَّق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين » .
٥٤ـ٥٥(هـ٦٠)	١٨	«الكهف»	٨٣ـ٩٨	« ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا الخ .. »
٦٦	٨٥	«البروج»	٤ومابعدها	« قتل أصحاب الاخدود ، النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . »
١٥٢	١٦	«النحل»	٥٦ـ٥٨	«ويجعلون لله البنات ، سبحانه ولهم ما يشتهون، واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه في التراب، الا ساء ما يحكمون . »
١٥٢ـ١٥٣	١٧	«الاسراء»	٣٠	« ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم . ان قتلهم كان خطأ كبيرا . »

الصفحة	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية	نص الآية
١٥٣(هـ٦٠)	٨١	«التكوير»	٨ـ٩	« واذا المـوؤدة سـئلت بـأي ذنب قتلت ؟ »
٢٤٨	٩٦	«العلق»	١ـ٥	« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانســان من علق ، اقــرأ وربُك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » .
٢٤٩	٧٤	«المدثّر»	١ـ٥	« يا أيها المدثر ، قم فانذر ، وربك فكبّر ، وثيابك فطهر ، والرُجــز فاهجُر . »
٢٥٠	٩٣	«الضحى»	١ـ١١	« والضحى ، والليــل اذا ســجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، ولَلآخرة خير لك من الاولى ولسوف يعطيك ربــك فترضى ؛ ألم يجــدك يتيمــاً فآوى ، ووجــدك ضــالاً فهــدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ؟ فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدّث . »
٢٥٦(هـ٥٦)	٦٩	«الحاقة»	٤١	« ومــا هــو بقول شاعــر قليــلاً ما تؤمنون » .
٢٥٦	٢٦	«الشعراء»	٢٢٤ـ٢٢٦	« والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهــم فى كل واد يهيمون وأنهــم يقولون ما لا يفعلون ؟ »
٢٥٧(هـ٦٠)	٢	«البقرة»	١٢٠	«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل : ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جــاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير » .
٢٥٧(هـ٦٠)	٥	«المائدة»	٥١، ٦٤، ٨٢	(٥١) «يا ايها الذين آمنوا ، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهــم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه

الصفحة	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية	نص الآية
				منهم، ان الله لا يهدي القوم الظالمين» (٦٤) « وقالت اليهود : يد الله مغلولة غُلت أيديهم ولُعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ، ينفق كيف يشاء ، وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً، والقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ؛ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، ويسعَوْن فى الارض فساداً، والله لا يحب المفسدين» (٨٢) لتجدنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا، ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ، وانهم لا يستكبرون » ٠
٢٥٨	٨٢	«الانفطار»	١ـ١٩	«اذا السماء انفطرت ، واذا الكواكب انتثرت » ٠٠٠ الى « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والامر يومئذ لله»٠
٢٥٨	٨٥	«البروج»	١ـ٢٢	« والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود » ٠٠٠ الى « بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ » ٠
٢٥٩	١٠١	«القارعة»	١ـ١١	« القارعة ما القارعة ؟ » ٠٠٠ الى « وما أدراك ما هيه ؟ نار حامية » ٠
٢٥٩	١٠٩	«الكافرون»	١ـ٦	« قل يا أيها الكافرون » ٠٠٠ الى « لكم دينكم ولي دين » ٠
٢٦٠	١٧	«الاسراء»	٦٧	« واذا مسكم الضر في البحر ضل

رقم الصفحة	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية	نص الآية
				من تدعون الا اياه ، فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا »
٢٦٠(هـ٦٧)	١٠٦	«قريش»	٣	« فليعبدوا رب هذا البيت »
٢٦١(هـ٦٨)	٢٨	«القصص»	٥٧	« وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطفْ من أرضنا ، أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً يُجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . »
٢٦١	١١٢	«الاخلاص»	١ـ٤	« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » .
٢٦٢(هـ٧٢)	١٨	«الكهف»	٥	« كبرت كلمةً تخرج من أفواههم ، أن يقولون الا كذبا »
٢٢٦(هـ٧٣)	٥٤	«القمر»	١	« اقتربت الساعة وانشق القمر ».
٢٦٣	١٧	«الاسراء»	٨٨	« قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .
٢٦٤	٣٦	«يـس»	٧٩	« قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خَلْقٍ عليم » .
٢٦٤ـ٢٦٥(هـ٧٩)	١٨	«الكهف»	٤٧ـ٤٩	« ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة » ... الى « ولا يظلم ربك أحدا » .
٢٦٥	٢٠	«طه»	١٠٢ـ١١٢	من « يوم ينفخ في الصور » ... الى « فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » .
٢٦٥	٣٩	«الزُمر»	٦٧ـ٧٢	من « وما قدروا الله حق قدره »... الى « فبئس مثوى المتكبرين » .

الصفحة	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية	نص الآية
٢٦٥	٦٩	«الحاقة»	١٣ــ٣٧	من « فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة » ··· الى « لا يأكله الا الخاطئون » ·
٢٦٧	٨٧	«الاعلى»	١٤ــ١٥	« قد أفلح من تزكّى ، وذكر اسم ربه فصلّى » ·
٢٦٧	١	«الفاتحة»	١ــ٧	« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين » ··· الى « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ·
٢٧١ــ٢٧٢	٢	«البقرة	٨ــ١٠	« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين ؛ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون · في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون »
٢٧٤	٢٢	«الحج»	٣٩ــ٤٠	« اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله · »
٢٧٤	٢	«البقرة»	١٩١	« واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم »
٢٧٤	٢	«البقرة»	١٩٣	«وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » ·
٢٧٥	٣	«آلعمران»	١٣	« قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء ، ان في ذلك لعبرة لاولي الأبصار » ·

الصفحة	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية	نص الآية
٢٧٥	٨	«الانفال»	١٧	« فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم »٠
٢٧٧	٢	«البقرة»	٢٥٥	(آية الكرسي) : « الله لا إلـه الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ٠٠٠٠ الخ ٠٠٠ »
٢٧٩	٣	«آل‌عمران»	١٣٤	« الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن‌الناس والله يحب المحسنين » ٠
٢٨٠	٤٩	«الحُجُرات»	١٣	« ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ٠
٢٨٠(هـ٦)	٢٢	«الحج»	١١	« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » ٠
٢٨٥	٦٨	«القلم»	٥١ـ٥٢	« وان يكادُ الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمِعوا الذكر ويقولون انه لمجنون ؛ وما هو الا ذكر للعالمين»
٢٨٧ـ٢٨٨	٢٨	«القصص»	٢٦	«قالت احداهما : يا أبت استأجره٠ ان خير من استأجرت القوي الأمين»٠
٣١٨	٤	«النساء»	١٠٠	« ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله »
٣١٨(هـ٢٨)	٩	«التوبة»	١١١	« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » ٠

الصفحة	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية	نص الآية
٣٢٥	٢٨	«القصص»	٨٥	« ان الـذي فرض عليـك القـرآن لرادك الى معاد » .
٣٣٢ـ٣٣٣(هـ٦٣)	٩	«التوبة»	١٠٦	« وآخرون مُرجَون لامر الله ، امـا يعذبهم ، وامـا يتوب عليهـم والله عليم حكيم » .
٣٣٥	٧٤	«المدثّر»	٣٨	« كل نفس بما كسبت رهينة » .
٣٣٥	٤١	«فُصِّلتْ»	٤٦	« من عمِل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » .
٣٣٧(هـ٧٥)	٥٧	«الحديد»	٢٧	« ثم قفينـا على آثارهم برسلنـا ، وقفينا بعيسى بن مريم وآتينـاه الانجيل ، وجعلنـا في قلوب الذين اتبعوه رأفـة ورحمـة ورهبانيـة ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهـم وكثير منهم فاسقون » .
٣٣٧ـ٣٣٨	٤٥	«الجاثية»	٢١	«أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنـوا وعملـوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكُمون ! » .

فهرست البحور والقوافي

﴿ الهمزة ﴾

﴿ الألف المقصورة ﴾

﴿ ب ﴾

﴿ ت ﴾

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية ونوعها حسب حركاتها
١٠٦	البسوس	،،	أموات ـ بنياتي ـ أبياتي ـ شاتى [من المتواتر]
١٤٥	السموأل	الوافر	وفيتُ ـ بيتُ ـ استقيتُ [من المتواتر]
١١١	جحدر بن ضبيعة	الرجز	جُمَّتي ـ لمتي ـ شمَّتِ ـ أتمّتِ [من المتدارك]
١٣١	دريدبنزيدبننَهْد	الرجز	بيته ـ أبليتُه ـ كفيته ـ حويته ـ لويته [من المتدارك]

﴿ ح ﴾

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية ونوعها حسب حركاتها
٣٦٤	جرير	الوافر	راح [من المتواتر]
١٠٧ـ١٠٨	مُرّة(والدجساس)	،،	القراح ـ السلاح ـ الصباح ـ الجراح ـ الفلاح ـ الصفاح ـ المتاح ـ الرماح ـ ماح [من المتواتر]

﴿ د ﴾

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية ونوعها حسب حركاتها
٣٥٥ـ٣٥٦	جميل بثينة	الطويل	يعـودُ ـ زهيد ـ نجود ـ يزيد ـ جديدُ [من المتواتر]
١٤٣	دريد بن الصِّمَة	،،	أرشدِ [من المتدارك] .
١٤٧	حاتم	،،	الورد ـ وحدي ـ بعدي ـ العبـدِ [من المتواتر]
١٨٣	طرفة	،،	مخلدي ـ يدي ـ عوّدي ـ تزبد ـ المتورد ـ العمد [من المتدارك]
١٤٢	الأفوه الأودي	البسيط	سادوا ـ أوتادُ ـ كادوا [من المتواتر]
٢٩٣	للمترجم[عن الانكليزية]	الكامل	جديدْ [من المترادف]
٣٥٨	جرير	،،	بُردا [من المتواتر]
١٤١	عمروبنمعديكرب مرفّل	الكامل	شـدّا ـ تبدا ـ جدا ـ بدا [من المتواتر]
٣٢	منادٍ مجهول	الرجز	رِمْددا ـ أحدا ـ ولدا ـ همّدا ـ المهدّى [من المتدارك]



الصفحة	الشاعر	البحر	القافية ونوعها حسب حركاتها
٥٥	حسّان بن ثابت	الطويل	مسوّرُ ـ تدحر ـ تظهر ـ يفتر ـ يظهر ـ تُنشر [من المتدارك]
١٣٩	الشنفرى	،،	عامرِ ـ سايري ـ بالحراير [من المتدارك]
١٥٦	اوس بن حبناء	،،	أواصِرُهُ ـ قادره ـ عاقِرُهْ [من المتدارك]
١٨٢	طرفة	الوافر	تخورُ [من المتواتر]
٣٦	الفرزدق	،،	نُوارُ ـ النهارُ ـ يُعارُ ـ الضرارُ [من المتواتر] .
٣٠٥	ـــــ	الكامل	تسعر ـ منبر [من المتدارك]
٣٦	الاخطل	،،	الانصار [من المتواتر]
٥٦ـ٥٩	عَبيد بن شَرْيَة أو يزيد بن ربيعة ابن مفرغ	الرجز	معتبرُ ـ القدرُ ـ الحذر ـ الخبر ـ ـ الخطر ـ خَمرُ ـ فيحتقر ـ البشر ـ شعروا ـ الصغر ـ لافتخروا ـ حجروا ـ كدِرُ ـ لا أذرُ ـ السكَرُ ـ الذعر ـ الحُمُر ـ الضمرُ ـ به أثر ـ دررُ ـ الزّعرُ ـ الابر ـ الظفر ـ البشر ـ الشمر ـ السفر ـ الظفر ـ ولا أثر ـ الدغر ـ مصطبر ـ اعتبروا ـ الفكر ـ يشتمر ـ مقتدر ـ مفتقرُ [من المتراكب]
٨٤	عديْ بن زيد العبادي	الخفيف	تبصيرُ ـ السديرُ ـ يصير ـ القبور ـ الدبور [من المتواتر]
٨٩	الذهاب العجلي	،،	غريرُ ـ نذير ـ يجور [من المتواتر]
١٢٣	أبو الصلت بن ربيعة الثقفي	،،	الكفورُ ـ مقدور ـ منشور ـ معقور ـ محدور ـ صقور ـ مكسور ـ مور [من المتواتر]

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية ونوعها حسب حركاتها
		« ز »	
١٥٢	للمترجم[عن الانكليزية]	الرمل	عزيزا [من المتواتر]
		« س »	
٢١٦	الخنساء	الوافر	شمسِ [من المتواتر]
		« ض »	
١٥٤	حطّان بن المُعلّى	السريع	بعضُ ـ العرضُ ـ الأرضُ ـ الغمضُ [من المتواتر] .
		« ع »	
٢١٥	الخنساء	الطويل	يُسمع ـ تتبعُ ـ يصرع [من المتدارك]
٣٢٣	قَطريّ بن الفُجاءة	الوافر	تراعي ـ تطاعي ـ بمستطاع ـ اليراع [من المتواتر]
		« ف »	
٣٠١	ميسون(زوج معاوية)	الوافر	منيف ـ الشفوف ـ الرغيف ـ الدفوف ـ ألوف ـ عنيف [من المتواتر] .
		« ك »	
١٣٩ـ١٤٠	تأبط شرّاً	الطويل	المسالكِ ـ المهالك ـ المتدارك ـ فاتك ـ باتكِ ـ الضواحك ـ الشوائك [من المتدارك]
١٢١	عبدالمطلب	مرفل الكامل	حلالك ـ محالك ـ بدالك [من المتدارك]
٣٥٠	رابعة العدوية	المتقارب	لذاكا ـ سواكا ـ أراكا ـ ذاكا [من المتواتر]
		« ل »	
١٧٠	هُذيل العبديّ	الطويل	البقلُ [من المتواتر]
٢٥٤(٥٣هـ)	الحارث بن هشام	،،	الأصلُ ـ فعلُ ـ العقلُ [من المتواتر]

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية ونوعها حسب حركاتها
٣٠٦	شاعر أموي	،،	الغــرل ـ النعــل ـ الرجــل [من المتواتر]
١٣٧	الشنفرى	،،	متحول ـ يعقل ـ جيأل ـ يخذل ـ أبسل ـ أعجل ـ المتفضل ـ متعلل ـ عيطل ـ محمل ـ تعول [من المتدارك]
١٧٧ـ١٨١	امرؤالقيس	،،	تحلل ـ فأجملي ـ يفعل ـ تنسُلِ مقتَّـــل ـ معجـــل ـ مقتلي ـ المفصّل ـ المتفضّـــل ـ تنجلي ـ مرحَّـــل ـ عقنقـــل ـ المخلخــل ـ كالسجنجــل ـ المحلــل ـ مطفل ـ بمعطل ـ المتعثكل ـ يهْزُلِ [من المتدارك]
٣٢٢ـ٣٢٣	شاعر خارجيّ	،،	يترجّلا ـ ليقتلا ـ أعزلا ـ أولا ـ مُنصلا ـ أقبلا ـ أمثلا ـ مكبلا [من المتدارك]
٢٢٨	امرؤ القيس	،،	المالِ ـ أمثالي [منالمتواتر]
٢٢٨(هـ١٨)	،،	،،	خالى [من المتواتر]
٣٦٢	الفرزدق	،،	بالمغازلِ [من المتدارك]
١٦٥ـ١٦٩	تأبّط شرّاً	المديد	يُطلُ ـ مستقل ـ تحل ـ صلُ ـ الأجــلُ ـ يذلّ ـ ظلّ ـ مدل ـ يخل ـ أَبَلُ ـ كلُ ـ الافلّ ـ حلّوا ـ يُسلُ ـ الاقل ـ فاشمعلوا ـ يُفلُ ـ الاظلُ ـ سَلُ ـ يملّوا ـ علُ ـ تجـــل ـ لخـلُ ـ يُســتهـل ـ تستقل [من المتواتر]
٢١٢	الأعشى	البسيط	شولُ ـ ينتعلُ ـ خضلُ ـ نهلوا ـ معتمل ـ الفضــل ـ العجــل [من المتراكب]

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية ونوعها حسب حركاتها
١٩٥	عنترة	الكامل	بالمُنْصلِ [من المتدارك]
٢٣١ــ٢٣٢	عديّ بن زيد	الرمل	زوال ــ الجبال ــ الزلال ــ الجلال ــ عجال ــ بالرجال ــ حالِ [من المتواتر]
٢٢٨	المثلّم بن عمرو التنوخيّ	المنسرح	كأنه جَبَلُ [من المتراكب]
٢٢٨(هـ١٧)	،،	،،	العَسَلُ ــ الابلُ [من المتراكب]
٣١٤	الوليد بن يزيد	،،	الغزلا ــ عذلا ــ ثملا ــ عقلا ــ وصلا [من المتراكب]
١٠٩	الحارث بن عُباد	الخفيف	صالِ ــ غالِ [من المتواتر]
١٤٢	ـــــ	المتقارب	فَخَلْ [من المتدارك]
			﴿ م ﴾
١٩٨ــ٢٠١	زهير بن ابى سُلمى	الطويل	بالدم ــ جرهم ــ مبرهم ــ منشم ــ يُعلم ــ فينتقم ــ المرجَّم ــ فتضرم ــ فتتئم ــ يسأم ــ فيهرم ــ بمنسم ــ يذمم ــ يشتم ــ يظلم ــ يسلم ــ يهذم ــ يتجمجم ــ يكرّم ــ تعلم [من المتدارك]
١٥٣	اسحق بن خلف	البسيط	الظلم ــ الرحم ــ وضم ــ الحرم ــ الكلم [من المتراكب]
٢٦٤	شداد بن الاسود الليثي	الوافر	وهامِ ــ عظامي [من المتواتر]
١٩٦ــ١٩٧	عنترة	الكامل	تعلمي ــ المَغْنَم ــ مكلم ــ مستسلم ــ مقوم ــ الضرم ــ بمحرم ــ المعصم [من المتدارك]
٢٠٣ــ٢٠٦	لبيد	،،	فرجامها ــ سلامها ــ حرامها ــ فرهامها ــ أرزامها ــ نعامها ــ بهامها ــ أقلامها ــ وشامها ــ كلامها ــ جذّامها ــ حمامها ــ ندامها ــ مدامها ــ ختامها ــ ابهامها [من المتدارك]

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية ونوعها حسب حركاتها
٥٣	الاعشى	المتقارب	العَرِمْ ـ لم يرِمْ ـ قُسِمْ ـ فُطِمْ [من المتدارك]

« ن »

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية ونوعها حسب حركاتها
١٥٦	قُريط بن أُنيف	البسيط	هانا ـ احسانا [من المتواتر]
٢٩٣	للمترجم[عن الانكليزية]	،،	بايمانِ [من المتواتر]
٢٢٧	سلمى بن ربيعة	مُخَلَّع البسيط	الأمـون ـ البطـين ـ المصـون ـ الحنـون ـ ذو فنـون ـ للمنـون [من المتواتر]
٦٣(هـ٨٥)	ذو رُعين	الوافر	رُعَيْنِ [من المتواتر]
٦٤ـ٦٥	،،	،،	عين ـ رُعين [من المتواتر]
٧٦	مالك الأزدي	،،	رماني [من المتواتر]
١١٤	قيس بن زهير	،،	شفاني ـ بناني [من المتواتر]
١٨٧ـ١٩٢	عمرو بن كُلثوم	،،	الأندرينا ـ سخينا ـ يلينا ـ مهينا ـ اليمينا ـ تصبحينـا ـ قاصرينا ـ مقـدرينـا ـ حدينـا ـ مصلتينا ـ الحنينا ـ جنينا ـ اليقينا ـ روينا ـ المحجرينـا ـ صفونـا ـ طحينا ـ يبينـا ـ قطينـا ـ الارذلينـا ـ تزدرينا ـ تلينا ـ زبونا ـ الجبينا ـ بنينا ـ عصينا ـ أتينا ـ شينا ـ هوينا ـ ابتلينا ـ المنونا ـ طينا ـ قادرينا ـ ساجدينا ـ تشتمونا ـ سفينا [من المتواتر] .
٦١ـ٦٢	أسعد كامل	الكامل	زمان ـ الانسان ـ الرقان ـ غيمان [من المتواتر]

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية ونوعها حسب حركاتها
١٠٩-١١٠	الفِنْد الزِّماني	الهزج	اخوانُ - كانوا - عُريانُ - دانوا - غضبان - أقران - ملآن - إذعان - احسان [من المتواتر]
٣٥٤-٣٥٥	عمر بن أبي ربيعة	الخفيف	بالأظعانِ - عاني - شجاني - بلساني - تعذلاني [من المتواتر]

﴿ هـ ﴾

١٨٢	طرفة	الهزج	شنْفاهُ - فاهُ [من المتواتر]

الكشاف الأبجدي

﴿ ب ﴾

﴿ ح ﴾

لعمري لنعم الحيّ جر عليهمُ
بما لا يواتيهم حُصين بن ضمضم

﴿ ر ﴾

(١) ورد الاسم بصورة «رحاب» سهواً .

﴿ ز ﴾

الزهد : ٣٤٣ ؛ ٣٤٤
الزُهَرَة : ٥٥ (هـ ٦٠ « مكرر ») :
لقد سقط هذا الهامش مع الاسف من الطبع ، لذلك اضطررنا الى درجه هنا :

يصف الهمداني ذا القرنين « بمسّاح الأرض » (جزيرة العرب ، ص ٤٦ س١٠) ، ويبدو لي ، اذا ما سُمح لي ان أتخطى حدود التاريخ الأدبي لابحث في اسطوريّة هذه الابيات ، انه أكثر من مجرد احتمال كون ذي القرنين تجسيداً للاله السبئي « عَثْتَر » الذي يمثل هيسپر ـ فوسفر العذب ذا الاسم المزدوج (راجع د٠ هـ٠ مولر في « محاضر جلسات أكاديمية ڤينا » المجلد ٩٧ ص٩٧٣ وما بعدها) ؛ وفي الكتابات المينائية المنقوشة : « عَثتر الشروق وعثتر الغُروب » (نفس المكان ، ص ١٠٣٣) والى ذلك فان اسمي « عثتر » و « المقه » في الكتابات الاقدم عهداً يُذكران سوية على الدوام ؛ وقد شُخّص اسم « المقه » الذي هو على رأي الهمداني اسم « ڤينوس » (الزُهَرة) كاسم « بلقيس » من لدن الآثاريين العرب ٠
راجع گولدتزيهر « بحوث في فقه اللغة العربية » القسم الاول : ص ١١٤ من أجل لفظة (قرن) بمعنى الشعاع أو « الخيط الضوئي » ٠

أعتقد أن ثمة شكاً ضئيلا في امكان اضافة « ذي القرنين » و « بلقيس » الى أمثلة (نفسه ؛ ص١١١ وما يليها) التحوير الغريب الذي استطاع بموجبه العديد من الالهة الوثنية البقاء ضمن دائرة الاسلام تحت أقنعة مختلفة » [المؤلف]
[هذا مثل من أمثلة تخريجات المستشرقين الغريبة الناتجة عن محاولاتهم لايجاد علاقات بين أشياء متناقضة ومتباعدة ، سامحهم الله !]
[المترجم]
زُهْرَة بن كِلاب بن مُرّة : ١١٧ (منتصفها)
الزهري (محمد بن مسلم بن شهاب) :
٢٥٠ س٤ (من الاسفل) ؛
٣٦٧ س٥ (من الاسفل)
زهير بن أبي سُلمى (الشاعر) :
١١٤ ؛ **١٩٧ـ٢٠٢**
زياد بن أبيه : **٣٠٠**
زياد (زوج فاطمة بنت خُرشُب) :
١٤٨
من المؤسف أن الفقرة التي تتضمن هذا الاسم قد سقطت من المتن وهي كما يلي :

وبينا هو يقود الجمل الذي تركبه آنذاك صاحت : « أيها الرجل لقد عزب عنك لبك ! فو الله اذا ما أخذتني أسيرة واذا ما تركنا هذا التل الذي أمامنا الآن خلفنا فلن يكون سلام بينكم وبين أبناء زياد » (وزياد زوجها) « لان الناس سيتقولون وفي مجرد الشك في الشر كفاية » فقال : « سآخذك لترعي إبلي » وعندما أيقنت فاطمة انها أسيرته رمت بنفسها من الجمل على أم رأسها وماتت ؛ وهكذا خشيت أن تلحق العار بأبنائها
[الاغاني : ١٦/٢٢ س ١٠ـ١٦]
زياد بن معاوية : (انظر النابغة الذبياني)

(١) قرأها نكلسن « سرابي »

﴿ غ ﴾

﴿ ف ﴾

« ك »

﴿ ل ﴾

﴿ م ﴾

﴿ ن ﴾

﴿ هـ ﴾

ملاحظة : كل « المفردات » المسبوقة بنجم (★) زيادة على الكشاف الابجدي فى الاصل الانكليزي لنكلسن ·

[المترجم]

من آثار المترجم

١ ــ « نفوس مريضة » [مجموعة قصصية] مطبعة التفيض ، بغداد ، ١٩٤١

٢ ــ « بنت السراج أو رحلة الى أسبانيا » ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٥٥

٣ ــ « معروف الرصافي » (بالإنكليزية) ــ مستل من مجلة معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن ١٩٤٩

٤ ــ «فن الترجمة في ضوء الدراسات المقارنة » (طبعتان) بغداد ، ١٩٥٢ و ١٩٥٦

٥ ــ « الترجمة التحليلية » ؛ مطبعة الاسواق التجارية ، بغداد ١٩٥٧ (٣١٤ صفحة)

٦ ــ « نادر شاه في المخطوطات العربية » ــ مستل من مجلة «اسلامك كلچر» بحيدرآباد ــ الدكن

٧ ــ « شواعر العراق المعاصرات » ــ بحث في مجلة الهلال ١٩٥٠

٨ ــ « أحببت أميرة عباسية » (قصة بالانكليزية) ــ مستل من مجلة الاسلامك ريڤيو ١٩٥٠

٩ ــ نهج البلاغة : دراسة وتحليل (بالانكليزية) ــ مستل من مجلة الاسلامك ريڤيو ١٩٤٩

١٠ـ « النافذة المفتوحة » (مجموعة قصصية) ، مطبعة اللواء ، بغداد ، ١٩٥٨ (١٢٠ صفحة)

١١ـ « دراسات في الأدب المقارن والمذاهب الأدبية » ، مطبعة الرابطة ، بغداد ١٩٥٨ (٢٤٦ صفحة)

١٢ـ « تاريخ الأدب العباسي » للبروفيسور نكلسن ، مطبعة أسعد ، ١٩٦٧ (عدد الصفحات : ٤٠٣)

١٣ـ «ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح ابن جنّي» جـ١ (مطبعة الجمهورية ، بغداد ، ١٩٧٠) (٤١٦ صفحة) «تحقيق»

١٤ـ « تاريخ بغداد أو حديقة الزوراء في سيرة الوزراء » لعبدالرحمن السويدي ، جـ١ (بغداد ، مطبعة الزعيم ١٩٦٣) « تحقيق »

١٥ـ « النحو المنطقي » ــ مستل من مجلة الاستاذ لكلية التربية (المجلد الثالث عشر) مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٦٥

١٦ـ « الشواهد اللغوية والادبية » مستل من مجلة الاستاذ لكلية التربية (المجلد السادس عشر) مطبعة المعارف ، ١٩٦٦

١٧ـ « فن التقطيع الشعري والقافية » (ثلاث طبعات) : الاولى ببغداد والثانية والثالثة ببيروت ، ١٩٦٦ (٤٨٨ صفحة)

١٨ـ الاسلام باختيارنا Islam Our Choice (الطبعة الثانية) «بالانكليزية»

١٩ـ « ابن المقفع » ؛ « عربي يصبح امبراطور روما » ؛ و « عنبسة فاتح فرانسة » الخ ... بحوث في مجلة العربي الكويتية

﴿ تحت الطبع ﴾

٢٠ـ « المظاهر العربية في شكسبير » "Arabic Aspects of Shakespeare"
(باللغتين العربية والانكليزية)

١٣٣/١٠٠٠
١٩٧٠/٨/٥

Financially Aided By The University of Baghdad

A LITERARY HISTORY OF THE ARABS

By.

R. NICHOLSON

PART 1.

Tronslated By.

Prof. **S. A. KHULUSI,** *PH. D. (Lond.)*

COLLEGE OF ARTS. UNIVERSITY OF BAGHDAD.

AL-MA'ARIF PRESS (BACHDAD)

1390 A.H./1970 A.D.